الموسوعة الشاملة

في

تاريخ الحروب الصليبية

تأليف وتحقيق ودراسة

الأستاذ الدكتور سهيل زكار

الجزء الثامن عشر

دار الفكر

للطباعة والنشر والتوزيع

الموسوعة الشامية في تاريخ الحروب الصليبية

المصادر العربية

مؤرخو القرن السابع (٥)

تأليف وتحقيق وترجمة

الأستاذ الدكتور سهيل زكّار

دمشق

١٩٩٥م – ١٤١٦هـ

الجزء الثامن عشر

المصادر العربية

مؤرخو القرن السابع

الروضتين في أخبار الدولتين النورية والصلاحية لأبي شامة

الجزء الثاني

فصل

في وفاة أسد الدين شيركوه وولاية ابن أخيه صلاح الدين مكانه

توفي أسد الدين فجأة يوم السبت الثاني والعشرين من جمادى الآخرة من هذه السنة، فكانت وزارته شهرين وخمسة أيام.

قال ابن شدّاد : كان أسد الدين كثير الأكل، شديد المواظبة على تناول اللحوم الغليظة، تتواتر عليه التخم والخوانيق ، وينجو منها بعد معاناة شدة عظيمة، فأخذه مرض شديد واعتراه خانوق عظيم فقتله رحمه الله، وفوّض الأمر بعده إلى صلاح الدين، واستقرت القواعد، واستتبت الأحوال على أحسن نظام، وبذل الأموال، وملك الرجال، وهانت عنده الدنيا، فملكها، وشكر نعمة الله عليه، فتاب عن الخمر، وأعرض عن أسباب اللهو، وتقمص بلباس الجدّ والاجتهاد، وما عاد عنه ولا ازداد إلا جدّا، إلى أن توفاه الله تعالى إلى رحمته، ولقد سمعت منه رحمه الله يقول: لما يسر الله لي الديار المصرية علمت أنه أراد فتح الساحل لأنه أوقع ذلك في نفسي، وحين استتب له الأمر : مازال يشن الغارات على الفرنج إلى الكرك والشوبك وبلادهما. وغشي الناس من سحائب الأفضال والنعم ما لم يؤرخ عن غير تلك الأيام، هذا كله وهو وزير متابع للقوم، لكنه مقوّ مذهب السنة، غارس في البلاد أهل العلم والفقه والتصوّف والدين والناس يهرعون إليه من كل صوب ويغدون إليه من كل جانب، وهو رحمه الله لا يخيب قاصداً ولايعدم وافداً، ولما عرف نور الدين استقرار أمر صلاح الدين بمصر أخذ حمص من نواب أسد الدين وذلك في رجب من هذه السنة.

وقال ابن الأثير: أما كيفية ولاية صلاح الدين فإن جماعة من الأمراء النورية الذين كانوا بمصر طلبوا التقدّم على العساكر، وولاية الوزارة. منهم: الأمير عين الدولة الياروقي، وقطب الدين خسرو بن تليل، وهو ابن أخي أبي الهيجاء الهذباني الذي كان صاحب إربل، ومنهم سيف الدين علي بن أحمد الهكاري، وجدّه كان صاحب قلاع الهكارية، ومنهم شهاب الدين محمود الحارمي، وهو خال صلاح الدين، وكل من هؤلاء قد خطبها، وقد جمع ليغالب عليها، فأرسل الخليفة العاضد إلى صلاح الدين، فأمره الحضور في قصره ليخلع عليه خلع الوزارة ويوليه الأمر بعد عمه، وكان الذي حمل العاضد على ذلك ضعف صلاح الدين، فإنه ظن أنه إذا ولى صلاح الدين وليس له عسكر ولا رجال كان في ولايته بحكمه، ولا يجسر على المخالفة ، وأنه يضع على العسكر الشامي من يستميلهم إليه، فإذا صار معه البعض أخرج الباقين، وتعود البلاد إليه، وعنده من العساكر الشامية من يحميها من الفرنج، ونور الدين، فامتنع صلاح الدين وضعفت نفسه عن هذا المقام فألزم به، وأخذ كارها، إن الله ليعجب من قوم يقادون إلى الجنة بسلاسل، فلما حضر في القصر خلع عليه خلعة الوزارة الجبة والعمامة وغيرهما، ولقب بالملك الناصر، وعاد إلى دار أسد الدين، فأقام بها ، ولم يلتفت إليه أحد من أولئك الأمراء الذين يريدون الأمر لأنفسهم ولا خدموه، وكان الفقيه ضياء الدين عيسى الهكاري معه، فسعى عند سيف الدين علي بن أحمد حتى أماله إليه، وقال له: إن هذا الأمر لايصل إليك مع وجود عين الدولة والحارمي وابن تليل، فمال إلى صلاح الدين، ثم قصد شهاب الدين الحارمي وقال له: إن هذا صلاح الدين هو ابن أختك، وملكه لك، وقد استقام الأمر له فلا تكن أول من يسعى في إخراجه عنه، فلايصل إليك ولم يزل به حتى أحضره أيضاً عنده وحلفه له، ثم عدل إلى تطب الدين، وقال له: إن صلاح الدين قد أطاعه الناس ولم يبق غيرك وغير الياروقي، وعلى كل حال يجمع بينك وبين صلاح الدين أن أصله من

الأكراد فـلا يخرج الأمر عنـه إلى الأتراك، ووعد وزاد في اقطـاعه، فـأطاع صلاح الـدين أيضاً، وعدل إلى عين الـدولة الياروقي وكـان أكبر الجماعة وأكثرهـم جمعا، فلم تنفعـه رقاه، ولا نفذ فيـه سحره، وقال: أنـا لا أخدم يوسف أبداً، وعاد إلى نور الدين ومعه غيره، فأنكر عليهم فراقه وقد فات الأمر (ليقضى الله أمـراً كان مفعولاً)(١٠٧) وثبتت قـدم صلاح الـدين، ورسخ ملكـه، وهو نـائب عن الملـك العادل نـور الديـن، والخطبة لنـور الدين في البلاد كلها، ولا يتصرّفون إلاّ عن أمـره، وكان نور الدين يكاتب صلاح الـدين بالأمير الأسفهسـلار، ويكتب علامتـه في الكتب تعظيما أن يكتب اسمـه ولا يفرده في كتـاب بل يكتـب الأمير الأسفهسلار صـلاح الدين، وكافـة الأمراء بالديار المصرية يفعلـون كذا وكذا، واستمال صلاح الديـن قلوب النـاس، وبذل لهم الأمـوال مما كـان أسد الـدين قـد جمعه وطلـب من العـاضـد شيئـاً يخرجه فلـم يمكنـه منعـه، فمال الناس إليـه وأحبوه، وقـويت نفسـه على القيام بهذا الأمر والثبـات فيه، وضعـف أمر العاضد، وكان كـالباحث عن حتفه بظلفه، وأرسل صـلاح الدين يطلب من نـور الدين أن يرسـل إليه أخوتـه، فلم يجبه إلى ذلك وقـال:أخاف أن يخالف أحـد منهم عليـك فتفسد البلاد، ثـم إن الفرنـج اجتمعوا ليسيروا إلى مصر، فسير نـور الديـن العساكـر وفيهم أخـوة صلاح الـدين، منهـم شمس الدولـة تورانشاه بن أيـوب وهو أكبر من صلاح الـدين، فلما أراد أن يسير قال لـه : إن كنت تسير إلى مصر وتنظـر إلى أخيك أنـه يوسـف الذي كـان يقوم في خدمتـك، وأنت قاعد، فـلا تسر فإنك تفسـد البلاد وأحضرك حينئذ وأعاقبـك بما تستحقه، وإن كنت تنظر إليه أنـه صاحب مصر، وقائم فيهـا مقامي، وتخدمـه بنفسك، كما تخدمني فسر إليـه واشدد أزره، وساعده على مـا هو بصدده، قال: أفعـل معه من الخدمة والطـاعة ما يصل إليك إن شاء الله تعالى، فكان كما قال.

وقال العماد: لما فرغ بعد ثلاثة أيام من التعزية بأسد الدين اختلفت آراؤهم، واختلطت أهواؤهم، وكاد الشمل لاينتظم ، والخلل لايلتئم فاجتمع الأمراء النورية على كلمة واحدة وأيد متساعدة، وعقدوا لصلاح الدين الرأي والراية، وأخلصوا له الولاء والولاية، وقالوا:هذا قائم مقام عمه ونحن بحكمه، وألزموا صاحب القصر بتوليته، ونادت السعادة بتلبيته، وشرع في ترتيب الملك وتربيته، وفض ختوم الخزائن وأنض رسوم المزائن، وسلط الجود على الموجود، وبسط الوفور للوفود، وفرق ما جمعه أسد الدين في حياته وأنارت على منار العلى أناة آياته، ورأى أولياءه تحت الويته وراياته، وأحبوه وما زالت محبته غالبة على مهابته، وهو يبالغ في تقريبهم كأنهم ذوو قرابته، وما زاده الملك ترفعا، وما أفاده إلا تأصلا في السماح وتفرعاً، وضم من أمر المملكة ما كان منشوراً، وكتب له العاضد وصاحب القصر منشوراً، وهو بالمثال الكريم الفاضلي الذي هو السحر الحلال، والعذب الزلال، ثم أورده العماد، وهو شبيه بمنشور أسد الدين عمه. وجرى القلم فيه بما خط له القلم في الأزل من وصف جهاده وسلمه ففي ذلك المنشور:« والجهاد أنت رضيع درِّه وناشئة حجره، وظهور الخيل مواطنك، وظلال الخيام مساكنك ، وفي ظلمات قساطله تجلى محاسنك ، وفي أعقاب نوازله تتلى مناقبك، فشمر له عن ساق من القنا، وخض فيه بحراً من الظبا، وأحلل في عقد كلمة الله وثيقات الحبا، وأسل الوهاد بدم العدى، وأرفع برؤوسهم الربا، حتى يأتي الله بالفتح الذي يرجو أمير المؤمنين أن يكون مذخوراً لأيامك، وشهوداً لك يوم مقامك»، وفي طرته بالخط العاضدي، ولم يذكره العماد في كتابه:« هذا عهد أمير المؤمنين إليك، وحجته عند الله سبحانه عليك ، فأوف بعهدك ويمينك، وخذ كتاب أمير المؤمنين بيمينك، و لمن مضى بجدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم أحسن أسوه، ولمن تبقى من تبعته بنا أعظم سلوة (تلك الدار الآخرة نجعلها للذين لايريدون علوّا في

الأرض ولا فسادا والعاقبة للمتقين)» (١٠٨) يعني بمن مضى أسد الدين وبمن بقي صلاح الدين

ثم قال العماد: وهذا آخر منشور طويت به تلك الدولة وختمت، وتبدّدت عقودها، وما انتظمت، ووصلت كتب صلاح الدين إلينا إلى الشام،بما تسنى له من المرام، ولمن يقصده بالاستدعاء والاستبطاء، ولمن تأخر عنه بالخلع والعطاء، وترددت الكتب الصلاحية بذكر الأشواق وشكوى الفراق، وشرح الاستيحاش، وبرح القلوب العطاش، فإن أصحابنا و إن ملكوا ونالوا مقاصدهم وأدركوا حصلوا بين أمة لايعرفونها، بل ينكرونها ولايألفونها، ورأوا وجوها هناك بهم عابسة، وأعينا للمكائد متيقظة، وعن الودّ ناعسة، فإن أجناد مصر كانوا في الدين مخالفين، وعلى عقيدتهم معاقدين مخالفين.

وكتب صلاح الدين إلى بعض أصدقائه كتاباً أوّله :

أيها الغائبون عني وإن كنـ ـتم لقلبي بذكركم جيرانا
إنني مذ فقدتكم لأراكم بعيون الضمير عندي عيانا

فسألني المكتوب إليه أن أكتب جوابه فقلت:

أيها الظاعنون عني وقلبي معهم لايفارق الأظعانا
ملكوا مصر مثل قلبي وفي هـ ـذا وهاتيك أصبحوا سكانا
فاعدلوا فيهما فأنكم اليو م ملكتم عليهما سلطانا
لاتروعوا بالهجر قلب محب أورثته روعاته الخفقانا

حبــذا معهــد قضينـا بــه العيــــ
ــش فكنـا بــربعــه جيرانـا
إذ وجــدنـا مــن الحوادث أمنـا
وأخــذنـا مــن الخطـوب أمـانـا
ورتعنـا مــن المنــى في ريـاض
وسكنـا مــن المغـاني جنـانـا

وبعد: فإن وفود الهناء وأمداد الدعـاء متواصلة على الولاء، صادرة عن محض الـولاء إلى عـالي جنـابـه المأنوس، ومنيـع كنفـه المحـروس، فليهنـه الظفـران بالملـك وبالعـدوّ، وفرع هضبـات المجد والعلـو وكيف لايكـون النصر مسـاوقاً لـدين هـو صلاحـه، والتأييـد مرافقـاً لعزم هـو نجاحـه وفلاحه.

فـالشـام يغبـط مصراً مـذ حللـت بها
كما الفـرات عليكـم يحسـد النيـلا
نلتـم مـن الملـك عفـواً مـا الملـوك بـه
عنـوا قـديما ورامـوه فما نيـلا

قـال العماد: ورثيت أسـد الـديـن بقصيدة خـدمـت بها نـور الديـن، وعزيت بها أخاه نجم الدين منها:

تضعضـع في هـذا المصـاب المبـاغـت
مـن الـديـن لـو لا نـوره كـل ثـابـت
فـأيـام نـور الـديـن دامـت منيرة
لنـا خلفـا مـن كـل مـود وفـائت
فما بـالنـا نبـدي التصـامـم غفلـة
وداعـي المنـايـا نـاطـق غير صـامـت
نـؤمـل في دار الفنـاء بقـاءنـا
ونـرجـو مـن الـدنيـا صـداقـة مـاقـت

مـا النـاس إلا كـالغصـون يـد الـردى
تقـرّب منهـا كـل عـود لنـاحـت
لقـد أبلغـت رسـل المنـايـا واسمعـت
ولكنهـا لم تحظ منـا بنـاصـت

ومنها
فلهفـي على تلـك الشمائل إنها
لقـد كرمـت في الحسـن عـن نعـت نـاعـت

وله مـن أخرى عزى بها أخـاه نجم الدين أيـوب، وولده ناصر الـدين محمداً يقول:

مـا بعـد يـومـك للمعنـى المدنـف
غير العـويـل وحسرة المتـأسـف
مـا أجـرأ الحدثـان كيـف سطـا على الـ
ـأسد المخـوف سطـا ولم يتخـوف
مـن ذا رأى الأسـد الهصـور فـريسـة
أم أبصر الصبـح المنير وقـد خفـي
مـن ثـابـت دون الكماة سـواه إن
زلـت بهم أقـدامهـم في الموقـف
مـاكـان أسنـى البـدر لـو لم يستتر
مـاكـان أبهى الشمـس لـو لم تكسـف
أيـام عمـرك لم تـزل مقسـومـة
لله بين تعبـد وتعـرف
متهجـدالعبـادة أو تـاليـا
مـن آيـة أو نـاظـراً في مصحـف
فجـع النـدى والبـأس منـك بحـاتـم
وبحيـدر والحلـم منـك بـأحنـف
بـالملـك فـزت وحـزتـه عـن قـدرة
ومضيـت عنـه بسيرة المتعفـف

ووصفت يا أسد الدين محمد
مدحاً بها ملك به لم يوصف
وقفوت آثار الشريعة كلها
وقد اهتدى من للشريعة يقتفي
أأنفت من دنياك حين عرفتها
فلويت وجه العارف المتنكف

ومنها :
يا ناصر الدين استعذ بتصبر
مدن إلى مرضاة رب مزلف
وتعز نجم الدين عنه مهنئاً
أبد الزمان بملك مصر ويوسف
لا نستطيع سوى الدعاء فكلنا
إلا بها في الوسع غير مكلف

ولعمارة اليمني في صلاح الدين مدائح منها قوله:
لك الحسب الباقي على عقب الدهر
بل الشرف الراقي إلى قمة النسر
كذا فليكن سعي الملوك إذا سعت
بها الهمم العليا إلى شرف الذكر
نهضتمّ بأعباء الوزارة نهضة
أقلتم بها الأقدام من زلة العثر
كشفتم عن الإقليم غمّه كما
كشفتم بأنوار الغنى ظلمه الفقر
حميتم من الأفرنج سرب خلافة
جريتم لها مجرى الأمان من الذعر
ولما استغاث ابن النبي بنصركم
ودائرة الأنصار أضيق من شبر

جلبتم إليه النصر أوساً وخزرجا
وما اشتقت الأنصار إلا من النصر
كتائب في جيرون منها أواخر
وأولها بالنيل من شاطىء مصر
طلعتم فأطلعتم كواكب نصرة
أضاءت وكان الدين ليلاً بلا فجر
وأبت إليكم يا ابن أيوب دولة
تراسلكم في كل يوم مع السفر
حمى الله فيكم عزمة أسدية
فككتم بها الاسلام من ربقه الأسر
أخذتم على الأفرنج كل ثنية
وقلتم لأيدى الخيل: مرّي على مرّي
لئن نصبوا في البر جسراً فإنكم
عبرتم ببحر من حديد على الجسر
طريق تقارعتم عليها مع العدى
ففزتم بها والصخر تقرع بالصخر
وأزعجه من مصر خوف يلزه
كما لز مهزوم من الليل بالفجر
وكم وقعة عذراء لما افتضضتها
بسيفك لم تترك لغيرك من عذر
وأيديكم بالبأس كاسرة العدى
ولكنها بالجود جابرة الكسر
أبوك الذي أضحى ذخيرة مجدكم
وأنت له خير النفائس والذخر
ومن كنت معروفاً له فاستفزه
بمثلك تيه فهو في أوسع العذر
فكيف أب أصبحت نار زناده
وإلا كنور البدر من سنة البدر

تـــوقـــره وســـط النـــدى كـــرامـــة
وتحمـــل عنـــه مـــا يـــؤود مـــن الـــوقـــر
وتخلفـــه حـــربـــا وسلما خـــلافـــة
تـــؤلـــف أضـــدادا مـــن الماء والجمـــر
وكـــم قمـــت في بـــأس وجـــود ورتبـــة
بماسره في الخطـــب والـــدســـت والثغـــر
ولـــو أنطـــق الله الجمادات لم تقـــم
لنعمتكـــم بـــا لمستحـــق مـــن الشكـــر
يـــد لا يقـــوم المسلمـــون بشكـــرهـــا
لكـــم آل أيـــوب إلى آخـــر الـــدهـــر
بكـــم أمـــن الـــرحمن أعظـــم يثـــرب
وأمـــن أركـــان الثنيـــة والحجـــر
ولـــو رجعت مصر إلى الكفر لانطوى
بساط الهدى مـــن ســـاحـــة البر والبحـــر
ولكـــن شـــددتـــم أزره بـــوزارة
غـــدا الفظهـــا يشتـــق مـــن شـــدّة الأزر
فهنيتـــم فتحـــاً تقـــدّم جلـــه
وبشر أن الكـــل يتلـــو على الإثـــر
ومـــا بقيـــت في الشرك إلاّ بقيـــة
تتمتهـــا في ذمـــة البيـــض والسمـــر
وعنـــد تمام الملـــك أتـــى مهنئـــاً
وملتمساً أجر الكهانة والزجر
ولـــو لا اعتقـــادي أن مـــدحـــك قـــربـــة
أرجـــي بها نيـــل المثـــوبـــة والأجـــر
لما قلت شعرا بعد اعفاء خاطري
ولي سنـــوات منـــذ تبـــت عـــن الشعـــر
فـــاوص بي الأيـــام خيراً فـــإنها
مصرفـــة بـــالنهـــى منـــك وبـــالأمـــر

وجـــائزتي تسهيـــل أذني عليكـــم
ومـلقــاكـــم لي بـــالطـــلاقـــة والبشر

وقال أيضا من قصيدة :

يـــاشبيـــه الصـــديـــق عـــدلا وحسنـــا
وسميـــا حكـــاه معنـــى ومغنـــى
هـــذه مصر يـــوســـف حـــل فيهـــا
يـــوســـف مـــالكـــا ومـــا حـــل سجنـــا
أنـــت حـــرمـــت ان يثلـــث فيهـــا
بســـوى الله وحـــده أو يثنـــى
إنما الملك والوزارة جسم
أنـــت روح فيـــه وفي اللفـــظ معنـــى

وقال أيضا من قصيدة:

ملـــك صـــلاح الـــديـــن لا قـــوّضـــت
أطنـــابـــه ملـــك البقـــا والصـــلاح
سيرة عـــدل حسنـــت عنـــدنـــا
مـــاكـــان مـــن وجـــه الليـــالي القبـــاح
ســـافـــر في الـــدنيـــا وأقطـــارهـــا
ذكـــر غـــدا عنـــه جميـــلا وراح
قـــل لابـــن أيـــوب وكـــم نـــاصـــح
أنفـــع ممـــن هـــو شـــاكـــي السلاح
حـــارب على مثـــل نجـــوم السماء
فملـــك مصر مـــا عليـــه إصطـــلاح
قـــولا لمن في عـــزمـــه فترة
أرجـــع إلى الجدّ وخـــل المزاح
فـــالقـــدس قـــد أذن اغـــلاقـــه
على يـــدي يـــوســـف بـــالانفتـــاح

وقال أيضا من قصيدة:

ونبت بمصر عن سميك يوسف
كما ناب عن سكب الحياء واكف سكب

حذوت على سجلي نداء وهديه
وإن كنت لاسجن حواك ولاجب

ووافقته في الصفح عن كل مذنب
فما منك تثريب وإن عظم الخطب

وللحكيم عبد المنعم الجلياني من قصيدة طويلة:

أبو المظفر مأوى كل مضطهد
بحكمه ونداه يضرب المثل

مهما يمل جائر أو عائث عمه
فعند عدل صلاح الدين يعتدل

أحيى به الله مصراً فهي ناشرة
وافتكها من عدوّ ما به قبل

كم للفرنج بها ورد ومنتجع
ونارهم حولها تذكو وتشتعل

فأطفأ الناصر المنصور جذوتهم
وأدبروا بقلوب شهمها وجل

ملك تقلد سلك الملك منتظما
وقال للمال هذا منك لي بدل

ففرق المال جمعا للقلوب به
وحسبه فيهم ادراك ما سألوا

إن الملوك الذين امتدّ أمرهم
لم يخزنوا المال بل مهما حووا بذلوا

كذا السياسة فالأجناد لو علموا
بخل المليك وجاءت شدّة خذلوا

فصل

وهذا الذي ذكرناه من قصة شاور، وماجرى بسببه في الديار المصرية إلى أن تمت وزارة صلاح الدين قد وجدته مبسوطاً مشتملا على زيادات وفوائد في كتاب ليحيى بن أبي طي الحلبي في السيرة الصلاحية، فأحببت ذكره مختصراً:

ذكر أن الملك الصالح طلائع بن رزيك وزير الديار المصرية لما قتل في رمضان سنة ست وخمسين بتدبير عمة العاضد عليه، أوصى عند موته ابنه رزيك بشاور وقال له: لاتزلزله من ولايته، فإنه أسلم لك، ويقال إنه أنشد أبياتا منها:

فإذا تبدد شمل عقدكما
لاتأمنا من شاور السعدي

وكان شاور متولي قوص والصعيد الأعلى، فلما دفن الصالح استوزر ابنه رزيك ولقب بالعادل، ولما استقرت أحواله أرسل إلى عمة العاضد فحدثها واجتمع إلى رزيك أولاد عمته، ومن جملتهم عز الدين حسام، وأشاروا عليه، بعزل شاور، فامتنع ثم ألحوا عليه فأجاب، وبلغ شاورا فجاهر بالعصيان، وجمع العربان، وأهل الصعيد وزحفوا إلى القاهرة، وخرج إليه جماعة من أمرائها كانوا كاتبوه، فخرج رزيك نصف الليل فضل الطريق وتاه فوقع عند أطفيح، وثم بيوت عرب فقبضوا عليه، وحمل إلى شاور، وقد دخل القاهرة وتسلمها، وأخرجت إليه خلع الوزارة، وتم أمره، ولما حصل رزيك عند شاوراً أكرمه وصلب الذي أتى به، ونادى عليه، هذا جزاء من لايرعى الجميل، وكان للصالح إليه إحسان، وتفرق آل رزيك في البلاد، ونجا حسام الذي كان سبب هلاك بني رزيك بأموال، وصار إلى حماه، فأقام بها واشترى القرى، ولم يزل بها إلى أن مات، وكان في خروجه أودع عند الفرنج سبعين ألف دينار، فوفوا له

وردّوها عليـه، ثم أراد تقـي الدين أخـذها منـه، فقال : مـن العجب أن الفرنجي يفي لي بردّها، وتأخذها أنت مني، فكف عنه.

قـال: وتمكـن شـاور، وكـان له ثـلاثـة أولاد: طـي والكـامـل وسليمان فتبسطـوا على النـاس وتعاظمـوا فمجتهـم الأنفـس، وكان ملهـم وأخـوه ضرغام مـن صنائع الصـالح بن رزيـك، فلما شاهـدوا ميل النـاس عن شاور بسبـب أولاده أخذا في مراسلة رزيـك بن الصالح وهـو في السجن والعمل لـه في إعادتـه إلى الوزارة، واتصل ذلـك بطي بـن شاور، فـدخل على أبيه، وقال له: أنـت غافل وملهم وضرغام يفسدان أمـرك، وقد شرعا في أمر رزيك، واستحلفا له جماعة مـن الأمراء ولا يمكن تلافي حالك إلاّ بقتل رزيـك، فقال لـه شاور:إن الصـالح أولاني جميـلاً وبسببه حللـت هذا المحـل، فتركه ولـده طي ودخل على رزيـك فقتله في سجنـه، وسمع شـاور ذلك فقـامت قيـامته، ونمـى الخبر إلى ضرغام وأخيـه ملهم فثـارا وأثارا من استحلفاه مـن الأمراء وزحفا بالعساكر إلى شـاور، فانهزم وخرج مـن باب القـاهرة وهـرب إلى الشـام، وأدرك ضرغام ولـديه طيـا وسليمان فقتلهما، وأسر الكـامل فـأخـذه ملهم واعتقلـه عنـده، وأراد ضرغام قتلـه فمنعه منه ملهم، وحفظ له جميلاً، كـان قد فعله معه، واستقر أمر ضرغام في الوزارة، وخلـع عليه ولقب بـالملك المنصـور، ولما استقر به الأمـر بلغه أن جماعة مـن الأمراء حسدوه واستصغروه وكـاتبوا شاوراً، وكـان صار إلى الشـام، فـأخـذ في إعمال الحيلة عليهـم وأحضرهـم إلى دار الـوزارة ليـلا فقتلهم جميعا ولم يتعرض لأموالهم ولا لمنـازلهم، وقيل إنه قتل منهم سبعين أميراً، ويقال إنه جعلهم في توابيت وكتب على كـل تابوت اسم صاحبه، فكـان ذلـك أكبر الأسباب في هـلاكـه، وخـروج دولة المصريين عـن يـد أصحابها لأنه أضعف عسكر مصر بقتل الأمراء، وأما شاور فإنه لما خرج من القاهرة سار على وجهه حتى وصـل إلى دمشق بعد تحققه قتل ولديه، ولما وصـل إلى بصرى اتصل خبره بنـور الـديـن فندب جماعـة إلى تلقيـه،

وأنزله في جوسق الميدان الأخضر وأحسن ضيافته وإكرامه، ثم بعد سبعة أيام من مقدمه أحضر نور الدين ابن الصوفي وجماعة من وجوه الدمشقيين وقال لهم: اخرجوا إلى هذا الرجل وسلموا عليه وعرفوه أعذارنا في التقصير في حقه، وسلوه فيما قدم وما حاجته، فإن كان ورد علينا مختارا للإقامة أفردنا له من جهاتنا ما يكفيه، ويقوم بأربابه وأوده، وتكون عونا له على زمانه، وإن كان ورد لغير ذلك فيفصح عن حاجته. فخرج الجماعة إليه بالرسالة، فشكر احسان نور الدين، وسكت عما وراء ذلك، فسأله القوم الجواب، فقال : إذا لم يبيت الرأي جاء فطيراً، فعاد القوم إلى نور الدين وعرفوه مادار بينهم وبينه، فأمرهم بالعود إليه من غد ذلك اليوم ففعلوا وطلبوا الجواب فسكت أيضا وأطال ثم قال: إن رأى نور الدين أطال الله بقاءه الاجتماع بي فله علوّ الرأي، فعرفوا نور الدين بمقالته فأجاب نور الدين أن يكون الاجتماع على ظهر بالميدان الأخضر، وركب نور الدين من الغد في وجوه دولته وخواص مملكته في أحسن زي وأكمل شارة، فلما دخل الميدان ركب شاور من الجوسق والتقيا في وسط الميدان بالتحية فقط، ولم يترجل أحد منهما لصاحبه، ثم سارا من موضع اجتماعهما وهو نصف الميدان إلى آخره، ثم انفصلا من هناك، وعاد نور الدين إلى قلعة دمشق، وأخذ من وقته ذلك في جمع العساكر، وأما ضرغام فإنه حين استقرّبه الأمر أنشأ كتابا إلى نور الدين على يد علم الملك بن النحاس، يظهر فيه الطاعة، ويعرّض بخذلان شاور، فأظهر نور الدين لعلم الملك القبول في الظاهر، وهو مع شاور في الباطن، وأجاب عن الكتاب، وانفصل علم الملك عن دمشق، فلما كان بظاهر الكرك أخذه فليب بن الرقيق الفرنجي، وحصل على جميع ما كان معه، وانهزم علم الملك بنفسه وتوجه إلى الساحل، وسار إلى مصر.

وفي هذه الأيام أنفذ نور الدين واستحضر أسد الدين شيركوه من اقطاعه من الرحبة، وكان نور الدين قد تيمن بأسد الدين وتبرك بميمون

نقيبته لأنـه لم يرسله في أمـر إلا نجح، ولم يوجه في مضيـق إلا انفتح، ولما حضر أسد الديـن إلى دمشق، خلا به نـور الدين وتحدّث معه بـأشياء في أمر مصر، وأمره بالاستعداد، وكان نور الـدين قد أزاح علة العسكر الذي يريد تسييره إلى مصر، فخرج من يومه، وكان شاور قد أطمع نور الدين في أموال مصر ورغبـه في ملكها وأنه إذا ملكها كـان من قبله فيهـا، ولما بلغ شاورا استتباب أمر العسكـر سأل عن المقدّم عليه، فقيل لـه أسد الدين شيركوه، فلـم يطب له ذلـك، لأنه ظن أن التقـدّمة تكون لـه، فلما زوحم بهذا القود سقـط في يده وفـت في عضده، ولم يجد بـداً من المسير فخـرج واجتمع بـأسد الديـن، وسارا جميعا حتـى وصلوا أطراف البـلاد المصرية، ونـزلوا على تـل في الحوف قـريب مـن بلبيس يعـرف بتـل بسطة وضربـوا خيـامهـم هنـــاك، ولما اتصـل بضرغـام خبر ورود شـاور وأســـد الـديـن بالعسـاكر الشـامية جمع أمراء مصر واستشـارهـم، فـأشار شمـس الخلافة محمد بن مختار بأن تجتمع العساكر وتخرج جـريدة وتلقى العساكر الشامية بصدر وهـو على يومين مـن القاهرة، فـإنهم لايثبتون لكـونهم خرجـوا من البرية ضعفاء، ولمكان قلة الماء عليهم، لأن المسسافر إلى مصر يحمل الماء مـن إيلة مسيرة ثـلاثـة أيام، فلـم يروا ذلـك، واختـاروا أن يلقوهـم على بلبيـس ، فأمـر ضرغام الأمـراء بـالخروج فخرجـوا في أحسن زي وأكمـل عـدّة، والمقدّم عليهـم نـاصر الديـن ملهم أخـو ضرغـام، وجاؤوا حتـى أحاطوا بـالتل الذي كان أسـد الدين نازلا عليـه، ولما عاين أسد الـدين كثرة العسـاكر، وأنهم قد ملكـوا عليهم الجهات، وسـدّوا منافذ الطـرقات قال لشاور: ما هـذا لقد أرهقتنا وغررتنا، وقلت إنـه ليس بمصر عساكر ، فجئنا في هـذه الشرذمة، فقـال له شاور: لا يهولنـك ما تشـاهد مـن كثرة الجمـوع فأكثرهـا الحاكة والفـلاحـون الـذين يجمعهـم الطبـل، وتفرقهـم العصا، فما ظنك بهم إذا حمي الـوطيس، وكلبت الحرب، وأما الأمـراء فإن كتبهم عنـدي وعهودهم معي، وسترى ذلـك إذا لقيناهم، ثم قـال: أريد أن تأمر العساكـر بالاستعداد والركوب، ففعل ونهاهـم شاور عن القتال،

ووقف الفريقان مصطفين من غير حرب إلى أن حمي النهار والتهب الحديد على أجساد الرجال، فضرب أكثر أهل مصر الخيم الصغار، وخلعوا السلاح ونزلوا عن الخيول وجلسوا في الظل، فأمر شاور الناس بالحملة، فكان أسعد أهل مصر من ركب فرسه وأطلق عنانه وولى منهزما، وتركوا خيمهم وأموالهم ليس بها حافظ فاحتوى عليها أصحاب أسد الدين، وأسر شمس الخلافة وجماعة من أمراء المصريين ، ولم يمكن شاور من تقييدهم والاحتياط عليهم فهربوا، وساق أسد الدين وشاور في أثر الناس ونزلوا على القاهرة وقاتلوها أياما، وراسل شاور العاضد في اصلاح الحال، وأن يأذن له في الدخول إلى القاهرة ، فأذن له، وكان ضرغام صار إلى تحت القصر، وقال: أريد أمير المؤمنين يكلمني لأسأله عما أفعل، فلم يجبه أحد، فذهب على وجهه منهزما ، وخرج من باب زويلة، والعامة تلعنه وتصيح عليه فالتحقه رجل من أهل الشام ليقتله فقال له ضرغام: أوصلني إلى أسد الدين ولك مناك، فلم يقبل منه وحمل عليه فطعنه، فأرداه ونزل إليه واحتز رأسه وحمله إلى أسد الدين، وأعلمه بما جرى بينهما ، فصعب على أسد الدين وأوجعه ضرباً وأراد قتله، فشفع فيه شاور، ودخل شاور القاهرة وقتل ملهما أخا ضرغام عند بركة الفيل، وخرج ابنه الكامل من دار ملهم وكان معتقلا فيها، وخرج معه القاضي الفاضل وكان أيضا معتقلا فيها معه، واستقام أمر شاور في الوزارة، وأقام أسد الدين على المقس ينتظر أمر شاور فيما ضمن لنور الدين، وأرسل إليه يقول له: قد طال مقامنا في الخيم، وقد ضجر العسكر من الحر والغبار، فأرسل إليه شاور ثلاثين ألف دينار، وقال: ترحل الآن في أمن الله وفي دعته، فلما سمع أسد الدين ذلك أرسل إليه إن نور الدين أوصاني عند انفصالي عنه إذا ملك شاور تكون مقيما عنده، ويكون لك ثلث مغل البلاد، والثلث الثاني لشاور وللعسكر، والثلث الآخر لصاحب القصر يصرفه في مصالحه، فقال شاور: أنا ما قررت شيئاً مما تقول أنا طلبت نجدة من نور الدين، فإذا انقضى شغلي عادوا إلى

الشام، وقد سيرت إليكم نفقة فخذوها وانصرفوا وأنا انفصل مع نور الدين، فقال أسد الدين : أنا لايمكنني مخالفة نور الدين، ولا أقدر على الانصراف إلا بامضاء أمره، فأمر شاور باغلاق باب القاهرة، وأخذ في الاستعداد للحصار، واستعد أسد الدين أيضا، وسير صلاح الدين في قطعة من الجيش إلى بلبيس لجمع الغلال والاتبان والأحطاب، وما تدعو الحاجة إليه، ويكون جميع ذلك في بلبيس ذخيرة، وأخذ في قتال القاهرة، وكاتب شاور ملك الفرنج مرّي يستنجده ويقول له إن شيركوه طلع معي نجدة على ضرغام، فلما حصلوا في البلاد طمعوا فيها ومتى ملكوها مضافة إلى بلاد الشام لم يكن لك معهم عيش ولا قرار، وضمن له في كل مرحلة يرحلها إلى ديار مصر ألف دينار، وقرر شيئاً لقضيم دوابهم وشيئاً لاسبتاريته، فخرج مريّ من عسقلان في جموعه إلى فاقوس في سبع وعشرين مرحلة ، وقبض عنها سبعة وعشرين ألف دينار، ولما تحقق أسد الدين قرب الفرنج من القاهرة أجفل عنها إلى بلبيس، وانضاف إليه من أهلها الكنانية، وخرج شاور في عساكر مصر واجتمع بالفرنج، وجاء حتى خيم على بلبيس وأحاط بها محاصراً لأسد الدين يباكر الحرب ويراوحها، وأقاموا على ذلك مدة ثمانية أشهر، وانقطعت أخبار مصر ومن بها عن نور الدين، وكان اتصل بنور الدين وهو بدمشق خبر مسير الفرنج إلى ديار مصر وغدر شاور، فكاتب الأطراف بقدوم العساكر، فقدم عليه عساكر الشرق جميعها، واجتمعوا بأرض حلب فنزل بهم مجد الدين بن الداية، وكان نائب نور الدين بحلب إلى جهة حارم، ونزل على أرتاح، وخرج نور الدين من دمشق وشن الغارة على الساحل، وقتل وأسر عالما عظيما، ثم قصد جهة حلب، وجعل طريقه على حصن الأكراد، فلما حصل بأرضه شن الغارة فيها وغنم غنيمة عظيمة، ونزل في مرجه، فخرج إليه الفرنج الأخوة من حصن الأكراد وهجموا عسكره وقتلوا جماعة من المسلمين، وكان عسكر نور الدين غافلاً فلم يتماسك الناس، وساروا على وجوههم وسار نور الدين إلى أن اجتمع بعساكره

على أرتاح، وكـان أخوه نصرة الـدين مع الفـرنج ، فلما عـاين أعـلام نور الديـن لم يتهاسك أن حمل بجميع أصحـابه قاصـداً أخاه نور الـدين، فلما قرب منـه نزل وقبل الأرض بين يـديه، فلـم يلتفت إليه، فتـم على وجهه، واصطف الناس للحـرب ، فحملت الفرنج فكسرت الميسرة ، ثـم عادت فوجـدت راجلها جميعـه قد قتـل، والخيل قـد اطبقت عليهـم فنزلـوا عن الخيول وألقـوا اسلحتهم وأذعنوا بـالأمان، فأخـذوا جميعا قبضاً بـالأيدي، وسار إلى حارم ففتحها، وأراد النزول على أنطاكيـة فلم يتمكن لشغل قلبه بمن في مصر من المسلمين، فـانحرف قاصداً لدمشق، ونـزل على بانياس فافتتحها، وأغار على بلد طبرية وجمع أعـلام الفرنج وشعافهم وجعلها في عيبة، وسلمها إلى نجـاب وقال له: أريد أن تعمل الحيلـة في الدخول إلى بلبيس وتخبر أسد الدين بها فتـح الله على المسلمين ، وتعطيه هذه الأعلام والشعاف، وتأمره بنشرها على أسوار بلبيس، فإن ذلك مما يفت في أعضاد الكفار، ويـدخل الوهـن عليهم، ففعـل ذلك ، فلما رأى الفرنـج الأعلام والشعـاف قلقوا لـذلـك وخـافوا على بـلادهـم، وسـألوا شـاور الإذن في الانفصال، فانزعـج شاور لذلك وخاف من عاقبـة الأمر، وسألهم التمهل أياما، وجمع أمراءه للمشـورة، فاشاروا عليه بمصالحة أسد الـدين، وتكفل له اتمام الصلح الأمير شمـس الخلافة، فأنفذه إليه فتم الصلـح على يديه على أن يحمل شاور إلى أسد الدين ثلاثين ألف دينار أخرى.

وحكي أن شـاور أرسل إلى أسد الديـن وهو محصوربيلبيس يقـول له: إعلـم أنني أبقيـت عليك ولم أمكـن الفرنـج منـك لأنهم كانـوا قادريـن عليك، وإنما فعلـت ذلك لأمـرين: أحـدهما أني ما اختـار أن أكسر جاه المسلمين وأقوي الفـرنج عليهـم، والثاني أني خفـت أن الفرنـج إذا فتحوا بلبيس طمعوا فيها وقالوا: هذه لنا لأنا فتحنـاها بسيوفنا، وما من يوم كان يمضي إلا وأنـا أنفـذ إلى كبـار الفـرنـج الجملـة مـن المال ، وأسـألهم أن يكسروا همة الملك عن الزحف.

قال:وأقـام أسد الدين بظـاهر بلبيس ثـلاثة أيام، ورحلت الفـرنج إلى جهة الساحل، وسـار أسد الدين قاصداً الشـام وجعل مسيره على البرية، واتفـق أن البرنس أرنـاط صـاحب الكـرك والشوبـك تـأوّل ليمينه التـي حلفهـا لأسد الـديـن، وقال: أنـا حلفت أني مـا ألحق أسـد الديـن، ولا عسكـره في البر، وأنا أريـد أن ألحقـه في البحـر، وصار في يـوم واحـد إلى عسقلان وخـرج منها إلى الكـرك والشوبـك، وجمع عسكره المقيـم هناك، وقعد مرتقبـا خروج أسد الديـن من البرية ليوقـع به ، وعلم أسد الـدين بمكيدة أرناط بالحدس والتخمين، فسلك طريقـاً من خلف المكان الذي كان فيـه أرناط، شق إلى الغور وخـرج من البلقاء، وسلمه الله تعـالى منه، ودخل دمشق فاجتمـع بنور الدين وأخبره بالأحوال وأعلمـه بضعف ديار مصر، ورغبه فيها وشـوّقه إلى ملكها، فرغـب فيها نور الديـن وأمره بتجنيد الأجناد، واستخدام الرجال.

وأما شـاور فإنه بعـد رحيل أسد الـدين والفـرنج إلى بلادهـم عاد إلى القاهرة، ولم يكن له همة إلا تتبع من علـم أن بينه وبين أسد الدين معرفة أو صحبة، وكـان استفسد جماعة من عسكـر أسد الدين منهـم خشترين الكردي وأقطعه شطنوف، وقتل شاور جماعة من أهل مصر، وشرّد آخرين.

ثم توجـه أسد الدين في ربيـع الأول سنة اثنتين وستين قاصداً للـديار المصرية، وكتـم أخباره فما راع شاوراً إلا ورود كتـاب مري ملك الفـرنج يعرفه فيه أن أسد الدين قد فصـل عن دمشق بعساكره قاصداً ديار مصر، فطلب شاور منـه إعادة النجدة، والمقرّر من المال يصل إليـه على ما كان يصل إليـه في العام الماضي، فسار مـري في عساكر الفـرنج إلى مصر على جانب البحر، وكـان أسد الدين سائراً في البر فسبقه الفـرنج، ونزلوا على ظاهر بلبيس، وخرج شاور بعساكر مصر، واجتمع بالملك وقعدوا جميعا في انتظار أسد الديـن، وعلم أسد الدين باجتماع الفـرنج بشاور على بلبيس،

فنكب عن طريقهم، وأم الجبل، وخرج على أطفيح وهي في الجنوب من مصر، وشن الغارة هناك، واتصل بشاور خبره فسار في عساكره والفرنج في صحبته يقفون أثره، واتصل بأسد الدين ذلك فاندفع بين أيديهم حتى بلغ شرونة من صعيد مصر، وتحيل في مراكب ركبها وعدّى إلى البر الغربي ، ولما استكمل تعديته أدرك شاور بعض ساقته ومنقطعي عسكريته فأوقع بهم، وأحضر شاور أيضا مراكب، وقطع النيل في أثر أسد الدين بجميع جيوشه وجيوش الفرنج، وسار أسد الدين إلى الجيزة وخيم بها مقدار خمسين يوماً، واستمال قوماً يقال لهم الأشراف الجعفريين والطلحيين والقرشيين، فأنفذ أسد الدين إلى شاور بقول له: أنا أحلف لك بالله الذي لا إله إلا هو وبكل يمين يثق بها المسلم من أخيه أنني لا أقيم ببلاد مصر ولا أعاود إليها أبدا ولا أمكن أحداً من التعرض إليها ومن عارضك فيها كنت معك إلباً عليه، وما أؤمل منك إلا نصر الاسلام فقط، وهو أن هذا العدوّ قد حصل بهذه البلاد، والنجدة عنه بعيدة وخلاصه عسر، وأريد منك أن نجتمع أنا وأنت عليه وننتهز فيه الفرصة التي قد أمكنت والغنيمة التي قد كتبت، فنستأصل شأفته ونخمد نائرته، وما أظن أنه يعود يتفق للإسلام مثل هذه الغنيمة أبداً ، فلما صار الرسول إلى شاور وأدّى الرسالة أمر به فقتل، وقال: ما هؤلاء الفرنج هؤلاء الفرج، ثم أعلم الفرنج بما أرسل إليه به أسد الدين وأعلمهم بما أجابه، وجدّد لهم أيمانا وثقوا بها، وبلغ ذلك أسد الدين فأكل يديه أسفاً على مخالفة شاور له في هذا الرأي، وقال: لعنه الله لو أطاعني لم يبق بالشام أحد من هؤلاء الفرنج، ونزل شاور في اللوق والمقسم وأمر بعمل الجسر بين الجيزة والجزيرة، وأمر بالمراكب فشحنت بالرجال وأمرهم أن يجيئوا من خلف عسكر أسد الدين، ولما رأى أسد الدين ذلك كتب إلى أهل الاسكندرية يستنجد بهم على شاور لأجل إدخاله الفرنج إلى دار الاسلام وتضييعه أموال بيت مال المسلمين فيهم ،

فقامـوا معه، وأمروا عليهـم نجم الدين بـن مصال، وهو ابـن أحد وزراء المصريين، وكان لجأ إلى الاسكندرية مستخفياً فظهر في هذه الفتنه.

حـدّثني الشريـف الإدريسي نـزيل حلـب قال: كنـت بـالاسكندريـة يومئـذ، فكتب معي ابن مصـال كتابا إلى أسـد الدين وقال لي : قـل له : إني أخبرك أن السلاح واصـل إليك، وكان أنفـذ لأسد الـدين خزانـة من السلاح، قـال: فسبقتها بيـومين وحضرت بين يدي أسـد الديـن وأعطيته الكتـب وشافهتـه بـرسـالة ابـن مصـال في معنـى السلاح والآلات، ثـم وصلت الخزانة بعد يومين مع ابن أخت الفقيه ابن عوف.

قال: وبقينا على الجيزة يـومين فوصل إلينا رسول ابن مـدافع يخبر أسد الـديـن بقرب شـاور منـه، ويـأمره بـالنجـاة ، فترك أسـد الديـن الخيـام والمطابـخ وما يثقـل حمله وسار سيرا حثيثـا حتى قـارب دلجة، فأمـر أسد الدين بنهبهـا فنهبت، ونزل الناس لتعشية الدواب ، فلـم تستتم عليقها، حتـى أمر أسـد الـدين بـالرحيـل، وأوقـدت المشاعـل ليـلاً وسرنا فـإذا الجاووش ينـادي في الناس بـالـرجوع، وعـاد أسـد الـدين إلى دلجة فنـزل عليها، ونزل شاور على الأشمونين، وأمر أسـد الدين الناس أن يقفوا على تعبية، فأصبحـوا على ذلك والتقوا فقتل مـن أصحاب أسد الديـن جماعة كثيرة وانهزموا، وكـان أسد الـدين قد فـرّق أصحابه فـريقين: فريقـاً معه، وفريقـاً جعله مـع صلاح الديـن، وأنفذه ليأتي مـن خلف عسكـر شاور فدخـل الضعف مـن هذا الطريـق، ثم إن أصحاب أسـد الديـن تجمعوا وتماسكوا وعلموا أنه لا منجـى لهم إلا الصبر فتحالفوا على الموت وحملوا، وطلع صلاح الدين من ورائهم، فلـم تزل الحرب قائمة إلى الليل، فولت عساكر الأفرنـج والمصريين الأدبار، وكاد مري ملك الافرنـج يؤسر، وصار شاور ومن سلـم معه إلى منية ابن خصيـب، وسارأسد الديـن على الفيوم إلى الاسكندريـة، فدخلها ونـزل القصر، وجعل فيه محبـس الفرنج الـذين أسرهـم، وكان فيهـا ابـن الزبير متـوليـا ديوانها فحمـل إلى أسـد الديـن

الأموال وقـوّاه بالسـلاح، وخاف أسـد الديـن أن يقصده شـاور والفرنـج فيحصروه ، فربما تأذى بالحصـار فأمر صلاح الدين بالمقـام بالاسكندرية، وتـرك عنـده جماعة مـن العسكـر ومـن بـه مرض أو جـراح أو ضعـف، واستحلف له وجـوه الاسكندرية وأوصاهـم به، ورحل في أقويـاء عسكره قاصداً إلى الصعيد، ونزل الفرنج وشـاور على الاسكندرية وحاصروها مدّة ثلاثـة أشهر بـأشدّ القتـال، وبذل أهلهـا في نصرة الملك النـاصر أموالهم وأنفسهـم، وقتل منهـم جماعـة عظيمة ولما صـار أسد الـديـن بالصعيـد حصـل من تلـك البلاد أمـوالا عظيمة، ولم يـزل هناك حتـى صام شهـر رمضان، واتصل بـه اشتداد الأمر على الاسكندرية ، فرحـل من قوص إلى جهتهـا واتبعه جماعـة كثيرة من العـربان وأهـل تلك البـلاد، وبلغ ذلـك شاورا فـرحل هو والفـرنج واضطر إلى الصلـح، وضجرت الفرنـج أيضا، فتوسط ملـك الفرنج في ذلك فتقرر أمر الصلـح على أن شاورا يحمل إلى أسد الدين جميـع ما غرمه في هذه السفرة، ثم يعطي الفـرنج ثلاثين ألف دينار، ويعود كل منهـم إلى بلاده، وطلب صلاح الدين مـن ملك الفرنج مراكب يحمل فيها الضعفاء من أصحابه، فأنفذ له عدّة مراكب.

قـال الادريسي: كنت في جملـة مـن خـرج في المراكب، فلما وصلنـا إلى مينا عكـا أخذنـا واعتقلنا في معصرة القصـب إلى أن وصل الملـك مرّي، فأطلقنا فخرجنا إلى دمشق، وخرج صـلاح الدين من الاسكندرية بعد أن استحلـف شاوراً لأهلهـا بأن لا يتعـرض لهم بسوء، واجتمـع بعمه أسـد الديـن، ثم أنفذ شـاور وقبض على ابن مصـال وجماعة ممن أعـان صلاح الدين وضيق عليهم وتتبع أهل الاسكنـدرية، واتصل ذلك بصلاح الدين فاجتمـع بملك الفرنـج وقال لـه: إن شاوراً نقض الأيمان، قـال: وكيف ذلك؟ قـال: لأنه قبض على من لجأ إلينـا فقال: ليس له ذلـك وأنفذ إلى شاور وقال له : إن الإيمان جرت على أن لا تتعـرض لأحد من أهل مصر ولا الاسكندريـة، وألزمه يمينـاً أخرى في أن لا يتعرض لأحـد ممن لجأ إلى

أسد الـدين أو صلاح الـدين، ولما شاهـد من التجأ إلى الأسـد والصلاح فسـاد تلك الأحـوال خـافوا مـن شـاور، فأخـذوا في الـرحيل إلى الشـام، واتصل ذلـك بشاور فخـرج بنفسه وجمع جميـع من عـزم على الرحلـة إلى الشام وحلـف لهم على الإحسان إليهم وحمايـة أنفسهم وأمـوالهم، فمنهم مـن سكن إلى ايمانـه، ومنهم مـن لم يسكن ورحـل، وألهم الله تعالى أسـد الديـن أن الفرنج ربما خطر لهم في مصر خـاطر فقصدتها، فراسـل الملك مرّي وقـال له: قـد سأل أهل مصر يمين الملـك أن لا يدخـل إليهم ولا يتعرض لهم، فامتنع الملك، ثم أجاب خـوفاً أن يتحقق أسد الدين وشاور أنـه ربما قصد ديـار مصر، فـربما اجتمعا عليـه فلـم يجد بداً مـن اليمين، فحلف وحلف أصحابه.

وخرج أسد الدين من مصر وفي قلبه الـداء الدوي منها لأنه شاهدها، وشاهـد مغلاتها، فـوجدهـا أمراً عظيماً، فأخـذ نور الـدين في تهويـن أمر مصر عليه وأقطعه حمص وأعمالها.

وحدثنـي أبي رحمه الله قال: حـدثني غير واحـد أن شاوراً كـاتب نـور الـدين في ذلـك وضمـن له أن يحمـل في كل سنـة عـن ديار مصر مـالاً مصانعـة، ولما بلغ شـاور أن نور الديـن صرف همة أسد الـدين عـن ذكر مصر والتعرض لها أنفـذ رسولاً بهديـة سنية وأصحبه كتـابا حسنـا أوله:« ورد كتـاب استدعـى شكري وحمدي واستخلـص من الصفـاء ما عنـدي واستفرغ في الثناء على مـرسله جهدي، فكأنما استملت معانيـه مما عندي، واشتملت على حقـائق قصدي، وسررت لـلإسلام وأهلـه، والديـن الذي وعد الله أن يظهر على الديـن كله، بأن يكون مثله ملكاً من ملـوكه يرجع إليـه في عقده وحلـه، وتشير الأصابـع ، وتعقد الخنـاصر على علو محلـه، والله يزيده بمكـانه تثبيتاً وقوة، ويحقق على يديـه مخايل النصر المرجوة، فما أسعد رأسـاً دل على نصرة الكلمة، ودعـا إلى سبيل الفئـة المسلمة، ووفـر

على مصالح الأمة قلوب رعاياها المنقسمة، وأنا متمم من هذا الأمر ما صدر مني وباق منه على ما نقل عني لا أتغير عن المصلحة فيه، ولا أعدل عما أظهره منه لما أخفيه، ولا استكثر كثيراً أصل إليه، وأتوصل به لما سبق للملك العادل من حقوق استوجب شكرها قولا وفعلا ونصرة كانت في هجير الخطوب برداً وظلاً، وأنعم لا تزال آياتها بألسن الحمد تتلى وتملى، ولعمري لقد علا بناؤها فخراً، وارتفع على الأملاك قدراً وذكرا، وجب أن يستتمها فلا يصل إلى مواردها الكدر، ويحوطها فلا تطرق إلى جوانبها الغير، ووراء هذه المكاتبة من اهتمامي ما لا يعوقه عائق إلا انتظام العقد على الأمور المألوفة، وتمام التوثقة باليمين المنصوصة الموصوفة، مع أن قوله كيمينه، وكتابه كصفحه يمينه، والثقة به واقعة على كل حال، والمحبة له توجب الاحتراس على الوداد من تطرق أسباب الاختلال».

قال: وفي سنة أربع وستين طمع مري ملك الفرنج في مصر، وعول على الدخول إليها والاستيلاء عليها وذلك لما انكشف له من عوارها، وظهر له من ضعف من بقي فيها، فجمع إليه ملوك الفرنج وكبراء الدولة والاسبتارية وتشاوروا فجرت بينهم في ذلك خطوب، ثم أجابوه إلى الخروج معه إلى الديار المصرية، فأحضر وزيره وأمره باقطاع بلاد مصر لخيالته، وفرق قراها على أجناده، وكان لعنه الله لما دخل ديار مصر قد أقام من أصحابه من كتب له أسماء قرى مصر جميعها وتعرف له خبر ارتفاعها ، ثم سار حتى نزل الداروم فقامت قيامة شاور لما بلغه الخبر، وانتخب أميراً من أمرائه يقال له بدران وسيره إلى لقاء مرّي يسأله عن السبب في قصده، فاجتمع به وسأله فتلكأ عليه، ثم استلان جانبه وضمن له رضيخة على أن يورّي عنهم ولا يكشف لشاور حالهم، ويقال: إن الملك أقطعه ثلاث عشرة قرية على أن يتمم على المصريين الحيلة ويعلم شاور أنه إنما قصد مصر للخدمة ، ففعل ذلك بدران، ولما

سمع ذلك شاور أشفق منه، وأحضر الأمير شمس الخلافة محمد بن مختار وقال له: كأن بدران قد غشني ولم ينصحني، وأنا فواثق بك فأريد تخرج وتكشف لي حال الفرنج، فسار شمس الخلافة إلى مرّي، وكان بينهما مؤالفة، فلما دخل على الملك قال له : مرحبا بشمس الخلافة، فقال: مرحبا بالملك الغدّار، وإلا مالذي أقدمك إلينا؟ قال: اتصل بي أن الفقيه عيسى زوج أخت الكامل بن شاور من صلاح الدين يوسف بن أيوب وتزوج الكامل أخت صلاح الدين، فقلنا: هذا عمل علينا، فقال له شمس الخلافة: ليس لهذا صحة، ولو فعل ذلك لم يكن فيه نقض للعهد، فقال له الملك : الصحيح أن قوما من وراء البحر انتهوا إلينا وغلبونا على أرائنا وخرجوا طامعين في بلادكم فخفنا من ذلك، فخرّجنا لنتوسط الأمر بينكم وبينهم، فقال شمس الخلافة فأي شيء قد طلبوا؟ قال: ألفي ألف دينار، فقال: مكانكم حتى أصل إلى شاور أبلغه مقالكم وأعود بالجواب، فقال له ملك الفرنج: فنحن ننزل على بلبيس إلى أن تعود.

قال: وحكي أن ملك الفرنج لما وصل إلى الداروم، كتب إلى شاور يقول له : إني قد قصدت الخدمة على ما قررته لي من العطاء، في كل عام، فأجابه شاور إن الذي قررته لك إنما جعلته متى احتجت إليك، أو إذا قدم علي عدوّ، فأما مع خلو بالي من الأعداء فلا حاجة لي إليك، ولا لك عندي مقرر، فأجابه مري أن لابد من حضوري وأخذي المقرر، فعلم شاور أنه قد غدر بالعهد ونقض الأيمان، وأنه قد طمع في البلاد، فأخذ في تجنيد الأجناد ، وحشد العساكر إلى القاهرة، وأنفذ إلى بلبيس قطعة من الجيش وميرة وعدّة، ثم إن ملك الفرنج سار خلف رسول شاور لايلوي على قول حتى خيم على بلبيس في صفر، وكان معه جماعة من المصريين منهم علم الملك بن النحاس، وابن الخياط يحيى، وابن قرجلة، وأرسل إلى طي بن شاور، وكان ببلبيس وقال له: أين ننزل؟ قال: على

أسنة الرماح، وقال له: أتحسب أن بلبيس جبنة تأكلها، فأرسل إليه مرّي نعم هي جبنة، والقاهرة زبدة، ثم قاتل بلبيس ليلاً ونهاراً حتى افتتحها بالسيف وقتل من أهلها خلقاً عظيماً، وخرب أكثرها، وأحرق جل أدورها ثم أخرج الاسارى إلى ظاهر البلد وحشروا في مكان واحد وحمل في وسطهم برمحه، ففرقهم فرقتين فأخذ الفرقة التي كانت عن يمينه لنفسه، وأطلق الفرقة التي كانت عن يساره لعسكره، وقال لفرقته قد أطلقتكم شكرا لله تعالى على ما أولاني من فتح بلاد مصر، فإني قد ملكتها بلا شك، ووقف إلى أن عدّى أكثرهم النيل إلى جهة منية حمل ، وأخذ العسكر نصيبهم من الأسارى فاقتسموهم، وبقي أهل بلبيس الذين أسروا أكثر من أربعين سنة في أسر الفرنج، وهلك أكثرهم في أيديهم ، وأفلت منهم اليسير لأن الملك الناصر رحمه الله لما ملك ديار مصر وقف مغل بلبيس على كثرته على فكاك الأسرى منهم، وسامح أهل بلبيس بخراجهم إلى آخر أيامه، ولما اتصل بشاور ما جرى على أهل بلبيس من القتل والأسر، وأن الفرنج شحنوها بالرجال والعدد وجعلوها لهم ظهراً أشفق من ذلك وطلب الأذن على العاضد، فلما اجتمع به بكى بين يديه وقال : اعلم أن البلاد قد ملكت علينا، ولم يبق إلا أن تكتب إلى نور الدين ، وتشرح له ما جرى، وتطلب نصرته ومعونته، فكتب جميع ذلك، وأرسل شاور طي تلك الكتب كتباً وسخم أعاليها بالمداد.

قال: وحدثني شمس الخلافة موسى بن شمس الخلافة محمد بن مختار قال: إنما كتب هذا الكتاب برأى أبي شمس الخلافة لأنه لما رجع من عند مري لعنه الله بعد أخذ بلبيس إجتمع بالكامل بن شاور، وقال له: عندي أمر لايمكنني أن أفضي به إليك إلا بعد أن تحلف لي أنك لا تطلع أباك عليه، فلما حلف له، قال له : إن أباك قد وطن نفسه على المصابرة، وآخر أمره يسلم البلاد إلى الفرنج ولا يكاتب نور الدين وهذا عين الفساد، فاصعد أنت إلى العاضد وألزمه أن يكتب إلى نور الدين

فليس لهذا الأمر غيره، فقصده الكامل، وكتب الكتاب، فلما وصل إلى نور الدين انزعج انزعاجاً عظيماً، وأنفذ أسد الدين، وكان ذلك من مناه وأرسل الفقيه عيسى الهكاري إلى مصر برسالة ظاهرة إلى شاور يعلمه أن العساكر واصلة، وبرسالة سرّية إلى العاضد، وأمره أن يستحلفه على أشياء عينها وأن يكتم ذلك من شاور.

وأما الفرنج فساروا إلى جهة مصر، وأمر شاور باحراق مصر، وانذر أهلها ، فخرج الناس منها على وجوههم وهجوا في بلاد مصر، وبلغ أجرة الجمل إلى القاهرة ثلاثين ديناراً، وترك الناس أكثر أموالهم فنهبت، وأحرقت مصر من تاسع صفر، وأقامت النار تعمل فيها أربعة وخمسين يوماً، ثم إن الفرنج لعنهم الله نزلوا في بركة الحبش، وانبثت خيولهم في الأطراف، وتخطفوا من ظفروا به، فأنفذ شاور شمس الخلافة إلى مري لعنه الله، فلما دخل عليه سأله أن يخرج معه إلى باب الخيمة ففعل، فأراه شمس الخلافة جهة مصر، وقال له: أترى دخانا في السماء، قال: نعم قال: هذا دخان مصر، ما أتيت إلا وقد أحرقت بعشرين ألف قارورة نفط وفرّقت فيها عشرة آلاف مشعل، وما بقي فيها ما يؤمل بقاؤه ونفعه، فخل الآن عنك مدافعتي ومخاتلتي وكوني كلما قلت لك أنزل في مكان تقدّمت إلى غيره ما بقي لك إلا أن تنزل بالقاهرة، فقال: هو كما تقول ولابدّ من نزولي القاهرة، ومعي فرنج من وراء البحر قد طمعوا في أخذها، ثم رحل فنزل على القاهرة مما يلي باب البرقية نزولاً قارب به البلد حتى صارت سهام البرج تقع في خيمته، فقاتلوا البلد أياما، فلما تيقن شاور الضعف عدل إلى طريق المخادعة والمخاتلة والمغاررة والمدافعة إلى أن تصل عساكر الشام، فأنفذ شمس الخلافة إلى مرّي لعنه الله تعالى برسالة طويلة فتل بها في غاربه ودار من حواليه، وفي ضمنها أن هذا بلد عظيم، وفيه خلق كثير، ولا يمكن تسليمه البته، ولا أخذه إلا بعد أن يقتل من الفريقين عالم عظيم، وما تعلم أنت ولا أنا لمن الدائرة،

والرأي أن تحقن دمـاء أصحابك ودماء أصحابي وتحصل شيئـاً أدفعه لك فيحصل لك عفـواً، فاستقرّت المصانعـة على أربع مائة ألف دينـار، وقيل ألفي ألف دينار يعجـل له منها مائة ألف دينار، فـأجاب مري إلى ذلك، وانعقدت الهدنـة، وحلف مري ورحل إلى بـركة الحبش، وحمل شـاور إليه مائة ألـف دينار، في عـدّة دفعات سـوّف فيها الأوقـات، ثم أخـذ يمطله بالباقي انتظـاراً لقدوم العساكر، ويوهم أنه يجمـع لهم الأموال، فلم يشعر الفرنج إلا بهجوم عسكر الشام عليهـم فلما رأوهم رحلوا إلى بلبيس، ونزل أسد الـدين بالمقسـم، ثم رحل ملـك الفرنـج ونزل على فاقـوس ، وأتبعه أسد الديـن ونزل على بلبيس، وكان لما اتصـل بشاور وصول أسد الـدين إلى صدر أنفـذ شمس الخلافـة إلى ملك الفـرنج يستطلـق له منـه بعض المال ، فصار إليه واجتمع به وقال: قد قلّ علينا المال، فقال ملك الفرنج اطلب ماشئـت قال: اشتهى أن تهب لي النصف؟ قال: قـد فعلت، فقال شمس الخلافـة: ما بلغني أن ملكـا في مثل حالـك وقدرتك علينـا وهب مثل هذه الهبة لقوم هم في مثل حالنـا، فقال ملك الفرنج: أنا أعلم أنك رجل عـاقل ، وإن شـاوراً ملك وإنكما مـاسألتماني أن أهبكما هـذا المال العظيم إلا لأمر قد حـدث، فقال له: صدقت هذا أسد الـدين قد وصل إلى صدر نصرة لنا، وما بقي لك مقـام، وشاور يقول لك : أرى أن ترحل ونحن بـاقون على الهدنـة، فإنـه أوفق لـك ولنا، وإذا حصـل هذا الـرجل عندنا أرضيناه مـن هذا المال بشيء، وحملنا الباقي إليك متـى قدرنا، وإن نحن أخـرجنا في رضاهـم أكثر من هذا المال عـدنا عليك بما يبقـى علينا من المقـدار، فقال ملـك الفرنـج : أنا راض بـذلك، وإن بقـي علي شيء حملته إليكـم، وعوّل على الـرحيل ، فقال له: بعد أن تطلق طـي بن شاور وجميع مـن في عسكرك من الأسارى ولا تـأخذ من بلبيس بعـد انصرافك شيئاً، فأجابه إلى جميع ذلك.

ولما رحلت الفرنـج عن القاهرة نـزل أسد الدين بـأرض يقال لها اللوق

وأخـرج اليه شـاور الإقـامـات الحسنة والخدم الكثيرة، ولما اجتمعـا قـال شاور لأسـد الديـن: قد رأيت مـن الرأي أن أخـرج أنا وأنـت وأن ندرك الفرنـج ونوقع بهم؟ فقـال أسد الدين: هـذا كان رأيي والفـرنج على البرّ الغربي ، وليـس لهم وزر، وأما الآن فـلا لأنهم على البرّ المتصل ببـلادهم، ونحن فقد خرجنـا من البرّ في أسوأ حال من الضعف والتعـب وقد كفانا الله شرهم ونحن إلى الراحة والاستجمام أحوج

ولما نزل أسـد الدين باللـوق أرسل له العـاضد هدية عظيمـة وخلعا كثيرة، وأخرج إلى خدمتـه أكابر أصحابـه، ثم إنه خرج إليـه في الليل سراً متنكراً واجتمـع به في خيمته، وأفضى إليـه بأمور كثيرة، منها قتـل شاور، ثم عاد إلى قصره، وكان شـاور قد رأى ليلة نزل أسد الديـن على القاهرة كـأنه دخـل دار الوزارة، فـوجد على سريـر ملكه رجـلاً وبين يديـه دواة الوزارة وهـو يوقـع منها بـأقلامه، فسـأل عنه فقيـل هذا محمـد رسول الله صلى الله عليه وسلـم، ولما حصل أسد الديـن بالديار المصريـة، وانفصل عنها الفرنج أمنت البلاد وتراجـع الناس إلى بيوتهم، وأخذوا في إصلاح ما شعثه الفـرنج وأفسدوه، وتقـاطر الناس إلى خـدمة أسـد الدين فتلقـاهم بالرحـب والسعة، وأحسن إليهم وأمـا شاور فإنه أخـذ في التودد إلى أسد الدين والتقـرب إلى قلبه بجميع ما وجـد السبيل إليه، وأقام لـه ولعسكره الميرة الكثيرة والنفقات الغـزيرة، حتـى استحوذ على قلبـه ونوى تبقيتـه في ملكه، وصفـا له قلبـه، حتى أنفـذ إليه سراً أحـرس نفسك مـن عساكـر الشام.

وأما عسكر الشـام فإنهم لما رأوا طيب بلاد مصر، وكثـرة خيرها، وسعة أموالها تاقـت أنفسهـم إلى الإقامة بها، واختـاروا سكناها ورغبوا فيهـا رغبة عظيمة فقـوي طمع أسـد الدين في الاستيـلاء عليها والاستبـداد بملكها، ثم علم أنه لايتـم له ذلك وشاور باق فيها، فـأخذ في أعمال الحيلة عليه، وكان العاضد قد تقدّم إليه بقتله فجمـع أصحابه وشاورهم في أمر شاور،

وقـال لهم: قد علمتـم رغبتي في هـذه البلاد، ومحبتـي لها وحرصي عليهـا لاسيما وقد تحققـت أن عند الفرنج منهـا ما عندي، وعلمـت أنهم كشفوا عورتها، وعلموا مسالـك رقعتها، وتيقن أني متى خرجت منهـا عادوا إليها واحتووا عليهـا وهي معظم دار الاسـلام وحلوبـة بيت ما لهم، وقـد قوي عندي أن أثـب عليها قبـل وثوبهم وأملكها قبـل مملكتهم، وأتخلـص من شاور الـذي يلعب بنا وبهم ويغرّنـا ويغرّهم، ويضرب بيننا وبينهـم، وقد ضيع أمـوال هذه البلاد في غير وجهها، وقـوّى بها الفرنج علينا، ومـا كل وقت ندرك الفرنج ونسبقهم، إلى هذه البلاد التي قد قل رجالها، وهلكت أبطالها، فتجلت الآراء بين الأمـراء أنه لايتم لهم أمر إلاّ بعـد القبض على شـاور، وتفـرقـوا على ايقـاع القبـض بـه، وكـان شـاور يـركـب في الأبهة العظيمة، والجلالة الجسيمـة، والعدّة الحسنة، والآلة الجميلـة على عادتهم الأولى، وكان من جملة قواعدهم أن الـوزير إذا ركب حمل في موكبه الطبل والبوق، وكان شـاور قليل الركوب، فجعل الأمراء يترصـدونه، ورأى أسد الدين قبل قبـض شاور بليلة كأن شاوراً دخل إليـه إلى داره، وناوله سيفه وعمامته، فتـأوّله أسـد الدين بـالقبض عليه، وأخـذ منصبه، ثـم إن شاور ركب يوماً في أبهتـه وجلالته فلما عاينه الأمراء هابـوه وأحجموا عنه، وكان يـوماً عظيـم الضباب وكـان خروج شـاور من بـاب القنطرة للسـلام على أسد الدين، فتقدم صلاح الدين فسلـم عليه ودخل في موكبه، ثم سايره، ثم مدّ يـده إلى تلابيبه، وصاح عليـه فرجله، ولما رأى ذلك عسكـر الشام قويت عزمـاتهم ووقعوا في عسكر شاور، فنهبوا ما كان مـع رجاله، وقتلوا منهم جماعة، وحمل الملك الناصر شـاوراً راجلا إلى خيمة لطيفة وأراد قتله فلم يمكنه قتله دون مشاورة أسد الـدين، وفي الحال ورد على أسد الدين توقيع مـن العاضد على يد خادم يأمـره فيه بقتل شاور، فأنفـذ التوقيع إلى صلاح الـدين فقتلـه في الحال وأنفذ رأسـه إلى القصر، وبلغ الكـامل بـن شاور قتل أبيه فهرب إلى القصر.

وخلع العـاضد على أسد الـدين وقلده الـوزارة، وأنفذ إليه طبـق فضة

فيه رأس الكامل بن شاور ورؤوس أولاد أخوته، ولما خرج منشور الوزارة إلى أسد الدين، أمر بقراءته على رؤوس الأشهاد، وفرح به غاية الفرح ، وأعيدت قراءته عليه عدّة دفعات استحسانا لمعانيه، واستظرافاً لما أودع من بديع الكلام فيه.

قال: ولما اتصل بنور الدين فتح الديار المصرية فرح بذلك فرحاً شديداً، وواصل الحمد والثناء على الله تعالى إذ كان في زمنه وعلى يده، وأمر بضرب البشائر في جميع ولايته، وتزيين جميع بلاده، وجلس للهناء بذلك، وأنشده الشعراء في فتحها عدّة أشعار، غير أنه لما اتصل به أن أسد الدين وزر للعاضد واستبدّ بالأمر في ذلك الصقع أمضه ذلك وأقلقه، وظهرت في مخايل قسماته وفلتات كلماته الكراهة، وأخذ في الفكرة في أمره وسهر له ليالي وأفضى بسره إلى مجد الدين بن الداية.

حدّثني جماعة عن شمس الدين علي بن الداية أخي مجد الدين وحدّثني الموفق محمود بن النحاس الفقيه الحلبي، وقد جرى ذكر فتح مصر وأن نور الدين ابتهج به، فقال: والله ما ابتهج به ، لقد كان ودّه أن لايفتح وأن لا يصير أسد الدين وصلاح الدين إلى ما صارا إليه، ولقد ظهرت الكراهية منه لذلك في ألفاظه ووجهه، ولقد أعمل الحيلة في إفساد أمر أسد الدين وصلاح الدين فما تهيأ له لاسيما يوم بلغه حصول صلاح الدين على خزائن مصر، فإنه أقام ثلاثة أيام لايقدر أحد أن يراه، واهتم لذلك حتى قضى عليه الهم، ولو لم يكن الفتح إليه منسوباً وعليه فضله محسوباً لما صبر على ما جرى ولا أغضى الملك العادل على القذى، ولقد كاتب العاضد عدّة دفعات في أمر الأسد والصلاح فلم يحصل له فيهما النجاح، وكثيراً ما يوجد في كتب نور الدين إلى العاضد التعريض بانفاذ أسد الدين، ولو أمكنه المجاهرة بالقول لقال، فمن بعض مكاتباته: « ولقد افتقر العبد إلى بعثته وأعوز عسكره يمن نقيبته، واشتدّ حزب الضلال على المسلمين لغيبته، لأنه ما يزال يرمي شياطين

الضلال بشهابه الثاقب، ويصمي مقل الشرك بسهمه النافذ الصائب».

قلت : لعل نور الدين رحمه الله إنما أقلقه من ذلك كون أسد الدين وزر للعاضد، فخاف من ميله إلى القوم وإلى مذهبهم، وأن يفسد جنده عليه بذلك السبب، هذا إن صح ما نقله ابن أبي طيّ والله أعلم.

قال: وكان أسد الدين لما ولي الوزارة لم يغير على أحد شيئاً، وأجرى أصحاب مصر على قواعدهم وأمورهم إلى أن انقضت أيامه ، وفنيت أعوامه، وكان قرماً يحب أكل اللحم ويواظب عليه ليلاً ونهاراً، فتواترت عليه التخم، واتصلت به مرضاته إلى أن ظهرت بحلقه خوانيق، كان فيها تلافه، ويقال إنه أكل في ذلك اليوم مضيرة، ودخل الحمام فلما خرج منها أصابه الخناق، قال: وكان شجاعاً بارعاً قوياً جلداً في ذاته شديداً على الكفار، وطأته عظيمة، في ذات الله صولته عفيفاً ديناً كثير الخير، وكان يحب أهل الدين والعلم، كثير الإيثار حدباً على أهله وأقاربه، وكان فيه امساك، وخلف مالا كثيراً، وخلف من الخيل والدواب والجمال شيئاً كثيراً ، وخلف جماعة من الغلمان خمسمائة مملوك وهم الأسدية، وهو كان مشيد قواعد الدولة الشاذية والمملكة الناصرية، وكان ابتداء أمره يخدم مع صاحب تكريت على إقطاع مبلغه تسعمائة دينار، وتنقل إلى أن ملك الديار المصرية، وعقد له العزاء، بالقاهرة ثلاثة أيام.

قلت: وإليه تنسب المدرسة الأسدية بالشرف القبلي ظاهر دمشق، وهي المطلة على الميدان الأخضر، وهي موقفة على الطائفتين الحنفية والشافعية والخانقاة الأسدية داخل باب الجابية بدرب الهاشميين.

قال ابن أبي طيّ: وساعة وفاته وقع الاختلاف فيمن يولى الوزارة بين العسكر الشامي، ومالت الأسدية إلى صلاح الدين، وفي تلك الساعة

أنفذ العاضد وسأل عمن يصلح للوزارة، فأرشد من جماعة من الأمراء إلى شهاب الدين محمود الحارمي خال صلاح الدين، فأنفذ إليه وأحضره وخاطبه في تولي الوزارة، فامتنع من ذلك وأشار بولاية الملك الناصر، وكان الحارمي أوّلا قد رغب في الوزارة وتحدّث فيها وحصل ما يحتاجه، فلما رأى مزاحمة عين الدولة بن ياروق وغيره عليها، خاف أن يشتغل بطلبها فتفوته، وربما فاتت صلاح الدين فأشار به، لأنها إذا كانت في ابن أخته كانت في بيته، وكان صلاح الدين قد وقع من العاضد، بموقع وأعجبه عقله وسداد رأيه وشجاعته وإقدامه على شاور في موكبه، وأنه قتله حين جاءه أمره ولم يتربص ولا توقف، فسارع إلى تقليده الوزارة، وما خرج شهاب الدين الحارمي من حضرة العاضد إلا وخلع الوزارة قد سبقت إلى الملك الناصر، وكانت خلعة الوزارة عمامة بيضاء تنيسي بطرز ذهب، وثوب دبيقي بطرازي ذهب، وجبة تحتها سقلاطون بطرازي ذهب، وطيلسان دبيقي بطرازي دقيق ذهب، وعقد جوهر قيمته عشرة آلاف دينار، وسيف محلى بجوهر قيمته خمسة آلاف دينار، وفرس حجر صفراء من مراكب العاضد قيمتها ثمانية آلاف دينار، لم يكن بالديار المصرية أسبق منها، وطوق تخت وسرفسار ذهب مجوهر، وفي رقبة الحجر مشدّة بيضاء، وفي رأسها مائتا حبة جوهر، وفي أربع قوائم الفرس أربع عقود جوهر وقصبة ذهب في رأسها طلعة مجوهرة، وفي رأسها مشدّة بيضاء بأعلام ذهب، ومع الخلعة عدّة بقج، وعدّة من الخيل، وأشياء أخر، ومنشور الوزارة ملفوف في ثوب أطلس أبيض، وكان ذلك يوم الإثنين الخامس والعشرين من جمادى الآخرة سنة أربع وستين وخمسمائة، وقرىء المنشور بين يدي الملك الناصر يوم جلوسه في دار الوزارة، وحضر جميع أرباب الدولتين المصرية والشامية، وكان يوما عظيماً، وخلع السلطان على جماعة الأمراء والكبراء ووجوه البلد وأرباب دولة العاضد، وعم الناس جميعهم بالهبات والصلات، ولما استقرت قدمه في الوزارة والرياسة قام في الرعية مقام من قام بالشريعة والسياسة، ونظم بحسن تدبيره من الدولة

بددها، وجرى في مناهج العدل على جددها، وحيعل إلى جوده وفضله، ونادى إلى رفده وبذله، وكاتب الأطراف بما صار إليه من السلطان، وسر قلوب الأصدقاء والأحباب بما حصل عليه من شريف الرتبة والمكان، واستدعى إلى حوزته الأصحاب والأهل وروى بسيح كرمه من بعد منه وقرب من أهل الفضل ، وتاب من الخمر، وعدل عن اللهو، وتيقظ للتدبير، وسها عن السهو، وتقمص بلباس الدين، وحفظ ناموس الشرع المبين، وشمر عن ساق الجدّ والاجتهاد، وأفاض على الناس من كرمه وجود جوده شآبيب فضله النائب عن العهاد، وورد عليه القصاد والزوار، وأمر بنفائس الخطب وجواهر الأشعار.

حدّثني بعض الأمراء قال: أقبل العاضد على السلطان الملك الناصر، وأحبه محبة عظيمة، وبلغ من محبته له أنه كان يدخل إليه إلى القصر راكباً، فإذا حصل عند أقام معه في قصره اليوم والعشرة لايعلم أين مقره.

قال: ولما استولى الملك الناصر على الوزارة وما ل إليه العاضد وحكمه في ماله وبلاده، حسده من كان معه بالديار المصرية من الأمراء الشامية كابن ياروق وجرديك وجماعة من غلمان نور الدين، ثم إنهم فارقوه وصاروا إلى الشام.

وحدّثني أبي رحمه الله قال: حدّثني جماعة من أصحاب نور الدين أن نور الدين لما اتصل به وفاة أسد الدين ووزارة صلاح الدين، وما قد انعقد له من المحبة في قلوب الرعايا أعظم ذلك وأكبره، وتأفف منه وأنكره، وقال : كيف أقدم صلاح الدين أن يفعل شيئاً بغير أمري، وكتب في ذلك عدّة كتب، فلم يلتفت الملك الناصر إلى قوله، إلا أنه لم يخرج عن طاعته وأمره، وأنه ما فارق قبول رأيه وإشارته، وأمر نور الدين من بالشام من أهل صلاح الدين وأصحابه بالخروج إليه، وطلب منه حساب مصر، وما صار إليه، وكان كثيراً ما يقول: ملك ابن أيوب.

قلت: هذا كله مما تقتضيه الطباع البشرية والجبلة الآدمية، وقد أجرى الله سبحانه وتعالى العادة بذلك إلا من عصم الله ومن أنصف عذر، ومن عرف صبر، والذي انكره نور الدين إفراط صلاح الدين في تفرقة الأموال واستبداده، بذلك من غير مشاورته، هذا مع أن ابن أبي طيّ متهم فيما ينسبه إلى نور الدين مما لا يليق به، فإن نور الدين رحمه الله كان قد أذل الشيعة بحلب، وأبطل مشاعرهم، وقوّى أهل السنة، وكان والد ابن أبي طيّ من رؤوس الشيعة فنفاه من حلب، وقد ذكر ذلك كله ابن أبي طي في كتابه مفرقا في مواضع، لهذا هو في الكتاب الذي له كبير الحمل على نور الدين رحمه الله، فلا يقبل منه ما ينسبه إليه مما لا يليق به، والله أعلم.

قال: ولما ملك الملك الناصر مصر إنتزع نور الدين حمص والرحبة من ناصر الدين بن أسد الدين، وفرق عماله وأعطاه تل باشر، ثم أخذها منه، ولقد كان يتألم لملك الملك الناصر، ويقال أنه لما مرض قال: ما أخطأت إلا في انفاذي أسد الدين إلى مصر بعد علمي برغبته فيها، وما يحزنني شيء كعلمي بما ينال أهلي من يوسف بن أيوب ، ثم التفت إلى أصحابه فقال: إذا أنا مت فصيروا بابني اسماعيل إلى حلب فإنه لايبقي عليه غيرها.

قال ابن أبي طيّ: ولقد كان يبلغ الملك الناصر من أقوال نور الدين وأقوال أصحابه أشياء تؤلمه وتمضه، غير أنه يلقاها بصدر رحب، وخلق عذب، حدّثني أبي عن ابن قاضي الدهليز، وكان من خواص الملك الناصر، قال: جرى يوما بين يدي السلطان ذكر نور الدين، فأكثر الترحم عليه ثم قال: والله لقد صبرت منه على مثل حز المدى ووخز الإبر، وما قدر أحد من أصحابه أن يجد عليّ ما يعتده ذنباً، ولقد اجتهد هو بنفسه أيضاً أن يجد لي هفوة يعتدّها علي، فلم يقدر، ولقد كان يعتمد في

مخاطباتي ومـراسلاتي على الأشيـاء التي لايصبر على مثلهـا لعلي اتضرر أو أتغير فيكون ذلك وسيلة له إلى منابذتي، فما أبلغته أربه يوما قط.

قلت: قـد وقفت على كتاب بخـط نور الـدين رحمه الله يشكر فيـه من صلاح الدين رحمه الله، وذلك ضدّ ما قالـه ابن أبي طيّ، كتب نور الدين ذلـك الكتـاب إلى الشيـخ شرف الـديـن بـن أبي عصرون رحمه الله وهـو بحلب ليـوليه قضـاء مصر صورته: « حسبـي الله وكفى، وفـق الله الشيخ الإمام شرف الديـن لطاعته، وختم له بخير، غير خاف على الشيـخ ما أنا عليه وفيه، وكـل غرضي ومقصودي في مصالح المسلمين، ومـا يقربني إلى الله، والله وليّ التوفيـق ، والمطلع على نيتي، وأنـت تعلم نيتي كما قـال عز من قـائل: (ومن عنده علـم الكتاب)(١٠٩) أنت تعلـم أن مصر اليوم قد لزمنا النظر فيها، فهي مـن الفتوحات الكبار التي جعلها الله تعالى دار إسلام بعـدما كانت دار كفـر ونفاق فلله المنة والحمـد ألا إن المقدّم على كل شيء أمور الـدين التي هي الأصل وبها النجـاة، وأنت تعلم أن مصر واقليمها ما هي قليلـة، وهي خالية من أمور الشرع وما تـدخر الدموع إلاّ للشـدائد، وأنا مـا كنـت أسخى ولا أشتهـي مفـارقتك، والآن فقـد تعين عليك وعليّ أيضاً أن ننظـر إلى مصالحها، وما لنا أحـد اليوم لها إلا أنت ، ولا أقدر أولي أمورها ولا أقلدها إلاّ لـك حتى تبرأ ذمتي عند الله، فيجب عليك وفقـك الله أن تشمر عن ساق الاجتهـاد، وتتولى قضاءهـا، وتعمل ما تعلـم أنه يقـربك إلى الله ، وقـد برئت ذمتـي وأنت تجاوب الله ، فـإذا كنت أنـت هناك وولـدك أبو المعالي وفقـه الله فيطيب قلبـي، وتبرأ ذمتي، وقـد كتبـت هذا بخطـي حتـى لايبقـى عليّ حجـة، تصل أنـت وولـدك عندي، حتـى أسيركم إلى مصر والسـلام، بموافقـة صاحبـي واتفاق منـه صلاح الـدين، وفقـه الله ، فأنا منـه شاكـر كثير كثير كثير، جزاه الله خيراً وأبقاه ففي بقاء الصالحين والاخيار صـلاح عظيم، ومنفعة لأهل الإسلام، الله تعالى يكثر من الاخيار وأعـوان الخير، وحسبنا الله ونعم الوكيل، وصلى الله على سيدنا محمد وآله وصحبه وسلم تسليماً».

قال ابن أبي طيّ: وأبطل صلاح الدين من المكوس والمظالم ما يستخرج بديوان صناعة مصر مائة ألف دينار، وما يستخرج بالأعمال القبلية والبحرية مائة ألف دينار، فسامح بجميع ذلك، وأمر بكتابة سجل به من ديوان الإنشاء، وأنفذ إلى سائر أعمال مصر يقرأ على المنابر، وعرض عليه سياقة جرائد الدواوين في جهات المستخدمين والعاملين لعدّة سنين متقدّمة آخرها سنة أربع وستين وخمسمائة، فكان مبلغه ينيف عن ألف ألف دينار وألفي ألف أردب غلة، فسامح في جميع ذلك وأبطله من الدواوين وأسقطه عن المعاملين، وأنهي إليه ما يستأدى من الحجاج بالحجاز المحروس من المكوس فأنكره وأكبره، وعوّض عنه بعدّة ضياع، فأغاث أهل الحجاز بها أوسعهم من العين والغلة أشياء يطول شرحها.

قلت: وسيأتي كل ذلك في موضعه، ونسخة منشور إسقاط المكوس في أخبار سنة سبع وستين وذلك باشارة نور الدين رحمه الله وفي أيامه .

فصل

ذكر العماد في ديوانه قصيدة يمدح بها نور الدين ويهنيه بملك مصر، ولم يذكرها في كتاب البرق منها:

بملك مصر أهني مالك الأمم
فاسعد وأبشر بنصر الله عن أمم

أضحى بعدلك شمل الملك ملتئماً
وهل بعدلك شيء غير ملتئم

يا فاعل الخير عن طبع بلا كلف
ومولي العرف عن خلق بلا سأم

ورامقا ثلم ثغر الكفر تعجمه
لا لثم ثغر شتيت واضح شبم

لله درك نـــور الـــديـــن مـــن ملـــك
بـــالعـــزم مفتتـــح بـــالنصر مختتـــم
أثـــار عـــزمـــك في الإســـلام واضحـــة
وسرّه لـــك بـــاد غير مكتتـــم
بها مـــن العـــدل والاحســـان تنشره
تخاف ربـــك خـــوف المذنـــب الأثـــم
أوردت مصر خيـــول النصر عـــادمـــة
ثنـــي الأعنـــه اقـــدامـــا على اللجـــم
فـــأقبلـــت في سحـــاب مـــن ذوابلهـــا
وقضبهـــا بـــدمـــاء الهام منسجـــم
تمكـــن الـــرعـــب في قلـــب العـــدوّ بها
تمكـــن النـــار بـــالاحـــراق في الفحـــم
سرت لتقطـــع مـــا للكفـــر مـــن سبـــب
واه وتـــوصـــل مـــا للـــديـــن مـــن رحـــم
مستسهـــلات وعـــور الطـــرق في طلـــب
العليـــا مقتحمات أصعـــب القحـــم
وعـــاجـــلات مـــن الافـــرنـــج غلهـــم
والقيـــد في مـــوضـــع الأطـــواق والخدم
لقـــد شفـــت غلـــة الإســـلام وانتقمـــت
مـــن العـــدوّ بحـــد الصـــارم الخذم
أعـــانها الله في إطفـــاء جمر أذى
مـــن شر شـــاور في الإســـلام مضطـــرم
وأصبحـــت بـــك مصر بعـــد خيفتهـــا
لـــلأمـــن والعـــز والإقبـــال كـــالحرم
والسنـــة اتسقـــت والبـــدعـــة أنمحقـــت
وعـــاودت دولـــة الاحســـان والكـــرم
ملـــوكهـــا لـــك صـــاروا أعبـــداً وغـــداً
بها عبيـــدك أمـــلاكـــاً ذوي حـــرم

أنبت عنك بها قرما ينوب بها
في البأس عن عنتر في الجود عن هرم

لله درّك نور الدين من ملك
عدل لحفظ أمور الدين ملتزم

كانت ولاية مصر قبل عزتها
بكشف دولتها الحما على وضم

فالنيل ملتطم جار على خجل
جاراً البحر نوال منك ملتطم

أغز الفرنج فهذا وقت غزوهم
واحطم جموعهم بالذابل الحطم

وطهر القدس من رجس الصليب وثب
على البغاث وثوب الاجدل القطم

فملك مصر وملك الشام قد نظما
في عقد عز من الاسلام منتظم

محمود الملك الغازي يسوسها
بالفضل والعدل والافضال والنعم

بالشكر كل لسان ناطق أبداً
محمود الملك محمود بكل فم

فاشك مصر واظهر عز سنتها
كم تعتفي وإلى كم تشتكي وكم

ولعلم الدين الشاتاني في نور الدين رحمه الله

ما نال شاؤك في المعالي سنجر
كلا ولا كسرى ولا اسكندر

يا خير من ركب الجياد وخاض في
لجج المنايا والاسنة تقطر

هل حاز غيرك ملك مصر وصار من
اتباعه من جده المستنصر

والمستضي بالله معتمد به
وبجده وبحده مستظهر
أوسد بالشام الثغور محاميا
للدين حتى عاد عنها قيصر
يبكي فيروي الأرض بحر دموعه
والجو من أنفاسه يتسعر
أوما أبوك بسيفه فتح الرها
والأسد تقتنص الكماة وتزأر
هابت ملوك الأرض بأس كماتها
فتقاعدوا عن قصدها وتأخروا
ما ضره طي المنية ذاته
وصفاته بين البرية تنشر
فلكم على كل الملوك مزية
لوقائع مشهورة لا تنكر
وإذا عددنا للأنام مناقبا
فعليك قبل الكل يثنى الخنصر
في الرأي قيس في السماحة حاتم
في النطق قس في البسالة حيدر
دانت لك الدنيا وأنت تعافها
وسواك في آماله يتعثر
من ذا يصون الصين عنك وأنت من
أسد الشرى منه تخاف وتحذر

قال العماد: وأنفذ صلاح الدين من مصر خلعاً لجماعة من الأعيان وأنفذ للعماد عمامة ملبوسة، فكتب إليه قصائد في هذا المعنى منها:

يا صلاح الدين الذي أصلح الفا
سد بالعدل من خطوب الزمان
أنت أجريت نيل مصر إلى الشا
م نوالا أم سال نيل ثاني

وعلى نيلهـــا الكفيـــك فضـــل
فهما بـــالنضـــار جـــاريتـــان
وصلـــت أعطيـــاؤك الغـــر غـــزرا
فتلقـــت آمـــالنـــا بـــالتهـــاني
خلـــع راقـــت العيـــون وراعـــت
وعـــلا وصفهـــا عـــن الامكـــان
مـــذهبـــات كـــأنها خلـــع الرضـــ
ـــوان قـــد أهـــديـــت لاهـــل الجنـــان
مشرقـــات بطـــرزهـــا الـــذهبيـــا
ت الحســـان الـــرفيعـــة الأثمان
فـــالعمامـــات كـــالغمامـــات والطـــر
ز بـــروق كثيرة اللمعـــان
والموالي بها مـــن التيـــه والفخـــ
ـــر على الـــدهـــر ســـاحبـــو الأردان
كيـــف خـــص العماد بـــالأدون المخـــ
ـــلق مـــن عصبـــة الـــديـــوان
أخليـــق مـــن نسجـــه لـــك في المد
ح جـــديـــد بـــأمهـــن الخلقـــان
وكـــذا عـــادة الليـــالي تخص الـــ
ـــفاضل المستحـــق بـــالحرمـــان
لم تـــزل ســـائرات جـــودك بـــالشـــ
ـــام لـــديـــه غـــزيـــرة التهتـــان
فـــإذا لم تـــزده مصر كمالا
في المنـــى فـــاحمه مـــن النقصـــان

وكتب إلى فخر الدين أخي صلاح الدين قصيدة منها:
عبـــدك شمـــس الـــدولـــة المرتجا
منتظـــر تشريفـــك المذهبـــا

فـاعتـب صـلاح الـديـن لي حـالتـي
عسـاه بـالاصـلاح أن يعتبـا
غـرّقـه مـاتـم فـإني أرى
مـن فضلـه للفضـل أن يغضبـا
وكيـف يـرضـى ذاك بعـض الـرضـى
ومجده يـأبـاه كـل الابـا
وقـل لـه جـاءتـه ملبـوسـة
تخلفـت مـن تبـع في سبـا
عمامـة رقـت ورثـت فما
نشرتها إلا وطـارت هبـا

قال : فوصل من صلاح الدين عمامة مذهبة وكتب يعتذر عن العمامة التي قبلها ، وكتب إلى سعد الدين كمشتكين كتاباً يقول فيه: استعير لسانه في الاعتذار إلى العماد فإني استقل لمرامه إرم ذات العماد، فكتب العماد:

أمـا العماد فقـد تضـاعـف شكـره
نعماك شكـر الـروض نعمـى الصيـب
لعمامـة ذهبيـة كغمامـة
يبـدو بها بـرق الطـراز المغـربي
مـا كـان أحسـن حـالـه لـو أنـه
شفعـت عمامتـه بثـوب مـذهـب

قال وكتب إليه:

أهنـي الملـك النـا
صر بـالملـك وبـالنصر
ومـا مهـد مـن بنيـا
ن ديـن الحق في مصر

ومـــــا أســــــداه مــــــن بـــــر
بـــــــلاعـــــــــد ولاحصر
ومــــا أحيـــــاه مــــن عــــدل
ومــــا خفــــف مـــــن إصر
وأعـــــلاء سنـــــا ألسنـــــ
ـــــــة في بحبـــوحـــة القصر
قـــــد استـــــولى على مصر
بحـــق يـــــوســـف العصر
وأحيــــا سنـــــة الاحســـا
ن في البـــــــــدو وفي الحضر

وكتب إليه الأمير أسامة بن منقذ من قصيدة أوّلها يقول:
ديـــار الهوى حيـــا معـــا لمك القطـــر
وجـــادك جـــود النـــاصر الغــدق الهمـــر
بـــه رجعـــت في عنفـــوان شبـــابها
ونضرتها مـــن بعـــد مـــا هـــرمـــت مصر
وكـــم خـــاطـــب ردّتـــه لم يـــك كفـــؤهـــا
إلى أن أتـــاهـــا خـــاطـــب سيفـــه المهـــر
حماهـــا حمى الليـــث العـــريـــن وصـــانها
كما صـــان عينـــا مـــن مسلـــم القـــذى شفـــر
وكـــان بها بحـــر أجـــاج فـــأصبحـــت
ومـــن جـــوده العـــذب النمير بها بحـــر

وله فيه من أخرى:
فما أنـــت إلا الشمـــس لـــو لاك لم تـــزل
على مصر ظلماء الضـــلالـــة سرمـــدا
وكـــان بها طغيـــان فـــرعـــون لم يـــزل
كما كـــــان لما أن طغـــــي وتمرّدا
فبصرتهم بعـــد الغـــوايـــة والعمـــى
وأرشـــدتهم تحت الضـــلال إلى الهدى

وله فيه من أخرى

قل للملوك تزحزحوا عن ذروة الـ ... ـعلياء للملك الهمام الناصر

يعطي الألوف ويلتقيها باسما ... طلق المحيا في القنا المتشاجر

وقرأت في ديوان العرقلة : وقال في المولى الملك الناصر، وقد أنفذ له من ديار مصر ذهبا ولغيره سلاما:

صلاح الدين قد أصلحت دنيا ... شقي لم يبت إلا حريصا

أتى منك السلام لنا عموما ... وجودك جاءني وحدي خصوصا

فكنت كيوسف الصديق لما ... تلقى منه يعقوب القميصا (١٢٠)

وكان العرقلة من جملة المتردّدين إلى صلاح الدين أيام كونه بدمشق ، فلما صار إلى مصر وعده أنه متى ملكها أعطاه ألف دينار، فلما تم أمره بمصر كتب إليه العرقلة قصيدة منها:

إليك صلاح الدين مولاي أشتكي ... زمانا على الحر الكريم يجوز

ترى أبصر الألف التي كنت واعدي ... بها في يدي قبل الممات تصير

وهيهات والأفرنج بيني وبينكم ... سياج قتيل دونه وأسير

ومن عجب الأيام أنك ذو غنى ... بمصر ومثلي بالشآم فقير (١١١)

وقال أيضا:

قـــل للصـــلاح معينـــي عنـــد اعســـاري
يـــا ألـــف مـــولاي أيـــن الألـــف دينـــار
أخشـــى مـــن الأسر إن حـــاولـــت أرضكـــم
ومـــا تفـــي جنـــة الفـــردوس بـــالنـــار
فجـــد بهـــا عـــسجـــديـــات مسطـــرة
مـــن بعـــض مـــا خلـــف الطـــاغـــي أبـــو الطـــاري
حمراً كـــأسيـــافكـــم غبراً كخيلكـــم
عتقـــاً ثقـــالاً كـــأعـــدائـــي وأطـــهاري (١١٢)

يعني بالطاغي شاوراً وله ابن اسمه الطاري، وأنفذ له من مصر عشرين دينار فقال:

يـــا مـــاالكـــامـــابـــرحـــت كفـــه
تجـــود بـــالمـــال على كفـــي
أفلـــح بـــالعشريـــن مـــن لم يـــزل في
رأس عشريـــن مـــن الكهـــف
يـــا ألـــف مـــولاي ولكنهـــا
محســـوبـــة مـــن جملـــة الألـــف (١١٣)

وذكر العماد في الخريدة أن العرقلة قصد صلاح الدين إلى مصر، فأعطاه ذلك وأخذ له من أخوته مثله، فعاد إلى دمشق وهو مسرور محبور، وكان ذلك ختام حياته، ودنا أجل وفاته، فمات بدمشق في سنة ست أوسبع وستين وخمسمائة .

قلت: وفي ديوانه ما يدل على قدومه مصر، فإن فيه: وقال وكتبها على حمام عمرها المولى الملك الناصر بديار مصر المحروسة:

يـــا داخـــل الحمام هنيتهـــا
دائرة كـــالفلـــك الـــدائر
تـــأمـــل الجنـــة قـــد زخـــرفـــت
وعمـــرت للملـــك النـــاصر

كـــــأنها فيـــــــض أنـــــابيبهـــــا
نـــــــداه للـــــــوارد والصـــــادر

-٧٩٩٢-

فصل

في قتل المؤتمن بالخرقانية ووقعه السودان بين القصرين وغير ذلك

قال العماد: وشرع صلاح الدين في نقص اقطاع المصريين، فقطع منهم الدوائر من أجل من معه من العساكر، وكان بالقصر خصي يدعى بمؤتمن الخلافة، متحكم في القصر، فأجمع هو ومن معه على أن يكاتبوا الفرنج ويقبضوا على الأسدية، لأن صلاح الدين يخرج إلى الفرنج بمن معه فيؤخذ من بقي من أصحابه بالقاهرة، ويتبع من ورائهم فتكون عليهم الدائرة ، فكاتبوا الفرنج واتفق أن رجلاً من التركمان عبر بالبئر البيضاء فرأى مع إنسان ذي خلقان نعلين جديدين ليس بهما أثر مشي فأنكرهما، فأخذهما وجاء بهما إلى صلاح الدين ففتقهما فوجد مكاتبة للفرنج فيهما من أهل القصر يرجون بحركتهم حصول النصر، فأخذ الكتاب وقال: دلوني على كاتب هذا الخط فدلوه على يهودي من الرهط فلما أحضروه ليسألوه ويعاقبوه على خطه ويقابلوه نطق بالشهادة قبل كلامه، ودخل في عصمة اسلامه، ثم اعترف بما جناه وشيده من الأمر وبناه، وأن الآمر به مؤتمن الخلافة وأنه بريء من هذه الآفه، فحسن لدى السلطان إسلامه، وثبت اعتصامه، وعرف استسلامه ورأى اخفاء هذا السر واكتتامه، واستشعر الخصي العصي وخشي أن يسبقه على شق العصا العصي، فما صار يخرج من القصر مخافة، وإذا خرج لم يبعد مسافة، وصلاح الدين عليه مغضب، وعنه مغض لا يأمر فيه ببسط ولا قبض إلى أن استرسل واستبسل، فظن أن ما نسله من الشر العقيم نصل، وكان له قصر في قرية يقال لها الخرقانية لخرقه ورقع ما يتسع عليه من خرقه، وهو بقرب قليوب فخلا فيه يوما للذته، ولم يدر أنه يوم ذلته وانقضاء ساعاته بانقضاء دولته، فأنهض إليه صلاح الدين من أخذ

رأسه ونزع من جاء به لباسه، وذلك يوم الأربعاء الخامس والعشرين من ذي القعدة سنة أربع، فورد موارده من رداه على أدون مشرع.

قال: ولما قتل غار السودان وثاروا، وكانوا أكثر من خمسين ألفاً وكانوا إذا قاموا على وزير قتلوه واجتاحوه وأذلوه واستباحوه واستحلوه، فحسبوا أن كل بيضاء شحمه وأن كل سواد فحمه، فثار أصحاب صلاح الدين إلى الهيجا ومقدّمهم الأمير أبو الهيجا، واتصلت الحرب بين القصرين وأحاطت بهم العسكرية من الجانبين، ودام الشر يومين حتى حس الأساحم بالجبن، وكلما لجؤوا إلى محلة أحرقوها عليهم وحووا ما حواليهم واخرجوا إلى الجيزة وأذلوا بالنفي عن منازلهم العزيزة، وذلك يوم السبت الثامن والعشرين من ذي القعدة، فما خلص السودان بعدها من الشدّة، ولم يجدوا إلى الخلاص سبيلا، وأينما وقفوا أخذوا وقتلوا تقتيلا، وكانت لهم على باب زويلة محلة تسمى المنصورة، وكانت بهم المعمرة المعمورة، فأخلى بنيانها من القواعد، فأصبحت خاويه، ثم حرثها بعض الأمراء واتخذها بستانا، فهي الآن جنة لها ساقية.

قال: وكان قد وصل إلى صلاح الدين قبيل هذه النوبة أخوه الأكبر فخر الدين شمس الدولة تورانشاه بن أيوب ، أنفذه إليه نور الدين من دمشق يشد أزره بمصر لما سمع بحركة الفرنج وأهل القصر، فوصل القاهرة في ثالث ذي القعدة. قال: وباشر بنفسه وقعة السودان هذه، وكان له فيها أثر عظيم، ومن عجيب ما اتفق أن العاضد كان يتطلع من المنظرة يعاين الحرب بين القصرين ، فقيل إنه أمر من بالقصر أن يقذفوا العساكر الشامية بالنشاب والحجارة ففعلوا، وقيل إن ذلك كان عن غير اختيار، فأمر شمس الدولة الزراقين باحراق منظرة العاضد فهم أحد الزراقين بذلك وإذا باب المنظرة قد فتح وخرج منه زعيم الخلافة وقال: أمير المؤمنين يسلم على شمس الدولة ويقول: دونكم العبيد الكلاب

أخرجوهم من بلادكم، وكانت العبيد مشتدّة الأنفس بأن العاضد راض بفعالهم، فلما سمعوا ذلك فت في أعضادهم فجبنوا وتخاذلوا وأدبروا.

وبما كتبه العماد على لسان غيره إلى صلاح الدين قصيدة منها

بالملك الناصر استنارت
في عصرنا أوجه الفضائل

على من حقه فروض
شكراً الماجد من نوافل

يوسف مصر الذي إليه
تشدّ آمالنا الرواحل

أجريت نيلين في ثراها
نيل نجيع ونيل نائل

وما نفيت السودان حتى
أحكمت البيض في المقاتل

صيرت رحب الفضاء ضيقاً
عليهم كفة لحائل

وكل راء منهم كراء
وأرض مصر كلام واصل

وقد خلت منهم المغاني
وأقفرت منهم المنازل

وما أصيبوا إلاّ بطل
فكيف لو أمطروا بوابل

والسود بالبيض قد أبيحوا
فهي نواز بهم نوازل

مؤتمن القوم خان حتى
غالته من شدة غوائل

عاملكم بالخنا فأضحى
ورأسه فوق رأس عامل

يا محجل البحر بالأيادي
قد آن أن تفتح السواحل

فقدّس القدس من خبات
أرجاس كفر غتم أراذل

قال العماد: ومما مدح به صلاح الدين في ذلك التاريخ تهنئة له بالملك، وتعزية بعمه:

أيا يوسف الاحسان والحسن خير من
حوى الفضل والافضال والنهى والأمرا
ومن للهدى وجه النجاح برأيه
تجلي وثغر النصر من عزمته افترا
حمى حوزة الدين الحنيف بحوزه
من الخالق الحسنى ومن خلقه الشكرا
أبوه أبى إلاّ العلا وعمه
بمعروفه عم الورى البدو والحضرا
وطال الملوك شيركوه بطوله
وما شاركوه في العلا فحوى الفخرا
بنو الأصفر الافرنج لاقوا ببيضه
وسمر عواليه منا ياهم حمرا
وما أبيض يوم النصر واخضر روضه
من الخصب حتى أسودّ بالنقع واغبرا
رأى النصر في تقوى الاله وكل من
تقوى بتقوى الله لا يعدم النصرا
ولما رأى الدنيا بعين ملالة
أغذ من الأولى مسيراً إلى الأخرى
وقام صلاح الدين بالملك كافلا
وكيف ترى شمس الضحى تخلف البدرا
ولما صبت مصر إلى عصر يوسف
أعاد إليها الله يوسف والعصرا
فأجرى بها من راحتيه بجوده
بحارا فسماها الورى انملا عشرا

هزمتم جنود المشركين برعبكم
فلم يلبثوا خوفا ولم يمكثوا ذعرا
وفرقتم من حول مصر جموعهم
بكسر وعاد الكسر من أهلها جبرا
وآمنتم فيها الرعايا بعدلكم
وأطفأتم من شرشاورها الجمرا
بسفك دم حطتم دماء كثيرة
وحزتم بما أبديتم الحمد والشكرا
وما يرتوي الاسلام حتى تغادروا
لكم من دماء الغادرين بها غدرا
فصبوا على الأفرنج سوط عذابها
بأن يقسموا ما بينها القتل والأسرا
ولا تهملوا البيت المقدّس واعزموا
على فتحه غازين وافترعوا البكرا
تديمون بالمعروف طيب ذكركم
وما الملك إلا أن تديموا الكم ذكرا
وإن الذي أثرى من المال مقتر
وان تفنه في كسب محمدة أثرى

قال : وكثرت كتب صلاح الدين إلى أصدقائه مبشرة بطيب أنبائه فمنها كتاب ضمنه هذا البيت:

ما كنت بالمنظور أقنع منكم
ولقد رضيت اليوم بالمسموع

فقلت في جوابه أبياتا منها هذه:

يا هل لسالف عيشتي بفنائكم
من عودة محمودة ورجوع
مذ غبتم عن ناظري ما أذنت
للقلب شمس مسرة بطلوع

كنت المشفع في المطالب عندكم
فغدوت أطلب طيفكم بشفيع
أصبحت أقنع بالسلام على النوى
وبقربكم كم بت غير قنوع

قال: ووصل أيضا منه كتاب ضمنه هذا البيت:
وانثر در الدمع من قبل أبيضا
وقد حال مذ بنتم فأصبح ياقوتا

فنظمت في جوابه أبياتا منها:
هنيئا لمصر حوز يوسف ملكها
بأمر من الرحمن قد كان موقوتا
وما كان فيها قتل يوسف شاورا
يماثل إلا قتل داود جالوتا
وقلت لقلبي أبشر اليوم بالمنى
فقد نلت ما أملت بل حزت ما شئتا

قال: وفي هذه السنة قتل العاضد بالقصر ابنى شاور: الكامل ، وأخاه يعني الطاري، يوم الإثنين الرابع من جمادى الآخرة، وذلك أنه لما قتل شاور عاذوا في القصر فكأنما نزلوا في القبر فلو أنهم جاؤوا إلى أسد الدين سلموا وامتنعوا وعصموا، فإنه ساءه قتل شاور وإن كان أمن بقتله ما حاذر.

قلت: الكامل هو شجاع بن شاور، وكان له أخوان طي تقدّم ذكر قتل ضرغام له، والآخر الطاري.

قال الفقيه أبو الحسن علي بن محمد بن أبي السرور الروحي في تاريخه:أخذ ابنا شاور شجاع الملقب بالكامل والطاري الملقب بالمعظم ، وأخوه الملقب بفارس المسلمين ، فقتلوا ودير برؤوسهم.

قال: لما ولي صلاح الدين ساس الرعية، وأظهر لهم من العدل مالم يعلموه، فاجتمع أهل البلاد وكرهوه، فأوقع براجلهم وأخرجهم من القاهرة إخراجا عنيفاً، وأخرج بعد ذلك فارسهم، وشتت شملهم (فتلك بيوتهم خاوية بما ظلموا)(١١٥) .

قال: ولما كانت سنة ست وستين رفع جميع المكوس صادرها وواردها، جليلها وحقيرها، وغزا بلاد الشام غزوتين.

قال ابن شداد: وفي المحرم من هذه السنة مات ياروق الذي تنسب إليه الياروقية، يعني المحلة التي بظاهر حلب.

قال غيره: وفيها احترق جامع حلب وأسواق البر، وأخذ نو الدين في عمارته آخر السنة.

ثم دخلت سنة خمس وستين وخمسمائة

ففي أول صفر منها نزل الفرنج خذلهم الله تعالى على دمياط من الديار المصرية.

قال ابن الأثير: كان فرنج الساحل لما ملك أسد الدين مصر قد خافوا وأيقنوا بالهلاك، فكاتبوا الفرنج الذين بالأندلس وصقلية يستمدّونهم ويعرفونهم ما تجدّد من ملك مصر، وأنهم خائفون على البيت المقدس، وأرسلوا جماعة من القسوس والرهبان يحرضون الناس على الحركة، فأمدّوهم بالمال والرجال والسلاح، واعتمدوا على النزول على دمياط ظنا منهم أنهم يملكونها ويتخذونها ظهراً يملكون به ديارمصر، فلما نزلوها حصروها وضيقوا على من بها، فأرسل إليها صلاح الدين العساكر في النيل، وحشر فيها كل من عنده، وأمدّهم بالمال والسلاح والذخائر، وتابع رسله إلى نور الدين يشكو ما هو فيه من المخاوف، وأنه إن تخلف عن دمياط ملكها الفرنج، وإن سار إليها خلفه المصريون في مخلفيه ومخلفي عسكره بالسوء، وخرجوا من طاعته، وصاروا من خلفه، والفرنج من أمامه، فجهز نور الدين إليه العساكر أرسالا، كلما تجهزت طائفة رسلها، فسارت إليه يتلو بعضها بعضاً، ثم سار نور الدين فيمن عنده من العساكر، فدخل بلاد الافرنج فنهبها وأغار عليها واستباحها ، ووصلت الغارات إلى مالم تكن تبلغه لخلو البلاد عن ممانع، فلما رأى الأفرنج تتابع العساكر إلى مصر، ودخول نور الدين بلادها ونهبها واخرابها، رجعوا خائبين، ولم يظفروا بشيء، وهذا موضع المثل:« ذهبت النعامة تطلب قرنين فعادت بلا أذنين» ، فوصلوا إلى بلادهم فرأوها خاوية على عروشها، وكان مدّة مقامهم على دمياط خمسين يوماً، وأخرج فيها صلاح الدين أموالا لا تحصى، حكي عنه أنه قال: ما رأيت أكرم من العاضد أرسل إليّ مدّة مقام الفرنج على دمياط ألف ألف دينار مصرية سوى الثياب وغيرها.

قال القاضي ابن شدّاد: لما علم الفرنج ما جرى من المسلمين وعساكرهم، وما تم من استقامة الأمر في الديار المصرية، علموا أن صلاح الدين يملك بلادهم، ويخرب ديارهم ويقلع آثارهم لما حدث له من القوة والملك، فاجتمع الفرنج والروم جميعا وحدّثوا نفوسهم بقصد الديار المصرية والاستيلاء عليها وملكها، ورأوا قصد دمياط لتمكن القاصد لها من البر والبحر، ولعلمهم أنها إن حصلت لهم حصل لهم مغرس قدم يأوون إليه ، فاستصحبوا المنجنيقات والدبابات والجروخ، وآلات الحصار وغير ذلك، ولما سمع الفرنج بالشام ذلك اشتدّ أمرهم، فسرقوا حصن عكار من المسلمين وأسروا صاحبها، وكان مملوكا لنور الدين يسمى خطلخ العلمدار، وذلك في ربيع الآخر منها.

وفي رجب منها توفي العمادي صاحب نور الدين وأمير حاجبه، وكان صاحب بعلبك وتدمر، ولما رأى نور الدين ظهور الفرنج ونزولهم على دمياط، قصد شغاف قلوبهم فنزل على الكرك محاصراً لها في شعبان من هذه السنة، فقصده فرنج الساحل، فرحل عنها وقصد لقاءهم فلم يقفوا له، ثم بلغه وفاة مجد الدين بن الداية بحلب في رمضان، فاشتغل قلبه لأنه كان صاحب أمره، فعاد يطلب الشام، فبلغه خبر الزلزلة بحلب التي خربت كثيراً من البلاد، وكانت في ثاني عشر شوال من السنة المذكورة، وهو بعشترا، فسار يطلب حلب فبلغه موت أخيه قطب الدين بالموصل، وكانت وفاته في الثاني والعشرين من ذي الحجة، وبلغه الخبر وهو بتل باشر، فسار من ليلته طالباً بلاد الموصل.

ولما علم صلاح الدين شدّة قصد العدوّ دمياط أنفذ إلى البلد، وأودعه من الرجال والأبطال والفرسان والميرة وآلات السلاح ما أمن معه عليه، ووعد المقيمين فيه بامدادهم بالعساكر والآلات، وازعاج العدو عنهم إن نزل عليهم، وبالغ في العطايا والهبات ، وكان وزيراً متحكماً لايرد أمره في شيء، ثم نزل الفرنج عليها في التاريخ المذكور، واشتد

زحفهـم إليها وقتـالهم لها، وهو رحمه الله عليـه يشن الغـارات عليهم مـن خـارج، والعسكـر يقاتلهـم مـن داخـل، ونصر الله المسلمين يؤيـدهـم، وحسـن قصـده في نصرة ديـن الله يسعـدهم وينجـدهـم حتى بـان لهم الخسران، وظهـر على الكفـر الإيمان، ورأوا أنهم ينجـون بـرؤوسهـم، ويسلمون بنفوسهـم، فرحلوا خائبين خـاسرين، فحرقت مجانيقهـم ونهبت آلاتهم، وقتل منهم خلق عظيم، وسلم البلد بحمد الله ومنه.

وقال العماد: أقـام صلاح الديـن بالقـاهرة في دار ملكه، ومـدار فلكه، ينهض إليها المدد بعـد المدد، ويرسل إليها العدد بعد العـدد، يسهر ليله ولا يقيل نهاره، وقد أخلـص لله سرّه وجهاره، ولاينام ولا ينيم، وعنـده من ذلـك المقعد المقيـم، وسبـق تقي الـدين ابـن أخـي السلطان إلى دميـاط فدخلها وكذا خاله شهاب الديـن محمود فنزلها، واتصل الحصار، وتواصل الأنصـار، ودب في الفرنـج الفنـا، وهب عليهـم البـلا، فـرحلوا عنهـا في الحادي والعشرين من ربيع الأول بالذل الأكمل ، والصغار الأشمل.

وكان لما وصـل الخبر إلى نور الـدين بـوصولهم واجتماعهـم على دمياط ونزولهم اغتـم واهتم، وأستعصـب الملم، وأنهض مـن عنده عسكـراً ثقيلا مقدّمـه الأمير قطب الديـن خسرو الهذباني، وكان مقـداما مقدّمـاً وهماما معلما، وأمره أن يسير بالعسكر ويخوض بهم بحر العجـاج الأكدر، فوصل في النصف مـن ربيع الأول قبـل رحيل الفرنـج باسبوع، فـوقع روعـه من الكفر في كل روع.

قلت: وبلغني من شدّة اهتمام نـور الدين رحمه الله بأمر المسلمين حين نزل الفرنـج على دمياط أنه قرىء عليه جـزء من حديث كان لـه به رواية فجاء في جملة تلك الأحاديث حديث مسلسل بالتبسم، فطلب منه بعض طلبـة الحديث أن يتبسـم لتتـم السلسلة على مـا عـرف مـن عادة أهـل الحديث، فغضـب من ذلـك وقال: إني لاستحيـي من الله تعـالى أن يراني

متبسما والمسلمون محاصرون بالفرنج، وبلغني أن إماما لنور الدين رأى ليلة رحيل الفرنج عن دمياط في منامه النبي صلى الله عليه وسلم، وقال له: أعلم نور الدين أن الفرنج قد رحلوا عن دمياط في هذه الليلة، فقال: يا رسول الله ربما لا يصدّقني ، فإذكر لي علامة يعرفها، فقال: قل له: بعلامة ما سجدت على تل حارم، وقلت يارب انصر دينك، ولا تنصر محموداً، من هو محمود الكلب حتى ينصر، قال: فانتبهت ونزلت إلى المسجد، وكان من عادة نور الدين أنه كان ينزل إليه بغلس، ولا يزال يتركع فيه حتى يصلي الصبح، قال:فتعرضت له فسألني عن أمري فأخبرته بالمنام، وذكرت له العلامة إلا أنني لم أذكر لفظه الكلب، فقال نور الدين: اذكر العلامة كلها وألح علي في ذلك، فقلتها، فبكى رحمه الله وصدّق الرؤيا ، فأرخت تلك الليلة فجاء الخبر برحيل الفرنج بعد ذلك في تلك الليلة.

فصل

أرسل نور الدين كتابا إلى العاضد صاحب القصر يهنيه برحيل الفرنج عن ثغر دمياط، وكان قد ورد عليه كتاب العاضد بالاستقالة من الأتراك في مصر خوفاً منهم ، والاقتصار على صلاح الدين و الزامه وخواصه، فكتب إليه نور الدين يمدح الأتراك، ويعلمه أنه ما أرسلهم، واعتمد عليهم إلا لعلمه بأن قنطاريات الفرنج ليس لها إلا سهام الأتراك ، فإن الفرنج لايرهبون إلا منهم ولولاهم لزاد طمعهم في الديار المصرية وتحصلوا منها على الأمنية، فلعل الله ييسر فتح المسجد الأقصى، مضافاً إلى نعمه التي لاتحصى، قلت ولعمارة اليمنى من قصيدة:

من شاكر والله أعظم شاكر ... ما كان من نعمى بني أيوب

طلب الهدى نصراً فقال وقد أتوا ... حسبي فأنتم غاية المطلوب

حلـــوا إلى دميـــاط عنــــد حصـــارهـــا
عـــز القـــــوي وذلـــــة المغلـــــوب
وجلـــوا عـــن الاســلام فيهـــا كـــربـــة
لـــو لم يجلـــوهـــا أتـــت بكـــروب
فـــــالنـــــاس في أعمال مصر كلهـــــا
عتقـــاؤهـــم مـــن نـــازح وقـــريـــب
إن لم تظـــن النـــاس قشرا فـــارغـــاً
وهـــم اللبـــاب فـــأنـــت غير لبيـــب

وللشهاب فتيان الشاغوري من قصيدة يقول:
ولا غـــر وأن عـــاد الفـــرنـــج هـــزيمـــة
ولـــو لم تعـــد لم يبـــق للشرك ســـاحـــل
فقـــد أيقنـــت أعـــداؤه أن حظهـــم
لـــديـــه رمـــاح اشرعـــت أو ســـلاســـل
ولما أتـــوا دميـــاط كـــالبحـــر طـــاميـــا
وليـــس لـــه مـــن كثـــرة القـــوم ســـاحـــل
يـــزيـــد عـــن الاحصـــاء والعـــد جمعهـــم
ألـــوف ألـــوف خيلهـــم والـــرواجـــل
رأوا دونهم أســـدا بـــأيـــديهم القنـــا
وبيضـــا رقـــاقـــا أحكمتهـــا الصيـــاقـــل
ودار وابها في البحـــر مـــن كـــل جـــانـــب
ومـــن دونها اســـد مـــن الموت حـــائل
رجـــا الكلـــب ملـــك الـــروم إذ ذاك فتحهـــا
فخـــاف فـــأم الملـــك والـــروم هـــابـــل
فعـــادوا على الأعقـــاب منهـــا هـــزيمـــة
كـــأنهم ذلا نعـــام جـــوافـــل
ومـــا أملـــوا أن يلحقـــوا ببـــلادهـــم
لتعصمهـــم ممـــا رأوه المعـــاقـــل

قال العماد: وسألني كريم الملك أن أعمل له أبياتا في صلاح الدين تهنئة بالنصر في دمياط، فعملت قصيدة منها:

يا يوسف الحسن والاحسان يا ملكا
بجدّه صاعد أعداؤه هبطوا
حللت من وسط العلياء في شرف
ومركز الشمس من أفلاكها الوسط
هنيت صونك دمياط التي اجتمعت
لها الفرنج فما حلوا ولا ربطوا
مصر بيوسفها أضحت مشرفة
وكل أمر لها بالعدل منضبط
وحين وافى صلاح الدين أصلحها
فللمصالح من أيامه نمط

قال العماد: ومما سيرته إلى صلاح الدين قصيدة منها:

كأن قلبي وحب مالكها
مصر وفيها المليك يوسفها
هذا بسلب الفؤاد يظلمني
وهو بقتل الاعداء ينصفها
الملك الناصر الذي أبدا
بعز سلطانه يشرّفها
قام بأحوالها يدبرها
حسنا وأثقالها يخففها
بعدله والصلاح يعمرها
وبالندى والجميل يكنفها
من دنس الغادرين يرحضها
ومن خبائث العدى ينظفها
وإن مصرا بملك يوسفها
جنة خلد يروق زخرفها

وإنـــــه في السماح حـــــاتمهـــــا
وإنـــــه في المـــوقـــار أحنفهـــا
يـــوســـف مصر الـــذي مـــلاحمهـــا
جـــاءت بـــأوصـــافـــه تعـــرفهـــا
كتـــب التـــواريـــخ لا يـــزينهـــا
إلا بـــأيـــامـــه مصنفهـــا
وحطـــت دميـــاط إذ أحـــاط بها
مـــن بـــرجـــوم البـــلاء يقـــذفهـــا
لاقـــت غـــواة الفـــرنـــج خيبتهـــا
فـــزاد مـــن حسرة تـــأسفهـــا
أوردت قلـــب القلـــوب أرشيـــة
مـــن القنـــا اللـــدّمـــاء تنـــزفهـــا
وليتهـــا سفكهـــا فعـــاملهـــا
عـــاملهـــا والسنـــان مشرفهـــا
يمضي لـــك الله في قتـــالهم
عـــزيمـــة للجهـــاد تـــرهفهـــا

وله فيه من أخرى:

قـــد استقـــرت أمـــوري
فيـــه بحســـب اقتراحـــي
كما استقـــر صـــلاح الـــ
ـــدنيا بملـــك الصـــلاح
تنير شمـــس أياديـــ
ـــه في سماء السماح
وأمـــره مستفـــاد
مـــن القضـــاء المتـــاح

وأرسله نور الدين إلى خلاط ومتوليها حينئذ ظهير الدين سكمان المعروف بشاه أرمن قال: فلما كنت بماردين كتبت إلى بعض المعارف :

قـــــدنــــــزلنـــــافي جــــوارك
وطلبنـــــــــا قـــــــــرب دارك
وسرينــــــافي الـــــديــــاجـــــي
فهـــــدانــــــاضـــــوءنـــــارك
فتــــدارك أمـــــرنــــــا اليـــــو
م بطـــــــول متـــــــــدارك
وتفـــــــردبـــــاغتنــــــام الــــــــ
ــــــشكر مــــــن غير مشــــــارك

قال العماد : وفي هـذه السنة خـرج نور الديـن إلى داريـا فـأعاد عمارة جامعها، وعمر مشهد أبي سليمان الداراني، وشتى بدمشق.

-٨٠٠٧-

فصل

في مسير نجم الدين أيوب إلى مصر بباقي أولاده وأهله

وقد وصف ذلك عمارة في قصيدة مدح بها السلطان صلاح الدين تقدّم بعضها يقول فيها:

صحت به مصر وكانت قبله ... تشكو سقاما لم يعن بطبيب
عجبا المعجزة أتت في عصره ... والدهر ولاد لكل عجيب
ردّ الاله به قضية يوسف ... نسقا على ضرب من التقريب
جاءته أخوته ووالده إلى ... مصر على التدريج والترتيب
فاسعد بأكرم قادم بدولة ... قد ساعدتك رياحها بهبوب

قال العماد: لما دخل فصل النيروز وزاد استأذن الأمير نجم الدين أيوب نور الدين في قصد ولده صلاح الدين، والخروج من دمشق إلى مصر بأهله وجماعته، وسبده ولبده، وخيم بظاهر البلد إلى أن بان وضوح جدده وسار في حفظ الله فوصل إلى مصر في السابع والعشرين من رجب، وقضى صاحب القصر العاضد من حق قدومه ما وجب وركب لاستقباله، وزاد اقبال البلاد باقباله، ولما عزم على الرحيل إلى مصر شرع في تفريق أملاكه وتوفير ماله في شركة على اشراكه، وما استصحب شيئاً من موجوده، وجعله نهبة لجوده.

قلت: ووقف رباطا داخل الدرب الذي بقرب العوينة بباب البريد.

ثم قال العماد: ولما نصب نجم الدين أيوب لقصد مصر مضاربه، وسحب للعلى على روض الرضى سحائبه، خرج نور الدين إلى رأس الماء بعسكره وخيامه، وأرهف للجد في الجهاد حد اعتزامه، ثم أقام بعد توديعه والوفاء بحق تشييعه إلى أن اجتمعت إليه عساكره، وحضر بادي جنده وحاضره، وعب بحره وماج زاخره، ثم توجهنا إلى بلاد الكرك مستهل شعبان، ونزلنا أياما بالبلقاء على عمان، وأقمنا على الكرك أربعة أيام نحاصرها، ونصبنا عليها منجنيقين فورد الخبر أن الفرنج قد تجمعوا ووصلوا إلى ماعين فقال نور الدين: نرى أن نعطف أعنتنا وبالله نستعين، فإنا إذا كسرناهم وقسرناهم، وقتلناهم وأسرناهم أدركنا المراد، وملكنا البلاد، فرحلنا إليهم فولوا مدبرين حين سمعوا برجوعنا ، وقالوا: رحيلهم عن الحصن قد حصل وهو مقصودنا وعاد نور الدين إلى حوران، فخيم بعشترا وصام رمضان.

وقال ابن الاثير: كان سبب حصر نور الدين الكرك أن نجم الدين أيوب والد صلاح الدين سار عن دمشق إلى مصر، فسير نور الدين معه عسكراً فاجتمع معهم من التجار ومن كان له مع صلاح الدين أنس ومودّة ما لا يعدّ، فخاف نور الدين عليهم فسار إلى الكرك ، فنزل عليه وحصره، وسار نجم الدين ومن معه سالمين ، ونصب نور الدين على الكرك المجانيق فأتاه الخبر أن الفرنج قد جمعوا وساروا إليه، وأن ابن الهنفرى وفليب بن الرقيق وهما فارسا الفرنج في وقتهما في المقدّمة إليه، فرحل نور الدين، رحمه الله تعالى نحوهما للقائهما ومن معهما قبل أن يلحق بهما باقي الفرنج وكانا في مائتي فارس وألف تركبلي ومعهم من الراجل خلق كثير فلما قاربها رجعا القهقرى إلى من وراءهم من الفرنج ، وقصد نور الدين وسط بلادهم ، ونهب ما كان على طريقه، ونزل بعشترا وأقام ينتظر حركة الفرنج ليلقاهم، فلم يبرحوا من مكانهم خوفاً منه.

وقال ابن شدّاد : أنفذ صلاح الدين في طلب والده ليكمل له السرور

القصة مشاكلة ماجرى للنبي يوسـف الصديق عليه السلام، فوصل والده نجم الدين إليه، وسلك معه من الأدب مـا كان عادته، وألبسه الأمر كله فأبى أن يلبسه وقـال:يا ولدي ما اختارك الله لهذا الأمر إلاّ وأنـت كفؤ له فلاينبغي أن تغير موقع السعـادة ، فحكمه في الخزائن بأسرها، وكان رحمه الله كريما يطلـق ولا يرد، ولم يـزل صلاح الـدين وزيـراً محكماً إلى أن مات العاضد أبو محمد عبد الله وبه ختم أمر المصريين.

وقال ابـن أبي طيّ الحلبي،أرسل الخليفـة المستنجد بالله مـن بغداد إلى نور الـدين يعاتبـه في تأخير اقامة الـدعوة له بمصر، فـأحضر الأمير نجم الديـن وألزمه الخروج إلى ولـده بمصر بذلك، وحملـه رسالة منهـا:« وهذا أمر يجب المبـادرة إليه ليحظـى بهذه الفضيلة الجليلـة والمنقبة النبيلـة قبل هجـوم الموت وحضور الفـوت ، لاسيما وإمـام الـوقت متطلـع إلى ذلـك بكليته، وهو عنده من أهم أمنيته» وسار نجـم الدين وأصحبه نور الدين هدية سنية للملـك الناصر، وخرج العاضد لتلقيه إلى ظـاهر باب الفتوح عند شجـرة الإهليلج ، ولم يجر بـذلك عادة لهم ، وكـان من أعجـب يوم شهده النـاس، وخلع العاضد عليـه، ولقبه الملك الأفضل وحمل إليـه من القصر الألطاف والتحف والهدايـا، وأظهر السلطان من بـرّه وتعظيم أمره مـا أحـرز بـه الشكـر والأجـر، وأفـرد لـه داراً إلى جـانـب داره، وأقطعـه الاسكندرية ودميـاط والبحيرة، وأقطع شمس الدولة أخـاه قوص وأسوان وعيـذاب، وكانـت عبرتها في هذه السنـة مـائتي ألـف وستة وستين ألـف دينـار، وسار شمـس الدولـة إلى قوص وولاهـا شمس الخلافـة محمد بـن مختار، وكـان السلطان قبـل اقطاعهـا شمس الـدولة قـد سير رسلان بـن دغمش لجبـاية خـراجها، فخـرج عليه عبـاس بن شـاذي في جماعة مـن الأعراب والعبيد في مـرج بني هميم، فغنمه رسلان وعـاد إلى القاهرة، وفي هذه السنة ليلة عيـد الفطر رزق السلطان ولده الملك الأفضل نـور الدين علي وفـرح به فـرحـاً عظيماً، وخلع وأعطـى وتـصـدّق بما بهر به العقـول،

- ٥٦٠ -

ومن قصيدة للحكيم عبد المنعم قد تقدّم بعضها:

في مشرق المجد نجم الدين مطلعه
وكل أبنائه شهب فلا أفلوا
جاؤوا كيعقوب والأسباط إذ وردوا
على العزيز من أرض الشام واشتملوا
لكن يوسف هذا جاء أخوته
ولم يكن بينهم نزع ولا زلل
وملكوا أرض مصر في شماختته
ومثلها الرجال مثلهم نزل

فصل

في ذكر الزلزلة الكبرى

قال ابن الاثير: وفي ثاني عشر شوال كانت زلزلة عظيمة لم ير الناس مثلها، عمت أكثر البلاد من الشام ومصر والجزيرة والموصل والعراق وغيرها، إلا أن أشدّها وأعظمها كان بالشام فخربت بعلبك وحمص وحماه وشيزر وبعرين وغيرها، وتهدّمت أسوارها وقلاعها، وسقطت الدور على أهلها، وهلك من الناس ما يخرج عن العد والاحصاء، فلما أتى نور الدين خبرها سار إلى بعلبك ليعمر ما انهدم من أسوارها وقلعتها، وكان لم يبلغه خبر غيرها، فلما وصلها أتاه خبر باقي البلاد بخراب أسوارها وخلوّها من أهلها، فرتب ببعلبك من يحميها ويعمرها، وسار إلى حمص، ففعل مثل ذلك، ثم إلى حماه ثم إلى بارين، وكان شديد الحذر على البلاد من الفرنج لاسيما قلعة بارين، فانها مع قربها منهم لم يبق من سورها

شيء البتة، فجعل فيها طائفة صالحة مع العسكر مع أمير كبير، ووكل بالعمارة من يحث عليها ليلا ونهاراً، ثم أتى مدينة حلب، فرأى فيها من آثار الزلزلة ما ليس بغيرها من البلاد، فإنها كانت قد أتت عليها، وبلغ الرعب بمن نجا كل مبلغ، فكانوا لايقدرون يأوون إلى بيوتهم السالمة من الخراب خوفاً من الزلزلة فإنها عاودتهم غير مرة، وكانوا يخافون يقيمون بظاهر حلب من الفرنج، فلما شاهد ما صنعت الزلزلة بها وبأهلها أقام فيها وباشر عمارتها بنفسه، وكان هو يقف على استعمال الفعلة والبنائين، ولم يزل كذلك حتى أحكم أسوارها وعمر جميع البلاد وجوامعها وأخرج من الأموال مالا يقدّر قدره.

وأما بلاد الفرنج خذلهم الله تعالى فإنها أيضا فعلت بها الزلزلة قريباً من هذا، وهم أيضا يخافون نور الدين على بلادهم، فاشتغل كل منهم بعمارة بلاده من قصد الآخر.

قال العماد: وكانت قلاع الفرنج المجاورة لبعرين والحصن الأكراد وصافيتا والعريمة وعرقا في بحر الزلازل غرقى لاسيما حصن الأكراد فإنه لم يبق له سور، وقد تم عليه فيه دحور وثبور، فشغلهم سوءهم عن سواه وكل اشتغل بما دهاه، وتواصلت الأخبار من جميع بلاد الشام بما أحدثته الزلزلة من الانهداد والانهدام.

قال: وما سكنت النفوس من رعبها وتسلت القلوب عن كربها الابهادهم الكفار من أمرها، وعراهم من ضرّها، فلقد خصتهم بالأمض الأشق، وأخذتهم الرجفة بالحق ، فإنها وافقت يوم عيدهم وهم في الكنائس، فأضحوا للردى فرائس، شاخصة أبصارهم ينظرون(فخرّ عليهم السقف من فوقهم وأتاهم العذاب من حيث لايشعرون)(١١٦)

ثم ذكر العماد قصيدة في مدح نور الدين ووصف الزلزلة مطلعها:

هـــل لعـــا في الهوى مـــن الآسر فـــادي
ولســـاري ليـــل الصبـــابـــة هـــادي
جنبـــونـــي خطـــب البعـــاد فسهـــل
كـــل خطـــب ســـوى النـــوى والبعـــاد
كـــت في غفلـــة مـــن البين حتـــى
صـــاح يـــوم الاثيـــل بـــالبين حـــادى
قـــد حللتـــم مـــن مهجتـــي في الســـويـــدا
ومـــن مقلتـــي محل الســـواد
وبخلتـــم مـــن الـــوصـــال بـــاسعـــا
في أمـــا كنتـــم مـــن الأجـــواد
وبعثتـــم نسيمكـــم يتـــلافـــا
ني فعـــاد النسيـــم مـــن عـــوّادي
سمتمـــوني تجلـــدا واشتيـــاقـــا
ومحال تجمـــع الاضـــداد
ابقـــاء بعـــد الاحبـــة يـــا قلـــ
ـــبي مـــا هـــذه شروط الـــوداد
ذاب قلبـــي وســـال في الـــدمـــع لما
دام مـــن نـــار وجـــده في اتقـــاد
مـــا الـــدمـــوع التـــي تحدرهـــا الاشـــ
ـــواق إلا فتـــائت الأكبـــاد
حبـــذا ســـاكنـــو فـــؤادي وعهـــدي
بهم يسكنـــون سفـــح الـــوادي
أتمنـــى بـــالشـــام أهلي ببغـــدا
دوأيـــن الشـــآم مـــن بغـــداد
مـــا اعتيـــاضي مـــن حبهـــم يعلـــم الله
تعـــالى إلا بحـــب الجهـــاد
واشتغـــالي بخـــدمـــة الملـــك العـــا
دل محمـــود الكـــريـــم الجواد

أنـــــا منـــــه على سريـــــر سروري
راتـــع العيـــش في مـــراد مـــرادي
قيـــدتنـــي بـــالشـــام منـــه الايـــادي
والأيـــادي للحـــر كـــا الأقيـــاد
قـــــد وردت البحر الخضم وخلفـ
ـــت ملـــوك الـــدنيـــا بـــه كـــالثماد
هـــو نعـــم الملاذ مـــن نـــائب الدهـــ
ـــــر ونعـــم المعـــاذ عنـــد المعـــاد
جـــل زرء الفـــرنـــج فـــاستبـــدلـــوا منـــ
ــــــــه بلبس الحديد لبس الحداد
فـــرّق الـــرعـــب منـــه في أنفـــس الكفـــ
ــــــــــار بين الأرواح والأجساد
سطـــوة زلـــزلـــت بسكـــانها الأر
ض وهـــدت قـــواعـــد الأطـــواد
أخـــذتهم بـــالحق رجعـــة بـــأس
تـــركتهـــم صرعـــى صروف الغـــوادي
خفضـــت مـــن قـــلاعهـــاكـــل عـــال
وأعـــادت تـــلاعهـــاكـــالـــوهـــاد
أنفـــذ الله حكمـــه فهـــو مـــاض
مظهـــر سر غيبـــه فهـــو بـــادي
آيـــة أثـــرت ذوي الشرك بالملـــــ
ـــــك وأهـــل التـــوحيـــد بـــالارشـــاد
والاعـــادي جـــرى عليهـــم مـــن التـــد
مير مـــا قـــد جـــرى على قـــوم عـــاد
أشركـــت في الهلاك بين الفريقيـــــ
ـــــن دعـــاة الاشراك والالحاد
ولقـــد حـــاربـــوا القضـــاء فـــأمضـــى
حكمـــه فيهـــم بغير جـــلاد

والالـــه الـــرؤوف في الشــــام عنـــا
دافـــع لطفــــه بـــلاء البـــلاد

قال العماد ومنها معنى متبكر أبتدعته في الزلزلة وهو:
وبحق أصبيت الأرض لما
اشتكــت مـــن مقـــام أهـــل الفســاد
علمـــت أنها جننـــت فعـــراهـــا
حـــذراً مـــن سطـــاك شبـــه ارتعـــاد

قال العماد: وفي هذه السنة عند وصولنا إلى حلب في الخدمة النورية، كنت مقرظا للفضائل الشهرزوريه، وكان الحاكم بها القاضي محيي الدين أبو حامد محمد ابن قـــاضي قضاة الشام كمال الدين أبي الفضل محمد بن عبد الله بن القاسم الشهرزوري ، وكان كمال الدين قد علق به تنفيذ الأحكام وإليه أمور الديوان ، وهو ذو المكانة والامكان في بسط العدل والاحسان ومحيي الدين ولده ينوب عنه في القضاء بحلب وبلدانها، وينظر أيضاً في أمور ديوانها، وبحماه وحمص من بني الشهرزوري قاضيان وهما حاكمان متحكمان، وكان هذا محيي الدين من أهل الفضل، وله نظم ونثر وخطب وشعر، وكانت معرفتي به في أيام التفقه ببغداد في المدرسة النظامية منذ سنة خمس وثلاثين، والمدرس شيخنا معين الدين سعيد ابن الرزاز وكان مذهب الشافعي رضي الله تعالى عنه بعلمه معلما مذهب الطراز، وكانت الزلزلة بحلب قد خربت دار محيي الدين وسلبت قراره، وغلبت اصطباره، وخلبت أفكاره، فكتبت إليه قصيدة مطلعها:
لـــو كـان مـــن شكـــوى الصبــابـة مشكيـا
لعـــدا على عـــدوى الصبـــابـــة معـــديـــا
مـــات الـــرجـــاء فـــإن أردت حيـــاتـــه
ونشــــوره فـــارج الإمــــام المحييـــا

أقضى القضاة محمد بن محمد
من لست منه للفضائل محصيا
قاض به قضت المظالم نحبها
وغدا على آثارهن معفيا
يا كاشفاً للحق في أيامه
غرراً يدوم لها الزمان مغطيا
لم تنعش الشهباء عند عثارها
لو لم تجدك لطود حملك مرسيا
رجفت لسطوتك التي أرسلتها
نحو الطغاة لحد عزمك ممهيا
وتظلمت من شرهم فتململت
عجل إجازتها عليها مبقيا
أنفت من الثقلاء فيها إذ رمت
أثقالها ورأتك منها ملجيا
حلب لها حلب المدامع مسيل
إن لاقت الخطب الفظيع المبكيا
وبعدل نور الدين عاود أفقها
من بعد غيم الغم جواً مصحيا
أضحى لبهجتها معيداً بعدما
ذهبت وللمعروف فيها مبديا
لأمورها متدبراً لشتاتها
متألفاً لصلاحها متوليا
فالشرع عاد بعدله مستظهرا
والحق عاد بظله مستذريا
والدهر لاذ بعفوه مستغفرا
مما جناه مطرقاً مستحييا

- ٥٦١هـ -

فصل

في غزو صاحب البيرة ووفاة صاحب الموصل

قال ابن الأثير: كان شهاب الدين محمد بن الياس بن ايلغازي بن أرتق صاحب قلعة البيرة قد سار في عسكره وهم مائتا فارس إلى الخدمة النورية، وهو بعشترا، فلما وصل إلى اللبوة، وهي من أعمال بعلبك ركب متصيداً فصادف ثلاثمائة فارس من الفرنج قد ساروا للغارة على بلاد الاسلام وذلك سابع عشر شوال فوقع بعضهم على بعض، واقتتلوا وصبر الفريقان لاسيما المسلمون لأن ألف فارس منهم لاتصبر لحملة ثلاثمائة فارس من الفرنج، وكثر القتلى بينهم وانهزم الفرنج وعمهم القتل والأسرفلم يفلت منهم إلاّ من لايعتد به (ولو تواعد تم لاختلفتم في الميعاد ولكن ليقضي الله أمراً كان مفعولاً)(١١٧) وسار شهاب الدين بالأسرى ورؤوس القتلى إلى نور الدين فركب هو وعسكره إلى لقائه، واستعرض الأسرى ورؤوس القتلى فرأى فيها رأس مقدم الاسبتارية صاحب حصن الأكراد وكانت الفرنج تعظمه لشجاعته ولدينه عندهم ولأنه شجى في حلوق المسلمين، وكذلك أيضا رأى رأس غيره من مشهوري الفرنج فإزداد سرورا ولله الحمد.

قال: وفيها في شوال توفي الملك قطب الدين مودود بن زنكي، صاحب الموصل، وكان لما اشتد مرضه أوصى بالملك بعده لولده عماد الدين زنكي بن مودود، وهو أكبر أولاده وأعزهم عليه وأحبهم إليه، وكان النائب عن قطب الدين حينئذ والقيم بأمر دولته فخر الدين عبد المسيح، وكان يكره عماد الدين زنكي لأنه كان قد أكثر المقام عند عمه الملك العادل نور الدين رحمه الله تعالى، وخدمه وتزوج ابنته، وكان عزيزه وحبيبه، وكان نور الدين يبغض عبد المسيح لظلم كان فيه ويذمه ويلوم أخاه قطب الدين على توليته لأموره، فخاف عبد المسيح أن يتصرف عماد

الديـن في أموره عـن أمر عمـه فيعزلـه ويبعده فـاتفق هـو والخاتون ابنـة حسام الدين تمرتـاش زوجة قطب الدين، فردّوه عـن هذا الرأي، فلما كان الغد أحضر الأمـراء واستحلفهم لـولده سيـف الديـن غازي، وتـوفي وقد جاوز عمره أربعين سنة، وكـان تام القامة كبير الوجه أسمـر اللون واسع الجبهـة جهوري الصـوت، وكانـت ولايتـه إحدى وعشريـن سنة وخمسـة أشهـر ونصف، ولما تـوفي استقر سيـف الـدين غـازي في الملك ، ورحـل عماد الديـن إلى عمه نور الـدين شاكيـا ومستنصرا وكان عبد المسيـح هو يتولى أمور سيـف الدين ويحكم في مملكتـه ، وليس لسيف الدين من الأمر إلاّ اسمه لأنه في عنفوان شبابه وعزة حداثته.

قال: وهـذه حادثة تحث على العدل، كـان من جملة أعمال جزيـرة ابن عمر قرية تسمى العقيمة مقابـل الجزيرة من الجانب الشرقي يفصل بينهما دجلة لها بسـاتين كثيرة بعضها تمسح أرضه ويـؤخذ على كل جريـب من الأرض التـي قد زرعـت شيء معلوم، وبعضهـا عليه خـراج ولا مساحـة عليه، وبعضهـا مطلق منهما، فـالممسوح منها لايحصـل لأصحابـه منه إلا القدر القـريب، وكان لنـابها عدّة بساتين فحكـى لي والدي قال: جـاءنا كتاب فخر الديـن عبد المسيح إلى الجزيرة، وأنا حينئذ أتـولى ديوانها يأمر بأن تجعل بسـاتين العقيمة كلها ممسوحة، فشق ذلـك علي لأجل أصحابها ففيهـا نـاس صالحون ولي بهم أنـس وهـم فقـراء، فـراجعته وقلـت لـه : لاتظـن أني أقول هـذا لأجل ملكـي لا والله، وإنما أريـد أن يدوم النـاس على الدعاء للمـولى قطب الدين، وأنـا أمسح ملكي جميعه، قـال : فأعاد الجواب بـأمر المسـاحة، ويقـول : تمسح أولا ملكـك ليقتدي بـك غيرك، ونحن نطلق لـك ما يكون عليه، فشرع النواب يمسحون، وكـان بالعقيمة رجلان صـالحان بيني وبينهما مـودّة اسم أحدهما يـوسف والآخـر عبادة، فحضرا عنـدي وتضررا مــن هـذه الحال وسـألاني المكـاتبــة في المعنـى، فأظهرت لهما كتـاب عبد المسيح جوابـاً عن كتابي فشكراني وقـالا: وأيضا

تعـود تراجعـه، فعاودت القـول فأصرّ على المسـاحة فعـرّفتهما الحال، فلما مضى عـدّة أيام عـدت يوما إلى داري وإذا هما قـد صادفـاني على الباب فقلت لنفسي:عجباً لهذين الشيخين قد رأيـا مراجعتي وهما يطلبـان مني مـالا أقدر عليـه، فقلـت لهما: والله إني لاستحيي منكما كلما جئتما في هـذا المعنى، وقد رأيتما الحال كيـف هو فقالا: صدقـت ولم نحضر إلاّ لنعرفك أن حاجتنـا قضيت، فظننـت أنهما قد أرسـلا إلى الموصل مـن يشفع لهما، فـدخلت إلى داري وأدخلتهما معـي وسألتهما عـن الحال كيـف هو ومـن الذي سعى لهما، فقالا:إن رجـلاً من الصالحين الأبدال شكونا إليـه حالنا، فقال: قد قضيت حاجة أهل العقيمة كلهـم، قال: فوقع عندي من هذا، ولكـن تـارة أصدّقهما لما أعلـم مـن صـلاح أحـوالهما، وتارة أعجـب مـن سلامة صـدورهما كيف يعتمدان على هذا القول ويعتقدانـه واقعاً لاشك فيه، فلما كان بعد أيـام وصل قاصد من الموصل بكتاب يأمـر فيه باطلاق مساحة العقيمة، واطـلاق كل مسجون وبالصدقة، فسألـت القاصد عن السبب فـأخبرنا أن قطب الـدين شديـد المرض قال: فأفكـرت فى قولهما، وتعجبت منه ثم توفي بعد يومين من هذا.

قال: ورأيـت والدي إذا رأى أحـد الرجلين يبـالغ في إكـرامه ويحترمـه ويقضي أشغاله واتخذهما صديقين.

قال: وكان قطـب الدين من أحسـن الملوك وأعفهم عن أمـوال رعيته، محسنا إليهم، كثير الانعام عليهم، محبـوباً إلى صغيرهم وكبيرهم حليما عن المذنبين سريع الانفعال للخير، حـدّثني والدي قال: استدعاني يـوما وهو بالجزيـرة وكنت أتولى أعمالها فـلامني في بعـض الأمر فقلت: أخـاف من الاستقصاء لـو دعي على بعض هـؤلاء الملوك وأومأت إلى أولاده لكـانت شعرة منه تسـاوي الدنيا وما فيهـا، ولنا مواضع تحتمـل العمارة لو عمرت يتحصل منها أضعـاف هذا، فقال : جزاك الله خيراً لقـد نصحت وأدّيت

الأمانـة فاشرع في عمارة هذه الأماكـن، ففعلت وكبرت منزلتـي عنده، ولم يزل يثني عليّ.

قـال: وكان كثير الصبر والاحتمال مـن أصحابـه، لقد صبر مـن نوابـه زيـن الـدين، وجمال الـديـن وغيرهما على مـالم يصبر عليه سواه.، وكـان حسن الاتفاق مع أخيه الملك العادل نور الدين، كثير المساعدة والانجاد لـه بنفسه وعسكـره وأمـواله، حضر معـه المصـاف بحـارم وفتحها وفتـح بانياس، وكان يخطـب له في بلاده باختياره من غير خـوف، وكان إحسانه إلى أصحـابه متتـابعـاً من غير طلـب منهم ولا تعـريـض، وكان يبغـض الظلم وأهله ويعاقب من يفعله.

قال: وبـالله أقسم إذا فكرت في الملوك أولاد زنكـي سيف الديـن ونور الـدين وقطـب الديـن، وما جمع الله فيهـم من مكـارم الأخلاق ومحاسـن الأفعـال وحسن السيرة وعمارة البـلاد والرفـق بـالرعيـة إلى غير ذلك مـن الأسباب التي يحتاج الملك إليها أذكر قول الشاعر:

مـن تلـق منهـم تقـل لاقيـت سيـدهـم
مثـل النجـوم التـي يسري بها السـاري

قلت: وقرأت بخط الشيخ عمـر الملاء رحمه الله في كتاب كتبه إلى بعض الصالحين، وسأله فيـه الدعاء لقطب الدين صاحـب الموصل وقال فيه: «يـا أخي لـو ذهبـت أشرح لك سيرتـه في بـلاده وعيـش رعيته في ولايتـه أطلـت وأضجـرت، غير أني أذكـر لـك مـا خصـه الله بـه مـن الأخـلاق الصالحة، هـو من أكثر النـاس رحمة، وأشدّهـم حياء وأعظمهم تـواضعاً وأقلهـم طمعاً، وأزهـدهـم في الظلم وأكثرهـم صبراً، وأبعـدهم غضبـاً، وأسرعهـم رضا، وهـو من هـذه الأخلاق على حـدّ أحبه أنـا محبة لا أقـدر أصفها، وبينى وبينه إخاء ومزاورة يزورني وأزوره».

- ٨٠٢٠ -

فصل

قال ابن الاثير: ولما بلغ نور الدين وفـاة أخيه قطب الدين، وملك ولده سيف الديـن بعده واستيلاء عبد المسيح واستبداده بـالأمور، وحكمه على سيف الـدين أنف مـن ذلك، وكبر لديه وشـق عليه، وكان يبغـض عبد المسيح لما يبلغه من خشونته على الرعية والمبـالغة في إقامة السياسة، وكان نـور الديـن رحمه الله لينـا رفيقـا عادلاً فقـال: أنـا أولى بتـدبير بني أخـي وملكهم، ثم سار من وقته فعبر الفرات عند قلعة جعبر أول المحرم.

- ٨٠٢١ -

ثم دخلت سنة ست وستين وخمسمائة

وقصد الرقة فامتنع النائب بها شيئاً من الامتناع ثم سلمها على شيء اقترحه فاستولى نور الدين عليها وقرر أمورها وسار إلى الخابور فملكة جميعه ثم ملك نصيبين ، وأقام بها يجمع العساكر، فإنه كان قد سار جريدة، فأتاه بها نور الدين محمد بن قرا أرسلان صاحب الحصن وديار بكر، واجتمعت عليه العساكر وقد ترك أكثر عسكره بالشام لحفظ ثغوره وأطرافه من الفرنج وغيرهم، فلما اجتمعت العساكر سار إلى سنجار فحصرها وأقام عليها ونصب المجانيق، وكان بها عسكر كبير من الموصل، فكاتبه عامة الأمراء الذين بالموصل يحثونه على السرعة إليهم ليسلموا البلد إليه ، وأشاروا بترك سنجار فلم يقبل منهم وأقام حتى ملك سنجار، وسلمها إلى ابن أخيه الأكبر عماد الدين زنكي ثم سار إلى الموصل فأتى مدينة بلد، وعبر دجلة في مخاضة عندها إلى الجانب الشرقي، وسار فنزل شرقي الموصل على حصن نينوى، ودجلة بينه وبين الموصل.

قال: ومن العجب أنه يوم نزوله سقط من سور الموصل بدنة كبيرة ، وكان عبد المسيح قد سير عز الدين مسعود بن قطب الدين إلى أتابك صاحب بلاد الجبل وأذربيجان وأران وغيرها يستنجده، فأرسل ايلدكز رسولاً إلى نور الدين ينهاه عن قصد الموصل، ويقول له: إن هذه البلاد للسلطان ولا سبيل لك إليها، فلم يلتفت نور الدين إلى رسالته وكان بسنجار فسار إلى الموصل، وقال للرسول : قل لصاحبك: أنا أرفق ببني أخي منك، فلاتدخل نفسك بيننا، وعند الفراغ من اصلاحهم يكون الحديث معك على باب همذان، فإنك قد ملكت نصف بلاد الاسلام وأهملت الثغور حتى غلب الكرج عليها، وقد بليت أنا وحدي بأشجع الناس الفرنج، فأخذت بلادهم وأسرت ملوكهم فلا يجوز لي أن أتركك على ما أنت عليه، فإنه يجب علينا القيام بحفظ ما أهملت من بلاد

الإسلام وإزالة الظلم عن المسلمين، فعاد الرسول بهذا الجواب.

وحصر نور الدين الموصل فلم يكن بينهم قتال، وكان هوى كل من بالموصل من جندي وعامي معه لحسن سيرته وعدله، وكاتبه الأمراء يعلمونه أنهم على الوثوب على عبد المسيح وتسليم البلد إليه، فلما علم عبد المسيح ذلك راسله في تسليم البلد إليه وتقريره على سيف الدين، ويطلب الأمان واقطاعاً يكون له، فأجابه إلى ذلك وقال: لاسبيل إلى ابقائه بالموصل بل يكون عندي بالشام فإني لم آت لآخذ البلاد من أولادي إنما جئت لاخلص الناس منك وأتولى أنا تربية أولادي، فاستقرت القاعدة على ذلك وسلمت الموصل إليه فدخلها ثالث عشر جمادى الأولى، وسكن القلعة، وأقر سيف الدين غازي على الموصل، وولى بقلعتها خادماً يقال له سعد الدين كمشتكين، وجعله دزدارا فيها ، وقسم جميع ما خلفه أخوه قطب الدين بين أولاده بمقتضى الفريضة، ولما كان يحاصر الموصل جاءته خلعة من الخليفة فلبسها فلما دخل الموصل خلعها على سيف الدين، وأطلق المكوس جميعها من الموصل وسائر ما فتحه من البلاد، وأمر ببناء الجامع النوري بالموصل، فبني وأقيمت الصلاة فيه سنة ثلاث وسبعين وخمسمائة، وأقام بالموصل نحو عشرين يوماً، وسار إلى الشام فقيل له:إنك تحب الموصل والمقام بها، وتراك أسرعت العود؟ فقال: قد تغير قلبي فيها فإن لم أفارقها ظلمت، ويمنعني أيضاً أنني هاهنا لاأكون مرابطاً للعدوّ وملازماً للجهاد، ثم أقطع نصيبين والخابور العساكر، وأقطع جزيرة ابن عمر سيف الدين غازي ابن أخيه مع الموصل، وعاد إلى الشام ومعه عبد المسيح ، فغير اسمه وسماه عبد الله ، وأقطعه اقطاعا كثيراً.

وقال العماد: استدعاني نور الدين ونحن بظاهر الرقة، وقال لي: قد آنست بك وأمنت إليك، وأنا غير مختار للفرقة، لكن المهم الذي عرض لايبلغ فيه غيرك الغرض فتمضي إلى الديوان العزيز جريدة وتؤدّي عني

رسالة سديدة سعيدة، وتنهي أني قصدت بيتي وبيت والدي ومغنى طريفي.وتالديّ وأنا كبيره ووارثه والذي له حديثه وحادثة، فامض وخذ لي أذنا فإني أعدّ كل جارحة لما أخاطب به أذنا، وأمثل ما يصلني من المثال لدفع كل مكروه ركنا.

وأمر ناصر الدين محمد بن شيركوه أن يسيرني إلى الرحبة في رجال مأموني الصحبة، وسرت منها على البرية غربي الفرات بخفير من بني خفاجه، فذكر أنه وصل وقضى الحاجة، ثم رجع من عند الخليفة المستنجد إلى نور الدين، وهو يحاصر سنجار فأخذها وسلمها إلى ختنه ابن أخيه عماد الدين زنكي بن مودود بن زنكي .

قال: ثم رحل على عزم الموصل وقصد بلد، واستوضح فيها الجدد، ودل هناك في دجلة على مخاضه، وكان ذا أخلاق وهم مرتاضه، فاستسهل من خوضها والعبور فيها ماظنّ مستصعباً، وسهل الله لنا ذلك ورأيناه أمراً عجباً، وجاء دليل تركماني قدامنا، وهو يقطع دجلة تارة طولاًوتارة عرضاً أمامنا، ونحن وراءه كخيط واحد لانميل يميناً ولايساراً ولا نجد لنا في سوى ذلك المجاز اختياراً، حتى عبرنا من الجانب الغربي إلى الجانب الشرقي برحالنا وأثقالنا وخيلنا وبغالنا وجمالنا، وأقمنا بقية ذلك اليوم حتى تم عبور القوم، ثم رحلنا ونزلنا على الموصل من شرقها، وخيمنا على تل توبه فاستعظم أهلها تلك النوبة، وما خطر ببالهم أنا نعبر بغير مراكب، وأنا نأخذ عليهم ذلك الجانب، فعرفوا أنهم محصورون مقهورون محسورون، وانقطعت عنهم السبل من الشرق، وتعذر عليهم الرقع لاتساع الخرق ، وبسط العطاء وكشف الغطاء وتكلم في الصلحة والمصالحة الوسطاء، ومدّ الجسر وقضي الأمر، وأنعم نور الدين على أولاد أخيه ومثلوا بناديه، وأقرّ سيف الدين غازيا على قاعدة أبيه، وألبسه التشريف الذي وصله من أمير المؤمنين المستضيء، ثم دخل قلعة الموصل وأقام بها سبعة عشر يوماً وجدّد مناشير أهل المناصب

وتوقيعات ذوي المراتب من القضاء والنقابة وغيرهما، وأمر باسقاط جميع المكوس والضرائب، وأنشأ بذلك منشوراً يقرأ على الناس فمنه:« قد قنعنا من كنز الأموال باليسير من الحلال، فسحقا للسحت، ومحقا للحرام الحقيق بالمقت، وبعداً لما يبعد من رضى الرب، ويقصي من محل القرب، وقد استخرنا الله وتقربنا إليه، وتوكلنا في جميع الأحوال عليه، وتقدّمنا باسقاط كل مكس وضريبه في كل ولاية لنا بعيدة أو قريبة، وإزالة كل جهة مشتبهة مشوبه، ومحو كل سنة سيئة شنيعة، ونفي كل مظلمة مظلمة فظيعة، وإحياء كل سنة حسنة، وانتهاز كل فرصة في الخير ممكنة، واطلاق كل ما جرت العادة بأخذه من الأموال المحظوره، خوفاً من عواقبها الرديئة المحذورة، فلا يبقى في جميع ولا يتنا جور جائر جارياً ، ولا عمل لايكون به الله راضياً، ايثاراً للثواب الأجل على الحطام العاجل، وهذا حق لله قضيناه، وواجب علينا أدّيناه، بل هي سنة حسنة سنناها، ومحجة واضحة بيناها، وقاعدة محكمة مهدناها، وفائدة مغتنمة أفدناها ».

فصل

قال العماد: وكان بالموصل رجل صالح يعرف بعمر الملاء، سمي بذلك لأنه كان يملأ تنانير الجص بأجرة يتقوت بها، وكل ما عليه من قميص ورداء وكسوة وكساء قد ملكه سواه واستعاره، فلا يملك ثوبه ولا إزاره، وكان له شيء فوهبه لأحد مريديه، وهو يتجر لنفسه فيه، فإذا جاءه ضيف قراه ذلك المريد، وكان ذا معرفة بأحكام القرآن والأحاديث النبوية، وكان العلماء والفقهاء والملوك والأمراء يزورونه في زاويته، ويتبركون بهمته، ويتيمنون ببركته، وله كل سنة دعوة يحتفل بها في أيام مولد رسول الله صلى الله عليه وسلم يحضره فيها صاحب الموصل،

ويحضر الشعراء وينشدون مدح رسول الله صلى الله عليه وسلم في ذلك المحفل، وكان نور الدين من أخص محبيه يستشيره في حضوره، ويكاتبه في مصالح أموره، وكانت بالموصل خربة واسعة في وسط البلد أشيع عنها أنه ما شرع في عمارتها إلاّ من ذهب عمره ولم يتم على مراده، فأشار الشيخ عمر على نور الدين بابتياعها ورفع بنيانها جامعاً تقام فيه الجمع والجماعات ، ففعل وأنفق فيه أموالاً كثيرة، ووقف عليه ضيعة من ضياع الموصل، ورتب فيه خطيباً ومدرّساً، وكان قد وصل في تلك السنة وافداً الفقيه عماد الدين أبو بكر النوقاني الشافعي من أصحاب الإمام محمد بن يحيى، فسأله أن يكون مدرّساً في ذلك الجامع، وكتب له به منشوراً.

قال: وحضر مجاهد الدين قايماز صاحب إربل إلى الخدمة النورية بالموصل، وكان دخولهم إياها في بحبوحة الشتاء، فكتب العماد إلى بعض كبراء الموصل قصيدة منها:

مـــايمنـــع الخادم مـــن قصـــده الـــ

ــــــخدمة غير الطرق والوحل

كـــأنهامـــوصلكـــم مقطـــع

مـــايهتـــدى فيـــه إلى وصـــل

وكـــل معـــروف بهامنكـــر

كما تـــراه ضيـــق السبـــل

وكـــل مـــن حـــل بها لا يـــرى

في زمـــن الخصـــب ســـوى المحـــل

ومـــذ دخلنـــاهـــا حصلنـــا بها

كـــرهـــا على خـــرج بـــلا دخـــل

أصعـــب مـــا تلقـــاه مـــن أهلهـــا

قـــول بـــلا أهـــل ولا سهـــل

وكنـــت أهـــواهـــا ولكننـــي

لقيـــت منهـــا كـــل مـــا يسلي

وأنــــت مـــــن أصبـــــح احســـــانـــــه
حليـــــة هــــــذا الزمـــــن العطـــــل

قال: وعاد نور الـدين إلى سنجار فأعاد عمارة أسوارهـا، ثم أتى حرّان وقـد اقتطعهـا عن صـاحـب الموصـل هي ونصيبين والخابـور والمجـدل، ووصل حلب في خامس رجب.

قال ابن شدّاد: دخل حلب في شعبان وزوّج صاحب الموصل ابنته.

قـال العماد: وفـوّض القضـاء والحكـم بنصيبين وسنجـار والخابـور إلى الشيخ شرف الدين بن أبي عصرون، فولى بها نوابه وحكم فيها أصحابه.

وقال القاضي ابن شدّاد: لما صارت الموصـل إلى سيف الدين بن أخي نـور الديـن، كان قـد استولى عليـه وتـولى أمر البلـد رجل يقـال له عبـد المسيح ، كان نصرانياً فـأسلم، وقيل إنه كان باقيـاً على نصرانيته وله بيعة في داره وتتبع أربـاب العلم والـدين فشتتهـم وأبعدهـم، وآذى المسلمين، فبلغ نو الدين ذلك، وكتب له قصص في ذلك ، فسار ونزل على الموصل من جانـب الشط، والشط بينه وبينهـا وقال: لاأقاتل هـذه البلدة وأهتك حرمتها وهـي لولدي، وراسل سيف الـدين وقال له: أنـا ليس مقصودي البلد وإنما مقصـودي حفظ البلد لك، فـإنه قد كتب إليّ في عبـد المسيح كـذا كذا ألـف قصة بما يفعـل مـع المسلمين، وأنا مقصـودي أزيل هـذا النصراني عن ولاية المسلمين.

قال: وعبـد المسيح يديـر البلد ويدور فيـه والأمر إليه، وبـذل الصلح لنور الـدين، فقـال نور الـدين أنا قـد جئت ولا بـدّ لي من دخـول البلد فقال: نعم لاتدخل إلا من باب السرّ فقال نور الدين : ما أدخل إلا من باب السرّ، فجـرت بين نور الدين وبين ابـن أخيه مراسـلات إلى أن علم

أن نيته صالحة فصالحه في السر وركب عبد المسيح وخرج يدور بين السورين فجاءه بعض أصحابه وقال له: أنت نائم ودمك قد راح وأنت غافل، فقال: ما الخبر؟ فقال: سيف الدين قد صالح عمه وأنت في مقابلة نور الدين فجاء ودخل على سيف الدين وألقى شربوشه بين يديه وقال له: أنت قد صالحت عمك وقد عملت ما عملت في حفظ بلدك ومالي طاقة بمقابلة نور الدين، فالله الله في دمي فقال له: مالي طاقة بدفعه عنك ولكن عليك بالشيخ عمر الملاء، فقال: والله لو مضيت إليه لم يفتح لي لعلمه بما جرى مني في حق المسلمين، ولكن تسير أنت إليه فأنفذ لسيف الدين إليه واستحضره، وكان معتكفاً فقال له: ما الخبر؟ فقال سيف الدين لعبد المسيح: منك إليه ، فوقف بين يديه يبكي فالتفت إليه الشيخ عمر وقال: من يعادي الرجال يبكي مثل النساء فقال له: قد تمسكت بك وأطلب منك حقن دمي، فقال : أنت آمن على دمك فقال:على مالي، فقال : وعلى مالك، فقال: وعلى أهلي؟ فقال: وعلى أهلك، وكان شرف الدين بن أبي عصرون مع نور الدين حينئذ، فقال سيف الدين لعمر الملاء: تخرج تحلف نور الدين، فأحضر الفقهاء وعملوا نسخة يمين لنور الدين ونسخة يمين لعبد المسيح، فأخذهما عمر وخرج إلى نور الدين فقام نور الدين وخرج من خيمته والتقاه وأكرمه، فقال له عمر: الناس يعلمون حسن عقيدتك فيّ، وقد خرجت في كذا وكذا، وناوله النسخة التي تتعلق بسيف الدين فقرأها وناولها لابن أبي عصرون فقال: نسخة جيدة، فقال له الشيخ عمر الملاء: أي شيء تقول في هذه النسخة؟ فقال: جيدة، فقال إذا حلف بها على هذا الوجه أليس أنها تقع لازمة؟ فقال: بلى، فقال للحاضرين: اشهدوا على الشيخ بذلك يشير إلى أن نور الدين كان يجري منه أيمان في وقائع، وكان ابن أبي عصرون يفتيه بالخروج منها، فقيد عليه القول، فأجاب نور الدين إلى ذلك، فقال له: قد علم الناس حسن عقيدتك فيّ وأن قولي مسموع عندك وقد خرجت إليك ولابد لي من ضيافة، فقال : كيف لي بذلك وأنت لاتأكل طعامي

ولا تقبل مني شيئاً؟ فقال تحلف لي بهذه النسخة فوقف عليها وتغير وجهه، وقال: أنا ماجئت إلا في هذا لأخلص المسلمين منه، فقال الشيخ عمر: فما نطلب منك أن توليه على المسلمين، فقال: قد أمنته على نفسه، فقال: وعلى أهله، فقال: ومن أهله؟ فقال: نصارى، فقال: أمنتهم، فقال وعلى ماله، فقال: ومن أين لهذا الكلب مال هذا مملوك لنا، فقال: قد أعتق وماله له وهو اليوم كان صاحب الموصل، قال: قد أمنته على ماله، فحلف له على ذلك جميعاً واستقرّ الصلح، وخرج سيف الدين إلى خدمة نور الدين فوقف بين يديه فأكرمه نور الدين، وكان وصله خلعة أمير المؤمنين، فخلعها عليه، فدخل إلى الموصل بها وانتقل إلى جانب الشط الآخر ولم يدخل إلى الموصل إلى أن جاء مطر شديد جداً، فدخل من باب السر إليها، وأقام بها مدّة، ورتب أمورها وولى فيها كمشتكين، فرأى النبي صلى الله عليه وسلم ذات ليلة وهو يقول له: جئت إلى بلدك وطاب لك المقام به، وتركت الجهاد، وقتال أعداء الدين، فاستيقظ من منامه، وسار سحرة ذلك اليوم، ولم يلبث ولم يعلم به أكثر الناس حتى خرج ولحقوه رحمه الله .

فصل

وصل الخبر بموت الإمام المستنجد بالله أبي المظفر يوسف بن المقتفي بالله ونور الدين مخيم بشرقي الموصل بتل توبه، وكانت وفاته يوم السبت تاسع ربيع الآخر وبويع ابنه المستضيء بأمر الله أبو محمد الحسن، وكان مولد المستنجد بالله مستهل ربيع الآخر سنة عشر وخمسمائة، وكانت خلافته إحدى عشرة سنة وستة أيام ، وهو الثاني والثلاثون من خلفاء بني العباس ، وهذا العدد له بحساب الجمل اللام والباء، وفيه يقول بعض الأدباء:

أصبحت لبني العباس كلهم
إن عددت بحساب الجمل الخلفا

وكان أسمر تام القامة، وطويل اللحية، وكان من أحسن الخلفاء سيرة مع الرعية، كان عادلاً فيهم كثير الرفق بهم ، وأطلق من المكوس كثيراً ، ولم يترك بالعراق مكساً، وكان شديداً على أهل العيث والفساد والسعاية بالناس.

قال ابن الاثير: بلغني أنه قبض على إنسان كان يسعى بالناس ، ويكتب فيهم السعايات، فأطال حبسه، فحضر بعض أصحابه يشفع فيه وبذل عنه عشرة آلاف دينار فقال له: أنا أعطيك عشرة آلاف دينار، وتحضر لي إنساناً آخر مثله أحبسه لأكف شره عن الناس.

وفي أيامه توفي شيخ الشيوخ اسماعيل بن أبي سعد، وصار بعده ابنه صدر الدين عبد الرحيم شيخ الشيوخ، وذلك سنة إحدى وأربعين.

وفي سنة ثمان وأربعين توفي محمد بن نصر القيسراني، وأحمد بن منير الشاعران، وقد تقدّم ذلك. وفي سنة تسع وأربعين توفي الحكيم أبو الحكم الشاعر الأندلسي، وفي سنة إحدى وخمسين توفي الوأواء الشاعر الحلبي، وفي سنة ثلاث وستين توفي الشيخ أبو النجيب الصوفي الفقيه الواعظ.

قال العماد: وجاءنا رسل دار الخلافة مبشرين بخلافة المستضيء، واتفق ذلك يوم عبور دجلة، وركب يوم النزول على تل توبة في الأهبة السوداء واليد البيضاء، وذلك بمرأى ومنظر من أهل الموصل الحدباء، ثم أرسل الشيخ شرف الدين بن أبي عصرون إلى بغداد نائباً عنه في خدمة الإمام، ومما نظمه العماد فيه:

قـــد أضـــاء الـــزمـــان بـــالمستضيء
وارث البرد وابـــن عـــم النبـــيّ
جـــاء بـــالحق والشريعـــة والعـــد
ل فيـــا مـــرحبـــا بهذا المجـــيّ
فهنيئـــا لأهـــل بغـــداد فـــازوا
بعـــد بـــؤس بكـــل عيـــش هنـــيّ
ومضيّ إن كـــان في الـــزمـــن المظـــ
ـــلم فـــالعـــود في الـــزمـــان المضيّ

وله من قصيدة أخرى:

لهفـــي على زمـــن الشبـــاب فـــإنـــي
بســـوى التـــأســـف عنـــه لم أتعـــوض
نقضـــت عهـــود الغـــانيـــات وإنها
لـــو لا نقـــاء شيبتـــي لم تنقـــض
يـــا حســـن أيـــام الصبـــا وكـــأنها
أيـــام مـــولانـــا الإمـــام المستضي
ذو البهجـــة الـــزهـــراء يشرق نـــورهـــا
والطلعـــة الغـــراء والـــوجـــه الـــوضي
قســـم السعـــادة والشقـــاوة ربنـــا
في الخلـــق بين محبـــه والمبغـــض

ومنها:

فضـــل الخلائف والخلائق بـــالتقـــى
والفضـــل والافضـــال والخلـــق الـــرضـــي
فـــأنعـــم أمير المؤمنين بـــدولـــة
مـــا تنتهـــي وسعـــادة مـــا تنقضي

قـال: ووصـل نـور الـديـن رحمه الله تعـالى إلى دمشـق، وأدّى فـرض الصيام، وخـرج بعد العيد إلى الخيـام، وأخرج سرادقـه إلى جسر الخشب،

وسرنا إلى عشترا، ثم ذكـر العماد هنا سرية صاحب البيرة الأرتقـي باللبوة، وقد مضت في أخبار سنة خمس وستين فثم ذكرها ابن الاثير.

فصل

فيما جرى بمصر في هذه السنة

قال العماد: كـان بمصر حبس للشحـن يعرف بـدار المعونـة فأعـادها صـلاح الـدين مـدرسـة للشـافعيـة في أول سنة سـت وستين، وعمـل في النصف مـن المحرم دار العزل، مدرسـة للمالكية، وولى صدر الديـن عبد الملك بن درباس القضاء والحكم بمصر والقاهرة وأعمالها وذلك في الثاني والعشريـن مـن جمادى الآخـرة، ثـم خرج إلى الغـزاة وأغـار على الـرملـة وعسقـلان، وهجم ربـض غزة، ثـم رجـع إلى القاهـرة ، ثم وصلـه الخبر بخروج قـافلة مـن دمشق فيها أهلـه فأشفـق عليها وأحـب أن يجتمع بها شمله فخرج في النصف مـن ربيع الأول وكانت بإيلة قلعـة في البحر قد حصنهـا أهل الكفـر فعمـر لها مراكـب وحملهـا إلى ساحلهـا على الجمال وركبها الصناع هناك ، وشحنها بالـرجال وفتح القلعة في العشر الأوّل من ربيـع الآخر واستحلهـا واستباح بـالقتل والأسر أهلهـا، وملأهـا بالعـدد والعدد ، وحصنها بـأهل الجلاد والجلد، واجتمع بأهلـه عليها، وسار بهم على سمـت القاهـرة ، ودخلوا في السـادس والعشرين مـن جمادى الأولى إليها، وسار إلى الاسكنـدرية في الثالث والعشريـن من شعبان ليشاهـدها ويرتب قواعـدها، وهي أوّل دفعة سار إليها في أيام سلطـانه، وعمّ أهلها بإحسانه، وأمر بعمارة أسوارها وأبـراجها وأبدانها، وفي النصف من شعبان اشترى تقي الدين عمر بن شاهنشاه، وهـو ابن أخي صلاح الدين منازل العز بمصر وجعلهـا مدرسـة للشافعيـة، واشترى الروضـة وحمام الذهـب وغيرهما من الأملاك ووقفهـا عليها، وفي النصف من جمادى الآخـرة أغار

شمس الدولة أخو السلطان بالصعيد على العربان، ثم دخل القاهرة في عاشر شهر رمضان.

وفي الثالث والعشرين من جمادى الآخرة توفي القاضي الموفق أبو الحجاج يوسف بن الخلال، وكان من الأماثل الأفاضل، ولم يزل صاحب ديوان الإنشاء إلى أن كبر، وكان الأجل الفاضل يوصل إليه كل ما كان له، وقام به مدّة حياته يكرم عهده ويكفله، وقال في الخريدة: هو ناظر ديوان مصر وإنسان ناظره وجامع مفاخره وكان إليه الانشاء، وله قوّة على الترسل يكتب ما يشاء، عاش كثيراً وعطل في آخر عمره وأضرّ ولزم بيته إلى أن تعوّض منه القبر، ومن شعره:

يا أخا الغرّة حسب الدهر من عظة المغرور ما أصبح يبدي

تؤثر الدنيا فهل نلت بها لحظة تخلص من هم وكد (١١٨)

قلت: وذكر ضياء الدين أبو الفتح نصر الله بن محمد المعروف بابن الأثير الجزري في أوّل كتابه المسمى بالوشي المرقوم في حل المنظوم قال: حدّثني عبد الرحيم بن علي البيساني رحمه الله بمدينة دمشق في سنة ثمان وثمانين وخمسمائة قال: كان فن الكتابة بمصر في زمن بني عبيد غضاً طرياً، وكان لايخلو ديوان المكاتبات من رأس يرأس مكاناً وبياناً ، ويقيم لسلطانه بقلمه سلطاناً، وكان من العادة أنّ كلا من أرباب الدواوين إذا نشأ له ولد وشذا شيئاً من علم الأدب أحضره إلى ديوان المكاتبات ليتعلم فن الكتابة، ويتدرب ويرى ويسمع، قال: فأرسلني والدي وكان إذ ذاك قاضياً بثغر عسقلان إلى الديار المصرية في أيام الحافظ، وهو أحد خلفائها، وأمرني بالمصير إلى ديوان المكاتبات، وكان الذي يرأس به في تلك الأيام رجلا يقال له ابن الخلال، فلما حضرت الديوان، ومثلت بين يديه، وعرفته من أنا وما طلبي رحب بي وسهل ثم قال: ما الذي أعددت لفن الكتابة من الآلات، فقلت ليس عندي شيء سوى أني

أحفظ القرآن العزيز، وكتاب الحماسة، فقال: وفي هذا بلاغ، ثم أمرني بملازمته، فترددت إليه، وتدربت بين يديه، ثم أمرني بعد ذلك أن احل شعر الحماسة فحللته من أوّله إلى آخره، ثم أمرني أن أحله مرّة ثانية فحللته.

وقال ابن أبي طي: في هذه السنة شرع السلطان ـــ يعنى صلاح الدين ـــ في عمارة سور القاهرة لأنه كان قد تهدّم أكثره وصار طريقاً لايرد داخلاً ولا خارجاً، وولاه لقراقوش الخادم، وقبض على القصور وسلمها إليه ، وأمر بتغيير شعار الاسماعيلية، وقطع من الآذان حي على خير العمل، وشرع في تمهيد أسباب الخطبة لبني العباس.

وفيها طلب شمس الدولة من أخيه السلطان ربع الكامل بالقاهرة، وازداد على إقطاعه بوش وأعمال الجيزة وسمنود وغيرها.

قلت: وقد وقفت على كتاب فاضلي وصف فيه غزاة غزاها صلاح الدين رحمه الله في زمان وزارته، وكان الكتاب إلى مدينة قوص وأظن هذه الغزاة هي التي أشار إليها العماد في أثناء كلامه السابق أوّل الكتاب : (فانقلبوا بنعمة من الله وفضل لم يمسسهم سوء واتبعوا رضوان الله والله ذو فضل عظيم)(١١٩)

وفيه: « توجهنا من بركة الجب يوم الخميس الخامس عشر من ربيع الأوّل ووصلنا بتاريخ السابع والعشرين من الشهر المذكور والعساكر بالسهل والوعر منتظمه، والهمم على السهل والصعب مزدحمة، وجنود الله في الأرض المعلمه قد أيدتها جنود السماء المسومة، وصابحنا الدير يوم الأربعاء بقتال جعل كل من في حصن الدير راهبا ونصبنا عليه منجنيقاً لايزال بشهاب القذف ضارباً، فلما تعالى النهار ملكنا ربضه، وأطلقنا فيه النيران. ورملنا الرجال بالدم. وأرملنا النسوان ، وزحفنا إلى أبراجه وهي

أبراج قد استعدت للبلاء جلباباً، فجعلنا لكل واحد جورة مفردة وبابا، وسرحنا إليهم رسل المنايا من النشاب، وقصدنا أحد الأبراج والبيوت تؤتى في الحرب من غير الأبواب. وتقدّمت إليه نقابة الجلبية فباتت ليلتها تساوره وتراجعه بألسنة المعاول وتشاوره، وأسفر الصبح وقد أمكن تعليقه، وتيسر تحريقه، فأودعنا تلك العقود آلات الوقود ، فلم يكن إلاّ مقدار اشتعالها حتى خرّ صريعاً سريعاً، وعفر بين أيدينا سامعاً مطيعاً، وانتظمت الرجال على أحجاره، وتواثبت إلى أمثاله من الأبراج وأنظاره، فحصلت في القبضة وعجز من كان فيها عن النهضة، واحتكم فيها العذاب بالسيف والنار، وضاق عليهم مجال النفس والقرار واستقبلنا يوم الخميس نقب القلعة وتقديم المنجنيق وتيسير السبيل للقتال وتخليص الطريق هذا والكسوب والنهوب قد امتارت منها العساكر وخرجت فيها مكنونات الذخائر، وأشبه اليوم يوم تبلى السرائر، وطهر الأرض منهم بالدم المائر ، فلما كان بكرة الجمعة وردتنا الأخبار بأن الملك قد زحف من غزة في فارسه وراجله ورامحه ونابله وحشود دياره وجنود أنصاره، فركبنا مستبشرين بزحفة، موقنين بحتفه. ولقيناه فأحطنا من بين يديه ومن خلفه. وناوشته الخيل الطراد ، وأحدقت به احداق الأغلال بالأجياد وانتظرت حملته التي كانت لها قبل ذلك اليوم موقع، وصدمته التي لها من رجال الحرب موضع، فملأ الله قلبه رعباً، وثنى صدقه كذباً، ولم يزل يخاتل، ولا يقاتل، ويواصل المسير ولا يطاول، والقتل في أعقابه، وأيدي السيوف وسواعد الرماح لاتني في عقابه حتى تحصل في الدير هو وخيله ورجله، ولم يبق له من ملك الشام إلا ما وطئته رجله. فناصبناه الحصار في ليلة السبت مستهل ربيع الآخر بالركوب إليه والوقوف عليه ، لعله يبرز ويبارز ويخرج ولا يحاجز. فخرست غماغمه واستذابت ضراغمه، فتركناه وراء ظهورنا، وجعلنا بلاده أمام صدورنا، فكنا في توليته مرضين الله سبحانه لامغضبين، وفي تركه وراء ظهورنا ومباعدته، من الله متقرّبين. وواجهنا غزة بعساكرنا

المنصورة، وأطفنا بها في أحسن صورة، وهي على ما علم من كونها بكراً لم تفترعها الحوادث. وحصانا لم يطمثها أمل طامث. هي معقل الديوية الذين هم جمرة الشرك، وداهية الأفك، وأتى الله ببنيانها من القواعد، وأنجز فيها من النصر صادق المواعد، ووردناها بأيمن الموارد، وفتحناها من عدّة جوانب،ووطئناها وإذا هي كأمس الذاهب، فألقت إلينا أفلاذ كبدها وذخيرة يدها، فمن بين مواش تخرب البلاد التي منها خرجت، وخيول مسوّمة كأنها لركوبنا أسرجت وألجمت، وحوامل أثقال وزوامل خففت عن عساكرنا وفرّجت، وميرة كثيرة تمكنت منها يد الأجناد وأفرجت، وأساري المسلمين فكوا من القيد والقد، وأنقذوا بلطف الله من سوء المكيدة وشدّة الجهد. فأما الرؤوس المقطوعة وأسارى الفرنج الذين أيديهم إلى أعناقهم مجموعة، فإن الفضاء الفضي تعصفر من دمائهم وتذهب، وجرى منها مابه اضطرم وقد الجحيم وتلهب، وفي الحال أمرنا بالنار أن تشتغل بها وتشتعل، وبالهدم أن ينقل عنها معاولة وينتقل، فهل ترى لهم من باقيه. أو تنظر إلا طلولاً على عروشها خاويه. وعراصاً من سكانها خالية. قد بقيت عبرة للعابر وذكرى للذاكر. وموعظة سارة للمسلم مرغمة للكافر، ثم عدنا بقية يوم السبت إلى الملك خذله الله راجين أن يحمله الثكل على الإقدام، ويخرجه حرّ النار إلى مقام الانتقام، فإذا شيطانه قد نصحه، وقتل أصحابه قد جرحه، فبتنا عليه والالسنة بفراره تعيره. واستشاره يقرّعه ويقرره. وأصبحنا يوم الأحد ثاني شهر ربيع الآخر والكسب قد أثقل المقاتلة ونصر الله قد بلغ الغاية المستأصلة، ورحلنا والسلامة لصغير عسكرنا وكبيره شامله. والعدوّ قد غزي في عقره وعقر، وأذل في دار ملكه وأحتقر ووصلنا إلى مستقرّ سلطاننا في يوم الإثنين الحادي عشر من الشهر المذكور فاستقبلنا من مولانا صلوات الله عليه تشريفه، واستقبال ركابه ومشافهتنا بمقبول دعائه الشريف ومجابه ما عظمت به النعم، وجلت ، وزالت به وعثاء الطريق وتجلت ، وجادتها سماء انعامة التي لم تزل تجودنا واستهلت.

قلت: ومن قصيدة لعمارة في مدح صلاح الدين أوّلها:

(فؤاد بنار الشوق والوجد محرق) يقول فيها:

لعل بني أيوب إن علموا بما
تظلمت منه أن يرقوا ويشفقوا

غزوا عقر دار المشركين بغزة
جهاراً وطرف الشرك خزيان مطرق

وزاروا مصلى عسقلان بأرعن
يفيض إناء البرّ منه ويفهق

وكانت على ما شاهد الناس قبلهم
طرائق من شوك القناليس تطرق

وما عصمتهم منك إلا معاقل
تأنوا على تحصينها وتأنقوا

جلبت لهم من سورة الحرب ما التقى
بوادره سور عليهم وخندق

وأخربت من أعمالهم كل عامر
يمرّ به طيف الخيال فيفرق

أضفت إلى أجر الجهاد زيارة الـ
ـخليل فأبشر أنت غاز موفق

وهيجت للبيت المقدّس لوعة
يطول بها منه إليك التشوّق

تنشق من ملقاك أعظم نفحة
تطيب على قلب الهدى حين تنشق

وغزوك هذا سلم نحو فتحه
قريباً وإلاّ رائد ومطرّق

هو البيت إن تفتحه والله فاعل
فما بعده باب من الشام مغلق

ثم دخلت سنة سبع وستين وخمسمائة

فاستفتحها صلاح الدين رحمه الله باقامة الخطبة في الجمعة الأولى منها بمصر لبني العباس، وفي الجمعة الثانية خطب لهم بالقاهرة، وانقطع ذكر خلفاء مصر، وتوفي العاضد يوم عاشوراء بالقصر، وانقضت تلك الدولة بانتهاء مادام لها من العصر.

وذكر العماد أيضا في أخبار سنة إثنتين وسبعين كما سيأتى أن الذي خطب بمصر لبني العباس أولاً هو أبو عبد الله محمد بن المحسن بن الحسين بن أبي المضاء البعلبكي، وذكر ذلك أيضا ابن الدبيثي في تاريخه، وقد أشار إليه القاضي الفاضل في كتاب له إلى وزير بغداد سيأتي ذكره.

قال ابن الاثير : كان السبب في ذلك أن صلاح الدين يوسف بن أيوب لما ثبتت قدمه في مصر وزال المخالفون له، وضعف أمر العاضد، وهو الخليفة بها ولم يبق من العساكر المصرية أحد كتب إليه الملك العادل نور الدين محمود يأمره بقطع الخطبة العاضدية، وإقامة الخطبة العباسية، فاعتذر صلاح الدين بالخوف من وثوب أهل مصر وامتناعهم من الإجابة إلى ذلك لميلهم إلى العلويين فلم يصغ نور الدين إلى قوله، وأرسل إليه يلزمه بذلك إلزاماً لا فسحة له فيه، واتفق أن العاضد مرض وكان صلاح الدين قد عزم على قطع الخطبة له فاستشار الأمراء كيف يكون الابتداء بالخطبة العباسية فمنهم من أقدم على المساعدة وأشار بها، ومنهم من خاف ذلك إلا أنه لم يمكنه إلا إمتثال أمر نور الدين، وكان قد دخل إلى مصر انسان أعجمي يعرف بالأمير العالم، وقد رأيناه بالموصل كثيراً فلما رأى ما هم فيه من الاحجام قال: أنا أبتدي بها ، فلما كان اول جمعة من المحرم صعد المنبر قبل الخطيب ودعا للمستضيء بأمر الله ، فلم ينكر ذلك أحد عليه ، فلما كان الجمعة الثانية أمر صلاح

الـدين الخطبـاء بمصر والقـاهرة بقطـع خطبـة العاضـد وإقـامة الخطبـة للمستضيء بأمر الله، ففعلوا ذلك، ولم ينتطح فيها عنزان، وكتب بذلك إلى سائر الـديار المصرية، وكان العـاضد قد اشتـد مرضه فلم يعلمـه آله وأصحـابه بـذلـك، وقالـوا إن سلـم فهو يعلـم وإن تـوفي فلا ينبغـي أن ننغص عليه هذه الأيام التي قد بقيـت من أجله، فتوفي يوم عاشوراء، ولم يعلم.

قال: ولما تـوفي جلس صـلاح الديـن للعزاء واستـولى على قصره، وعلى جميع مـا فيه، وكان قد رتـب فيه قبل وفاة العـاضد بهاء الدين قـراقوش، وهو خصي لحفظه وجعله كـاستاذدار العاضد فحفظ ما فيـه حتى تسلمه صـلاح الديـن، ونقـل أهل العـاضد إلى مكـان منفـرد، ووكل بحفظهـم وجعل أولاده وعمومته وأبناءهم في الأيـوان في القصر وجعل عندهم من يحفظهـم، وأخرج مـن كـان بالقصر مـن العبيد والاماء فـاعتق البعـض ووهب البعـض واباع البعض، وأخلى القصر مـن أهله وسكانـه فسبحان من لايزول ملكه ولا يغيره مر الأيام وتعاقب الدهور.

قال: ولما أشتد مرض العـاضد أرسل يستدعي صلاح الـدين، فظن أن ذلك خديعة فلم يمض إليه، فلما توفي علم صدقه فندم على تخلفه عنه.

قلت: أخبرني الأمير أبـو الفتوح بـن العاضد، وقـد اجتمعت بـه سنة ثمان وعشريـن وستمائة وهو محبـوس مقيد بقلعـة الجبل بمصر أن أبـاه في مرضـه استدعى صـلاح الديـن فحضر، قال: وأحضرنا يعنـي أولاده وهم جماعـة صغار فـأوصـاه بنا فـالتـزم اكرامنـا واحترامنـا رحمه الله، وأما نـدم صلاح الدين فبلغنـي أنه كان على استعجاله بقطع خطبتـه وهو مريض، وقال: لو علمت أنه يموت من هذا المرض ما قطعتها إلى أن يموت.

قال العماد: وجلس السلطان للعزاء وأغرب في الحزن والبكاء، وبلغ الغاية في اجمال أمره والتوديع له إلى قبره، ثم تسلم القصر بما فيه من خزائنه ودفائنه، وكان منذ نافق مؤتمن الخلافة وقتل صرف من هو زمام القصر وعزل، ووكل بهاء الدين قراقوش بالقصر، وجعله زمامه واستنابه مقام نفسه، وأقامه، فما دخل إلى القصر شيء ولا خرج إلاّ بمرأى منه ومسمع، ولا حصل أهل القصر بعد ذلك على صفو مشرع، فلما توفي العاضد بطلت تلك القواعد، ووهت المعاقد، وأمر السلطان بالاحتياط على أهله وأولاده في موضع خارج القصر، جعله برسمهم على الانفراد، وقرر ما يكون لهم برسم الكسوات والأقوات والأزواد.

قلت: أخبرني أبو الفتوح أنه جعلهم في دار برجوان في الحارة المنسوبة إليه بالقاهرة، وهي دار كبيرة واسعة، كان عيشهم فيها طيبا، ثم نقلوا بعد الدولة الصلاحية منها، وأبعدوا عنها.

قال العماد: وهم إلى اليوم في حفظ قراقوش واحتياطه واستظهاره يكلؤهم ويحرسهم بعين حزمه في ليله ونهاره، وجمع الباقين من عمومتهم وعترتهم من القصر في إيوان، واحترز عليهم في ذلك المكان بكل إمكان ، وأبعد عنهم النساء لئلا يتناسلوا فيكثروا، وهم إلى الآن محصورون محسورون لم يظهروا، وقد نقص عددهم وقلص مددهم، ثم عرض من بالقصر من الجواري والعبيد، والعدة والعديد، والطريف والتليد، فوجد أكثرهن حرائر فأطلقهنّ، وجمع الباقيات فوهبهنّ وفرقهنّ وأخلى دوره، وأغلق قصوره، وسلط جوده على الموجود، وأبطل الوزن والعد عن الموزون والمعدود، وأخذ كل ما صلح له ولأهله وأمرائه ولخواص مماليكه واوليائه من أخائر الذخائر، وزواهر الجواهر، ونفائس الملابس، ومحاسن العرائس، وقلائد الفرائد، والدرة اليتيمه، والياقوتة العالية الغالية القيمه، والمصوغات التبريه، والمصنوعات العنبرية، والأواني الفضية والصواني

الصينيه، والمنسوجات المغربية، والممزوجات الذهبية، والمحوكات النضارية، والكرائم واليتائم والعقود والتمائم والنقود والمنظوم والمنضود، والمحلول والمشدود، والمنعوت والمنحوت، والدر والياقوت ، والحلي والوشي، والعبير والحبير والوثير والنشير، والعيني واللجيني، والبسط والفرش، وما لا يعد احصاء، ولا يحد استقصاء، فوقع فيها الفناء، وكشف عنها الغطاء، وأسرف فيها العطاء، وأطلق البيع بعد ذلك في كل جديد وعتيق ولبيس وسحيق وبال وأسمال، ورخيص وغال، وكل منقول ومحمول، ومصوغ ومعمول، واستمر البيع فيها مدّة عشر سنين، وتنقلت إلى البلاد بأيدي المسافرين الواردين والصادرين.

ونقلت من ديوان العماد بخطه قال: ولما وصل خبر موت العاضد الذي كان بمصر في القصر، موسوما بالأمر في ليلة عاشورا، سنة سبع وستين، بعد الخطبة بها للمستضيء بالله أمير المؤمنين، عملت هذه الأبيات فذكر قصيدة منها:

توفي العاضد الدعيّ فما
يفتح ذو بدعة بمصر فما

وعصر فرعونها انقضى وغدا
يوسفها في الأمور محتكما

وانطفأت جمرة الغواة وقد
باخ من الشرك كلما اضطرما

وصار شمل الصلاح ملتئما
بها وعقد السداد منتظما

لما غدا معلنا شعار بني الـ
ـعباس حقا والباطل اكتتما

وبات داعي التوحيد منتصرا
ومن دعاة الاشراك منتقما

وظل أهل الضلال في ظلل
داجية من غيابة وعمى
وارتبك الجاهلون في ظلم
لما أضاءت منابر العلما
وعاد بالمستضيء ممتهدا
بناء حق قد كان منهدما
واعتلت الدولة التي اضطهدت
وانتصر الدين بعد ما اهتضما
واهتز عطف الاسلام من جذل
وافتر ثغر الإيمان وابتسما
واستبشرت أوجه الهدى فرحا
فليقرع الكفر سنه ندما
عاد حريم الاعداء منتهك الـ
ـحمى وفيء الطغاة مقتسما
قصور أهل القصور أخربها
عامر بيت من الكمال سما
أزعج بعد السكون ساكنها
ومات ذلا وأنفه رغما

ومن كتاب فاضلي عن السلطان صلاح الدين إلى وزير بغداد، على يد الخطيب شمس الدين بن أبي المضا، في بعض السنين: « كتب الخادم هذه الخدمة من مستقره، ودين الولاء مشروع، وعلم الجهاد مرفوع، وسؤدد السواد متبوع، وحكم السداد بين الأمة موضوع، وسبب الفساد مقطوع ممنوع، وقد توالت الفتوح غربا ويمنا وشاما، وصارت البلاد بل الدنيا والشهر بل الدهر حرما حراماً، فاضحى الدين واحداً بعد ما كان أديانا، والخلافة إذا ذكر بها أهل الخلاف لم يخروا عليها إلاّ صما وعميانا، والبدعة خاشعة، والجمعة جامعه، والمذلة في شيع الضلال شائعه، ذلك بأنهم اتخذوا عباد الله من دونه أولياء، وسموا أعداء الله أصفياء، وتقطعوا

أمرهم بينهم شيعا، وفرقوا أمر الأمة وكان مجتمعا، وكذبوا بالنار، فعجلت لهم نار الحتوف، ونثرت أقلام الظبا حروف رؤوسهم نثر الأقلام للحروف، ومزقوا كل ممزق، وأخذ منهم كل مخنق، وقطع دابرهم، ووعظ آينهم غابرهم، ورغمت أنوفهم ومنابرهم، وحقت عليهم الكلمة تشريداً وقتلا، وتمت كلمات ربك صدقا وعدلا، وليس السيف عمن سواهم من كفار الفرنج بصائم، ولا الليل عن سير إليهم بنائم، ولا خفاء عن المجلس الصاحبي أن من شد عقد خلافه وحل عقد خلاف ، وقام بدولة وقعد بأخرى قد عجز عنها الأخلاف والأسلاف، فإنه مفتقر إلى أن يشكر ما نصح وقلد مافتح ويبلغ ما اقترح ويقدم حقه ولا يطرح ، ويقرب مكانه وإن نزح، وتأتية التشريفات الشريفة، وتتواصل إليه أمداد التقويات الجليلة اللطيفة، وتلبى دعوته بما أقام من دعوه، وتوصل غزوته بما وصل من عزوه، وترفع دونه الحجب المعترضة وترسل إليه السحب المروضه فكل ذلك تعود عوائده وتبدو فوائده بالدولة التي كشف وجهه لنصرها وجرد سيفه لرفع منارها والقيام بأمرها، وقد أتى البيوت من أبوابها وطلب النجعة من سحابها، ووعد آماله الواثقة بجواب كتابها، وأنهض لايصال ملطفاته، وتنجييز تشريفاته خطيب الخطباء بمصر، وهو الذي اختاره لصعود درجة المنبر وقام بالأمر قيام من بر. واستفتح بلباس السواد الأعظم الذي جمع الله عليه السواد الأعظم أملاً أنه يعود إليه بما يطوي الرجاء فضل عقبه، ويخلد الشرف في عقبه».

ولصاحبنا مجد الدين محمد بن الظهير الإربلي من قصيدة في مدح بعض ذرية السلطان رحمه الله تعالى:

مليك من القوم الذين رماحهم
دعائم هذا الدين في كل مشهد

هم نصروا التوحيد نصراً مؤزراً
به عز في الآفاق كل موحد

وهـم قهـروا وغلـب الفـرنـج بيـأسهـم
فـدانـوا لهم بـالـرغـم لا عـن ودد
وردوا إلى البيـت المقـدس نـوره
وقـد كـان في ليـل مـن الشرك أسـود
وهـم سهلـوا سبـل الحجيـج وآمنـوا
بها الـركـب خـوف الكـافـر المتشـدد
وقـد ركبـت فـرسـانـه بحـر إيلـة
يخوضـون في بحـر مـن الكيـد مـزبـد
وهـم رجعـوا مصراً إلى دعـوة الهدى
بعـزم ورأي في العظـائم محصـد
وهـم شيـدوا ركـن الخلافـة بـالـذي
أعـادوه مـن حـق طـريـف ومتلـد
وهـم شرفـوا قـدر المنـابـر بـاسمهـا
وذكـر منـوط بـالـرسـول محمـد
وهـم وهبـوا عـز المهالـك واكتفـوا
بسمـراء العـوالي والعـلاء المشيـد
فسل عـن ظبـاهـم يـوم حطين كـم قضـت
بمـرّ مـراد الله في كـل أصيـد
وضعـف حـديـث العـدل والبـأس والنـدى
إذا كـان عـن أيـامهـم غير مسنـد

وقال ابـن أبي طي الحلبي: قد قـدمنا ذكر مكـاتبة نور الديـن والحاحه على صلاح الـدين في إقامة الخطبـة بمصر للعباسيين، وأنه أنفذ إليـه أباه الأمير نجم الـدين أيـوب لأجل ذلك لما كتـب الخليفة المستنجـد إلى نور الدين في ذلـك، ولما ولي ابنه المستضيء أقبل أيضاً على مكاتبة نـو الدين فيه، وألح نور الدين على صلاح الدين في طلبه، وأفضـى به الأمر إلى أنه اتهم صـلاح الديـن وشنع عليـه بسببـه، وأكثر القـول في ذلك، ولما قـدم الأمير نجم الدين حداه على فعل ذلك، فـاعتذر إليه بأن أحواله لم تستقر

بعـد وأمـوره مضطـربـة واعـداؤه كثيرون، وأن المصريين لهم جماعـة كبيرة متفرقة في بـلاد مصر من السودان وغيرهم وأن هذا الأمـر إن لم يؤخذ على التدريج وإلا فسدت أحواله، فلما أوقـع السلطان الملك الناصر بالسودان والأرمن،ونكب أمراء المصريين وقطع أخبازهم، وترك أجناده في دورهم، ثم قطع اقطـاع العاضد وقبـض جميع ما كـان بيده من البـلاد، واستولى على القصور، ووكل بها وبمـن فيها قراقوش الخادم، وخلت لـه بلاد مصر من معاند ومنـابذ، ثم شرع وأبطل من الأذان «حـي على خير العمل»، وأنكر على من يتسم بمذهبهم والانتساب إليهـم، فلما رأى أموره مواتيه وأعداؤه قليلون،شرع حينئذ في الخطبة لبني العباس، ولما عول على ذلك أمر والده الأمير نجـم الديـن بـالنزول إلى الجامـع في جماعة مـن أصحـابه، وأمـراء دولته، وذلك في أول جمعة من السنة، وأمـره أن يحضر الخطيب إليه ويأمره بما يختاره، وإنما فعل الملك الناصر ذلـك، ووكل الأمر إلى غيره استظهار أو خوفـاً من فادحـة ربما طرأت أو عدو ربما ثـار، فيكون هو معتـذراً من ذلـك، ولما حصل نجـم الديـن بـالجامع أحضر الخطيـب، وقال لـه: إن ذكرت هـذا المقيم بـالقصر ضربت عنقك، فقـال: فلمن أخطـب؟ قال: للمستضيء العباسي، فلما صعد المنبر وخطب ووصـل إلى ذكر العاضد، لم يذكـر أحداً لكنـه دعا للائمـة المهديين، وللسلطـان الملك النـاصر، ونزل فقيل لـه في ذلك فقـال: ما علمـت اسم المستضيء ولا نعـوته، ولا تقـرر معي في ذلك شيء قبـل الجمعة، وفي الجمعة الثانية أفعـل إن شاء الله ما يجب فعله في تحرير الاسم والألقاب على جاري العادة في مثل ذلك.

قال: وقيل إن العاضد لما اتصل به ما فعل من قطع اسمه من الخطبة، قـال: لمن خطـب؟ قيل لـه: لم يخطـب لأحـد مسمى، قـال: في الجمعـة الأخرى يخطبون لـرجل مسمى، واتفق أنـه مات قبل الجمعة الثـانية، قيل إنه أفكـر واستولى عليـه الفكر والهم حتـى مات، وقيـل إنه لما سمـع أنه قطعـت خطبته اهتـم وقام ليـدخل إلى داره فعثـر وسقط، فـأقام متعلـلا

خمسة أيـام، ومات، وقيل أنـه امتص فـص خاتمه، وكان تحتـه سم فمات، ولما اتصل موته بالملك الناصر، قال : لو علمنا أنه يموت في هذه الجمعة ما غصصنـاه يرفـع اسمه من الخطبـة، فحكي أن القـاضي الفاضـل قال للسلطان: لو علم أنكم ما ترفعـون اسمه من الخطبة لم يمت أشار إلى أن العاضد قتل نفسه، وكان موته يوم عاشوراء.

قـال: وحكى ابـن المارستاني في سيرة ابـن هبيرة الوزيـر، قال: إن مـن عجيب ما جـرى في أمر المصريين أن رأى إنسان من أهـل بغداد في سنة خمس وخمسين وخمسمائة كأن قمرين أحدهما أنور من الآخر، والأنور منهما مسامت للقبلـة وله لحية سوداء فيهـا طول، ويهب أدنى نسيم فيحـرّكها، وأثر حـركتها وظلهـا في الأرض، وكان الرجـل يتعجب مـن ذلك، وكـأنه سمع أصـوات جماعة يقرأون بألحان وأصـوات لم يسمع قط مثلها، وكـأنه سأل بعض من حضر فقـال: ما هذا فقالوا: قد استبدل النـاس بامامهم قال: وكان الرجـل استقبل القبلة، وهو يدعو الله أن يجعله إمـاما برّاً تقياً، واستيقظ الـرجل وبلـغ هذا المنـام ابن هبيرة الـوزير إذذاك ببغـداد، فعبر المنام بـأن الإمام الـذي بمصر يستبدل بـه، وتكون الـدعوة لبنـي العباس لمكان اللحيـة السوداء، وقـوي هذا عنـده حتى كـاتب نـور الديـن حين دخل أسـد الديـن إلى مصر في أوّل مرة بأنـه يظفر بمصر، وتكـون الخطبة لبني العبـاس بها على يده، وقيلـت في ذلك الزمـان أشعار في هـذا، منها قصيدة شمـس المعالي أبي الفضـائل الحسين بن محمـد بن تـركان، وكـان حاجب ابن هبيرة قالها حين سمع تأويله المنام:

ليهنـك يـا مـولى الانـام بشـارة
بها سيـف ديـن الله بـالحق مـرهـف

ضربـت بها هـام الاعـادي بهمـة
تقـاصر عنهـا السمهـريّ المثقـف

بعثـت إلى شرق البـلاد وغـربها
بعـوثـا مـن الآراء تحيـي وتتلـف

فقامت مقام السيف والسيف قاطر
ونابت مناب الرمح والرمح يرعف
ملكت به أقصى المغارب عنوة
وكادت بمن فيها المشارق ترجف
ليهنك يا مولاي فتحا تتابعت
إليك به خوص الركائب توجف
أخذت به مصراً وقد حال دونها
من الشرك ناس في لهى الحق تقذف
وقد دنست منها المنابر عصبة
يعاف التقى والدين منهم ويأنف
فطهرها من كل شرك وبدعة
أغرّ غرير بالمكارم يشغف
فعادت بحمد الله باسم إمامنا
تتيه على كل البلاد وتشرف
ولا غرو أن دانت ليوسف مصره
وكانت إلى عليائه تتشوف
تملكها من قبضة الكفر يوسف
وخلصها من عصبة الرفض يوسف

قال يحيى بن أبي طي: يريد بيوسف الأول يوسف الصديق النبي صلى الله عليه وسلم وبيوسف الثاني المستنجد بالله الخليفة يومئذ، وقاله على سبيل الفأل ألا تراه قال بعد هذا البيت:
فشابهته خلقا وخلقا وعفة
وكل عن الرحمن في الأرض يخلف

وجرى الفأل في البيت باسم الملك الناصر صلاح الدين يوسف بن أيوب لأن المستنجد مات قبل تغيير الخطبة لبني العباس، وهذا من عجيب الاتفاق.

قلت: وذكر ابن المارستاني في السيرة المذكورة ، قال: وكان هذا المنام سبباً إلى أن كاتب الوزير ابن هبيرة نور الدين بن زنكي يحثه على التعرّض لمصر والبعث إليها، واتفق في أثناء ذلك نوبة شاور وزير صاحب القصر، وقدومه هارباً منه إلى نور الدين، فحرّك ذلك ما كان تخمر في نفسه مما كان كاتبه به ابن هبيرة، فاستطلع من شاور الأسباب التي يمكن بها الدخول على المصريين فشرحها وأوضحها، فسير إليها أسد الدين كما سبق ذكره.

قال: ولما قطعت خطبة العاضد استطال أهل السنة على الاسماعيلية وتتبعوهم وأذلوهم، وصاروا لا يقدرون على الظهور من دورهم وإذا وجد أحد من الأتراك مصرياً أخذ ثيابه وعظمت الأذية بذلك وجلى أكثر أهل مصر عنها إلى البلاد، وفرح الناس بذلك وكتبت الكتب به إلى الاقطار، وتحدّث به السمار، ولما وصل خبر ذلك إلى نور الدين ندب للبشارة إلى بغداد شهاب الدين أبا المعالي المطهر بن أبي عصرون، وكتب معه نسخة بشارة تقرأ بكل مدينة يمرّ بها يقول فيها: (أصدرنا هذه المكاتبة إلى جميع البلاد الاسلامية عامة بما فتح الله على أيدينا رتاجه، وأوضح لنا منهاجه، وهو ما اعتمدناه من إقامة الدعوة الهادية العباسية بجميع المدن والبلاد والأقطار والأمصار المصرية، والاسكندرية ومصر والقاهرة وسائر الأطراف الدانية والقاصية، والبادية والحاضرة وانتهت إلى القريب والبعيد، وإلى قوص وأسوان بأقصى الصعيد، وهذا شرف لزماننا هذا وأهله نفتخر به على الأزمنة التي مضت من قبله، وما برحت هممنا إلى مصر مصروفه، وعلى افتتاحها موقوفه، وعزائمنا في إقامة الدعوة الهادية بها ماضيه، والأقدار في الأزل بقضاء أرائنا ونجاز مواعدنا قاضيه حتى ظفرنا بها بعد يأس الملوك منها، وقدرنا عليها وقد عجزوا عنها، وطالما مرت عليها الحقب الخوالي، وآبت دونها الأيام والليالي، وبقيت مائتين وثمانين (١٢٠) سنة ممنوة بدعوة المبطلين. مملوة بحزب الشياطين. سابغة

ظلالها للضلال مقفرة المحل إلا من المحال. مفتقرة إلى نصرة من الله يملكها. ونظرة ستدركها. رافعة يدها في أشكائها متظلمة إليه ليكفل بإعدائها على أعدائها، حتى أذن الله لغمتها بالإنفراج ولعلتها بالعلاج. وسببت قصد الفرنج لها وتوجههم إليها طمعا في الاستيلاء عليها، واجتمع داءان الكفر والبدعة، وكلاهما شديد الروعة، فملكنا الله تلك البلاد، ومكن لنا في الأرض وأقدرنا على ماكنا نؤمله في إزالة الالحاد والرفض، من اقامة الفرض، وتقدّمنا إلى من استنبناه أن يستفتح باب السعادة، ويستنجح باب مالنا من الارادة، ويقيم الدعوة الهادية العباسية هنالك. ويورد الأدعياء، ودعاة الإلحاد بها المهالك» وهو كتاب طويل اختصرت منه الغرض وهو هذا.

قال: وسار شهاب الدين بن أبي عصرون إلى جهة بغداد، ولم يترك مدينة إلاّ دخلها بهذه البشارة الجليلة القدر، وقرأ فيها هذا المنشور العظيم الخطر والذكر حتى وصل إلى بغداد فخرج الموكب إلى تلقيه، وجميع أهل بغداد مكرمين لخطير وروده، معظمين لجليل مورووده، ونثرت عليه دنانير الإنعام، وحبي بكل احسان وإكرام، وأرسلت التشريفات إلى نور الدين وصلاح الدين كما سيأتي ذكره.

وقال العماد: كان صلاح الدين لايخرج عن أمر نور الدين ويعمل له عمل القوي الأمين، ويرجع في جميع مصالحه إلى رأيه المتين، وقد كان كاتبه نور الدين في شوّال سنة ست وستين بتغيير الخطبة، وتذليل أمورها الصعبة، وافتراع بكر هذه القضية وفرع الرتبة، وأيقن أن أمره متبوع، وقوله مسموع، وحكمه مشروع، ونطقت بذلك قبل التمام ألسن الخواص والعوام، فسير نور الدين شهاب الدين أبا المعالي المطهر ابن الشيخ شرف الدين بن أبي عصرون بهذه البشارة، وإشاعة ما تقدّم له بها من الإشاعة، وأمرني بانشاء بشارة عامة تقرأ في سائر بلاد الاسلام، وبشارة خاصة للديوان العزيز بحضرة الإمام في مدينة السلام، ثم ذكر نسخة الكتابين،

ونظمت قصيدة مشتملة على الخطبة بمصر أوّلها:

قد خطبنا للمستضيء بمصر نائب المصطفى إمام العصر
وخذلنا لنصرة العضد العاضد والقاصر الذي بالقصر

أراد بالعضد وزير بغداد عضد الدين بن رئيس الرؤساء، قال العماد في كتاب الخريدة: قصدت بالعضد والعاضد المجانسة، ونصرة وزير الخليفة كنصرته، ثم قال:

وأشعنا بها شعار بني العباس فاستبشرت وجوه النصر
وتركنا الدعيّ يدعو ثبورا وهو بالذل تحت حجر وحصر
وتباهت منابر الدين بالخطبة للهاشميّ في أرض مصر
ولدينا تضاعفت نعم الله وجلت عن كل عدّ وحصر
فاغتدى الدين ثابت الركن في مصر محوط الحمى مصون الثغر
واستنارت عزائم الملك العادل نور الدين الكريم الأغر
وبنو الأصفر القوامص منه بوجوه من المخافة صفر
عرف الحق أهل مصر وكانوا قبله بين منكر ومقرّ
قل لداعي الدعيّ حسبك فالله أقرّ الحقوق خير مقرّ

هـــو فتـــح بكـــر ودون البرايـــا
خصنـــا الله بـــافتراع البكـــر
وحصلنـا بـالحمـد والأجـر والنصـــ
ـــر وطيـب الثنـا وحسـن الـذكـر
ونشرنـــا أعـــلامنـــا السود قهـراً
للعـدى الـزرق بـا لمنـايـا الحمـر
واستعـــدنـــا مـــن أدعيـاء حقــوقـاً
يـــدعـــى بينهـــم لـــزيـــد وعمـــر
والـــذي يـدعـي الإمـامـــة بـالقـاهــر
ة انحـــط في حضيـــض القهـــر
خـــانـــه الـــدهـــر في منـــاه ولا يطـــ
ـــمع ذو اللـب في وفـاء الـدهـر
مـــا يقـــام الإمـــام إلاّ بحـــق
مـــا تحاز الحسنـــاء إلا بمهـــر
خلفـــاء الهدى سراة بنـــي العبـــ
ـــاس والطيبـــون أهـــل الطهـــر
بهم الـــديـــن ظـــافـــر مستقيـــم
ظـــاهـــر قـــوّة قـــوي الظهـــر
كشمـــوس الضحـــى كمثـل بـدور الـــ
ـــتم كـالسحـب كـالنجـوم الـزهـر
قـــد بلغنـــا بـــالصبر كـــل مـــراد
وبلـــوغ المراد عقبـــى الصبر
ليـس مثـري الـرجـال مـن ملـك المـا
ل ولكنها أخـــو اللـــب مثـــري
ولهذا لم ينتفـــع صـــاحـــب القصر
وقـــد شـــارف الـــدثـــور بـــدثـــر
دام نصر الهدى بملـك بنـــي العبـــ
ـــاس حتـــى يقـــوم يـــوم الحشر

قال العماد في ديـوانه، ونقلته من خطـه قال: ووصل الخبر بـأن الخطبة قامت في الاسكندرية يوم الجمعة سـابع شهر رمضان، وفي مصر والقاهرة يوم الجمعـة ثامـن عشري شهر رمضان لمولانـا الإمام المستضيء بـأمر الله أمير المؤمنين، وإقامـة شعار بنـي العباس بها، فقلـت ونحن نـزول بجسر الخشـب من دمشـق في عاشر شـوال وكتبـت بها إلى بغداد، فـذكر هـذه القصيدة.

وقـال في البرق: ووصل مـن دار الخلافة في جـواب هذه البشـارة عماد الدين بن صنـدل، وهو من أكابر الخدم المقتفوية مـن ذوي الروية والهمة القويـة، وتولي استاذية الـدار العزيزة بعد عـزل كمال الدين عضد الـدين عنها، فـأكرم نـور الديـن بارسال مثلـه، إليه، وعـوّل في هذا الأمـر المهم عليه، وهو أكرم رسول ، وصل فأنجـح الأمل، وجاء بالتشريف الشريف لنور الدين مكمـلاً معظماً مجملاً بأهبته السوداء العراقيـة، وحلله الموشيه، وطوقه الثقيل، ولوائه الجليل، وعين يوم يحضر فيه الرسول، ونصوا على من يحضر في مجلس نـور الديـن ، واغفلوا ذكـر العماد، فطلبه نـور الديـن لما حضروا، وقام لقيام الـرسول له لما حضر، وقصد أن يعرفهم منـزلته عنده، وناوله الكتاب ليقـرأه، قال: فتناوله مني الموفق بـن القيسراني خالد، وكان عنده في مقام الوزير، وله انبساط زائد، فداريتـه وماماريته وتركته يقرأ وأنا أردّ عليـه وأرشـده في التـلاوة إلى مـالا يهتـدي إليـه حتـى أنهاه وأنـا على افتيـاته عليّ لا أنهاه، فـأعجب نـور الـدين صمتـي وسمتي، وأحمد منـي فضل التأني والتأتي واجتاب الأهبة، ولبس الفـرجية فوقها، وتقلد مع تقلد السيفين طوقهـا، وخرج وركب من داخـل القلعة وهو حال بها عليـه من الخلعـة، واللـواء منشـور، والنضـار منثـور، والمركبـان الشريفـان أحـدهما مركوبه، والآخر بحليته مجنوبه.

قـال: وسألـت عن معنـى تقليـده السيفين فقيل لي هما للشـام ومصر، وللجمع له بين البـلادين، وخرج إلى ظاهر دمشق حتـى انتهى إلى منتهى

الميدان الأخضر، ثم عاد شريف المفخر، جميل المنظر ، جليل المحضر، حميد المخبر، سعيد المورد والمصدر، لبيقا بالأعظمين السرير والمنبر، وكان وزن الطوق مع اكرته ألف دينار من الذهب الأحمر، وحملوا لصلاح الدين تشريفاً فاضلاً فائقاً رائعاً رائقاً لجماله وكماله لائقاً، لكن تشريف نور الدين أميز وأفضل وأجمل وأكمل، فسير تشريفه برمته إليه بمصر ليحظى به، وسير أيضاً بخلع من عنده يكرم بها أصحابه، ووصلت تلك الخلعة إليه ولبسها، وأنس من السعادة الدائمة بقبسها، وطاف بها في الحادي والعشرين من رجب، وهي أول أهبة عباسية دخلت الديار المصرية، يعني بعد استيلاء بني عبيد عليها.

قال: وكانت وصلت مع الرسل أعلام وبنود ورايات سود وأهب عباسية للخطباء في الديار المصرية، فسيرت إلى صلاح الدين، ففرقها على المساجد والجوامع والخطباء والقضاة والعلماء والحمد لله على ما أنعم وأولى ووهب وأعطى.

قال ابن أبي طيّ: ولما فرغ السلطان من أمر الخطبة، أمر بالقبض على القصور، وجميع ما فيها من مال وذخائر وفرش وسلاح وغير ذلك، فلم يوجد من المال كبير أمر لأن شاور كان قد ضيعه في إعطائه الفرنج في المرات التي قدّمنا ذكرها، ووجد فيها ذخائر جليلة من ملابس وفرش وخيول وخيام، وكتب وجواهر، ومن عجيب ما وجد فيه قضيب زمرد طوله شبروكسر هو قطعة واحدة، وكان سمت حجمه مقدار الإبهام، ووجد فيه طبل للقولنج، ووجد فيه أبريق عظيم من الحجر المائع ، ووجد فيه سبعمائة يتيمة من الجوهر، فأما قضيب الزمرد فإن السلطان أخذه وأحضر صانعاً ليقطعه فأبى الصانع قطعه فرماه السلطان فانقطع ثلاث قطع، وفرقه السلطان على نسائه، وأما طبل القولنج فإنه وقع إلى بعض الأكراد فلم يدر ما هو فكسره لأنه ضرب به فحبق ، وأما الابريق فانفذه السلطان إلى بغداد، واحتاط السلطان على أهل العاضد وأولاده في

موضع في خارج القصر، جعله برسمهم على الانفراد، وقرر لهم ما يكفيهم، وجعل أمرهم إلى قراقوش الخادم، وفرق بين النساء والرجال ليكون ذلك أسرع إلى إنقراضهم، واستعرض من بالقصر من الجواري والعبيد والعدّة والعديد والطريف والتليد، فأطلق من كان منهم حراً وأعتق من رأى اعتاقه، ووهب من أراد هبته، وفرق على الأمراء والأصحاب من نفائس القصر وذخائره شيئاً كثيراً، وحصل هو على اليتيمات، وقطع البلخش والياقوت وقضيب الزمرد، وأطلق البيع بعد ذلك في كل جديد وعتيق، فأقام البيع بالقصر مدّة عشر سنين.

قال: ومن جملة ما باعوا خزانة الكتب، وكانت من عجائب الدنيا لأنه لم يكن في جميع بلاد الاسلام دار كتب أعظم من الدار التي بالقاهرة في القصر، ومن عجائبها أنه كان بها ألف ومائتان وعشرون نسخة من تاريخ الطبري، ويقال إنها كانت تحتوي على ألفي ألف كتاب، وكان فيها من الخطوط المنسوبة شيء كثير، وحصل للقاضي الفاضل قدر منها كبير، حيث شغف بحبها، وذلك أنه دخل إليها واعتبرها فكل كتاب صلح له قطع جلده ورماه في بركة كانت هناك، فلما فرغ الناس من شراء الكتب اشترى تلك الكتب التي ألقاها في البركة على أنها مخرومات، ثم جمعها بعد ذلك، ومنها حصل ما حصل من الكتب، كذا أخبرني جماعة من المصريين، منهم الأمير شمس الخلافة موسى بن محمد، واقتسم الناس بعد ذلك دور القصر، وأعطى السلطان القصر الشمالي للأمراء فسكنوه، وأسكن أباه نجم الدين في اللؤلؤة، وهو قصر عظيم على الخليج الذي فيه البستان الكافوري، ونقل الملك العادل إلى مكان آخر منه، وأخذ باقي الأمراء مكان دور من كان ينتمي إليهم، وزاد الأمر حتى صار كل من استحسن داراً أخرج منها صاحبها وسكنها، وانقضت تلك الدولة برمتها، وذهبت تلك الأيام بجملتها، بعد أن كانوا قد احتوروا على البلاد، واستخدموا العباد مائتين وثمانين سنة وكسورا.

قال: وحكي أن الشريف الجليس، وهو رجل كان قريبا من العاضد، يجلس معه، ويحدّثه عمل دعوة لشمس الدولة بن أيوب أخي السلطان بعد القبض على القصور، وأخذ ما فيها وانقراض دولتهم، وغرم هذا الشريف على هذه الدعوة مالا كثيراً، وأحضرها أيضاً جماعة من أكابر الأمراء فلما جلسوا على الطعام قال شمس الدولة لهذا الشريف : حدّثني بأعجب ما شاهدته من أمر القوم؟ قال: نعم طلبني العاضد يوماً وجماعة من الندماء، فلما دخلنا عليه، وجدنا عنده مملوكين من الترك عليهم أقبية مثل أقبيتكم وقلانس كقلانسكم، وفي أوساطهم مناطق كمناطقكم، فقلنا له: يا أمير المؤمنين ما هذا الزي الذي ما رأيناه قط؟ فقال: هذه هيئة الذين يملكون ديارنا، ويأخذون أموالنا وذخائرنا.

قال العماد: وأخذت ذخائر القصر ففصلها، كما سبق، ثم قال: ومن جملتها الكتب فإني أخذت منها جملة في سنة إثنتين وسبعين، وكانت خزائنها مشتملة على قريب مائة وعشرين ألف مجلدة مؤبدة من العهد القديم مخلده، وفيها بالخطوط المنسوبة ما اختطفته الأيدي واقتطعه التعدّي، وكانت كالميراث مع أمناء الايتام يتصرّف فيها بشره الانتهاب والالتهام، ونقلت منها ثمانية أحمال إلى الشام، وتقاسم الخواص بدور القصر وقصوره، وشرع كل من سكن في تخريب معمورة، وانتقل إليه الملك العادل سيف الدين لما ناب عن أخيه، واستمرت سكناه فيه، وخطب لإمامنا المستضيء في قوص وأسوان والصعيد والقاصي والداني والقريب والبعيد، وشاعت البشائر، وذاعت المفاخر، وسار بها البادي والحاضر، وتملك السلطان أملاك أشياعهم، وضرب الألواح على دورهم ورباعهم، ثم املكها أمراءه، وخص بها أولياءه، وباع أماكن، ووهب مساكن، وعفى الآثار القديمة، واستأنف السنن الكريمة.

وقال ابن الاثير : لما استولى صلاح الدين على القصر وأمواله وذخائره، اختار منه ما أراد، ووهب أهله وأمراءه، وباع منه كثيراً، وكان فيه من الجواهر والأعلاق النفيسة مالم يكن عند ملك من الملوك، قد جمع على طول السنين وممر الدهور، فمنه القضيب الزمرد، طوله نحو قبضة ونصف، والجبل الياقوت وغيرهما، ومن الكتب المنتخبة بالخطوط المنسوبة والخطوط الجيدة نحو مائة ألف مجلد.

فصل

ولما خطب بالديار المصرية لبني العباس، ومات العاضد، انقرضت تلك الدولة، وزالت عن الاسلام بمصر بانقراضها الذلة، واستولى على مصر صلاح الدين وأهله ونوابه، وكلهم من قبل نور الدين رحمه الله، هم أمراؤه وخدمه وأصحابه، وفيهم يقول العرقله:

أصبح الملك بعد آل علي
مشرقا بالملوك من آل شاذي

وغدا الشرق يحسد الغرب للقو
م ومصر تزهو على بغداذ

ما حووها إلا بحزم وعزم
صر صليل الفولاذ في الفولاذ

لا كفرعون والعزيز ومن كا
ن بها كالخصيب والاستاذ (١٢١)

يعني بالاستاذ كافور الاخشيدي، وقوله بعد آل علي يعني بذلك بني عبيد المستخلفين بها، وأظهروا للناس أنهم شرفاء فاطميون فملكوا البلاد، وقهروا العباد، وقدد ذكر جماعة من أكابر العلماء أنهم لم يكونوا لذلك أهلا ولانسبهم صحيحاً، بل المعروف أنهم بنو عبيد، وكان والد عبيد

هذا من نسـل القدّاح الملحد المجوسي، وقيل كان والـد عبيد هذا يهوديـاً مـن أهـل سليمة مـن بلاد الشام، وكـان حدّاداً و عبيـد هذا كـان اسمه سعيداً، فلما دخـل المغرب تسمـى بعبيد الله، وزعـم أنه علـوي فاطمـي، وادعى نسباً ليس بصحيح لم يذكره أحـد من مصنفي الأنساب العلـوية بل ذكر جماعة من العلماء بـالنسب خلافه، وهو ما قدّمنا ذكـره، ثم ترقت به الحال إلى أن ملـك وتسمى بالمهدي، وبنـى المهدية بالمغـرب، ونسبت إليه، وكـان زنديقـا خبيثا عـدوّاً للاسـلام، متظاهـراً بالتشيـع، متستراً به، حريصاً على إزالة الملة الاسلاميـة، قتل من الفقهاء والمحدّثين والصالحين جماعة كثيرة، وكـان قصده اعـدامهم مـن الوجـود ليبقى العـالم كالبهـائم فيتمكـن مـن افساد عقـائدهـم وضـلالتهـم: (والله متـم نوره ولـو كـره الكـافـرون (١٢٢)) ونشأت ذريتـه على ذلـك منطـوين يجهـرون بـه إذا أمكنتهم الفـرصة، وإلاّ أسروه والـدعاة لهم منبثـون في البلاد يضلـون من أمكنهـم إضـلاله مـن العبـاد، وبقـي هـذا البلاء على الاسـلام مـن أول دولتهم إلى آخـرها، وذلك مـن ذي الحجة سنة تسـع وتسعين ومائتين إلى سنـة سبـع وستين وخمسمائة، وفي أيـامهـم كثـرت الـرافضـة، واستحكـم أمـرهـم، ووضعـت المكـوس على النـاس، واقتدى بهم غيرهـم، وأفسـدت عقـائد طـوائف مـن أهـل الجبال السـاكنين بثغـور الشـام، كـالنصيريـة والـدرزية والحشيشيـة نوع منهـم، وتمكـن دعاتهم منهـم لضعف عقـولهم وجهلهم مـا لم يتمكنوا من غيرهـم، وأخذت الفرنـج أكثر البلاد بـالشام والجزيـرة إلى أن منّ الله على المسلمين بظهـور البيت الأتـابكـي، وتقدّمـه مثل صلاح الديـن، فاستردّوا البلاد وأزالوا هذه الدولـة عن أرقاب العباد، وكـانـوا أربعة عشر مستخلفـا، ثـلاثـة منهـم بـإفريقيـة وهـم الملقبـون: بالمهـدي، والقائم ، والمنصـور، وأحد عشر بمصر وهـم الملقبون: بـالمعز، والعـزيـز ، والحاكـم، والظاهـر، والمستنصر، والمستعلي، والآمـر، والحافـظ، والظافر، والفـائز، والعاضد، يدّعـون الشرف ونسبتهم إلى مجوسي أو يهودي حتى اشتهر لهم ذلك بين العوام، فصاروا يقولون الدولة الفاطمية والدولة

العلويـة، وإنما هي الـدولة المجـوسية واليهـودية البـاطنية الملحـدة، ومن قبـاحتهم أنهم كـانوا يـأمرون الخطبـاء بذلـك على المنابـر، ويكتبونـه على جدران المسـاجد وغيرها، وخطـب عبدهم جوهـر الذي أخذ لهم الـديار المصرية وبنى لهم القاهـرة المعزية بنفسه خطبة طويلـة قال فيها: « اللهم صل على عبدك ووليـك ثمرة النبوّة وسليل العترة الهادية المهـدية معد أبي تميم، الامام المعز لدين الله أمير المؤمنين، كما صليـت على آبائه الطاهرين وسلفه المنتجبين الأئمة الـراشدين»، كذب عـدوّ الله اللعين، فلا خير فيه ولا في سلفه أجمعين، ولافي ذريتـه الباقين، والعترة النبويـة الطاهـرة منهم بمعـزل رحمة الله عليهم، وعلى مثـالهم من الصـدر الأول وقد بين نسبهـم هذا وأوضح محالهم وما كانوا عليه مـن التمويه وعداوة الاسلام جماعة ممن سلـف من الائمـة والعلماء، وكل متـورع منهم لايسميهـم إلاّ بني عبيـد الأدعياء، أي يدّعون مـن النسب بما ليس لهم، ورحمة الله على القاضي أبي بكر محمـد بن الطيـب فإنـه كشف في أول كتـابه المسمـى بكشف أسرار الباطنية عن بطلان نسـب هؤلاء إلى علي رضي الله عنه، وأن القدّاح الذي انتسبوا إليه، دعي مـن الأدعياء ممخرق كذاب، وهو أصل دعـاة القرامطة لعنهـم الله، وأما القـاضي عبد الجبـار البصري فإنـه استقصى الكـلام في أصولها، وبينهـا بيانـا شافيـا في آخر كتـاب تثبيت النبـوّة له، وقـد نقلت كـلامهما في ذلك وكـلام غيرهما في مختصر تـاريـخ دمشق في تـرجمة عبـد الرحيم بن الياس ، وهو من تلك الطائفة الذين هم بئس الناس، وهذان إمامـان كبيران من أئمة أصول ديـن الاسلام، وأظهر عبد الجبـار القاضي في كتابه بعض مـا فعلوه من المنكرات والكفريات التـي يقفّ الشعر عند استماعهـا، ولكـن لابـد مـن ذكر شيء مـن ذلـك تنفيراً لمن لعلـه يعتقـد إمامتهـم، ويخفى عنه محالهم ولم يعلـم قباحتهـم ومكابرتهم، وليعـذر من أزال دولتهم، وأمات بدعتهم، وقلـل عدّتهم، وأفنى أمتهم، وأطفأ جمرتهم، ذكر عبد الجبار أن الملقب بالمهـدي لعنه الله كان يتخذ الجهال ويسلطهم على أهل الفضل، وكـان يرسل إلى الفقهاء والعلماء فيذبحـون في فرشهم،

وأرسـل إلى الـروم وسلطهـم على المسلمين، وأكثـر مـن الجور واستصفـاء الأموال، وقتـل الرجـال ، وكان لـه دعاة يلـون الناس على قـدر طبقاتهم فيقـولـون لبعضهم: « هـو المهـدي ابـن رسول الله صلى الله عليـه وسلـم وحجة الله على خلقـه» ويقولـون لآخريـن: « هو رسـول الله وحجة الله». ويقولون لأخرى: « هو الله الخالق الرازق» لاإله إلا الله وحده لاشريك له تبارك سبحـانه وتعـالى عما يقول الظالمون علـوا كبيراً، ولما هلك قـام ابنه المسمى بـالقائم مقامـه وزاد شره على شر أبيه أضعافـا مضاعفة وجـاهر بشتم الأنبيـاء فكان ينـادي في أسواق المهـدية وغيرهـا: « ألعنوا عـائشة وبعلها، ألعنوا الغـار وما حوى» اللهم صل على نبيك وأصحـابه وأزواجه الطاهـرين، وألعـن هؤلاء الكفـرة الفجرة الملحـدين، وارحـم من أزالهم، وكان سبب قلعهم، ومن جرى على يـديه تفريق جمعهم، وأصلهم سعيرا، ولقهم ثبـورا، واسكنهم النـار جمعا، واجعلهـم ممن قلـت فيهم: (الـذين ضل سعيهم في الحياة الدنيا وهـم يحسبون انهم يحسنون صنعا (١٢٣)).

رجعنا إلى الأصل.وبعث إلى أبي طاهر القرمطـي المقيم بالبحرين وحثه على قتل المسلمين، واحراق المساجد والمصاحـف، وقام بعده ابنه المسمى بالمنصور، فقتل أبا يزيد مخلداً، الـذي خرج على أبيه ينكر عليه قبيح فعله المقدّم ذكـره وسلخه وصلبـه، واشتغل بأهـل الجبال يقتلهـم ويشرذ مـهم خوفاً من أن يثـور عليه ثائر مثل أبي يزيد، وقام بعده ابنـه الملقب بالمعز، فبث دعاته فكانوا يقولـون هو المهدي الذي يملك الأرض، وهو الشمس التي تطلـع من مغربها، وكـان يسره ما ينـزل بالمسلمين من المصـائب من أخذ الـروم بلادهم، واحتجـب عن الناس أيـاماً، ثم ظهـر وأوهم أن الله رفعه إليه، وأنـه كان غائباً في السماء، وأخبر الناس بأشيـاء صدرت منهم كان ينقلها إليه جواسيس له، فامتـلات قلوب العامة والجهال منه، وهذا أول خلفائهـم بمصر، وهو الذي تنسـب إليه القاهـرة المعزية، واستـدعى بفقيـه الشـام أبي بكر محمـد بـن أحمد بـن سهـل الـرملي، ويعرف بـابـن

النابلسي فحمل إليـه في قفص خشب، فأمر بسلخه، فسلـخ حياً وحشى جلده تبنا وصلب رحمه الله تعالى.

قلت: وفي أيام الملقـب بالحاكم منهم أمر بكتب سـب الصحابة رضي الله عنهـم على حيطان الجوامـع، والقياسر والشـوارع والطـرقات، وكتـب السجـلات إلى سائر الأعمال بـالسـب، ثم أمـر بقلـع ذلـك، وأنا رأيتـه مقلوعاً في بعض أبواب دمشق في الأمكنـة العليا منقوراً في الحجر، ودلني أول الكـلام وآخره على ذلـك، ثم جـدّد ذلك البـاب وأزيل الحجـر، وفي أيامهـم طوف بـدمشق بـرجل مغـربي نودي عليـه: هذا جـزاء من يحب أبابكـر وعمر، ثـم ضربت عنقـه، وكان يجري في أيـامهم مـن نحو هـذا أشياء مثل : قطع لسان، أبي القاسـم الواسطى أحد الصالحين، وكان أذن ببيت المقدس وقـال في: أذانه حي على الفلاح، فـأخذ وقطع لسانـه، ذكر ذلك وما قبلـه من قتل المغربي وأبي بكـر النابلسي الحافظ أبو القـاسم في تـاريخه، ومـا كانـت ولايـة هـؤلاء الملاعين إلاّ محنة مـن الله تعـالى، ولهذا طالـت مدّتهم مع قلـة عدّتهم ، فإن عدّتهم عـدّة خلفاء بني أميـة أربعة عشر، وأولئـك بقوا نيفـا وتسعين سنة، وهـؤلاء بقـوا مائتـي سنة وثمانيـا وستين سنة، فالحمـد لله على ما يسر من هلكهم، وإبـادة ملكهم، ورضي الله عمن سعى في ذلك وأزالهم، ورحـم من بيّن مخرقتهم وكذبهم ومحالهم، وقد كشف أيضـا حالهم الامام أبو القـاسم عبد الرحمن بـن علي بن نصر الشاشـي في كتاب « الـرد على الباطنية» وذكـر قبائح ما كـانوا عليـه من الكفر والمنكـرات والفواحش في أيام نـزار وما بعده، ووصـل الأمر إلى أن وصف بعضهم ما كـانوا فيه في قصيدة سماها الإيضاح عـن دعوة القدّاح أوّلها:

حـــــي على مصر إلى خلــــع الـــــرســـــن
فثـــــم تعطيــــــل فـــــــروض وسنــــــن

وقـال: لـو وفـق ملـوك الاسـلام لصرفـوا أعنـة الخيـل إلى مصر لغـزو

الباطنيـة الملاعين، فإنهم مـن شر أعداء ديـن الاسلام، وقـد خرجـت من حدّ المنـافقين إلى حد المجـاهرين لما ظهـر في ممالك الاسـلام من كفـرها وفسـادهـا وتعين على الكـافـه فـرض جهـادهـا، وضرر هـؤلاء أشـدّ على الاسلام وأهلـه من ضرر الكفار، إذ لم يقم بجهـادها أحد إلى هذه الغـاية مع العلم بعظيم ضررها وفسادها في الأرض.

قلت: ثـم إني لم يقنعني هذا مـن بيان أحوالهم، فأفـردت كتابا لـذلك سميتـه « كشـف ما كـان عليـه بنـو عبيـد مـن الكفر والكـذب والمكـر والكيد»، فمن أراد الوقوف على تفاصيل أحـوالهم فعليه به فإني بتوفيق الله تعالى جمعـت فيه مـا ذكره هـؤلاء الأئمة المصنفـون وغيرهـم، ووقفـت على كتـاب كبير صنفـه الشريـف الهاشمسي رحمه الله، وكـان في أيـام الملقـب بـالعزيـز ثـاني خلفـاء مصر فبين فيه أصـولهم أتـم بيـان، وأوضح كيفيـة ظهورهم وغلبتهم على البلاد، وتتبع ذكر فضـائحهم وما كان يصدر منهم من انواع الزندقة والفسق والمخرقـة، فنقلت منه إلى ما كنـت جمعته قطعة كبيرة وبالله التوفيق ، ومـا أحسن ما قال فيهم بعض مـن مدح بني أيوب بقصيدة منها:

ألستـم مـزيلي دولـة الكفـر مـن بنـي ... عبيـد بمصر إن هـذا هـو الفضـل

زنـادقـة شيعيـة بـاطنيـة ... مجوس ومـا في الصـالحين لهم أصـل

يسرون كفـراً يظهـرون تشيعـا ... ليستروا شيئـاً وعمهـم الجهـل

أما مـا فعله هـؤلاء من الانتسـاب إلى علي رضوان اللـه عليه، والتستر بالتشيـع قد فعلـه جماعة من القـرامطة، وصاحـب الزنـج الخارج بالبصرة وغيرهـم من المفسدين في الأرض على ما عرف من سيرهـم من وقف على أخبار النـاس، وكلهم كذبة ، في ذلـك، وإنما غرضهم التقـرب إلى العوام

والجهال واستتباعهم لهم واستجلا بهم إلى دعوتهم بذلك البلاء، ويفعل الله ما يشاء، ولا يغتر بأبيات الشريف الرضي في ذلك، وقد حصل الجواب عنها في كتاب الكشف بوجوه حسنة، وبالله التوفيق، وقد صنف الشريف القائد [أخو محسن] الدمشقي رحمه الله كتاباً في أبطال، نسبهم إلى علي بن أبي طالب رضي الله عنه ، وفصل ذلك تفصيلا حسنا وأطنب في ذكر أخبار اخوانهم من القرامطة لعنهم الله تعالى.

فصل

في ذكر غزو الفرنج في هذه السنة

قال ابن شدّاد: واستمرت القواعد على الاستقامة وصلاح الدين كلما استولى على خزانة مال وهبها، وكلما فتح له خزائن ملك انهبها، ولا يبقى لنفسه شيئاً ، وشرع في التأهب للغزاة، وقصد بلاد العدوّ وتعبية الأمر لذلك وتقرير قواعده، وأما نور الدين فإنه عزم على الغزاة، واستدعى صاحب الموصل ابن أخيه، فوصل بالعساكر إلى خدمته، وكانت غزوة عرقة، فأخذها نور الدين، ومعه ابن أخيه في المحرم سنة سبع وستين.

وقال ابن أبي طي: جمع نور الدين عساكره، وخرج إلى عرقة ونازلها، وقاتلها أياما حتى فتحها، واحتوى على جميع ما فيها وغنم الناس غنيمة عظيمة.

قال ابن الاثير: خرجت مراكب من مصر إلى الشام، فأخذ الفرنج في اللاذقية مركبين منها مملوئين من الامتعة والتجار، وغدروا بالمسلمين، وكان نور الدين قد هادنهم فنكثوا، فلما سمع نور الدين الخبر استعظمه،

وراسل الفرنج في ذلـك وأمرهم بإعادة ما أخذوه فغالطـوه واحتجوا بأمور منها أن المركبين كـانا قـد دخلهما ماء البحـر لكسر فيهما، وكانـت العادة بينهم أخذ كل مـركب يدخله الماء، وكانوا كاذبين، فلـم يقبل مغالطتهم، وكان رضي الله عنـه لايهمل أمراً من أمـور رعيته، فلم يردوا شيئـاً، فجمع العساكـر من الشام والموصل والجزيـرة، وبث السرايا في بلادهـم بعضهم نحو انطاكية، وبعضهـم نحو طرابلس، وحصر هو حصن عـرقة وأخرب ربضـه، وأرسـل طـائفـة مـن العسكـر إلى حصنـي صـافيتا وعـريمـة، فـأخذهماعنـوة، وكـذلـك غيرهما، ونهب وخرب وغنـم المسلمـون الكثير، وعادوا إليـه وهو بعـرقة، فسـار في العساكـر جميعها إلى قـريب طـرابلس يخرب ويحرق وينهـب، وأمـا الـذيـن ساروا إلى انطـاكيـة فـإنهم فعلـوا في ولايتها مثـل ما فعل مـن النهب والتحريـق والتخريـب بولاية طـرابلس، فراسله الفرنـج وبذلوا إعادة ما أخذوه مـن المركبين، ويجدّد معهم الهدنة، فأجابهم، وكـانوا في ذلك كما يقال: اليهودي لايعطي الجزيـة حتى يلطم، فكذلـك الفرنـج ما أعـادوا أموال التجـار بالتـي هي أحسـن، فلما نهبت بلادهم وخرّبت أعادوها.

قـال: وكـان لـوالـدي في المركبين تجارة مـع شخصين، فلما أعـادوا إلى الناس أموالهم، لم يصل إلى كل إنسـان إلا اليسير، وكان يحمل المتاع فكل من كـان اسمه عليه أو على ثـوب أخذه، وكان في النـاس من يأخـذ ما ليس له، وكان أحـد هذين المضاربين فيه أمانة، وكان نصرانيـا فلم يأخذ إلاّ مـا عليه اسمـه وعـلامتـه، فذهـب مـن مـاله ومـالنـا شيء كثير بهذا السبب، وكان الذي حصـل من مالنا أكثر من الـذي حصل له، فلما عاد إلينا سلم الذي لنا إلى والدي، فامتنـع من أخذه وقال: خُذ أنت الجميع فإنـك أحوج إليه وأنـا في غنى عنه، فلم يفعـل فقال: خذ النصـف وأنا النصف واجتهد به والدي فلم يفعـل، فلما كان بعض الأيام وإذا قد جاء الغلام معه عدّة مـن الأثواب السوسية وغيرها، وقال: هـذا من قماشنا قد

حضر اليوم، وسبب حضوره أن إنساناً فقاعيـا من أهل تبريز كان معنا في المركب، وقـد أعادوا عليه مـاله، فرأى هـذه الأثواب واسمي عليهـا، فلم يسهل عليه أن يردّهـا ــ يعني عليهم ــ و سأل عنـي وقد قصدني وهي معي، وحضر عنـدي الساعة وسلمها إليّ، وقـال: قد تركت طـريقي لتبرأ ذمتي، فـأخذنا نحـن ما عليه اسمنـا بعد الجهـد، وطلب والدي الـرجل وسألـه أن يقيم عنـدنا ليسلم إليـه مالاً يتجر فيـه، فلم يفعـل، وعاد إلى بلده، قال: وهذان الرجلان نادران في هذا الزمان.

فصل

في عزم نور الدين على الدخول إلى مصر

قـال العماد: وكان صـلاح الديـن واعـده نور الـدين أن يجتمعـوا على الكرك والشوبك يتشاوران فيما يعود بـالصلاح المشترك فخرج من القاهرة في الثـاني والعشرين مـن المحـرّم بـالعزم الأجـزم والـرأي الأحـزم، فاتفـق للاجتماع عائق، ولم يقدّر للإتفاق قدر موافق، فلقي في تلك السفرة شدّة وعدم خيلا وظهرا وعدّة، وعاد إلى القاهرة في النصف من ربيع الأول.

قـال ابن الاثير: في سنـة سبع وستين أيضـاً جـرى ما أوجـب نفرة نـو الديـن من صلاح الـدين، وكان الحادث أن نـور الدين أرسـل إلى صلاح الدين يـأمره بجمع العساكـر المصرية والمسير بها إلى بلاد الفرنـج، والنزول على الكـرك ومحاصرته ليجمـع هـو أيضاً عسـاكـره ويسير إليه، ويجتمعـا هناك على حرب الفـرنج والاستيلاء على بلادهم، فبرّز صلاح الـدين من القاهـرة في العشرين من المحـرّم، وكتب إلى نور الـدين يعرّفـه أن رحيله لايتأخر، وكان نـور الدين قد جمع عساكره وتجهـز، وأقام ينتظر ورود الخبر مـن صلاح الـدين بـرحيله ليرحـل هو، فلما أتـاه الخبر بذلـك رحل مـن دمشق عـازما على قصد الكـرك، فوصل إليـه وأقام ينتظر وصـول صلاح

الدين إليه، فأتاه كتابه يعتذر فيه عن الوصول باختلال البلاد، وأنه يخاف عليها مع البعد عنها، فعاد إليها فلم يقبل نور الدين عذره، وكان سبب تقاعده أنّ أصحابه وخواصه خوّفوه من الاجتماع بنور الدين فحيث لم يمتثل أمر نور الدين شق ذلك عليه وعظم عنده وعزم على الدخول إلى مصر، واخراج صلاح الدين عنها، فبلغ الخبر إلى صلاح الدين، فجمع أهله وفيهم والده نجم الدين وخاله شهاب الدين الحارمي، ومعهم سائر الأمراء وأعلمهم ما بلغه من عزم نور الدين على قصده وأخذ مصر منه واستشارهم، فلم يجبه أحد منهم بشيء، فقام ابن أخيه تقي الدين عمر، وقال: إذا جاءنا قاتلناه وصددناه عن البلاد، ووافقه غيره من أهله، فشتمهم نجم الدين أيوب، وأنكر ذلك واستعظمه، وكان ذا رأي ومكر وكيد وعقل وقال لتقي الدين: اقعد وسبه، وقال لصلاح الدين: أنا أبوك وهذا شهاب الدين خالك أتظنّ في هؤلاء كلهم من يحبك ويريد لك الخير مثلنا؟ فقال: لا، فقال نجم الدين: والله لو رأيت أنا وهذا خالك نور الدين لايمكننا إلا أن نترجل إليه ونقبل الأرض بين يديه، ولو أمرنا بضرب عنقك بالسيف لفعلنا، فإذا كنا نحن هكذا كيف يكون غيرنا! وكل من تراه من الأمراء والعساكر لو رأى نور الدين وحده لم يتجاسر على الثبات على سرجه ولا وسعه إلا النزول وتقبيل الأرض بين يديه، وهذه البلاد له، وقد أقامك فيها، فإن أراد عزلك فأيّ حاجة به إلى المجيء يأمرك بكتاب مع نجاب حتى تقصد خدمته، ويولي بلاده من يريد، وقال للجماعة كلهم: قوموا عنا فنحن مماليك نور الدين وعبيده ويفعل بنا ما يريده فتفرّقوا على هذا، وكتب أكثرهم إلى نور الدين بالخبر، ولما خلا نجم الدين أيوب بابنه صلاح الدين قال له: أنت جاهل، قليل المعرفة تجمع هذا الجمع العظيم وتطلعهم على ما في نفسك، فإذا سمع نور الدين أنك عازم على منعه من البلاد، جعلك أهم الأمور إليه وأولاها بالقصد، ولو قصدك لم تر معك من هذا العسكر أحداً، وكانوا أسلموك إليه، وأما الآن بعد هذا

المجلس فسيكتبون إليه ويعـرّفونه قولي، وتكتب أنت إليـه وترسل في هذا المعنى وتقـول: أي حاجة إلى قصدي يجيء نجـاب يأخذني بحبـل يضعه في عنقي، فهو إذا سمع هذا عدل عـن قصدك واشتغل بما هو أهم عنده والأيام تنـدرج، والله كل وقت في شـان، ففعل صلاح الـدين ما أشـار به والده، فلما رأى نـور الدين رحمه الله الأمر هكـذا عدل عن قصـده، وكان الأمر كما قال نجم الدين توفي نـور الدين ولم يقصده ولا أزاله، وكان هذا من أحسن الآراء وأجودها.

فصل

في الحمام

قـال ابن الاثير: وفي سنـة سبع وستين أمـر الملـك العادل نـور الديـن باتخاذ الحمام الهوادي، وهـي المناسيـب التي تطير مـن البلاد البعيـدة إلى أوكارهـا، فاتخذت في سـائر بلاده، وكـان سبب ذلـك أنه اتسعـت بلاده وطالـت مملكته فكانـت من حدّ النـوبة إلى باب همذان لايتخللهـا سوى بلاد الفـرنج، وكـان الفرنج لعنهـم الله ربما نازلـوا بعض الثغـور، فإلى أن يصله الخبر، ويسير إليهـم يكونـون قد بلغوا بعـض الغرض، فحينئـذ أمر بذلـك، وكتب به إلى سائر بـلاده وأجرى الجرايات لها ولمربيها فـوجد بها راحة كبيرة، كـانت الأخبار تـأتيه لوقتهـا لأنه كـان له في كل ثغـر رجال مـرتبون ومعهـم من حمام المدينـة التـي تجاورهم، فـإذا رأوا أوسمعوا أمـراً كتبـوه لوقتـه وعلقـوه على الطائر، وسرحـوه إلى المدينـة التـي هو منهـا في ساعته، فتنقل الـرقعة من طائر إلى طائر آخر مـن البلد الذي يجاورهم في الجهة التي فيها نـور الدين، وهكذا إلى أن تصل الأخبار إليـه، فانحفظت الثغور بـذلك، حتـى أنّ طائفـة من الفـرنج نـازلوا ثغـراً له، فـأتاه الخبر ليومه، فكتب إلى العساكر المجـاورة لذلك الثغر بالاجتماع والمسير بسرعة، وكبـس العدوّ، ففعلـوا ذلك فظفـروا والفرنـج قد أمنـوا لبعد نـور الديـن

عنهم، فرحم الله نور الدين ورضي عنه، فما كان أحسن نظره للرعايا وللبلاد.

وقال العماد: وكان نور الدين لايقيم في المدينة أيام الربيع والصيف محافظة على الثغر، وصونا من الحيف ليحمي البلاد من العدوّ بالسيف، وهو متشوّف إلى أخبار مصر وأحوالها وتحقيق اعتدالها بتمحيق اعتلالها، فرأى اتخاذ الحمام المناسيب وتدريجها على الطيران لتحمل إليه الكتب بأخبار البلدان، وتقدّم إليّ بكتب منشور لأربابها وإعزاز أصحابها، وهو حينئذ بظاهر دمشق مخيم بوادي اللوان، ونحن مستظهرون في ذلك الأوان، عادون على أهل العدوان، وذلك في سابع عشر ذي القعدة من السنة، ثم ذكر نسخة المنشور ووصف فيه الحمام فقال: « هي برائد الانباء المخصوصات بفضيلة الالهام والايحاء، وهي فيوج الرسائل المأمونة الابطاء، والسابقات الهوج في الاهتداء، والحاملات ملطفات الأسرار في أقرب مدّة إلى أبعد غاية، والموصلات مهمات الأخبار في وقتها من أقاصي الأمصار بأكمل هداية، والقاطعات في ساعتها إلى البلاد أجواز القفار والموامي والنافذات بنجح المرام بعود السهام إلى المرامي، وهي تطوي الفراسخ البعيدة والأشواط في ساعه. وتنتهي إلى أقصى عنايات الطاعة بأتم استطاعه. وقد عم بها نفع المرابطين للغزاة والمجاهدين في سبيل الله في اهداء أخبار الكفرة إليهم من أماكنها، دالة على مكائدها ومكامنها طائرة بكتبهم إلى من وراءهم من الطلائع والسرايا، مظهرة لهم من أحوالها خبايا الأمور الخفايا، وإنها الميمونة المطار، مأمونة العثار، سالمة على الأخطار، مهدية في الأسفار، أمينة على الأسرار، سابقة إلى الأوكار، صادرة بالأوطار من الأقطار، سائرة إلى المؤمنين بنبأ الكفار»

قلت: وكل هذه أوصاف حسنة وعبارات مستحسنة، وقد بلغني عن القاضي الفاضل رحمه الله تعالى أنه وصفها بألطف من هذه الأوصاف

وأخصر فقـال: « الطيور مـلائكة الملـوك» يشير إلى أن نزولها على الملـوك من جـوّ الهواء نزول الملائكة على الأنبيـاء عليهـم السلام مـن السماء، مع فرط مـا فيها مـن الأمانـة لايتوهـم مـن جهتها خيـانة، فلقـد أحسن فيما وصف، وأبـدع فيما استنبط وأنصف، وهـو بذلك أولى وأعـرف، رحم الله الجميع.

فصل

في باقي حوادث هذه السنة

قرأت نسخة سجـل باسقاط المكوس بمصر، قرىء على المنبر بـالقاهرة يـوم الجمعة بعـد الصـلاة ثالـث صفـر سنـة سبع وستين وخمسمائة عـن السلطان الملك الناصر في أيام نور الـدين رحمه الله، فهو كان الآمر وذلك المباشر، يقـول فيه:« أما بعـد فإنا نحمد الله سبحـانه على ما مكـن لنا في الأرض، وحسنه عنـدنا مـن أداء كل نـافلة وفـرض، ونصبنا لـه من إزالـة النصب عن عباده، واخترنا له مـن الجهاد في الله حق جهاده،وزهدنا فيه مـن متاع الـدنيا القليـل،وألهمنـا من محاسبـة أنفسنا على النقير والفتيـل، وأولانا مـن شجاعـة السماحة فيـوما نهب مـا اشتملت عليـه الدواويـن، ويوماً نقطع مـا سقاه النيل، فالبشائر في أيامنـا تترى شفعا ووتراً، والمسار كنظام الجوهر تتبع الواحدة منها الأخـرى، والمسامحات قد ملأت المسامع والمطـامـع، وإسخطـت الخيمة والصنـايـع، وأرضـت المنبر والجامـع، ولما تقلدنا أمور الرعية رأينا المكوس الـديوانية بمصر والقاهرة أولى ما نقلناها من أن تكـون لنا في الـدنيا إلى أن تكـون لنا في الآخـرة، وأن نتجرد سنهـا لنلبـس أثـواب الأجـر الفـاخـرة، ونطهر منهـا مكـاسبنـا، ونصـون عنهـا مطالبنا، ونكفـي الرعية ضرّهـم الـذي يتوجه إليهم، ونضـع عنهم أصرهم

والأغلال التي كانت عليهم، ونعيدها اليوم كأمس الذاهب، ونضعها فلا ترفعها من بعد يد حاسب، ولا قلم كاتب، فاستخرنا الله وعجلنا إليه لبرضى، ورأينا فرصة أجر لا تغض عليها بصائر الأبصار ولا يغضى وخرج أمرنا بكتب هذا المنشور بمسامحة أهل القاهرة ومصر، وجميع التجار المتردّدين إليها وإلى ساحل المقسم والمنية بأبواب المكوس صادرها وواردها، فسيرد التاجر ويسفر ويغيب عن ماله ويحضر ويقارض ويتجر براً وبحراً، مركبا وظهراً، سراً وجهراً، لايحل ما شدّة، ولا يحاول ما عنده، ولا يكشف ما ستره، ولا يسأل عما أورده وأصدره، ولا يستوقف في طريقه، ولا يشرق بريقه، ولا يؤخذ منه طعمه، ولا يستباح له حرمه، والذي اشتملت عليه المسامحة في السنة من العين مائة ألف دينار مسامحة لايشوبها تأويل ولا يتخوّنها تحويل ولا يعتريها زوال، ولا يعتورها انتقال، دائمة بدوام الكلمة، قائمة ما قام دين القيمة، من عارضها ردّت أحكامه، ومن ناقضها نقض ذمامه، ومن ازالها زلت قدمه، ومن أحالها حل دمه، ومن تعقبها خلدت اللعنة فيه وفي عقبه، ومن احتاط لدنياه فيها أحاط به الجحيم الذي هو من حطبه، فمن قرأه أو قرىء عليه من كافة ولاة الأمر من صاحب سيف وقلم، ومشارف أوناظر، فليمتثل ما مثل من الأمر، وليمضه على ممر الدهر، مرضيا لربه، ممضياً لما أمر به.

وفيها توفي الشيخ أبو بكر يحيى بن سعدون القرطبي المقري النحوي، وهو نزيل الموصل رحمه الله تعالى، وفيها ولد العزيز والظاهر ابنا صلاح الدين، والمنصور محمد بن تقي الدين، وفيها في ثالث شوال توفي أبو الفتوح نصر بن عبد الله الاسكندري المعروف بابن قلاقس الشاعر بعيذاب، ومولده بالاسكندرية رابع ربيع الآخر سنة اثنتين وثلاثين وخمسمائة، فيكون عمره نحو من خمس وثلاثين سنة.

ثم دخلت سنة ثمان وستين وخمسمائة

ففيها توفي ملك النحاة الحسن بن صافي، وفيها ترتب العماد الكاتب مشرّفا بديوان نور الدين مضافاً إلى كتابة الانشاء، قال: وكان نور الدين ذكياً ألمعيا فطنا لوذعيا، لايشتبه عليه الأحوال، ولا يتهرج عليه الرجال، ولا يتأهل لغير أهل الفضل منه الإفضال.

قال: ولما عرض صلاح الدين بعد العاضد خزائنه، واستخرج دفائنه، سير منها عدّة من الأمتعة المستحسنة والآلات المثمنة، وقطع البلور واليشم والأواني التي لايتصور وجودها في الوهم، ومعها ثلاث قطع من البلخش أكبرها نيف وثلاثون مثقالًا، والثانية ثمانية عشر، والأخرى دونها، وقرن بها من اللآلى مصونها ومكنونها، وحمل معها من الذهب ستين ألف دينار، ووصلت من غرائب المصنوعات بها لايجتمع مثله في أعصار وأعمار، ومن الطيب والعطر ما لم يخطر ببال عطار، فشكر نور الدين همته، وذكر بالكرم شميته، ووصف فضيلته وفضل صفته، وقال: ما كانت بنا حاجة إلى هذا المال، ولا نسدّ به خلة الإقلال، فهو يعلم أنا ما أنفقنا الذهب في ملك مصر، وبنا إلى الذهب فقر، وما لهذا المحمول في مقابلة ما جدنا به قدر، وتمثل بقول أبي تمام

لم ينفق الذهب المربي بكثرته
على الحصا وبه فقر إلى الذهب

لكنه يعلم أن ثغور الشام مفتقرة إلى السداد، ووفور الأعداد من الأجناد، وقد عم بالفرنج بلاء البلاد، فيجب أن يقع التعاقد على الامداد بالمعونة والأمداد، فاستنزره وما استغزره، واستقل المحمول في جنب ما حرره وتروّى فيما يدبره، وأفكر فيما يقدّمه من هذا المهم ويؤخره.

قال ابن أبي طي: لم تقع هذه الهدية من نور الدين بموقع، وجرد الموفق بن القيسراني وزيره إلى مصر، وأمره بعمل حساب البلاد واستعلام

أخبارها وارتفاعهـا، وأين صرفت أموالها، فإذا حصل جميع ذلك قرر على صلاح الدين وظيفة يحملها في كل سنـة، وعظم على نور الدين أمر مصر وأخذه من استيـلاء صلاح الدين عليهـا المقيم المقعد، وأكثر في مـراسلته في حمل الأموال، حـدّثني أبي قـال: لم يخف حال نـور الديـن في كراهيـة الملك الناصر، ولقـد علم ذلك جميع الأجناد والأمـراء، وتحدّث به العوام، ولاسيما حين أنفذ هـذه الهدية واشتـدّ بعد ذلـك في مراسلتـه، وأنفذ ابـن القيسراني لكشف الأحوال، ولو طال عمره لم يكن له بدّ من دخول مصر.

قال العماد: وكـان نور الديـن مذ ملكـت مصر، وتوجه لـه فيها النصر، يؤثر أن يقـرر له فيها مال للحمل يستعين به على كلـف الجهاد، وتخفيف مالـه من الثقل، والأيـام تماطله، والأعوام تطـاوله، وهو ينتظـر أن صلاح الدين يبتدي من نفسه بما يريـده، وهو لايستدعي منه ولا يستزيده، فلما حمل من أخـائر الذخائر والمال الحاضر مـا حمله، وعرف مجملـه ومفصله، تقدّم إلى الموفـق خالد بن القيسراني أن يمضي ويطلـب، ويقتضي ويعمل أيضـا بالأعمال المصريـة جـزازه، ولا يبقـى في نفوس ديـوانـه مـن أمرهـا حزازه، وأرسل معه الهدايا والتحف السنـايا، وأقام العماد مقامه في ديوان الاستيفاء، فجمع بين الإشراف والاستيفاء، ومنصب الانشـاء، ثم كان من أمره ما سيأتي ذكره.

قال العماد: وخـرج صلاح الـدين في النصف مـن شوال ومعـه الفيل

والحمارة العتابية، والـذخائر النفيسة التي كان انتخبهـا من خزائن القصر، وهي معـدودة من محاسن العصر، وقـد سبق ذكـر تسييرها إلى نور الـدين وقوبلت بـالاحسان والتحسين، ووصلت الحماره، وكثرت لها النظـارة، وأما الفيـل فـإنه وصـل الينـا في سنـة تسـع وستين ونحن بحلـب في الميـدان الأخضر، وأهداه نـور الديـن إلى ابن أخيه سيـف الديـن غازي صـاحـب الموصل مـع شيء من تحفة الثياب والعـود والعنبر، ثم سيره سيف الـدين

إلى بغداد هدية للخليفة مع ما سيره معه من التحف اللطيفة، وسير نور الدين الحمارة العتابية إلى بغداد مع هدايا وتحف سنايا.

فصل

في جهاد السلطانين للفرنج في هذه السنة

قال العماد: ونزل صلاح الدين على الكرك والشوبك وغيرهما من الحصون، فبرح بها وفرق عنها عربها، وخرب عماراتها، وشتت على أعمالها سراياه بغاراته، ووصل منه كتاب بالمثال الفاضلي:« سبب هذه الخدمة إلى مولانا الملك العادل أعز الله سلطانه، ومد أبداً إحسانه، ومكن بالنصر إمكانه، وشيد بالتأييد مكانة، ونصر أنصاره، وأعان أعوانه، علم المملوك بما يؤثره المولى بأن يقصد الكفار بما يقص أجنحتهم، ويفلل أسلحتهم، ويقطع موادهم، ويخرب بلادهم، وأبر الاسباب المعينة على ما يرومه من هذه المصلحة أن لايبقى في بلادهم أحد من العربان، وأن ينتقلوا من ذل الكفر إلى عز الايمان، ومما اجتهد فيه غاية الاجتهاد وعده من أعظم أسباب الجهاد ترحيل كثير من أنفارهم، والحرص في تبديل دارهم إلى أن صار العدوّ اليوم إذا نهض لايجد بين يديه دليلاً، ولا يستطيع حيلة ولايهتدي سبيلاً.» ثم ذكر باقي الكتاب.

قال ابن شدّاد: وهذه أوّل غزوة غزاها صلاح الدين من الديار المصرية، وإنما بدأ ببلاد الكرك والشوبك لأنها كانت أقرب إليه، وكانت في الطريق تمنع من يقصد الديار المصرية، وكان لايمكن أن تصل قافلة حتى يخرج هو بنفسه يعبرها بلاد العدوّ، فأراد توسيع الطريق وتسهيله لتتصل البلاد بعضها ببعض وتسهل على السابلة، فخرج قاصداً لها في أثناء سنة ثمان وستين، فحاصرها، وجرى بينه وبين الفرنج وقعات، وعاد

عنها، ولم يظفر منها بشيء في تلك الدفعة وحصل ثواب القصد، وأما نور الدين فإنه فتح مرعش في ذي القعدة من هذه السنة، وأخذ بهسنى في ذي الحجة منها.

وقال العماد: حضرت عند الملك العادل نور الدين بدمشق في العشرين من صفر، ووجهه بنور البشر قد سفر، والحديث يجري في طيب دمشق وحسن آلائها، ورقة هوائها، وبهجة بهائها، وإزهار أرضها كزهر سمائها، وكل منا يمدحها وبحبه يمنحها، وكل منا يطريها، فقال نور الدين أنا حب الجهاد يسليني عنها، فما أرغب فيها، فارتجلت هذا المعنى في الحال فقلت:

ليس في الدنيا جميعا
بلدة مثل دمشق
ويسليني عنها
في سبيل الله عشقي
والتقى الأصل ومن
يتركها يشقى ويشقي
كم رشيق شاغل عنه
بسهم الغزو رشقي
وامتشاق البيض يغني
عنه بالأقلام مشقي

قال: وسألني نور الدين أن أعمل دوبتيات في معنى الجهاد على لسانه

فقلت:

للغزو نشاطي وإليه طربي
مالي في العيش غيره من أرب
بالجدّ وبالجهاد نجح الطلب
والراحة مستودعة في التعب

وقلت أيضا:

لا راحـــة في العيــش ســوى أن أغــز
وسيفــي طــربــا إلى الطلى يهتــز

في ذل ذوي الكفــر يكــون العــز
والقــدرة في غير جهــاد عجــز

وقلت أيضا:

أقسمــت ســوى الجهــاد مــالي أرب
والــراحــة في ســواه عنــدي تعــب

إلا بــا الجدّ لا ينــال الطلــب
والعيــش بــلا جــدّ جهــاد لعــب

قال: واتفق خروج كلب الروم اللعين في جنود الشياطين بقصد الغارة على زرا من ناحية حوران وهم في جمع غلبت كثرته الخبر والعيان، ونزلوا في قرية تعرف بسمسكين (١٢٥) ، فركب نور الدين وهو نازل بالكسوة إليهم ، وأقدم بعساكره عليهم، فلما عرفوا وصوله رحلوا إلى الفوار ثم إلى السواد ثم نزلوا بالشلالة، ونزل نور الدين في عشترا، وقد سره ما جرى، فأنفذ سرّية إلى أعمال طبرية، واغتنم خلوّها، فأدلجت تلك الليلة وحمدت في شن الغارة غدوّها، فلما عادت لحقها الفرنج عند المخاضة، فوقف الشجعان، وثبت من ثبته الايمان، حتى عبرت السرّيه، وانفصلت تلك القضية، ورحل نور الدين من عشترا، فنزل بظاهر زرا، قال العماد:

وكنت راكبا في لقائهم مع الملك العادل، وهو يقول لي: كيف تصف ما جرى، فمدحته بقصيدة

عقــدت بنصرك رايــة الايمان
وبــدت لعصرك آيــة الاحسان

يا غالب الغلب الملوك وصائد الـ
ـصيد الليوث وفارس الفرسان

يا سالب التيجان من أربابها
حزت الفخار على ذوي التيجان

محمود المحمود ما بين الورى
في كل اقليم بكل لسان

يا واحداً في الفضل غير مشارك
أقسمت مالك في البسيطة ثاني

أحلى أمانيك الجهاد وإنه
لك مؤذن أبداً بكل أمان

كم بكر فتح أولدته ظباك من
حرب لقمع المشركين عوان

كم وقعة لك بالفرنج حديثها
قد سار في الآفاق والبلدان

قمصت قومصهم رداء من ردى
وقرنت رأس برنسهم بسنان

وملكت رق ملوكهم وتركتهم
بالذل في الأقياد والأشجان

وجعلت في أعناقهم أغلالهم
وسحبتهم هوناً على الأذقان

إذ في السوابغ تحطم السمر القنا
والبيض تخضب بالنجيع القاني

وعلى غناء المشرفية في الطلى
والهام رقص عوالي المرّان

وكان بين النقع لمع حديدها
نار تألق من خلال دخان

في مازق ورد الوريد مكفل
فيه بريّ الصارم الظمآن

غطى العجاج به نجوم سمائه
لتنوب عنها أنجم الخرصان
أو ما كفاهم ذاك حتى عاودوا
طرق الضلال ومركب الطغيان
يا خيبة الإفرنج حين تجمعوا
في حيرة وأتوا إلى حوران

ومنها:
وجلوت نور الدين ظلمة كفرهم
لما أتيت بواضح البرهان
وهزمتهم بالرأي قبل لقائهم
والرأي قبل شجاعة الشجعان
أصبحت للاسلام ركناً ثابتا
والكفر منك مضعضع الأركان
قوّضت أساس الضلال بعزمك الـ
ـماضي وشدت مباني الايمان
قال أين مثلك في الملوك مجاهد
لله في سرّ وفي اعلان
لم تلقهم ثقة بقوة شوكة
لكن وثقت بنصرة الرحمن
ما زال عزمك مستقلا بالذي
لا يستقل بثقله الثقلان
وبلغت بالتأييد أقصى مبلغ
ما كان في وسع ولا إمكان
دانت لك الدنيا فقاصيها إذا
حققته لنفاذ أمرك داني
فمن العراق إلى الشام إلى ذرا
مصر إلى قوص إلى أسوان

لم تلـــه عـــن بـــاقـــي البـــلاد وإنما
الهاك فـــرض الغـــزو عـــن همذان

للـــروم والأفـــرنـــج منـــك مصـــائب
بـــالترك والأكـــراد والعـــربـــان

اذعنـــت لله المهيمـــن اذعنـــت
لـــك أوجـــه الامـــلاك بـــالاذعـــان

أنـــت الـــذي دون الملـــوك وجـــدتـــه
مـــلآن مـــن عـــرف ومـــن عـــرفـــان

في بـــأس عمـــرو وفي بســـالـــة حيـــدر
في نطـــق قـــس في تقـــى سلمان

سير لـــو أنّ الـــوحـــي ينـــزل أنـــزلـــت
في شـــأنها ســـور مـــن القـــرآن

فـــاسلـــم طـــويـــل العمـــر ممتـــدّ المدى
صـــافي الحيـــاة مخلـــد السلطـــان

وهـي قصيـدة طـويلـة وصـف فيهـا امـراءه الحاضريـن الجهاد معــه ومدحهم.

فصل

في فتح بلاد النوبة

قال العماد: وفي جمادى الأولى غـزا شمس الـدولة تـورانشاه بـن أيوب أخو صـلاح الدين بـلاد النوبة وأراهم سطـاه المرهوبة، وفتـح حصنا لهم يعرف بابريـم، وكان لايريم، وهي بلاد عـديمة الجدوى، عظيمة البلوى، ثـم رجع بـالسبـي وعـاد به إلى أسـوان، وفـرق على أصحـابه في الغنـائم السودان.

وقـال ابن أبي طـيّ الحلبي: وفيهـا اجتمـع السودان والعبيـد من بـلاد النوبـة، وخرجـوا في أمم عظيمـة قاصـدين ملـك بلاد مصر، وصـاروا إلى أعمال الصعيد وصمموا على قصد أسوان وحصارها ونهب قراها وكان بها الأميركنز الـ ١ ولة، فـأنفذ يعلـم الملك النـاصر، وطلب منـه نجدة، فـأنفذ قطعة من جيشه مع الشجاع البعلبكي، فلما وصل إلى أسوان وجد العبيد قد عـادوا عنها بعد أن أخـربوا أرضها، فـاتبعهم الشجاع والكنـز فجرت حـرب عظيمة قتـل فيها مـن الفـريقين عالم عظيـم، ورجع الشجـاع إلى القـاهرة وأخبر بفعـال العبيد، وتمكنهـم من بـلاد الصعيد، فـأنفذ الملـك الناصر أخـاه شمس الدولـة في عسكر كثيف، فوجـدهم قد دخلـوا بلاد النـوبة فسـار قاصـد بلادهـم وشحـن مراكـب كثيرة في البحر بـالرجـال والميرة، وأمرهـا بلحاقه إلى بـلاد النوبة، وسار إليهـا ونزل على قلعة ابـريم وافتتحهـا بعد ثـلاثة أيـام، وغنم جميـع مـا كان فيهـا من المال والكـراع والميرة، وخلـص جماعـة مـن الأسرى وأسر مـن وجـده فيهـا، وهـرب صاحبهـا، وكتب إلى السلطـان بذلك، فـأنشد السلطـان أبو الحسـن بن الذروي يهنيه بفتح ابريم قصيدة منها:

فقـدّم العـزم فـذا مبتـداه
يقصر عـن ملـك الأرض منتهـاه

واسحب ذيول الجيش حتى ترى
أنجمه طالعة عن دجاه
سواك من ألقى عصاه بها
قناعة لما استقرّت نواه
عليك بالروم ودع صاحب التا
ج إذا شئت وتور انشاه
فقد غمدت ابريم في ملكه
تبرم أمراً فيه كبت العداه
لابدّ للنوبة من نوبة
ترضى لسخط الكفر دين الإله
تظل من نوبة منسوبة
لعزمة كامنة في أناه
تكسو الغزاة القاطني أرضها
ما نسجت للحرب أيدي الغزاه
سود وتحمر الظبا حولها
كأعين الرمد بدت للأساه
أولا فسمر يحميها القنا
مثل دنان بزلتها السقاه
لله جيش منك لا ينثني
إلا بنصل دميت شفرتاه
ما بين عقبان ولكنها
خيل وفرسان كمثل البزاه
أساد حرب فوق أيديهم
أساور الطعن فهم كالحواه
تقلدوا الأنهار واستلأموا الـ
ـغدران فالنيران تجري مياه

قال: ثم رجع شمس الدولة إلى أسوان ثم إلى قوص، وكان في صحبته أمير يقال له ابراهيم الكردي فطلب من شمس الدولة قلعة ابريم

فاقطعه إياها، وأنفذ معه جماعة من الأكراد البطالين، فلما حصلوا فيها تفرّقوا فرقا، وكانوا يشنون الغارة على بلاد النوبة، حتى برّحوا بهم، واكتسبوا أموالاً كثيرة حتى عفت أرزاقهم وكثرت مواشيهم، واتفق أنهم عدوّا إلى جزيرة من بلاد النوبة تعرف بجزيرة دندان، فغرق أميرهم ابراهيم وجماعة من أصحابه، ورجع من بقي منهم إلى قلعة ابريم وأخذوا جميع ما كان فيها وأخلوها بعد مقامهم بها سنتين، فعاد النوبة إليها وملكوها، وأنفذ ملك النوبة رسولاً إلى شمس الدولة وهو مقيم بقوص، ومعه كتاب يطلب الصلح ومع الرسول هدية عبد وجارية، فكتب له جواب كتابه وأعطاه زوجي نشاب وقال: مالك عندي جواب إلا هذا، وجهز معه رسولاً يعرف بمسعود الحلبي، وأوصاه أن يكشف له خبر البلاد ليدخلها، فسار الحلبي مع الرسول حتى وصل دنملة وهي مدينة الملك، قال مسعود: فوجدت بلاداً ضيقة ليس لهم زرع إلا الذرة، وعندهم نخل صغار منه أدامهم، ووصف ملكهم بأوصاف منها أن قال: خرج علينا يوماً وهو عريان قد ركب فرسا عريا، وقد التف في ثوب أطلس، وهو أقرع ليس على رأسه شعر، قال: فأتيت فسلمت عليه، فضحك وتغاشى وأمر بي أن تكوى يدي، فكوى عليها هيئة صليب، وأمر لي بقدر خمسين رطلا من الدقيق، ثم صرفني، قال: وأما دنقلة فليس فيها عمارة إلاّ دار الملك فقط، وباقيها اخصاص.

-٨٠٨٠-

فصل

في وفاة نجم الدين أيوب والد صلاح الدين وطرف من أخباره

قال العماد: وركب نجم الدين أيوب فشب به فرسه بالقاهرة عند باب النصر وسط المحجه، يوم الاثنين الثامن عشر من ذي الحجة، وحمل إلى منزله وعاش ثمانية أيام، ثم توفي في يوم الثلاثاء السابع والعشرين من ذي الحجة، وكان كريما رحيما عطوفاً حليماً، وبابه مزدحم الوفود، وهو متلف الموجود ببذل الجود، وكان ولده صلاح الدين عنه غائباً، وفي بلاد الكرك والشوبك على الغزاة مواظباً، فدفن إلى جانب قبر أخيه أسد الدين في بيت بالدار السلطانية، ثم نقلا بعد سنتين إلى المدينة الشريفة النبوية على ساكنها أفضل الصلاة والسلام والتحية والإكرام والإجلال والإعظام وعلى آله وصحبه وسلم.

قلت: وقبرهما في تربة الوزير جمال الدين الأصفهاني وزير الموصل المقدّم ذكره، رحمهم الله.

قال القاضي ابن شدّاد: ولما عاد صلاح الدين من غزاته بلغه قبل وصوله إلى مصر وفاة أبيه نجم الدين، فشق ذلك عليه حيث لم يحضر وفاته، وكان سبب وفاته وقوعه من الفرس رحمه الله، وكان شديد الركض ولعاً بلعب الكرة بحيث من رآه يلعب بها يقول ما يموت إلاّ من وقوعه عن ظهر الفرس.

ومن كتاب فاضلي عن السلطان إلى عز الدين فرخشاه بمصر يقول فيه: صح من المصاب بالمولى الدارج غفر الله له ذنبه، وسقى بالرحمة تربه، ما عظمت به اللوعه، واشتدت الروعة، وتضاعفت لغيبتنا عن

مشهده الحسره، فاستنجدنا بالصبر فـأبى، وانحدرت العبره، فيا له فقيداً، فقد عليـه العزاء، وهانـت بعده الأرزاء، وانتشـر شمل البركة بفقـده فهي بعد الاجتماع أجزاء:

وتخطفتـــه يـــد الـــردى في غيبتـــي
هبنـــي حضرت فكنـــت مـــاذا أصنـــع

قال ابـن أبي طي الحلبـي: هو الأمير نجـم الديـن أيوب بـن شاذي، ولايعرف في نسبه أكثر من والده شـاذي، وحدّثني أبي رحمه الله قال: كان تقي الدين عمر يزيد فيقول: شاذي بن مروان.

قلت: وسمعت أنا من يقول : شاذي بن مروان بن يعقوب.

قال ابـن أبي طي: وقد ادّعى ابـن سيف الاسلام لما ملـك اليمن أنهم من بني مـروان بن محمد الجعدي المعـروف بالحمار، يعني آخر خلفـاء بني أميـة، قال: وقـد نقبت عـن ذلك فـأجمع الجماعة مـن آل أيوب أن هـذا كذب، وأن جميـع آل أيوب لايعـرفون جداً فـوق شاذي، وكـذلك أخبرني السلطان الملك الناصر رحمه الله.

قلت: ودليل صحـة ذلك أني وقفت على كتاب وقف الـرباط النجمي بدمشق، ولم يزد فيـه على نجم الدين أبو سعيد أيـوب بن شاذي العادلي، وابن سيـف الاسلام هذا هو أبـو الفداء إسماعيل بن طغتكين بـن أيوب ابـن شاذي إن أخـي السلطـان صـلاح الديـن، ملـك اليمـن بعد أبيـه، وتعاظـم إلى أن ولى نفسه الخلافـة، وادعى أنـه من بنـي أمية، وعـزم على اعـادة الخلافة مـن بني هـاشم إلى بنـي أمية، ولـه في ذلك أشعـار كثيرة، وتلقب بالإمـام الهادي بنور الله المعز لديـن الله أمير المؤمنين، ومدحه كثير من الشعراء بذلك، وزينواله فعله وما هو فيه، فمن شعره:

وإنـــي أنـــا الهادي الخليفـــة والـــذي
أدوس رقـــاب الغلـــب بـــالضمـــر الجرد

ولابد من بغداد أطوي ربوعها
وانشرها نشر السماسر للبرد
وانصب أعلامي على شرفاتها
وأحيي بها ما كان أسسه جدّي
ويخطب لي فيها على كل منبر
وأظهر دين الله في الغور والنجد

قال ابن أبي طي: وكان نجم الدين أيوب عدلا مرضياً، كثيراً الصلاة والصلات، غزير الصدقات والخيرات، يحب العلماء ويميل إلى الفضلاء، وكان ممدحاً مدحه العماد الكاتب بجملة قصائد، قال: وكان مولد نجم الدين أيوب ببلد شبختان ، كذا حكاه مؤيد الدين ابن منقد، وحدّثني جماعة أن مولد نجم الدين كان بجبل جور، وربي في بلد الموصل، ونشأ شجاعاً باسلاً، وخدم السلطان محمد بن ملكشاه، فرأى منه أمانة وعقلاً وسداداً وشهامة فولاه قلعة تكريت، فقام في ولايتها أحسن قيام، وضبطها أكرم ضبط، وأجلى من أرضها المفسدين وقطاع الطريق وأهل العيث، حتى عمرت أرضها وحسن حال أهلها وأمنت سبلها، فلما ولي السلطان مسعود الملك أقطع قلعة تكريت لمجاهد الدين بهروز الخادم شحنة بغداد ومتولي العراق، وكان هذا بهروز أميراً ينفذ أمره في جميع العراق إلى البصرة إلى الموصل إلى أصفهان، وكانت خيله خمسة آلاف فارس، فأقر الأمير نجم الدين في ولاية تكريت، وأضاف إليه النظر في جميع الولاية المتاخمة له، وقرر أمره عند السلطان مسعود، وجعل بهروز قلعة تكريت خزانة أمواله وبيت عقائله، وجعل جميع ذلك منوطاً بالأمير نجم الدين، ومعذوقا بهمته، وكان نجم الدين عظيماً في أنفس الناس بالدين والخير وحسن السياسة، وكان لايمر أحد من أهل العلم والدين به إلاّ حمل إليه المال والضيافة الجليلة، وكان لايسمع بأحد من أهل الدين في مدينة إلاّ أنفذ إليه.

وقد ذكر العماد الكاتب في سيرة السلجوقية الأمير نجم الدين وقرظة وأثنى عليه، وذكر من دينه وعفته، ووفور أمانته، وكثرة خيره أشياء حسنه، وحكى قضية عمه العزيز حين حبس عنده بقلعة تكريت من جهة الوزير الدركزيني، وأمره بقتله فأبى نجم الدين إلى أن قتله بهروز بنفسه بأمر الدركزيني، ثم إن السلطان مسعوداً حشد وخرج في أخذ السلطنة وطمع هو وأتابك زنكي بن آق سنقر في بغداد، وجرد عسكراً ضخماً، وسارا إلى تكريت طامعين في بغداد واتصل الخبر بقراجه الساقي وهو أتابك ابن السلطان محمود، فجرد ألف فارس للقاء زنكي، ثم اردفهم بعسكر ضخم فانهزم زنكي وقتل جماعة من أصحابه وجملة ممن كان في عسكره، ولجأ إلى سور تكريت وبه عدّة جراحات ، وعلم به الأمير نجم الدين وأخوه شيركوه فمتحاه(١٢٦) إلى القلعة بحبال وداويا جراحاته وخدماه أحسن خدمة وتقرباً إليه ، فأقام عندهما بتكريت خمسة عشر يوماً، ثم سار إلى الموصل، وأعوزه الظهر فأعطياه جميع ما كان عندهما من الظهر حتى أنهما أعطياه جملة من البقر حمل عليها ما سلم معه من امتعته، فكان زنكي يرى لأيوب هذه اليد، ويعرف له هذه الصنيعة ويواصله بالهدايا والألطاف مدّة مقامه في تكريت، فلما انفصل عنها على ما سنذكره تلقاه زنكي بالرحب والسعة، واحترمه احتراماً عظيماً وأقطعه عدّة قطائع، وكان نجم الدين قد ساس الناس بتكريت أحسن سياسة حتى ملك بذلك حبات قلوبهم، وكان أخوه شيركوه معه في القلعة، وكان شجاعاً باسلاً ينزل من القلعة ويصعد إليها في اسبابه وحاجاته، وكان نجم الدين لايفارق القلعة، ولا ينزل منها فاتفق أن أسد الدين نزل من القلعة يوماً لبعض شأنه، ثم عاد إليها، وكان بينه وبين كاتب صاحب القلعة قوارص، وكان رجلاً نصرانياً فاتفق في ذلك اليوم أن النصراني صادف أسد الدين صاعداً إلى القلعة، فعبث به بكلمة ممضة فجرد أسد الدين سيفه وقتل النصراني، وصعد إلى القلعة، وكان مهيباً فلم يتجاسر أحد على معارضته في أمر النصراني، وأخذ النصراني

برجلـه فألقي مـن القلعة، وبلغ بهروز صـاحب قلعـة تكريت مـا جرى، وحضر عنـده من خـوّفه جـراءة أسد الـدين، وأنـه ذو عشيرة كبيرة، وأن أخاه نجم الديـن قد استحوذ على قلوب الرعايـا، وأنه ربما كان منهما أمر تخشى عاقبتـه ويصعب استدراكه، فكتـب إلى نجم الدين ينكـر عليه ما جرى مـن أخيه، ويـأمره بتسليم القلعـة إلى نائب سيره صحبـة الكتاب، فأجاب نجم الدين إلى ذلك بالسمـع والطاعة، وأنزل من القلعة جميع ما كان لـه بها من أهل ومـال، واجتمع هـو وأخوه أسد الـدين، وصمما على قصد عماد الـدين زنكـي بالموصل، وقيـل إن أسد الـدين كـان خرج إلى الموصل قبل نجم الدين، وأعظم أهل تكـريت خروج نجم الدين من بين أظهـرهم، ولم يبـق أحد إلا خـرج لتـوديعه، وأظهـر البكاء والأسـف على مفارقتـه، ولما اتصل بـاتابـك زنكي قـدومهما أفرحـه ذلك، وأمـر الموكب بلقائهما وأكـرمهما إكرامـاً عظيماً، وأقطعهما في بلد شهـرزور اقطاعـاً سنياً، وقيل إنه أقطـع أسد الدين بـالموزر، وجرى بين أسد الديـن وجمال الدين الوزير مودّة عظيمـة حتى حلف كل واحد منهما للآخر أنـه يقوم بأمره في حياته وبعد وفـاته، وتجرد جمال الدين في أمر أسد الديـن وأمر أخيه نجم الديـن، حتى قـربهما من قلـب أتابـك، وجعلهما عنده بـالمنزلـة العظيمة، وخرجـا معه إلى الشام وشهـدا معه حروب الكفـار، وقتال الفرنـج لعنهم الله، وكـان لأسد الـدين في تلـك الوقـائع اليد البيضـاء، والفعلة الغـراء، وحدثني أبي رحمه الله قال: حدّثني سعد الـدولة أبو الميامن المؤملي، وكان أحد أصحاب نجم الـدين أيوب، قال: وحدّثني أيضـاً بهذه الحكاية مجد الديـن بن داية الملك الصـالح، قال: حدّثنـي حسام الدين سنقـر غلام الأمير نجـم الديـن أبي طالـب، وكـان سنقر هـذا يخدم مع الأمير نجـم الدين أيوب بن شاذي، قال: كنت في صحابة الأمير نجم الدين لما أنفذه نور الـدين بن زنكي إلى ابنـه السلطان الملك الناصر إلى مصر مـن أجل قطع خطبة المصريين وإقـامة دعوة بني العبـاس في أوّل سنة سبع وستين وخمسمائة، واتفق أني كنـت حاضراً وقـد اجتمع السلطـان الملك النـاصر،

ووالده الأمير نجم الدين في دار الوزارة، وقد قعدا على طراحة واحدة، والمجلس غاص بأرباب الدولتين، وعند الناس من الفرح والسرور ما قد أذهل العقول، فبينا الناس كذلك إذ تقدّم كاتب نصراني كان في خدمة الأمير نجم الدين فقبل الأرض بين يدي السلطان الملك الناصر، ووالده نجم الدين، والتفت إلى نجم الدين فقال له: يا مولاي هذا تأويل مقالتي لك بالأمس حين ولد هذا السلطان، فضحك نجم الدين، وقال: صدقت والله ثم أخذ في حمد الله وشكره والثناء عليه، والتفت إلى الجماعة الذين حوله والقضاة والأمراء، وقال: لكلام هذا النصراني حكاية عجيبة، وذلك أنني ليلة رزقت هذا الولد، يعني السلطان الملك الناصر، أمرني صاحب قلعة تكريت بالرحلة عنها بسبب الفعلة التي كانت من أخي أسد الدين شيركوه رحمه الله، وقتله النصراني وكنت قد ألفت القلعة، وصارت لي كالوطن، فثقل عليّ الخروج منها والتحوّل عنها إلى غيرها، واغتممت لذلك، وفي ذلك الوقت جاءني البشير بولادته، فتشاءمت به وتطيرت لما جرى عليّ، ولم افرح به، ولم أستبشر، وخرجنا من القلعة وأنا على طيرتي به لا أكاد أذكره ولا أسميه، وكان هذا النصراني معي كاتباً، فلما رأى ما نزل بي من كراهية الطفل والتشاؤم به استدعى مني أن آذن له في الكلام، فأذنت له فقال لي: يا مولاي قد رأيت ما قد حدث عندك من الطيرة بهذا الصبي، وأي شيء له من الذنب، وبما استحق ذلك منك وهو لاينفع ولا يضر ولا يغني شيئاً ، وهذا الذي جرى عليك قضاء من الله سبحانه وقدره، ثم ما يدريك أن هذا الطفل يكون ملكاً عظيم الصيت، جليل المقدار، فعطفني كلامه عليه، وها هو قد أوقفني على ما كان قاله، فتعجب الجماعة من هذا الاتفاق، وحمد السلطان ووالده الله سبحانه وشكراه، قلت ولعمارة في نجم الدين مدائح ومراث منها قوله:

ثغر الزمان بنجم الدين مبتسم
ووجهه بدوام العز متسم

يقول فيها:

أضحى بك النيل محجوجاً ومعتمراً
كأنما حل فيه الحل والحرم
جاءت بنوك وشمل الدين منتشر
فقارعوا عنه فهو اليوم منتظم
وما درى أحد من قبل رؤيتهم
أن الحظوظ بلثم الأرض تقتسم
نامت عيون الورى في عدل سيرتهم
كأن يقظتنا في عصرهم حلم
والناصر ابنك كاف كل معضلة
إذا الحوادث لم يكشف لها غمم
أعز بالبأس والاحسان حوزتنا
فلم يلم بنا خوف ولا عدم
تبسم الدست من أيوب عن ملك
تنحط عن قدره الاقدار والهمم

وقال في مرثيته:
هي الصدمة الأولى فمن بان صبره
على هول ملقاها تضاعف أجره
أذم صباح الاربعاء فانه
تبسم عن ثغر المنية فجره
أصاب الهدى في نجمه بمصيبة
تداعى سماك الجوّ منها ونسره
فلا تعذلونا واعذرونا فمن بكى
على فقد أيوب فقد بان عذره
أقام بأعمال الفرات وخيله
يراع بها نيل العزيز ومصره
إلى أن رماها من أخيه بضيغم
فرى نابه أهل الصليب وظفره

فلما قضى نحبي حياة ودولة
بأمرك في ادراكها تم أمره

تعاقبتها مصراً تعاقب وابل
يبيت بقطر النيل ينهل قطره

نزلت بدار حلها فحللتها
فمغناك مغناه وقطرك قطره

وواخيته في البر حيا وميتا
فقبرك في دار القرار وقبره

وقد شخصت أهل البقيع إليكما
وإلا فسكان الحجون وحجره

هنيا الملك مات والعز عزه
وقدّرته فوق الرجال وقدره

وأدرك من طول الحياة مراده
وما طال إلاّ في رضى الله عمره

وأسعد خلق الله من مات بعدما
رأى في بني ابنائه ما يسره

شهيد تلقى ربه وهو صائم
فكان على أجر الشهادة فطره

مضى وهو راض عنك لم ترم صدره
لضيق ولا جاشت من الغيظ قدره

حمى حوزة الاسلام والدين بعده
ثمانية من أجلهم عز نصره

فكيف بخيس آل أيوب أسده
لقد بان خوف الدهر منه وذعره

رعى الله نجما تعرف الشمس إنه
أبوها ونور البدر منها وزهره

وأبقى المقام الناصري فإنه
لدولتكم كنز الرجاء وذخره

وقال أيضاً:

صفو الحياة وإن طال المدى كدر
وحادث الموت لا يبقي ولا يذر

وما يزال لسان الدهر ينذرنا
لو أثرت عندنا الآيات والنذر

فلا تقل غرّت الدنيا مطامعنا
فما مع الموت لا غش ولا كدر

كأس إذا ما الردى حيا الحياة بها
لم ينج من سكرها أنثى ولا ذكر

كم شامخ العز لاقى الذل من يدها
ما أضعف القدر إن ألوى به القدر

في كل جيل وعصر من وقائعها
شعواء يقطر منها الناب والظفر

أودى عليّ وعثمان بمخلبها
ولم يفتها أبو بكر ولا عمر

ومن أراد التأسي في مصيبته
فللورى برسول الله معتبر

نجم هوى من سماء الدين متكدراً
والنجم من أفقه يهوي وينكدر

منظومة أنجم الجوزاء من جزع
له وعقد الثريا منه منتشر

وكيف ينسى محياه الكريم ومن
نعماه في كل عيش صالح أثر

جدّدت من أسد الدين الشهيد لنا
حزناً به يتساوى الصبر والصبر

قد كان للدين والدنيا بعزمكما
ذكر يعبر عنه الصارم الذكر

إن فاح نشر كلام تمدحان به
مسكاً فعترة أيوب هي العطر

تخفى ذبال مصابيح إذا طلعوا
صبحاً وتنسى ملوك الأرض إن ذكروا
كأنما صور الله الكمال بهم
شخصاً ويوصف منه السمع والبصر
لا شوبك منه معصوم ولا كرك
ولا خليل ولا قدس ولا زغر
لم يرتحل قافلاً إلاّ وساكنها
إما مباح حماه أو دم هدر
ما مات أيوب إلاّ بعد معجزة
في المجد لم يؤتها من جنسه بشر
مضى سعيداً من الدنيا وليس له
في رتبة أرب باق ولا وطر
وطوّل الله منه باع أربعة
منها الندى والتقى والملك والعمر
واشرف الملك ما امتدت مسافته
في صحة أخواها العقل والكبر
ومن سعادته أن مات لا سأم
يشكوه منه معانيه ولا ضجر

فصل

قال: العماد وسار نور الدين قاصداً جانب الشمال لتسديد ما اختل هناك من الأحوال، فسار إلى بعلبك، ومنها إلى حمص، ثم حلب، وفعل في كل منها من المصالح ما وجب، وقصد بلاد قليج أرسلان ملك الروم، ففتح مرعش في العشرين من ذي القعدة، ثم فتح بهسنى، واتبع في كل منهما الطريقة الحسنى، وكتب العماد إلى صديق له بدمشق، وكان سافر عنها مع نور الدين في أطيب فصولها وهو زمن المشمش:

كتابي فديتك من مرعش
وخوف نوائبها مرعشي
وما مر في طرفها مبصر
صحيح النواظر إلاّ عشي
وما حل في أرضها آمن
من الضيم والضر إلا خشي
ترنحني نشوات الغرا
م كأني من كأسه منتشي
أسرّ وأعلن برح الجوى
فقلبي يسر ودمعي يشي
بذلت مهجتي رشوة
فحاكم حبكم مرتشي
وكيف يلذ الكرى مغرم
بنار الغرام حشاه حشي
بمرعش أبغي وبلوطها
مضاهاة جلق والمشمش

قال العماد في الخريدة: فسارت هذه القطعة ونمى حديثها إلى نور الدين، قال: فاستنشدنيها فأنشدته إياها، ونحن سائرون في واد كبير، مع بيتين بدهت بهما في الحال وهما:

وبالملك العادل استأنست
نجاحاً مني كل مستوحش
وما في الأنام كريم سواه فإن كنت تنكر ذا فتش

قال ابن الاثير: وفي سنة ثمان وستين سار نور الدين رحمه الله نحو ولاية الملك عز الدين قليج أرسلان بن مسعود بن قليج أرسلان بن سليمان السلجوقي، وهي ملطية وسيواس وقونيه وأقصرا، عازما على حربه، وأخذ بلاده منه، وكان سبب ذلك أن ذا النون بن دانشمند،

صاحب ملطية وسيواس وغيرهما من تلك البلاد قصده قليج أرسلان وأخذ بلاده وأخرجه عنها طريداً فريداً، فسار إلى نور الدين مستجيراً، وملتجئاً إلى ظله فأكرم نزله، وأحسن إليه، وحمل له ما يليق أن يحمل للملوك ووعده النصر والسعى في ردّ ملكه إليه، وكانت عادة نور الدين أنه لايقصد ولاية أحد من المسلمين إلا ضرورة إما ليستعين بها على قتال الفرنج، أو للخوف عليها منهم، كما فعل بدمشق ومصر، وغيرها، فلما قصده ذو النون راسل قليج أرسلان، وشفع إليه في إعادة ما غلبه عليه من بلاده، فلم يجبه إلى ذلك فسار نور الدين نحوه فابتدأ بكيسون وبهسنى ومرعش ومرزبان فملكها وما بينها من الحصون، وسير طائفة من عسكره إلى سيواس فملكوها، وكان قليج أرسلان لما بلغه قصد نور الدين بلاده قد سار من أطرافها التي تلي الشام إلى وسطها خوفاً وفرقاً، وراسل نور الدين يستعطفه ويسأله الصلح والصفح عنه، فتوقف نور الدين عن قصده رجاء أن ينصلح الأمر بغير حرب، فأتاه من الفرنج ما أزعجه فأجابه إلى الصلح، وكان في جملة رسالة نور الدين إليه:«إنني أريد منك أموراً وقواعد ومهما تركت منها فلا أترك ثلاثة أشياء: أحدها أن تجدّد إسلامك على يد رسولي حتى يحل لي اقرارك على بلاد الاسلام، فإني لا أعتقدك مؤمنا، وكان قليج أرسلان يتهم باعتقاد مذاهب الفلاسفة، والثاني إذا طلبت عسكرك للغزاة تسيره فإنك قد ملكت طرفاً كبيراً من بلاد الاسلام، وتركت الروم وجهادهم وهادنتهم، فأما أن تكون تنجدني بعسكرك لأقاتل بهم الفرنج، وأما أن تجاهد من يجاورك من الروم وتبذل الوسع والجهد في جهادهم، والثالث أن تزوج ابنتك لسيف الدين غازي ولد أخي»، وذكر أموراً غيرها فلما سمع قليج أرسلان الرسالة، قال: ما قصد نور الدين إلا الشناعة علي بالزندقة، وقد أجبته إلى ما طلب أنا أجدّد اسلامي على يد رسوله، واستقر الصلح وعاد نور الدين وترك عسكره في سيواس مع فخر الدين عيد المسيح في خدمة ذي النون، فبقي العسكر بها إلى أن مات نور الدين، فرحل العسكر عنها وعاد قليج أرسلان ملكها.

قال العماد: وفيها وصل الفقيه الامام الكبير قطب الدين النيسابوري، وهو فقيه عصره، ونسيج وحده، فسر نور الدين به وأنزله بحلب بمدرسة باب العراق، ثم أطلعه إلى دمشق فدرس بزاوية الجامع الغربية المعروفة بالشيخ نصر المقدّسي رحمه الله، ونزل بمدرسة الجاروق، وشرع نور الدين في انشاء مدرسة كبيرة للشافعية لفضله، وأدركه الأجل دون إدراك عملها لأجله.

قلت: هي المدرسة العادلية الآن التي بناها بعده الملك العادل أبو بكر ابن أيوب أخو صلاح الدين وفيها تربته، وقد رأيت أنا ما كان بناه نور الدين، ومن بعده منها، وهو موضع المسجد والمحراب الآن، ثم لما بناها الملك العادل أزال تلك العمارة، وبناها هذا البناء المتقن المحكم الذي لانظير له في بنيان المدارس، وهي المأوى وبها المثوى، وفيها قدّر الله تعالى جمع هذا الكتاب، فلا أقفر ذلك المنزل ولا أقوى.

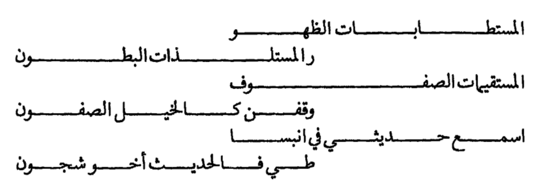
وبقي قطب الدين إلى أن توفي في الأيام الناصرية في سنة ثمان وسبعين، وقد وقف كتبه على طلبة العلم، ونقلت بعد بناء هذه المدرسة إليها فما فاتها ثمرته إذ فاتها مباشرته رحمه الله.

قال العماد: وكان وفد في سنة أربع وستين شيخ الشيوخ عماد الدين أبو الفتح محمد بن علي بن محمد بن حمويه، فأقبل عليه نور الدين وأمرني بانشاء منشور له بمشيخة الصوفية، ورغبه في المقام بالاحسان إليه بالشام، ومن جملة ما أتحفه به عمامة بأعمدة ذهبية، كان قد أنفذها صلاح الدين من مصر، فبذل فيها ألف دينار بزنة ذهبها، فلم يجب من سامها إلى طلبها.

قلت: وقد سبق ذكر هذه العمامة في أخبار نور الدين أوّل الكتاب من كلام ابن الاثير وابن المعطى إياها وهو الشيخ تاج الدين عبد الله رحمهم الله.

ثـم ذكر العماد نسخـة المنشور وفيـه:« فلينظر في ربـاط السمسياطـي، وقبة الطـواويس، ورباط الطاحـونة وغيرهـا من ربـط الصوفيـة بدمشـق المعمورة وبعلبك، ثـم ذكر العماد أنه في آخر شعبان من هـذه السنة قبل الرحيـل من دمشق كان أهـدى إلى صديقه الفـاضل الأديب علم الـدين الحسن بن سعيد الشاتاني قطائف وكتب إليه:

مـــــاراقـــــدات في صحـــــون
مستـــــوطنـــــات في سكـــــون
أو كـــــالعقـــــائل في الخدو
ر قـــــد اعتقلـــــن على ديـــــون
أو كـــــالتمائم للصحـــــا
ف ومـــــا نسبـــــن إلى جنـــــون
صرعـــــى ومـــــا دامـــــت لها
يـــــومـــــارحـــــى الحرب الـــــزبـــــون
يحيين بـــــالتغـــــريـــــق بـــــل
يسمـــــن في ضيـــــق السجـــــون
نضـــــدن بـــــالترصيـــــع في الـــــ
ـــــجامات كـــــالـــــدر المصـــــون
وقـــــد اشتملـــــن مـــــن اللطـــــا
ئف والصفـــــات على فنـــــون
يجلي أمثـــــال العـــــرا
ئس بين أبكـــــار وعيـــــون
هـــــنّ اللـــــذيـــــذات اللـــــوا
ئذ بـــــالسـهـــــول مـــــن الحزون
السكـــــريـــــات الغـــــريـــــ
ـــــقات الغـــــلائل والشـــــؤون
للفـــــن في أكفـــــانهن
على المنـــــى لا للمنـــــون



المستطـــابـــات الظهـــو ــ ر المستلـــذات البطـــون

المستقيمات الصفـــوف ــ وقفـــن كـــالخيـــل الصفـــون

اسمـــع حـــديثـــي في انبسـا ــ طـــي فـــالحديـــث أخـــو شجـــون

وهي أكثر من هذا

فصل

قال العماد: قد سبق ذكر مليح بن لاون مقدّم بلاد الأرمن والتجائه إلى نور الدين وتطاوله بقوّته على الروم والأرمن، وكانت الدروب تحت أذنه والمصيصة وسيواس يحميها كلب الروم ويضبطها بجنده، حتى استولى عليها مليح بن لاون فكسرهم وقتل وأسر وساق لنور الدين من مقدّمي الروم ثلاثين أسيراً، فأرسل نور الدين القاضي كمال الدين الشهرزوري بالأسرى والهدايا إلى الخليفة المستضيء بأمر الله، ومعه كتاب يشرح هذه الكسرة وما فتح من البلاد ويقول فيه:« وقسطنطينية والقدس يجريان إلى أمد الفتوح في مضمار المنافسة، وكلاهما في وحشة ليل الظلام المدلهمّ على انتظار صباح المؤانسة، والله تعالى بكرمه يدني قطاف الفتحين لأهل الإسلام، ويوفق الخادم لحيازة مراضي الامام»، وفي آخره «ومن جملة حسنات هذه الأيام الزاهرة ما تيسر في هذه النوبة من افتتاح بعض بلاد النوبة، والوصول إلى مواضع منها لم تطرقها سنابك الخيل الاسلامية في العصور الخالية، وكذلك استولت عساكر مصر أيضاً على برقة وحصونها، وتحكموا في محكم معاقلها ومصونها، حتى بلغوا إلى حدود المغرب، فظفروا من السؤال بعنقاء مغرب».

قلت: اتفق في هذه السنة وصول قراقوش غلام تقي الدين من الديار المصرية، مع طائفة من الترك، فانضم إليهم جماعة من العرب، فاستولى على طرابلس وكثير من بلاد إفريقية ما خلا المهدية وسفاقس وقفصة وتونس.

وفي آخر ذلك الكتاب: « ونسأل الله التوفيق لاستدناه قواصي المنى، وإقصاء عبدة الصليب الأنجاس من المسجد الأقصى، وأن يجعل فتح البيت المقدس مفتتح مراده، ومقتدح زناده، ومقترحه في جهاده، وأن يملكه الساحل بجميع بلاده» وسير العماد معه قصيدة منها:

بـــــا المستضيء أبي محمـــــد الحســـــن
رجعـــت أمـــور المسلمين إلى الســنــن

في أرض مصر دعـــالـــه خطبــاؤهـــا
وأتـــت لتخطـــب بكــر خطبتــه عــدن

فــا المغـــرب الأقصـــى بــذلـــك مشرق
وبنصر مصر محقـــق يمـــن اليمـــن

ورأى الالـــــه المستضيء لشرعـــــه
وعبــــاده نعــــم الأمين المؤتمن

سر النبـــوّة كـــامــن فيـــه ومـــن
فطـــر الامـــامـــة مشرق نـــور الفطـــن

تقـــوّى أبي بكـــر ومـــن عمـــر الهدى
وحيـــاء عثمان وعلـــم أبي الحســـن

وبجـــده عـــرفـــت مقـــالـــة حيـــدر
لا مـــن دد أنـــا ولا منـــي الـــددن

كـــم مـــن عـــدو ميـــت في جلـــده
رعبـــا وخـــوفـــاً فهـــو حـــي في كفـــن

ومنها في مدح نور الدين رحمه الله :

هـــل مثـــل محمـــود بـــن زنكـــي مخلـــص
متـــوحـــد يبغـــي رضـــاك بكـــل فـــن

ورع لـــــدى المحـــــراب أروع محرب
في حـــالتيـــه إن أقـــام وإن ظعـــن

يمسي ويصبـــــح في الجهـــــاد وغيره
يضحـــي رضيـــع سـلافـــة وضجيـــع دن

وبعــــزة الاســــلام منتصراً حـــــراً
وبـــذلـــــة الاشراك منتقماً قمـــــن

قال ابن أبي طيّ: وفيها وصل شهـاب الدين بن أبي عصرون من بغداد ومعـه توقيـع لنـور الدين بـدرب هـارون وصريفين، وخمسين ديناراً مـن

دنانير النثار التي نثرت يوم دخل الشهـاب إلى بغداد بالبشارة بالخطبة في مصر، وزن كل دينار عشرة دنانير.

قال العماد: وكـانت نـاحيتا درب هـارون وصريفين من أعمال العـراق لزنكـي والد نـور الدين قـديما من انعام أمير المؤمنين، فسـأل نور الـدين إحيـاء ذلك الـرسم في حقـه فأنعـم بهما الخليفـة عليه، ووجـه بهما مثالـه الشريف إليـه، وكان من مـراده أن يستوهـب ببغداد على شاطـىء دجلة أرضا يبنيها مدرسة للشافعية، ويقف عليهـا الناحيتين طلباً للأجر والذكر الباقـي على ممر الدهـر، فقيل له ما ثـم موضع يصلـح لهذا إلاّ درار التمر فعاقه أمر القدر عن قدرته على هذا الامر.

ثم دخلت سنة تسع وستين وخمسمائة

ونور الدين قد فتح من حصون الروم مرعش وغيرها، ومليح بن لاون متملك الأرمن في خدمته، ووصل إلى خدمته أيضاً ضياء الدين مسعود ابن قفجاق صاحب ملطية، وكان في خدمته أيضاً الأمراء من المجدل فسرحهم بالعطاء الأجزل، والسمت الأجمل، وأظهر أنه ينزل على قلعة الروم على الفراة فتقبله مستخلف الأرمن بالبراق، وحمل خمسين ألف دينار على سبيل الجزية مصانعة بذل وصغار، وعاد إلى حلب، وقد أنجح في كل ما طلب، وأراد أن يسرع إلى دمشق فالتاث سره لالتياث سريته وحظي بمرض القلب لمرض جسم محظيته، وجرت شكايته شكاية جاريته، فتصدّق عنها بألوف، والتزم لله في شفائها بنذور ووقوف، ثم سيرها في محفة تحمل على يدي الرجال في خفة، وسارت على الطريق المهيع مع العسكر يحملها من الخدم والخواص المعشر بعد المعشر، فما تقرب إليه بمثل حملها والمشي معها، وتقدّم بحق لازم من بخدمته شيعها، وتأخر نور الدين جريدة مع عدّة من مماليكه وأمرائه الماحضين في ولايته، وتقدّم إليّ أن أسايره في طريقه وأحاوره وأحاضره في منازله وأسامره، وسرنا على طريق قبة ابن ملاعب والمشهد وسلميه، فجاءه الخبر أن الفرنج قد أغارت على حوران، فثنى إلى الجهاد العنان، وسمع الفرنج به فتفرّقوا وقلقوا بعدما كانوا أقلقوا، ودخلنا دمشق.

قلت: وفي جمادى الأولى أبطل نور الدين رحمه الله فريضة الأتبان، ورأيت منشوره بذلك وعلامته عليه بخطه «الحمد لله» يقول فيه: «وبعد فانّ من سنتنا العادلة وسير أيامنا الزاهرة، وعواد دولتنا القاهرة إشاعة المعروف، وإغاثه الملهوف، وإنصاف المظلوم، وإعفاء رسم ما سنه الظالمون، من جائرات الرسوم، وما نزال نجدّد للرعية رسما من الاحسان يرتعون في رياضه، ويرتوون من حياضه، ونستقرىء أعمال بلادنا المحروسة ونصفيها من الشبه والشوائب، ونلحق ما يعثر عليه من بواقي

رسومها الضائرة بما أسقطناه من المكوس والضرائب تقرّباً إلى الله تعالى الكافل لنا بسيوغ المواهب، وبلوغ المطالب، وقد أطلقنا جميع ما جرت العادة بأخذه من فريضة الأتبان المقسطة على أعمال دمشق المحروسة، وضياع الغوطة، والمرج وجبل سنير وقصر حجاج والشاغور، والعقيبة ومزارعها الجارية في الاملاك، وجميع ما يقسط بعد المقاسمة من الأتبان على الضياع الخواص والمقطعة بسائر الأعمال المذكورة، ووفرناه على أربابه، طلباً لمرضاة الله وعظيم أجره وثوابه، وهرباً من انتقامه واليم عقابه، وسبيل الثواب إطلاق ذلك على الدوام، وتعفية آثاره، والاستعفاء من أوزاره، والاحتراز من التدنس بأوضاره وإبطال رسمه من الدواوين، لاستقبال سنة تسع وستين، وما بعدها على تعاقب الأيام والسنين».

فصل

في فتح اليمن

قال العماد: وفي رجب توجه تورانشاه أكبر أخوة صلاح الدين إلى اليمن، فملكها وكان يحثه على المسير إليها عمارة اليمني شاعر القصر، وكان كثير المدح لتورانشاه فتجهز وسار إلى مكة ثم إلى زبيد، فملكها وقبض على الخارجي بها، وأهلكه نائبه سيف الدين مبارك بن منقذ ومضى إلى عدن فأخذها، واستناب فيها عز الدين عثمان الزنجيلي، وفتح حصن تعز من القلاع، ففتح اقليماً، ومنح ملكاً عظيماً، وافترع بكراً، وشيع ذكرا.

وقال ابن شدّاد: ولما كان سنة تسع وستين، رأى صلاح الدين قوّة عسكره، وكثرة عدد أخوته، وقوّة بأسهم، وكان بلغه أن باليمن انساناً

استولى عليها وملك حصونها، وهو يخطب لنفسه يسمى عبد النبي بن مهدي، ويزعم أنه ينشر ملكه إلى الأرض كلها واستتب أمره، فرأى أن يسير إليها أخاه الأكبر الملك المعظم تورانشاه، وكان كريماً أريحياً حسن الأخلاق، سمعت منه — يعني من صلاح الدين رحمه الله — الثناء على كرمه ومحاسن أخلاقه وترجيحه إياه على نفسه، فمضى إليها، وفتح الله على يديه، وقتل الخارجي الذي كان بها.

قلت: وكان أخو هذا الخارجي قد خرج باليمن قبله، ذكر عمارة اليمني في أول كتابه في وزراء مصر في أثناء كلام له قال: وكان جماعة من أماثل الناس، مثل بركات المقرىء وعلي بن محمد النيلي والفقيه أبي الحسن علي بن مهدي القائم الذي قام باليمن، وأزال دولة أهل زبيد وغيرهم قد سبقوني، يعني إلى صاحب عدن، فذكر كلاماً يتعلق به.

وقال العماد في الخريدة: علي بن مهدي ملك اليمن في زماننا هذا، وسفك الدماء وسبى المسلمين، وأقبل على شرب الخمر، وادّعى الملك والإمامة، ودعا إلى نفسه، وكان يحدّث نفسه بالمسير إلى مكة فمات سنة ستين، وتولى بعده أخوه، وله شعر حسن يدل على علوّ همته (١٢٧).

قال ابن أبي طي: كان سبب خروج شمس الدولة إلى اليمن أنه كان كريماً جوّاداً، وكان إقطاعه بمصر لايقوم بفتوّته، ولاينهض بمروّته، وكان قد انتظم في سلكه عمارة الشاعر، وكان من أهل اليمن، وكان ورد إلى مصر ومدح أصحابها ونفق عليهم، فلما زالت دولتهم انضوى إلى شمس الدولة ومدحه، وكان إذا خلا به يصف له بلاد اليمن وكثرة أموالها وخيرها، وضعف من فيها، وأنها قريبة المأخذ لمن طلبها.

قلت فمن جملة شعره في ذلك قوله من قصيدة أوّلها:

العلم مذ كان محتاج إلى العلم
وشفرة السيف تستغني عن القلم
كم تترك البيض في الأجفان ظامئة
إلى الموارد في الأعناق والقمم
أمامك الفتح من شام ومن يمن
فلا تردّ رؤوس الخيل باللجم
فعمك الملك المنصور سوّمها
من الفرات إلى مصر بلا سأم
فاخلق لنفسك ملكاً لا تضاف به
إلى سواك وأور النار في العلم
هذا ابن تومرت قد كانت بدايته
كما يقول الورى لحما على وضم
وقد ترقى إلى أن امسكت يده
من الكواكب بالأنفاس والكظم
حاسب ضميرك عن رأي أتاك وقل
نصيحة وردت من غير متهم

وله من أخرى:
أفاتح أرض النيل وهي عظيمة
على كل راج فتحها ومؤهل
متى توقد النار التي أنت قادح
بغمدان مشبوباً سناها بمندل
وتفتح ما بين الحصين وابين
وصنعاء من حصن حصين ومعقل
وتملك من مخلاف طرق وجعفر
نقيضين من حزن خصيب ومسهل
وتخلق ملكاً لا يحيل بفخره
على أحد إلا على عزمك العلي

وله من أخرى:

قالوا إلى اليمن الميمون رحلته فقلت ما دونه شيء سوى السفر
سير يسر بني الدنيا وطيب ثنا وطول عمر كذا يحكى عن الخضر
لا توقدن لها النار التي خمدت خفض عليك تنل ما شئت بالشرر
المال ملء يد والقوم ملك يد ولا أطيل وهذا جملة الخبر

قال ابن أبي طي: ووافق ذلك أنه كاتبه رجل من أهل اليمن شريف يقال له هاشم بن غانم، وأطمعه في المعاونة لأن صاحب اليمن عبد النبي كان قد تعدّى على هذا الشريف هاشم، فأعلم شمس الدولة أصحابه بعزمه على اليمن، فأجابوه فتجهز، ثم دخل على أخيه السلطان واستأذنه في دخول اليمن، فأذن له وأطلق له مغل قوص سنة، وزوّده فوق ما كان في نفسه، وأصحبه جماعة من الأمراء ومقدار ألف فارس خارجاً عمن سيره من حلقته، وسار في البر والبحر، في البر العساكر، وفي البحر الأسطول يحمل الأزواد والعدد والآلات، فوصل إلى مكة شرفها الله تعالى، فدخلها زائراً، ثم خرج متوجهاً منها إلى اليمن فوصل زبيد في أوائل شوّال، فنزل عليها ولقيه الشريف هاشم بن غانم الحسني، وجميع الأشراف بنو سليمان في جمع جم، وعدد كبير، فهجم زبيد وتسلمها، واحتوى على ما فيها، وقبض على صاحب اليمن عبد النبي أخي علي بن مهدي، ثم رحل إلى عدن، وفي صحبته ابن مهدي، ففتحها عنوة وولاها عز الدين الزنجيلي، ثم سار إلى المخلاف وتسلم الحصون التي كانت في يد ابن مهدي كتعز وغيرها، وسار إلى صنعاء بعد فتح مدينة الجند وغيرها، فأحرقت صنعاء فدخلها شمس الدولة فلم يجد بها إلاّ شيخا وامرأة عجوزاً، فأقام بها ثمانية أيام، ثم لم يستطع المقام لقلة الميرة.

فرجع إلى زبيد فوجد ابن منقذ قد قتل عبد النبي بن مهدي، وكان

شمس الـدولة قد استنـاب بزبيد الأمير سيف الـدولة المبارك ابـن منقذ، وأمره بحمله، فلما بعد شمس الدولة خـاف ابن منقذ من فساد أمره فرأى المصلحة في قتلـه، فقتله ابـن منقذ بـزبيد، فلما بلـغ شمس الـدولة قتلـه استصوبـه، ولما حصل شمس الـدولة في زبيـد انفذ إليه صـاحب طمام (١٢٨) وصالحه هو وبـاقي الملوك على أداء المال، ثم تتبـع تلك الحصون والقـلاع فاحتـوى عليها جميعهـا، وكتب بـذلك إلى أخيـه الملك النـاصر، فأرسل إلى نـور الدين يخبره بما أفاض اللـه عليه من الإحسان وخـوّله من ملك الـديار والبلدان، فأرسـل نور الديـن مهذب الدين أبـا الحسن على ابن عيسى النقاش بالبشارة بذلك إلى بغداد.

فصل

ذكر العماد هاهنا الأمير مجد الـدين سيف الدولة المبارك بـن كامل بن منقذ، المستنـاب بزبيد ووصفـه بأنه من الكفـاة والكرماء، والـدهاة ذوي الآراء، وهو فاضل من أهل بيت فضل، كتب العماد من شعره:

لما نزلت الدير قلت لصاحبي
قم فاخطب الصهباء من شماسه

فأتى وفي يمناه كأس خلتها
مقبوسة في الليل من نبراسه

وكأن ما في كأسه من خدّه
وكأن ما في خدّه من كاسه

وكأن لذة طعمها من ريقه
وأريجها الفياح من أنفاسه

لم أنس ليلة شربها بغنائه
إذ بات يجلوها على جلاسه

إذ قام يسقينا المدام وكلما
عاتبته ردّ الجواب براسه

قلت: ومدحه أبو الحسن بن الذروي المصري بقصيدة غراء ذالية، ما أظن أنه نظم على قافية الذال أرق منها لفظاً، وأدق معنى أوّلها:

لك الخير عرج بي على ربعهم فذي
ربوع يفوح المسك من عرفها الشذي

يقول فيها

مبارك عيس الوفد باب مبارك
وهل منقذ القصاد غير ابن منقذ

قال العماد: ثم سير نور الدين إلى بغداد بشارة بأمرين أحدهما فتح اليمن، والآخر كسر الروم مرة ثانية، ومقدّمهم الدوقس كلمان، وكان قديماً أسيراً عند نور الدين من نوبة حارم، وفداه بخمسة وخمسين ألف دينار وخمسمائة وخمسين ثوباً أطلسا، وسير معه أسرى من الروم، وذلك في شعبان هذه السنة، ومما تضمنه كتاب البشارة « ولم ينج من عشرة آلاف غير عشرة(حمر مستنفرة. فرّت من قسورة)»،وقبل ذلك بشهرين سيرت قصيدة للعماد في جمادى الآخرة على لسان نور الدين إلى بغداد أوّلها:

أطاع دمعي وصبري في الغرام عصي
والقلب جرع من كأس الهوى غصصا
وإن صفو حياتي ما يكدّره
إلا اشتياقي إلى أحبابي الخلصا
ما أطيب العيش بالأحباب لو وصلوا
وأسعد القلب من بلواه لو خلصا

ومنها:

من ذا الذي سار سيري في ولائكم
غداة قال العدى لاسير عند عصا

قــــد نــــال عبـــدك محمـــود بها ظفـــراً
مـــازال يـــرقبـــه مـــن قبـــل مـــرتبصـــا
مـــن خـــوف سطـــوتـــه إن العـــدوّ إذا
أم الثغـــــور على أعقـــابــــه نكصـــا

وكلف نور الدين في هذه السنة بـافادة الألطاف، والزيادة في الأوقاف، وتكثير الصدقـات، وتوفير النفقـات، وكسوة النسوة والأيـامى في أيـامها، وإغناء فقـراء الرعيـة وانجادهـا بعد إعـدامها، وصـون الأيتام والأرامـل ببذله، وعـون الضعفاء وتقوية المقـوين بعدله، ثـم ذكر ما قدّمنـا ذكره في أوّل الكتاب من مناقب نور الدين وأفعاله الكريمة.

قال العماد: وفي يـوم الاثنين رابع شهـر رمضان ركـب نور الـدين على العادة، وجلسنا نحن في ديـوانه حافلين في إيوانه لبسط عدلـه وإحسانه، وتنفيذ أوامر سلطـانه، فجاءني من أخبرني أن نور الديـن نزل إلى المدرسة التي أتولاها، وبسط سجادته في قبلتها لسنة الضحى وصلاها، فقمت في الحال، ومضيـت على الاستعجـال، فلقيتـه في الدهليـز خـارجـاً في أجـر العيادة نـاجحاً، ولنهج السعادة نـاهجاً، فلما رآني توقف، ولقـولي تشوّف، فقلت له: إن الموضع قـد تشرف، أما ترى أنه من أيام الزلـزلة قد تشعث، فلما رأى حاله تلبث، وقال: نعيـده إلى العمارة، ونكسوه حلل النضارة، ثم حملت لـه وجوه سكـر وشيئاً مـن ثياب وطيـب وعنبر، وكتبت معهـا هذه الأبيات:

عنـــــــد سليمان على قـــــــدره
هـــديـــة النملـــة مقبـــولـــه
ويصغـــر الملـــوك عـــن نملـــة
عنـــدك والـــرحمة مـــأمـــولـــه
رقـــي لمولانـــا وملكـــي لـــه
وذمتـــي بـــالشكـــر مشغـــولـــة

وكيـــــف يقضي الحق ذو منــــة
ضعيفــة بـــالعجــز معلـــولــة
وإنما شيمــــة مــــولى الــــورى
طـــاهـــرة بـــالخير مجبـــولـــة

قـال: وكان رأى قبلـة المدرسـة غير مفصصة، وبـالترخيـم والتذهيـب والتهذيب غير مخصصة، فأنفذ لي لعمارتها فصوصـا مذهبة وذهباً، ثم حم مقدور حمامـه، وعاق القـدر عن اتمامـه، ودفعت إلى الموصـل، فرأيتـه في المنام وهـو يجاريني في الكلام، ويقول مـا يعود إلى المدرسة معنـاه، وقال: الصـلاة الصلاة، فعـرفـت أنه أشـار إلى المحـراب، وأنـه للآن على هيئـة الخراب، فكتبت إلى الفقيـه الذي كان عنـده الذهـب أن يشرع في عمارته، ودخلت دمشق يوم فراغ الصانع منه.

فصل

قال ابـن أبي طيّ: وفي هذه السنـة وصل رسول نـور الدين الموفـق بن القيسراني إلى الـديار المصريـة، واجتمع بـالسلطـان الملك النـاصر، وأنهى إليه رسـالة نور الـدين وطالبـه بحساب جميع مـا حصله وارتفع إليـه من المغل، فصعـب على السلطان، وأراد شـق العصا لو لا مـا ناب إليـه من السكينة والعقـل فأمـر بعمل الحسـاب، وعرضـه على ابن القيسراني وأراه جرائد الأجناد بمبـالغ إقطاعهم وتعيين جامكيـاتهم ورواتب نفقاتهم، فلما حصل عنـده جميع ذلـك أرسل معه هـدية إلى نور الـدين على يـد الفقيه عيسى.

قال: وقفت على برنامج شرحهـا بخط الموفق بن القيسراني، وهي خمس ختمات، إحـداهـا ختمـة ثـلاثون جـزءاً مغشـاة بـأطلـس أزرق، مضببـة

بصفائح ذهب، وعليها أقفال ذهب مكتوبة بذهب يانس، وختمة بخط راشد مغشاة بـديباج فستقي عشرة أجزاء، وختمة بخط ابـن البواب مجلد واحد بقفل ذهـب، وختمة بخط مهلهل جزء واحد وختمـة بخط الحاكم البغـدادي * ثلاثـة أحجـار بلخش: حجـر وزنـه إثنان وعشرون مثقـالا، وحجر وزنـه إثنا عشرة مثقالا، وحجر وزنـه عشرة مثاقيل ونصـف* ست قصبـات زمرد قصبة وزنها ثـلاثة عشرة مثقـالاً وثلث وربـع، وقصبة وزنها ثلاثة مثـاقيل، وقصبة وزنها مثقالان ونصف، وقصبـة وزنها مثقالان وربع وسـدس، وقصبـة وزنها مثقـالان وثلـث* وحجـر يـاقـوت وزنـه سبعـة مثاقيل* وحجر أزرق وزنه ستة مثاقيل وسدس* مائة عقد جوهر مختومة وزنها جميعهـا ثمانمائة وسبعـة وخمسـون مثقـالا* خمسـون قـارورة دهـن بلسـان* عشرون قطعة بلـور* أربعة عشر قطعـة جـزع، وذكر تفصيلهـا. إبريق يشم* طشت يشم* سقرق مينـا مذهـب* صحون صيني وزبادي وسكارج* أربعـون قطعة عود طيـب قطعتين كبار* كرتـان وزن أحداهما ثلاثون رطلاً بالمصري، والأخرى أحـد وعشرون رطلاً* مائة ثوب أطلس* أربعـة وعشرون بيقـاراً مذهبـة* أربعـة وعشرون ثـوبـا حريـري* أربعـة وعشرون ثوباً من الوشي حريرية بيـض* حلة فلفلي مذهبة* حلة مرايش صفراء مذهبـة، وذكر غير ذلك أنواعـاً من القماش قيمتها مائتـان وخمسة وعشرون ألف دينـار مصرية، وعـدّة من الخيـل والغلمان والجواري، وشيئاً كثيراً من السـلاح على اختلاف ضروبـه، قال: وخـرجوا بهذه الهديـة فلم تصل إلى نـور الديـن لأنهم اتصل بهم وفاتـه، فمنها مـا أعيد، ومنهـا ما استهلـك لأن الفقيـه عيسـى وابن القيسراني وضعـوا عليهـم مـن نهبهـم واستبدّوا بـأكثرها، وقيل إنها وصلـت جميعها إلى السلطان لأنه اتصـل به خبر موت نور الدين، فأنفذ من ردّها.

قال: وحدّثني من شاهد هذه الهدية أنه كان معها عشرة صناديق مالا لم يعلم مقداره.

وقال العماد: لما وصل إلى صلاح الدين رسول نور الديـن، وهو الموفق خالـد أطلعه على كل مـا هو فيه، وأحصـى له الطـريف والتالـد، وقال: هؤلاء الاجناد فاعرضهم واثبت أخبـارهـم، وما يضبط مثل هذا الاقليم إلا بالمال العظيم، ثم أنـت تعرف أكابر الدولة وعظماءهـا، وأنهم اعتادوا من السعة والدعة على نعمائها، وقد تصرفـوا في مواضع لايمكن انتزاعها، ولا يسمحـون بأن ينقـص ارتفاعهـا، فالموارد مشفـوهة، والشـدائد مكروهـه، والمقاصد بـردعها مجبوهه، والهمم بها مشـدوهة، وشرع في جمع مال يسيره، وبحمله بجهـد يبذله، وبخطر يحتملـه، وحصل لخالد منه مـا لم يكن في خلده، وجاء مطرف غناه أضعاف متلده.

فصل

في طلب عمارة الشاعر اليمني وأصحابه

قال العماد: واجتمع جماعة من دعاة الدولة المصرية المتعصبة المتصعبة المتشـدّدة المتصلبة، وتـوازروا وتزاوروا فيما بينهـم خيفـة وخفيه، واعتقـدوا أمنية عادت بالعقبى عليهم منيه، وعينـوا الخليفة والوزير، وأحكموا الرأي والتـدبير وتبيتوا أمـرهـم بليل، وستروا عليـه بـذيـل، وكان عمارة اليمنـي الشاعـر عقيدهـم، ودعا للـدّعوة قـريبهم وبعيـدهم، وكـانوا قـد أودعوا سرّهم عند من أذاعـه، واستحفظوا من أضاعه، وأدخلوا عـدّة من أنصار الدولـة الناصريـة في جملتهم، وعـرفوهـم بجهلتهم، وكـان الفقيه الـواعظ زيـن الـديـن علي بـن نجـا ينـاجيهـم فيما زيـن لهم مـن سـوء أعمالهم، ويـداخلهم في عـزم خـروجهم، مطلعـاً على أحـوالهم، وتقـاسموا الـدور والأملاك، وكـادت آمالهم تـدنو من الإدراك، فجـاء زين الـدين الـواعظ وأطلع صـلاح الدين على فسادهـم وما سوّلـوه من مراد مرادهـم وطلب مـالابـن كامـل الـداعـي من العقـار والـدور، وكـل مما له مـن الموجـود والمذخور، فبذل لـه السلطان كل ما طلبـه، وأمره بمخالطتهم ورغبـه، ثم أمر السلطان باحضار مقدّميهم، واعتقالهم لإقامة السياسة فيهم، وصلب يـوم السبت ثـاني شهر رمضـان جماعة منهـم بين القصرين منهـم عمارة، وأفنى بعـد ذلك من بقـي منهم ومـات بموتهم الخبر عنهم، وكـان منهم داعي الدعاة ابن عبد القوي ، وكـان عارفا بخبايا القصر وكنوزه، فباد ولم يسمح بابدائهـا، وبقيت تلك الخزائن مدفونة، وتلك الـدفائن مخزونة، قد دفن دافنها، وخـزن تحت الثرى خازنها، إلى أن يأذن الله في الـوصول إليها والاطلاع عليها، وجمع من أمـوال هؤلاء ما يحمل إلى الشام للاستعـانة به على حماية ثغور الاسلام.

قال ابـن أبي طي: وفي هـذه السنة اجتمـع جماعة مـن دعاة المصريين

والعوام وتآمروا فيما بينهم خفية، وبكوا على انقراض دولة المصريين وما صاروا اليه من الذل والفقر، ثم أجمعوا آراءهم على أن يقيموا خليفة ووزيراً وتجمعوا هم وجماعة عينوهم من الأمراء وغيرهم، وأن يكاتبوا الفرنج، وأن يثبوا بالملك الناصر، وأدخلوا معهم في هذا الأمر ابن مصال، واعدّوا جماعة من شيعة المصريين ليلة عينوها وكاتبوا الفرنج بذلك وقرروا معهم الوصول إليهم في ذلك الزمان المقرر، فخانهم ابن مصال فيما عاهدهم عليه ونكث في اليمين وكفر عنها، وصار إلى الملك الناصر، وعرفه بجلية ما جرى، قال: فأحضرهم واحداً واحداً وقررهم على هذه الحالة، فأقروا واعترفوا واعتذروا بكونهم قطعت أرزاقهم، وأخذت أموالهم، فأحضر السلطان العلماء واستفتاهم في أمرهم، فأفتوه بقتلهم وصلبهم ونفيهم، فأمر بصلبهم، وقيل إن الذي أذاع سرّهم زين الدين علي الواعظ، وطلب جميع مالابن الداعي من العقار والمال، فأعطاه جميع ذلك، وكان الذين صلبوا منهم المفضل بن كامل القاضي، وابن عبد القوي الداعي والعوريس، وكان قد تولى ديوان النظر، ثم القضاء بعد ذلك، وشبرما كاتب السر، وعبد الصمد القشة أحد أمراء المصريين ونجاح الحمامي، ورجل منجم نصراني أرمني، كان قال لهم: إن أمرهم يتم بطريق علم النجوم، وعمارة اليمني الشاعر.

قلت:وبلغني أن عمارة إنما كان تحريضه لشمس الدولة على المسير إلى اليمن ليتم هذا الأمر لأن فيه تقليلاً لعسكر صلاح الدين، وإبعاداً لأخيه وناصريه عنه.

قال العماد في الخريدة: وقعت اتفاقات عجيبة من جملتها أنه نسب إليه بيت من قصيدة ذكروا أنه له، يعني في القصيدة التي حرض فيها شمس الدولة على المسير إلى اليمن أوّلها:

العلم مذ كان محتاج إلى العلم

وقد تقدّم ذكرها وأما البيت فهو هذا

قد كان أوّل هذا الدين من رجل
سعى إلى أن دعوه سيد الأمم

قال العماد: ويجوز أن يكون هذا البيت معمولاً عليه، فأفتى فقهاء مصر بقتله، وحرضوا السلطان على المثلة بمثله . (١٢٩)

قال: ولعمارة في مصلوب بمصر، يقال له طرخان، وكان خرج على الصالح بن رزيك، فظفر به الصالح وصلبه، وكان يستحسن أبيات عمارة فيه وهي:

أراد علو مرتبة وقدر
فأصبح فوق جذع وهو عال

ومدّ على صليب الجذع منه
يميناً لا تطول على الشمال

ونكس رأسه لعتاب قلب
دعاه إلى الغواية والضلال

قال العماد: فكأنه وصف حاله وما آل إليه أمره.

وقال في البرق: ووصل من صلاح الدين يوم وفاة نور الدين إلى دمشق كتاب يتضمن هذه القضية،وهو بخط ابن قريش يعني المرتضى.

وقال ابن أبي طي: وقد كتب القاضي الفاضل إلى نور الدين كتاباً شرح فيه قضية المصلبين، فقال بعد مطلع الكتاب: « قصر هذه الخدمة على متجدّد سار للاسلام وأهله، وبشارة مؤذنة بظهور وعد الله في اظهاره على الدين كله، بعد أن كانت لها مقدّمات عظيمة، إلا أنها اسفرت عن النجح، وأوائل كالليلة البهيمة، إلا أنها انفرجت عن الصبح، فالاسلام ببركاته البادية، وفتكاته الماضية، قد عاد مستوطناً، بعد أن كان غريباً،

وضرب في البلاد بجرانه بعد أن كان كالكفر يتم عليه تخيلا عجيباً، إلا أن الله سبحانه اطلع على أمرها من أوّله، وأظهر على سرها من مستقبله، والمملوك يأخذ في ذكر الخبر، ويعرض عن ذكر الأثر، لم يزل يتوسم من جند مصر ومن أهل القصر بعد ما أزال الله من بدعتهم، ونقض من عرى دولتهم، وخفض من مرفوع كلمتهم، أنهم أعداء، وإن تعدّت بهم الأيام، وأضداد وإن وقعت عليهم كلمة الاسلام، وكان لايحتقر منهم حقيراً، ولا يستبعد منهم شراً كبيراً، وعيونه لمقاصدهم موكله، وخطراته في التحرز منهم مستعمله، لاتخلو سنة تمر، ولا شهر يكر، من مكر يجتمعون عليه، وفساد يتسرعون إليه، وحيلة يبرمونها، ومكيدة يتممونها، وكان أكثر ما يتعللون به ويستريحون إليه المكاتبات المتواترة، والمراسلات المتقاطره إلى الفرنج، خذلهم الله التي يوسعون لهم فيها سبل المطامع، ويحملونهم فيها على العظائم والفظائع، ويزينون لهم الاقدام والقدوم، ويخلعون فيها ربقة الاسلام خلع المرتد المخصوم، ويد الفرنج بحمد الله قصيرة عن إجابتهم، إلا أنهم لايقطعون حبل طمعهم على عادتهم، وكان ملك الفرنج كلما سولت له نفسه الاستتار في مراسلتهم، والتحيل في مفاوضتهم، سير جرج كاتبه رسولاً إلينا ظاهراً وإليهم باطناً، عارضاً علينا الجميل الذي ما قبلته قط أنفسنا، وعاقداً معهم القبيح الذي يشتمل عليه في وقته علمنا، ولأهل القصر والمصريين في أثناء هذه المدد رسل تتردّد وكتب إلى الفرنج تتجدّد »، ثم قال: « والمولى عالم أن عادة أوليائه المستفادة من أدبه أن لايبسطوا عقابا مؤلما، ولا يعذبوا عذابا محكما، وإذا طال لهم الاعتقال ولم ينجع السؤال أطلق سراحهم وخلى سبيلهم، ولا يزيدهم العفو إلا ضرارة، ولا الرقة عليهم إلاّ قساوة، وعند وصول جرج في هذه الدفعة الأخيرة رسولاً إلينا بزعمه، ورد إلينا كتاب ممن لا نرتاب به من قومه يذكرون أنه رسول مخاتله لارسول بجاملـه، وحامل بلية لاحامل هدية، فأوهمناه الاغفال عن التيقظ لكل ما يصدر منه وإليه فتوصل مرة بالخروج ليلاً ومرة بالركوب إلى الكنيسة وغيرها

نهاراً إلى الاجتماع بحاشية القصر وخدامه، وبأمراء المصريين وأسبابهم، وجماعة من النصارى واليهود وكلابهم وكتابهم، فدسسنا إليهم من طائفتهم من داخلهم، فصار ينقل إلينا أخبارهم ويرفع إلينا أحوالهم، ولما تكاثرت الأقوال، وكاد يشتهر علمنا بهذه الأحوال، استخرنا الله تعالى، وقبضنا على جماعة مفسده، وطائفة من هذا الجنس متمرده، قد اشتملت على الاعتقادات المارقة، والسرائر المنافقة، فكلا أخذ الله بذنبه، فمنهم من أقر طائعاً عند إحضاره، ومنهم من أقر بعد ضربه فانكشفت أمور أخرى كانت مكتومة، ونوب غير التي كانت عندنا معلومة، وتقريرات مختلفة في المراد متفقة في الفساد».

ثم ذكر تفصيلاً حاصله أنهم عينوا خليفة ووزيراً مختلفين في ذلك، فمنهم من طلب إقامة رجل كبير السن من بني عم العاضد ومنهم من جعل ذلك لبعض أولاد العاضد، وإن كان صغيراً، واختلف هؤلاء في تعيين واحد من ولدين له، وأما بنورزيك، وأهل شاور فكل منهم أراد الوزارة لبيتهم من غير أن يكون لهم غرض في تعيين الخليفة.

ثم قال: وكانوا فيما تقدّم والمملوك على الكرك والشوبك بالعسكر قد كاتبوهم وقالوا لهم إنه بعيد، والفرصة قد أمكنت، فإذا وصل الملك الفرنجي إلى صدر أو إلى إيله ثارت حاشية القصر، وكافة الجند، وطائفة السودان وجموع الأرمن، وعامة الاسماعيلية، وفتكت بأهلنا وأصحابنا بالقاهرة.

ثم قال: ولما وصل جرج كتبوا إلى الملك الفرنجي إن العساكر متباعدة في نواحي اقطاعاتهم، وعلى قرب من موسم غلاتهم، وأنه لم يبق في القاهرة إلاّ بعضهم، وإذا بعثت أسطولاً إلى بعض الثغور أنهض فلانا من عنده، وبقي في البلد وحده، ففعلنا ما تقدّم ذكره من الثورة.

ثـم قال: وفي أثنـاء هذه المدّة كـاتبوا سنـانـاً صاحـب الحشيشية بـأن الـدعوة واحـده، والكلمـة جامعـة، وأن مـا بين أهلها خـلاف إلا فيما لا يفترق به كلمه، ولا يجب به قعود عن نصره، واستـدعوا منه من يتمم على المملـوك غيلـه، أو يبيـت لـه مكيـدة وحيلـة، (والله مـن ورائهـم محيط) (١٣٠) وكان الرسـول إليهم عن المصريين خال ابن قـرجلة المقيم الآن، هو وابن أخته عند الفرنج.

ولما صـح الخبر وكـان حكـم الله أولى ما أخـذ بـه، وأدب الله أمضـى فيمن خـرج عن أدبـه، وتناصرت من أهـل العلم الفتـاوى، وتوالـت من أهل المشـورة بسبب تـأخير القتل فيهـم المراجعات والشكـاوى، قتل الله بسيف الشرع المطهـر جماعة من الغـواة الغلاة الدعـاة إلى النار، الحاملين لأثقالهم وأثقـال من أضلـوه من الفجـار، وشنقوا على أبـواب قصورهـم، وصلبوا على الجذوع المواجهـة لدورهـم، ووقع التتبـع لأتباعهـم، وشرّدت طائفة الاسماعيلية ونفـوا، ونودي بأن يرحل كافـة الأجناد وحاشية القصر، وراجل السودان إلى أقصـى بلاد الصعيد، فأما مـن في القصر فقد وقعت الحوطة عليهم، إلى أن ينكشف وجـه رأي يمضي فيهم، ولا رأي فوق رأي المولى، والله سبحانـه المستخار، وهو المستشار، وعنـده من أهل العلـم من تطيب النفس بتقليده، وتمضي الحدود بتحديـده، ورأى المملوك إخراجهم من القصر فـإنهم مهما بقوافيـه بقيت مـادة لا تحسم الأطماع عنهـا، فإنـه قبلـة للضلال منصـوبة، وبيعـه للبدع محجـوجة ـــ قـال المؤلف: لعلهـا محجوبة ـ ومما يطرف به المولى أن ثغر الاسكنـدرية على عموم مذهب السنة فيه أطلـع البحث أن فيه داعية خبيثـاً أمره، محتقراً شخصـه، عظيماً كفره، يسمى قديد القفاص، وأن المذكور مع خمولـه في الديار المصرية قد فشت في الشام دعوته، وطبقت عقول أهـل مصر فتنته، وإن أرباب المعاش فيه يحملـون إليه جـزءاً مـن كسبهـم، والنسوان يبعثـن إليـه شطـراً وافياً مـن أموالهن، ووجدت في منزلـه بالاسكندرية، عند القبض لـه، والهجوم عليه

كتبا مجرّدة فيها خلع العذار، وصريح الكفر الذي ما عنه اعتذار، ورقاع يخاطب بها فيها ما تقشعرّ منه الجلود، وكان يدعي النسب إلى أهل القصر، وأنه خرج منه طفلاً صغيراً ونشأ على الضلاّلة كبيراً، وبالجملة فقد كفي الاسلام أمره، وحاق به مكره، وصرعه كفره.

قلت: وفي قصيدة عمارة هذه يقول العلامة تاج الدين الكندي رحمه الله ونقلته من خطه:

عمارة في الاسلام أبدى جناية
وبايع فيها بيعة وصليبا

وأمسى شريك الشرك في بغض أحمد
فأصبح في حب الصليب صليبا

وكان خبيث الملتقى إن عجمته
تجد منه عوداً في النفاق صليبا

صليب سيلقى غدا ما كان يسعى لأجله
ويسقى صديدا في لظى وصليبا

قلت: الصليب الأول صليب النصارى، والثاني بمعنى مصلوب، والثالث من الصلابة، والرابع ودك العظام، وقيل هو الصديد أي بسقي ما يسيل من أهل النار، نعوذ بالله منها.

وكان عمارة مستشعراً من الغزّ، وهم أيضاً منه لأنه كان من أتباع الدولة المصرية، وممن انتفع بها، واختل أمره بعدها، فلم تصف القلوب بعضها لبعض، وصار يظهر في فلتات لسانه في نظمه ونثره ما يقتضي التحرز منه وابعاده، وهو يرى ذلك منهم فيزداد فساداً في نيته، وإن مدحهم تكلف ذلك وصرّح وعرض فيه بما في ضميره، وقد قال في كتاب الوزراء المصرية: ذكر الله أيامهم بحمد لا يكل نشاطه، ولا يطوى بساطه، فقد وجدت فقدهم، وهنت بعدهم، وقال من قصيدة مدح بها نجم الدين أيوب:

وكــــان لي في ملــــوك النيــــل قبلكـــم
مكـــانـــة عـــرفتهـــا العـــرب والعجـــم
وكـــان بينـــي وبين القـــوم ملحمـــة
في حـــربها ألســـن الاديـــان تختصـــم
ومـــا تـــزال إلى داري عـــوار فهـــم
يسعـــى إليّ بها الإنعـــام والكـــرم
تـــركـــت قصـــدك لما قيـــل إنـــك لا
تجود إلا على مـــن مســـه العـــدم
ولســت بـــالـــرجـــل المجهـــول مـــوضعـــه
ولا لنـــزر مـــن الاحســـان أغتنـــم
ولا إلى صـــدقـــات المال أطلبهـــا
ولا عمـــى نـــال أعضـــائي ولا صمـــم
وإنما أنـــا ضيـــف للملـــوك ولي
دون الضيـــوف لســـان نـــاطـــق وفـــم

وقال من قصيدة مدح بها صلاح الدين رحمه الله:
قـــررت لي أبنـــاء رزيـــك رزقـــا
كـــان في عصرهـــم مستنـــا مهنـــا
وأتـــت بعـــدهـــم ملـــوك فسنـــوا
فيّ مـــا كـــان صـــالـــح القـــوم سنـــا
ورعـــوني إمـــا اقتـــداء بماض
أو لمعنـــى فكلهـــم بي يعنـــى

وله فيه من أخرى
فقـــد صـــارت الـــدنيـــا إليكـــم بـــأسرهـــا
فـــلا تشبعـــوا منهـــا ونحـــن جيـــاع
إذا لم تـــريـــدونـــا فكـــونـــوا كمـــن مضـــى
ففـــي النـــاس أخبـــارهم وسماع

وليـــس على مـــرّ الفطـــام إقـــامـــة
فهـــل في ضروع المكـــرمـــات رضـــاع

وقال في قصيدة مدح بها تقي الدين:
هـــل تـــأذنـــون لمن أراد عتـــابكـــم
أم ليـــس في إعتـــابكـــم مـــن مطمـــع
ضيعتـــم مـــن حـــق ضيفكـــم الـــذي
مـــازال قبـــل اليـــوم غير مضيـــع
وتغـــافـــل السلطـــان عنـــي حين لم
أكشـــف قنـــاع مـــذلـــة وتضرّع
ورجـــوت نفعـــك بـــالشفـــاعـــة عنـــده
فسمحـــت لي بشفـــاعـــة لم تنفـــع
وإذا انطـــاق الـــرزق ضـــاق مجالـــه
أمســـى مجال النطـــق غير مـــوســـع

وقال أيضاً:
تيممـــت مصراً أطلـــب الجاه والغنـــى
فنلتهما في ظـــل عيـــش ممنـــع
وزرت ملـــوك النيـــل ارتـــاد نيلهـــم
فـــأحمد مـــرتـــادي وأخصـــب مـــربعي
وفـــزت بـــألـــف مـــن عطيـــة فـــائز
مـــواهبـــه للصنـــع لا للتصنـــع
وكـــم طـــرفتنـــي مـــن يـــد عـــاضـــديـــة
سرت بين يقظـــى مـــن عيـــون وهجـــع
وجـــاد ابـــن رزيـــك مـــن الجاه والغنـــى
بما زاد عـــن مـــرمـــى رجـــائي ومطمعـــي
وأوحـــى إلى سمعـــي ودائع شعـــره
فخبرتـــه منـــي بـــأكـــرم مـــودع

وليست أيادي شاور بذميمة
ولا عهدها عندي بعهد مضيع
ملوك رعوا لي حرمة صار نبتها
هشيماً رعته النائبات ومارعي
مذاهبهم في الجود مذهب سنة
وإن خالفوني باعتقاد التشيع
فقل لصلاح الدين والعدل شأنه
من الحاكم المصغي إلي فأدّعي
أقمت لكم ضيفاً ثلاثة أشهر
أقول لصدري كلما ضاق وسع
وكم في ضيوف الباب ممن لسانه
إذا قطعوه لا يقوم بأصبعي
فياراعي الاسلام كيف تركتنا
فريقي ضياع من عرايا وجوّع
دعوناك من قرب وبعد فهب لنا
جوابك فالباري يجيب إذا دعي

وقال أيضا:
أسفي على زمن الإمام العاضد
أسف العقيم على فراق الواحد
جالست من وزرائه وصحبت من
أمرائه أهل الثناء الخالد
لهفي على حجرات قصرك إذ خلت
يا ابن النبي من ازدحام الوافد
وعلى انفرادك من عساكرك الذي
كانوا كأمواج الخضم الراكد
قلدت مؤتمن الخلافة أمرهم
فكبا وقصر عن صلاح الفاسد

فعســـى الليـــالي أن تـــردّ إليكـــم
مـــا عـــوّدتكـــم مـــن جميـــل عـــوائد

وقال أيضا:

قست رأفة الدنيا فلا الدهر عاطف
عليّ ولا عبد الرحيم رحيم
عفا الله عن آرائه كل فترة
كلام العدى فيها عليّ كلوم
وسامحه في قطع رزق بفضله
وصلت إليه والزمان ذميم
ألا هل له عطف عليّ فإنني
فقير إلى ما اعتدت منه عديم

عبد الرحيم هو القاضي الفاضل رحمه الله، وبلغني أن عمارة لما مروا به ليصلب عبروا به على جهة دار الفاضل فطلب الاجتماع به، فقيل ليس إليه طريق فقال:

عبد الرحيم قد احتجب
إن الخلاص هو العجب

قال: وهذه القصيدة تحقق ما ذكر من الاجتماع على مكاتبة الفرنج، والخوض في فساد الدولة، بل الملة، وتوضح عذر السلطان في قتله، وقتل من شاركه في ذلك، وهي:

رميت يا دهر كف المجد بالشلل
وجيده بعد حلي الحسن بالعطل
سعيت في منهج الرأي العثور فمن
قدرت من عثرات البغي فاستقل
جدعت مارنك الأقنى فأنفك لا
ينفك ما بين نقص الشين والخجل

هـدمـت قـاعـدة المعـروف عـن عجـل
سقيـت مهـلا أمـا تمشي على مهـل
لهفـي ولهف بنـي الآمـال قـاطبـة
على فجيعتنـا في أكـرم الـدول
قـدمـت مصر فـأولتنـي خـلائفهـا
مـن المكـارم مـا أربـى على الأمـل
قـوم عـرفـت بهم كسـب الألـوف ومـن
كمالها أنها جـاءت ولم أسـل
وكنـت مـن وزراء الـدسـت حيث سما
رأس الحصـان تهاديـه على الكفـل
ونلـت مـن عظماء الجيـش تكـرمـة
وخلـة حـرسـت مـن عـارض الخلـل
يـا عـاذلي في هـوى أبنـاء فـاطمـة
لـك الملامـة إن قصرت في عـذلي
بـالله زر سـاحـة القصريـن وابـك معـي
عليهما لا على صفين والجمـل
وقـل لأهلهما والله مـا التحمـت
فيكـم قـروحـي ولا جـرحـي بمنـدمـل
مـاذا تـرى كـانـت الافـرنـج فـاعلـة
في نسـل آل أمير المؤمنين علي
هـل كـان في الأمـر شيء غير قسمـة مـا
ملكتـم بين حكـم السبـي والنفـل
وقـد حصلتـم عليهـا واسـم جـدّكـم
محمـد وأبيكـم غير منتقـل
مـررت بـالقصر والأركـان خـاليـة
مـن الـوفـود وكـانـت قبلـة القبـل
فملـت عنهـا بـوجهـي خـوف منتقـد
مـن الأعـادي ووجـه الـودّ لم يمـل

أسبلت من أسف دمعي غداة خلت
رحابكم وغدت مهجورة السبل
أبكي على ما تراءت من مكارمكم
حال الزمان عليها وهي لم تحل
دار الضيافة كانت أنس وافدكم
واليوم أوحش من رسم ومن طلل
وفطرة الصوم إن أصغت مكارمكم
تشكو من الدهر حيفا غير محتمل
وكسوة الناس في الفصلين قد درست
ورث منها جديد عنهم وبلي
وموسم كان في كسر الخليج لكم
يأتي تجملكم فيه على الجمل
وأوّل العام والعيدان كان لكم
فيهن من وبل جود ليس بالوشل
والارض تهتز في عيد الغدير بما
تهتز ما بين قصريكم من الأسل
والخيل تعرض من وشي ومن شية
مثل العرائس في حلي وفي حلل
ولا حملتم قرى الاضياف من سعة الـ
ـأطباق إلا على الأعناق والعجل
وما خصصتم ببر أهل ملتكم
حتى عممتم به الأقصى من الملل
كانت رواتبكم للذمتين وللضيـ
ـف المقيم وللطاري من الرسل
وللجوامع من أحباسكم نعم
لمن تصدّر في علم وفي عمل
وربما عادت الدنيا لمعقلها
منكم واضحت بكم محلولة العقل

وقال العماد في الخريدة: أبو القاسم هبة الله بن عبد الله بن كامل، كان داعي الدعاة بمصر للأدعياء، وقاضي القضاة لأولئك الأشقياء، يلقبونه بفخر الأمناء، وهو عندهم في المحلة العلياء، والمرتبة الشماء، والمنزلة التي في السماء، حتى انكدرت نجومهم، وتغيرت رسومهم، وأقيم قاعدهم، وعضد عاضدهم، وأخليت منهم مصرهم. وأجلي عنهم قصرهم، فحرك ابن كامل ناقص الذب عنهم والشدّ منهم، فأمال قوما على البيعة لبعض أولاد العاضد ليبلغوا به ما تخيلوه من المقاصد وسوّلوه من المكايد. فأثمرت بجثثهم الجذوع. وأقفرت من جسومهم الربوع. وأحكمت في لحومهم النسوع. وهذا أوّل من ضمه حبل الصلب. وأمه فاقره الصلب. وهذا صنع الله فيمن ألحد وكفر النعمة وجحد. وذلك غرة رمضان سنة تسع وستين وخمسمائة، سمعت الملك الناصر صلاح الدين يذكره. وقد ذكروه عنده بالفضل والأدب. ونسبوا إليه هذين البيتين في غلام رفاء. وأنشدهما للملك الناصر وذكر أنه كان ينكرهما:

يا رافيا خرق كل ثوب ... ويا رشا حبه اعتقادي

عسى بكف الوصال ترفو ... ما مزق الهجر من فؤادي (١٣١)

فصل

في التعريف بحال عمارة ونسبه وشعره

قال العماد: وقد أوردت شعر عمارة ابن أبي الحسن اليمني في كتاب خريدة القصر وجريدة العصر، ونقلت إلى هذا الكتاب ــ يعني كتاب البرق الشامي ــ لمعاً من ذلك فمن ذلك ما أنشدنيه نجم الدين أبو

محمد بن مصال:

لو أن قلبي يوم كاظمة معي
لملكته وكظمت غيظ الادمع

قال العماد: إنما أنشدني فيض الأدمع فرأيت غيظ الأدمع أليق بالكظم:

قلب كفاك من الصبابة أنه
لبى نداء الظاعنين ومادعي
ومن الظنون الفاسدات توهمي
بعد اليقين بقاءه في أضلعي
ما القلب أوّل غادر فألومه
هي شيمة الأيام مذ خلقت معي
ملك إذا قابلت بشر جبينه
فارقته والبشر فوق جبيني
وإذا لثمت يمينه وخرجت من
أبوابه لثم الملوك يميني

قال: وأنشدني له عضد الدين أبو الفوارس مرهف بن أسامة بن منقد يقول:

لي في هوى الرشاء العذري أعذار
لم يبق لي مذ أقر الدمع انكار
لي في القدود وفي لثم الخدود وفي
ضم النهود لبانات وأوطار
هذا اختياري فوافق أن رضيت به
أولا فدعني وما أهوى واختار
لمني جزافا وسامحني مصارفة
فالناس في درجات الحب أطوار
وخل عذلي ففي داري ودائرتي
من المهادرة قلبي لها دار

قلت:ويروي: «وخل غيري ففي أسري ودائرتي» والأبيات العينية من قصيدة في مدح تقي الدين، والنونية في مدح نجم الدين أيوب، والرائية في مدح شمس الدولة بن أيوب، وكان عمارة هذا عربيا فقيها أديباً، وله كتاب صغير ذكر فيه أخباره وأحواله باليمن، ثم بمصر، فذكر أنه أقام بزبيد ثلاث سنين يقرأ عليه مذهب الشافعي رضي الله عنه، قال: ولي في الفرائض مصنف يقرأ باليمن.وفي سنة تسع وثلاثين زارني والدي وخمسة من أخوتي إلى زبيد فأنشدته شيئاً من شعري فاستحسنه، ثم قال: تعلم والله أن الأدب لنعمة من نعم الله عليك فلا تكفرهابذم الناس، واستحلفني أن لا أهجو مسلما ببيت شعر، فحلفت له على ذلك ولطف الله بي فلم أهج أحداً ما عدا إنساناً هجاني بحضرة الملك الصالح ــ يعني ابن رزيك ــ ببيتي شعر، فاقسم الصالح علي أن أجيبه ففعلت متأوّلا قول الله عز وجل: (ولمن انتصر بعد ظلمه فأولئك ما عليهم من سبيل) (١٣٢) وقوله تعالى (فمن اعتدى عليكم فاعتدوا عليه بمثل ما اعتدى عليكم)(١٣٣) قال: ولم يكن شيء غير هذا

وحججت مع الملكة أم فاتك ملك زبيد، وكانت تقوم لأمير الحرمين بجميع ما يتناوله من حاج اليمن براً وبحراً وبجميع خفارات الطريق، فذكر أنه حصل له وجاهة عندها فانتفع بها حتى أثرى وكثر ماله وجاهه، ثم طرأت أمور اقتضت أن هرب من اليمن وحج سنة تسع وأربعين وخمسمائة، قال: وفي موسم هذه السنة توفي أمير الحرمين هاشم ابن فليتة، وولي الحرمين ولده قاسم بن هاشم، فألزمني السفارة عنه، والرسالة منه إلى الدولة المصرية، فقدمتها في شهر ربيع الأوّل سنة خمسين، والخليفة بها يومئذ الفائزبن الظافر، والوزير له الملك الصالح طلائع بن رزيك، فلما حضرت للسلام عليهما في قاعة الذهب من قصر الخليفة أنشدتهما

الحمد للعيس بعد العزم والهمم
حمداً يقوم بما أولت من النعم

لا أجحـد الحق عنـدي للـركـاب يـد
تمنـت اللجـم فيهـا رتبـة الخطـم
قـربـن بعـد مـزار العـز مـن نظـري
حتـى رأيـت إمـام العصر مـن أمـم
ورحـن مـن كعبـة البطحـاء والحرم
وفـداً إلى كعبـة المعـروف والكـرم
فهـل درى البيـت أني بعـد زورتـه
مـا سرت مـن حـرم إلا إلى حـرم
حيـث الخلافـة مضروب سرادقهـا
بين النقيضين مـن عفـو ومـن نقـم
ولـلإمـامـة أنـوار مقـدّسـة
تجلـو البغيضين مـن ظلـم ومـن ظلـم
وللنبـوّة آيـات تنـص لنـا
على الخفيين مـن حكـم ومـن حكـم
وللمكـارم أعـلام تعلمنـا
مـدح الجزيلين مـن بـأس ومـن كـرم
وللعلى ألسـن تثنـي محامـدهـا
على الحميـديـن مـن فعـل ومـن شيـم
ورايـة الشرف البـذاخ تـرفعهـا
يـد الـرفيعين مـن مجد ومـن همم
أقسمـت بـالفـائز المعصـوم معتقـداً
فـوز النجـاة وأجـر البر في القسـم
لقـد حمى الـديـن والـدنيـا وأهلهما
وزيـره الصـالـح الفـراج للغمـم
الـلابـس الفخـر لم تنسـج غـلائلـه
إلا يـد الصنعتين السيـف والقلـم
وجـوده أوجـد الأيـام مـا اقترحـت
وجـوده أعـدم الشـاكين للعـدم

قـــد ملكتـــه العـــوالي رق مملكـــة
تعير أنـــف الثـــريـــا غـــرة الشمـــم
أرى مقـــامـــا عظيـــم الشـــان أوهمنـــي
في يقظتـــي أنها مـــن جملـــة الحلـــم
يـــوم مـــن العمـــر لم يخطـــر على أمـــل
ولا تـــرقبـــت إليـــه رغبـــة الهمـــم
ليـــت الكـــواكـــب تـــدنـــو لي فـــأنظمهـــا
عقـــود مـــدح فما أرضـــى لكـــم كلمـــي
تـــرى الـــوزارة فيـــه وهـــي بـــاذلـــة
عنـــد الخلافـــة نصحـــا غير متهـــم
عـــواطـــف أعلمتنـــا أن بينهما
قـــرابـــة مـــن جميـــل الـــرأي لا الـــرحـــم
خليفـــة ووزيـــر مـــدّ عـــدلهما
ظـــلاً على مفـــرق الاســـلام والأمـــم
زيـــادة النيـــل نقـــص عنـــد فيضهما
فما عســـى يتعـــاطـــى منـــة الـــديـــم

قـال: وعهـدي بـالصـالـح وهـو يستعيـدهـا في حـال النشيـد مـرارا والاستـاذون والأمراء والكبراء يـذهبـون في الاستحسان كـل مـذهب، ثـم أفيضت عليّ خلـع من ثياب الخلافة مـذهبة، ودفع إليّ الصـالـح خمسمائة دينـار، وإذا بعض الاستـاذين قـد خرج لي مـن عند السيـدة بنت الامـام الحافـظ بخمسمائة دينار أخـرى وحمل المال معـي إلى منزلي، واطلقـت لي مـن دار الضيافـة رسوم لم تطلـق لأحـد قبلي، وتهادتني أمـراء الدولـة إلى منازلهم للولائم، واستحضرني الصالح للمجـالسة، ونظمني في سلك أهل المؤانسة، وانثالـت عليّ صلاته، وغمرني بره، ووجدت بحضرتـه من أعيان أهل الأدب الشيـخ الجليس أبـا المعالي ابن الجبـاب، والموفق أبـا الحجاج يوسف بن الخلال صاحب ديوان الانشـاء، وأبا الفتح محمود بن قادوس، والمهذب أبا محمد الحسن بن الزبير، وغيرهـم، وما من هذه الحلبة أحد الا

ويضرب في الفضائل النفسانية، والرياسة الانسانية بأوفر نصيب، ومازلت أحذو على طرائقهم حتى نظموني في سلك فرائدهم وقلت:

ليالِيَّ بالفسطاط من شاطىء مصر
سقى عهدك الماضي عهادٌ من القطر

ليال هي العمر السعيد وكل ما
مضى في سواها لا يعدّ من العمر

أفادتني الأقدار فيها مواليا
صفت بهم الأيام من كدر الغدر

تواصوا على أن لا تردّ إرادتي
ولو سمتهم نثر الكواكب في حجري

وله في الصالح من قصيدة:

ولو لم يكن أدري بها جهل الورى
من الفضل لم تنفق لديه الفضائل

لئن كان منا قاب قوس فبيننا
فراسخ من إجلاله ومراحل

قال: وأنشدت الصالح، وهو بالقبو من دار الوزارة قصيدة منها:

دعوا كل برق شمتم غير بارق
يلوح على الفسطاط صادق بشره

وزوروا المقام الصالحي فكل من
على الأرض ينسى ذكره عند ذكره

ولا تجعلوا مقصودكم طلب الغنى
فتجنوا على مجد المقام وفخره

ولكن سلوا منه العلى تظفروا بها
فكل امرء يرجى على قدر قدره

قال: ولما جلس شاور في دار الذهب، قام الشعراء والخطباء، ولفيف الناس إلاّ الأقل ينالون من بني رزيك، وضرغام نائب الباب، ويحيى بن

الخياط الاسفهسلار فأنشدته:

صحت بدولتك الأيام من سقم
وزال ما يشتكيه الدهر من ألم

ومنها:

زالت ليالي بني رزيك وانصرمت
والحمد والذم فيها غير منصرم

كأن صالحهم يوما وعادلهم
في صدر ذا الدست لم يقعد ولم يقم

كنا نظن وبعض الظن مأثمة
بأن ذلك جمع غير منهزم

فمذ وقعت وقوع النسر خانهم
من كان مجتمعا في ذلك الرخم

ولم يكونوا عدوّا ذل جانبه
وإنما غرقوا في سيلك العرم

وما قصدت بتعظيمي عداك سوى
تعظيم شأنك فاعذرني ولا تلم

ولو شكوت لياليهم محافظة
لعهدها لم يكن بالعهد من قدم

ولو فتحت فمي يوما بذمهم
لم يرض فضلك إلاّ أن يسدّ فمي

والله يأمر بالاحسان عارفة
منه وينهى عن الفحشاء في الكلم

قال: فشكرني شاور وأبناؤه على الوفاء لبني رزيك.

قلت: وشعر عمارة كثير حسن، وعندي في قوله: « الحمد للعيس » وإن كانت القصيدة فائقة، ثغرة عظيمة، فإنه أقام ذلك مقام قولنا: « الحمد

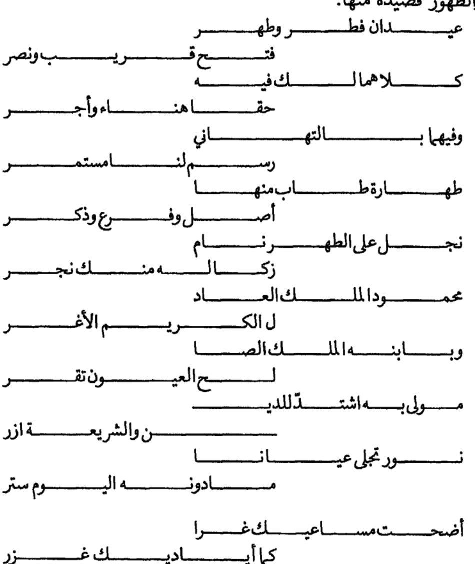
لله » ولا ينبغـي أن يفعل ذلـك مـع غير الله عز وجـل، فلـه الحمد، ولـه الشكر، فهـذا اللفظ كالمتعين لجهـة الربوبيـة المقدّسة، وعلى ذلـك اطراد استعمال السلف والخلف رضي الله عنهم.

- ٨١٣٠ -

فصل

في وفاة نور الدين رحمه الله تعالى

قال العماد: وأمر نور الدين بتطهير ولده الملك الصالح اسماعيل يوم عيد الفطر واحتفلنا لهذا الأمر، وغدونا أياما، قال: ونظمت للهناء بالعيد والطهور قصيدة منها:



عيدان فطر وطهر ... فتح قريب ونصر

كلاهما الملك فيه ... حقا هناء وأجر

وفيهما بالتهاني ... رسم لنا مستمر

طهارة طاب منها ... أصل وفرع وذكر

نجل على الطهر نام ... زكا له منك نجر

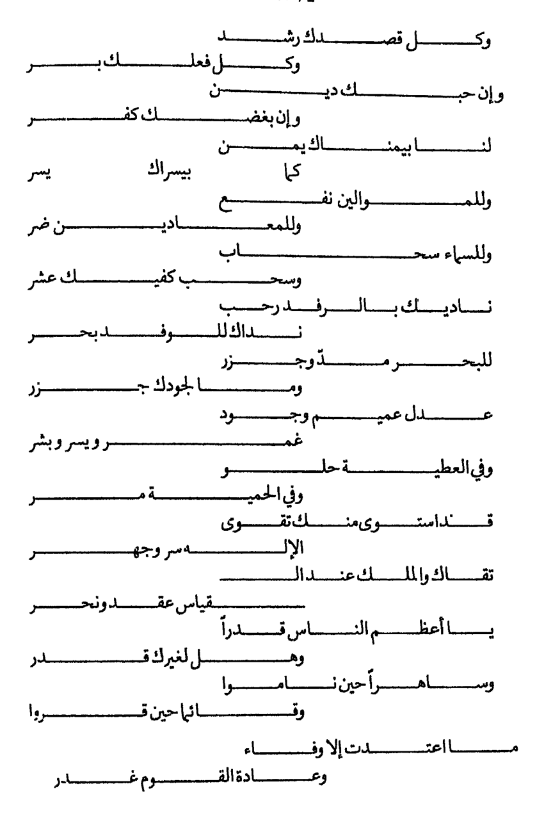
محمودا الملك العا ... دل الكريم الأغر

وبابنه الملك الصا ... لح العيون تقر

مولى به اشتدّ للدي ... ن والشريعة ازر

نور تجلى عيانا ... ما دونه اليوم ستر

أضحت مساعيك غرا ... كما أياديك غزر



وكـــــل قصـــــدك رشـــــد
وكـــــل فعلـــــك بـــــر

وإن حبـــــك ديـــــن
وإن بغضـــــك كفـــــر

لنـــــا بيمنـــــاك يمـــــن
كما بيسراك يسر

وللمـــــوالين نفـــــع
وللمعـــــادين ضر

وللسماء سحـــــاب
وسحـــــب كفيـــــك عشر

نـــــاديـــــك بـــــالـــــرفـــــد رحـــــب
نـــــداك للـــــوفـــــد بحـــــر

للبحـــــر مـــــدّ وجـــــزر
ومـــــا لجودك جـــــزر

عـــــدل عميـــــم وجـــــود
غمـــــر ويسر وبشر

وفي العطيـــــة حلـــــو
وفي الحميـــــة مـــــر

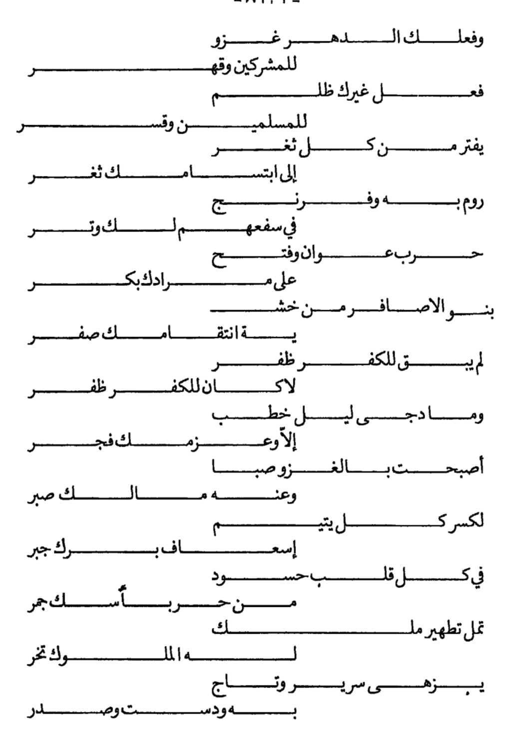
قـــــد استـــــوى منـــــك تقـــــوى
الإلـــــه سر وجهـــــر

تقـــــاك والملـــــك عنـــــد الـــــ
ـــــقياس عقـــــد ونحـــــر

يـــــا أعظـــــم النـــــاس قـــــدراً
وهـــــل لغيرك قـــــدر

وســـــاهـــــراً حين نـــــامـــــوا
وقـــــائما حين قـــــروا

مـــــا اعتـــــدت إلا وفـــــاء
وعـــــادة القـــــوم غـــــدر



وفعلك الدهر غزو
للمشركين وقهر

فعل غيرك ظلم
للمسلمين وقسر

يفتر من كل ثغر
إلى ابتسامك ثغر

روم به وفرنج
في سفعهم لك وتر

حرب عوان وفتح
على مرادك بكر

بنو الاصافر من خشـ
ـية انتقامك صفر

لم يبق للكفر ظفر
لا كان للكفر ظفر

وما دجى ليل خطب
إلاّ وعزمك فجر

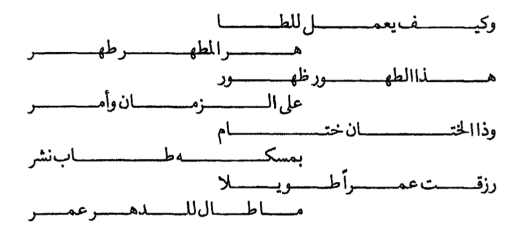
أصبحت بالغزو صبا
وعنه مالك صبر

لكسر كل يتيم
إسعاف برك جبر

في كل قلب حسود
من حر بأسك جمر

تمل تطهير ملك
له الملوك تخر

يزهى سرير وتاج
به ودست وصدر



وكيف يعمل للطهر المطهر طهر
هذا الطهور ظهور على الزمان وأمر
وذا الختان ختام بمسكه طاب نشر
رزقت عمراً طويلا ما طال للدهر عمر

قال: وفي يوم العيد يوم الأحد ركب نور الدين على الرسم المعتاد، محفوفاً من الله بالإسعاد، مكنوفاً من السماء والأرض بالأجناد، والقدر يقول له: هذا آخر الاعياد، ووقف في الميدان الأخضر الشمالي لطعن الحلق، ورمي القبق، وكان مسجد صلاته في الميدان القبلي الأخضر، وأمر بوضع المنبر، وخطب له القاضي شمس الدين ابن الفراش قاضي العسكر بعد أن صلى به وذكر، وعاد إلى القلعة طالع البهجة بهيج الطلعة، وأنهب العطايا والإنعام على رسم الأتراك وأكابر الاملاك، ثم حضرنا على خوانه الخاص، وله عقد كمال مصون من الانتقاض والانتقاص، وما أوضح بشره، وأضوع نشره، وأضحك سنه، وأبرك يمنه، وفي يوم الاثنين ثاني العيد بكر وركب، وجمل الموكب، وكان الفلك بنيره جار، والطود الثابت بمرور السحاب في وقار، وكأنه القمر في هالته، والقدر في جلالته، والبدر في دائرته سائرين بين سيارته، ودخل الميدان والعظماء يسايرونه، والفقهاء يحاورونه، وفيهم همام الدين مودود وهو في الأكابر معدود، وكان قديما في أوّل دولته والي حلب، وقد جرّب الدهر بحنكته ولأشطره حلب، فقال لنور الدين في كلامه عظة لمن يغترّ بأيامه: هل نكون هاهنا في مثل هذا اليوم في العام القابل؟ فقال نور الدين: قل: هل نكون بعد شهر فانّ السنة بعيده فجرى على منطقهما ما جرى به القضاء السابق، فإنّ نور الدين لم يصل إلى الشهر والهمام لم يصل إلى

العام، ثم شرع نور الدين في اللعب بالكرة مع خواصه البره، فاعترضه في حاله أمير آخر اسمه يرنقش، وقال له: باش فأحدث له الغيظ والاستيحاش، واغتاظ على خلاف مذهبه الكريم، وخلقه الحليم، فزجره وزبره، ونهاه ونهره، وساق ودخل القلعة ونزل واحتجب واعتزل فبقي اسبوعا في منزله مشغولا بنازله، مغلوبا عن عاجله، بحديث أجله، والناس من الختان لاهون بأوطارهم في الاوطان، فهذا يروح بجوده، وذلك يجود بروحه، فما انتهت تلك الافراح إلاّ بالأتراح، وما صلح الملك بعده إلا بملك الصلاح.

قال: واتصل مرض نور الدين، وأشار عليه الأطباء بالفصد فامتنع، وكان مهيبا فما روجع وانتقل حادي عشر شوال يوم الأربعاء من مربع الفناء إلى مرتع البقاء، ولقد كان من أولياء الله المؤمنين، وعباده الصالحين، وصار إلى جنات عدن أعدت للمتقين وكانت له صفة في الدار التي على النهر الداخل إلى القلعة من الشمال، وكان جلوسه عليها في جميع الأحوال، فلما جاءت سنة الزلزلة بنى بازاء تلك الصفة بيتاً من الأخشاب مأمون الاضطراب، فهو يبيت فيه، ويصبح ويخلو بعبادته ولا يبرح، فدفن في ذلك البيت الذي اتخذه حمى من الحمام، وأذن بناؤه لبانيه بالإهدام، قال العماد وقلت في ذلك:

عجبت من الموت كيف أتى
إلى ملك في سجايا ملك

كيف ثوى الفلك المستدير
في الأرض والأرض وسط الفلك

وله فيه رحمها الله تعالى

يا ملكا أيامه لم تزل
لفضله فاضلة فاخرة

غاضت بحار الجود مذ غيبت
أنملك الفائضة الزاخره

ملكت دنياك وخلفتها
وسرت حتى تملك الآخره

قال ابن شدّاد: وكانت وفاة نور الدين رحمه الله بسبب خوانيق أعترته عجز الأطباء عن علاجها، ولقد حكى لي صلاح الدين قال: كان يبلغنا عن نور الدين أنه ربما قصدنا بالديار المصرية، وكانت جماعة أصحابنا يشيرون بأن نكاشف ونخالف ونشق عصاه ونلقى عسكره بمصاف يردّه إذا تحقق قصده، وكنت وحدي أخالفهم وأقول: لا يجوز أن يقال شيء من ذلك، ولم يزل النزاع بيننا حتى وصل الخبر بوفاته رحمه الله ورضي عنه.

قال ابن الاثير: وكان نور الدين قد شرع بتجهيز المسير إلى مصر لأخذها من صلاح الدين لأنه رأى منه فتوراً في غزو الفرنج من ناحيته، فأرسل إلى الموصل وديار الجزيرة وديار بكر يطلب العساكر ليتركها بالشام لمنعه من الفرنج ليسير هو بعساكره إلى مصر، وكان المانع لصلاح الدين من الغزو الخوف من نور الدين، فإنه كان يعتقد أن نور الدين متى زال عن طريقه الفرنج أخذ البلاد منه، فكان يحتمي بهم عليه، ولا يؤثر استئصالهم، وكان نور الدين لايرى إلاّ الجدّ في غزوهم بجهده وطاقته، فلما رأى اخلال صلاح الدين بالغزو، وعلم غرضه تجهز بالمسير إليه فأتاه أمر الله الذي لا يرد.

قلت: ولو علم نور الدين ماذا ذخر الله تعالى للاسلام من الفتوح الجليلة على يد صلاح الدين من بعده لقرّت عينه، فإنه بنى على ما أسسه نور الدين من جهاد المشركين، وقام بذلك على أكمل الوجوه واتمها رحمهما الله تعالى.

قال: وحكى لي طبيب بدمشق يعرف بالرحبي وهو من حذاق الأطباء قال: استدعاني نور الدين في مرضه الذي توفي فيه مع غيري من الأطباء، فدخلنا عليه وهو في بيت صغير بقلعة دمشق، وقد تمكنت

الخوانيق منه، وقارب الهلاك فلا يكاد يسمع صوته، وكان يخلو فيه للتعبد في أكثر أوقاته، فابتدأ به المرض فيه فلم ينتقل عنه، فلما دخلنا عليه، ورأينا ما به قلت: كان ينبغي أن لا يؤخر احضارنا إلى أن يشتدّ بك المرض إلى هذا الحدّ فالآن ينبغي أن تنتقل إلى مكان فسيح، فله أثر في هذا المرض، وشرعنا في علاجه فلم ينفع فيه الدواء، وعظم الداء، ومات عن قريب رضي الله عنه.

قال ابن الاثير: وكان أسمر طويل القامة ليس له لحية إلاّ في حنكه، وكان واسع الجبهة ، حسن الصورة، حلو العينين، وكان قد اتسع ملكه جدّاً فملك الموصل وديار الجزيرة، وأطاعه أصحاب ديار بكر، وملك الشام والديار المصرية، واليمن وخطب له بالحرمين الشريفين: مكة والمدينة، وطبق الأرض ذكره لحسن سيرته وعدله، ولم يكن مثله إلا الشاذ النادر رحمة الله تعالى عليه.

قال الحافظ أبو القاسم بعدما ذكر أوصاف نور الدين الجليلة المتقدّمة مفرّقة ومجموعة في هذا الكتاب: هذا مع ما جمع الله له من العقل المتين والرأي الثاقب الرصين، والاقتداء بسيرة السلف الماضين، والتشبه بالعلماء والصالحين، والاقتفاء لسيرة من سلف منهم في حسن سمعتهم، والاتباع لهم في حفظ حالهم ووقتهم، حتى روى حديث المصطفى صلى الله عليه وسلم وأسمعه، وكان قد استجيز له ممن سمعه وجمعه، حرصاً منه على الخير في نشر السنة بالأداء والتحديث،ورجاء أن يكون ممن حفظ على الأمة أربعين حديثا، كما جاء في الحديث، فمن رآه شاهد من خلال السلطنة وهيبة الملك ما يبهره، فإذا فاوضه رأى من لطافته وتواضعه ما يحيره، يحب الصالحين، ويواخيهم، ويزور مساكنهم لحسن ظنه فيهم، وإذا احتلم مماليكه أعتقهم، وزوّج ذكرانهم بأناثهم ورزقهم، ومتى تكرّرت الشكاية إليه من أحد من ولاته، أمره بالكف عن أذى من تظلم بشكاته، فمن لم يرجع منهم إلى العدل، قابله باسقاط المنزلة

والعزل، فلما جمع الله له من شريف الخصال تيسر لـه جميع ما يقصده من الأعمال، وسهـل على يديـه فتح الحصـون والقلاع، ومكـن له في البلـدان والبقاع.

ثم قال بعـد كلام كثير: ومناقبه خطيرة، وممادحه كثيره، ومـدحه جماعة مـن الشعـراء فـأكثـروا، ولم يبلغـوا وصـف آلائه بـل قصروا، وهـو قليـل الابتهاج بـالشعر زيـادة في تواضعه لعلـوّ القدر، ومـولده على مـا ذكر لي كاتبـه أبو اليسر شاكـر بن عبد الله وقت طلـوع الشمس من يـوم الأحد سابع عشر شوّال سنة إحـدى عشرة وخمسمائة، وتوفي يوم الأربعاء الحادي عشر من شوّال سنـة تسع وستين وخمسمائة، ودفن بقلعة دمشـق، ثم نقل إلى تـربة تجاور مـدرسته التـي بنـاها لأصحـاب أبي حنيفة رضي الله عنـه جوار الخواصين في الشارع الغربي رحمه الله.

قلت وفي هذه المدرسة يقول العرقلة:

ومـدرسـة سيـدرس كـل شيء ... وتبقـى في حمى علـم ونسـك
تسـوّع ذكـرهـا شرقـا وغـربـا ... بنـور الـديـن محمـود بـن زنكـي
يقـول وقـولـه حـق وصـدق ... بغير كنـايـة وبغير شـك
دمشـق في المدائن بيـت ملكـي ... وهـذي في المدارس بيـت ملكـي (١٣٤)

ولما اشتهر مـن قلة ابتهاجـه بالمدح لما علم مـن تزايد الشعـراء، وهي طريقة عمر بـن عبد العزيز زاهد الخلفاء قال يحيى بـن محمد الوهراني في مقامـة له وقد سئـل في بغداد عن نور الـدين: «هو سهـم للدولة سـديد وركـن للخلافـة شديـد، وأمير زاهد، وملـك مجاهد، تسـاعده الأفـلاك، وتعضده الجيوش والأمـلاك، غير أنه عرف بالمرعى الوبيـل لابن السبيل،

وبالمحل الجديب للشاعر الاديب فما يرزى ولا يعزى، ولا لشاعر عنده من نعمة تجزى [١٣٥] واياه عنى أسامة بن منقد بقوله:

سلطاننا زاهد والناس قد زهدوا
له فكل على الخيرات منكمش

أيامه مثل شهر الصوم طاهرة
من المعاصي وفيها الجوع والعطش [١٣٦]

قلت: رحمه الله ما كان يبذل أموال المسلمين إلاّ في الجهاد، وما يعود نفعه على العباد، وكان كما قيل في حق عبد الله بن محيريز وهو من سادات التابعين بالشأم قال يعقوب بن سفيان الحافظ: حدّثنا ضمرة عن الشيباني قال: كان ابن الديلمي من أنصر الناس لأخوانه فذكر ابن محيريز في مجلسه، فقال رجل: كان بخيلا، فغضب ابن الديلمي وقال: كان جواداً حيث يحب الله، بخيلاً حيث تحبون [١٣٧]

وأما شعر ابن منقد فلا اعتبار به فهو القائل في ليلة الميلاد يمدح نور الدين رحمه الله:

في كل عام للبرية ليلة
فيها تشب النار بالايقاد

لكن لنور الدين من دون الورى
ناران نار قرى ونار جهاد

أبداً يصرّفها نداه وبأسه
فالعام جمع ليلة الميلاد

ملك له في كل جيد منة
أبهى من الأطواق في الاجياد

أعلى الملوك يداً وأمنعهم حمى
وأمدّهم كفاً ببذل تلاد

يعطي الجزيل من النوال تبرعاً
من غير مسألة ولا ميعاد

لازال في سعـــــــــــد وملـــــــــك دائم
مـــا دامـــت الـــدنيـا بغير نفـــاد (١٣٨)

وقد تقدّم من شعر ابن منير، وابن القيسراني، والعماد الكاتب وغيرهم من مـدح نور الدين بالكرم والجود مـا قليل منه يـرد قول الوهـراني وابن منقـذ، على أن ابن منقـذ قـد رددنا شعـره بشعـره كما تراه وإنما الشعـراء وأكثر النـاس كما قال الله تعالى في وصف قـوم: ﴿ فإن أعطوا منهـا رضوا وإن لم يعطوا منـه إذا هم يسخطـون﴾ (١٣٩) وما كـل وقت ينفـق العطاء، ويفعل الله ما يشاء.

فصل

قال ابن الاثير: لما توفي نـور الدين جلس ابنه الملك الصـالح اسماعيل في الملـك، وحلـف لـه ولم يبلـغ الحلم، وحلـف لـه الأمـراء والمقـدّمـون بدمشـق، وأقام بها وأطـاعه النـاس في سائر بـلاد الشام وصـلاح الديـن بمصر، وخطـب له بها وضرب السكـة بـاسمه فيهـا، وتـولى تربيتـه الأمير شمس الدين محمد بن المقدّم.

قـال العماد: وأخـرجـوا يـوم وفـاة نور الـديـن ولـده الملـك الصـالـح اسماعيـل، وقـد أبـدى الحزن والعـويـل. رهـو مجزوز الـذوائب، مشقـوق الجيب، حـاسر حاف، مما فجأه وفجعـه من الريب، وأجسـوه في الإيوان الشمالي من الدست والتخت الباقي من عهد تاج الدولة تتش، فاستوحى كـل قلب حـزنه واستـوحـش، فوقـف النـاس يضطرمـون، ويضطربـون، ويتلهفون، ويلتهبـون، ولما كفن بحلـة الكرامـه، ودفن في روضـة بابها إلى باب رضوان من دار المقامه، وقضوا الجزع، وقـوّضوا الفزع، وغيبوا الدمعه، واحضروا الربعة، حضر القـاضي كمال الدين، وشمس الديـن بن المقدّم،

وجمال الدولة ريحان، وهو أكبر الخدم، والعدل أبو صالح بن العجمي أمين الأعمال ، والشيخ اسماعيل خازن بيت المال، وتحالفوا على أن تكون أيديهم واحدة، وعزائمهم متعاقده، وأن ابن المقدّم مقدّم العسكر وإليه المرجع والمصدر.

قال : وأنشأت في ذلك اليوم كتابا عن الملك الصالح إلى صلاح الدين في تعزيته بنور الدين ترجمته «اسماعيل بن محمود».

وفيه: « أطال الله بقاء سيدنا الملك الناصر، وعظم أجرنا وأجره في والدنا الملك العادل، ندب الشام، بل الاسلام، حافظ ثغوره، وملاحظ أموره، ومقدام الجهاد، مقتني فضيلته، ومؤدّي فريضته، ومحيي سنته، وأورثنا بالاستحقاق ملكه وسريره على أنه يعز أن يرى الزمان نظيره، وما هاهنا ما يشغل السر ويقسم الفكر إلاّ أمر الفرنج خذلهم الله، وما كان اعتماد مولانا الملك العادل عليه وسكونه إليه إلاّ لمثل هذا الحادث الجلل، والصرف الكارث المذهل، فقد ادّخره لكفايات النوائب، وأعدّه لحسم أدواء المعضلات اللوازب، وأمله ليومه ولغده، ورجاه لنفسه ولولده، ومكنه قوة لعضده، فما فقد رحمه الله إلاّ صورة، والمعنى باق والله تعالى حافظ لبيته واق، وهل غيره دام سموه من مؤازر، وهل سوى السيد الأجل الناصر من ناصر، وقد عرفناه المقترح ليروض برأيه من الأمر ما جمح، والأهم شغل الكفار عن هذه الديار بما كان عازما عليه من قصدهم، والنكاية فيهم على البدار، ويجري على العادة الحسنى في أحياء ذكر الوالد بتجديد ذكرنا راغبا في اغتنام ثنائنا وشكرنا».

قلت: وكان قد بلغ صلاح الدين خبر نور الدين، فأرسل كتابا بالمثال الفاضلي فيه: « ورد خبر من جانب العدوّ اللعين عن المولى نور الدين أعاذنا الله فيه من سماع المكروه، ونور بعافيته القلوب والوجوه، فاشتدّ به الأمر، وضاق به الصدر، وانقصم بحادثه الظهر، وعز فيه التثبت، وأعوز

الصبر، فإن كان والعياذ بالله قد تم، وخصه الحكم الذي عم، فللحوادث تدخر النصال، وللأيام تصطنع الرجال، وما رتب الملوك ممالكها إلاّ لأولادها، ولا استودعت الأرض الكريمة البذر إلاّ لتؤدي حقها يوم حصادها، فالله الله أن تختلف القلوب والأيدي، فتبلغ الأعداء مرادها، وتعدم الآراء رشادها، وتنتقل النعم التي تعبت الأيام فيها إلى أن أعطت قيادها، فكونوا يداً واحدة، واعضاداً متساعدة، وقلوباً يجمعها ود، وسيوفا يضمها غمد، ولا تختلفوا فتنكلوا، ولا تنازعوا فتفشلوا، وقوموا على أمشاط الأرجل، ولا تأخذوا الأمر بأطراف الأنمل، فالعداة محدقة بكم من كل مكان، والكفر مجتمع على الإيمان، ولهذا البيت منا ناصر لا نخذله، وقائم لا نسلمه، وقد كانت وصيته إلينا سبقت، ورسالته عندنا تحققت بأن ولده القائم بالأمر، وسعد الدين كمشتكين الأتابك بين يديه فإن كانت الوصية ظهرت وقبلت، والطاعة في الغيبة والحضور أتيت وفعلت، وإلا فنحن لهذا الولد يد على من ناوأه، وسيف على من عاداه، وإن اسفر الخبر عن معافاه، فهو الغرض المطلوب، والنذر الذي يحل على الأيدي والقلوب».

قال العماد: وورد كتاب صلاح الدين بالمثال الفاضلي معزيا لابن نور الدين وفي آخره: « وأما العدوّ خذله الله فوراءه من الخادم من يطلبه طلب ليل لنهاره، وسيل لقراره إلى أن يزعجه من مجاثمه، ويستوقفه عن مواقف مغانمه، وذلك من أقل فروض البيت الكريم وأيسر لوازمه، أصدر هذه الخدمة يوم الجمعة رابع ذي القعدة، وهو اليوم الذي أقيمت فيه الخطبة بالاسم الكريم، وصرّح فيه بذكره في الموقف العظيم، والجمع الذي لا لغو فيه ولا تأثيم، وأشبه يوم الخادم أمسه في الخدمة، ووفى ما لزمه من حقوق النعمة، وجمع كلمة الإسلام، عالما أن الجماعة رحمه ، والله تعالى يخلد ملك المولى الملك الصالح، ويصلح به وعلى يديه، ويؤكد عهود النعماء الراهنة لديه، ويجعل للاسلام واقية باقية عليه، ويوفق الخادم لما ينويه من توثيق سلطانه وتشييده، ومضاعفة ملكه ومزيده،

وييسر منال كل أمر صالح، وتقريب بعيده إن شاء الله تعالى.

ومن كتاب آخر: « الخادم مستمر على بدأته من الاستشراف لأوامرها، والتعرض لمراسمها، والرفع لكلمتها، والإيالة لعسكرها، والتحقق بخدمتها في بواطن الأحوال وظواهرها، والترقب لأن يؤمر فيمتثل، ويكلف فيحتمل، وأن يرمى به في نحر العدوّ فيتسدّد بجهده، ويوفي أيام الدولة العالية يوما يكشف الله فيه للمولى ضمير عبده».

قال العماد: ولما توفي نور الدين اختل أمري، واعتل سري، وعلت حسادي، وبلغ مرادهم أضدادي، وكان الملك الصالح صغيراً فصار العدل ابن العجمي له وزيراً، وتصرّف المتحالفون في الخزانة والدولة كما أرادوا، وولوا وصرّفوا ونقصوا وزادوا، واقتصروا لي على الكتابة محروم الدعوة من الإجابة، ومما نظمته في مرثية نور الدين قصيدة منها:

لفقـــد الملـــك العـــا
دل يبكـــي الملـــك والعـــدل
وقـــد أظلمـــت الآفـــا
ق لا شمـــس ولا ظـــل
ولما غـــاب نـــور الديـــ
ـــن عنـــا أظلـــم الحفـــل
وزال الخصـــب والخيـــ
ـــر وزاد الشر والمحـــل
ومـــات البـــأس والجو
د وعـــاش اليـــأس والبخـــل
وعـــز النقـــص لما هـــا
ن أهـــل الفضـــل والفضـــل
وهـــل ينفـــق ذو العلـــ
ـــم إذا مـــا انفـــق الجهـــل
ومـــا كـــان لنـــور الديـــ
ـــن لـــولا نجلـــه مثـــل

فصل

قال العماد: واتفق نزول الفرنج بعد وفاة نور الدين على الثغر وقصدهم بانياس، ورجوا أن يتم لهم الأمر ثم ظهرت خيبتهم وبان اليأس، وذلك أن شمس الدين بن المقدّم خرج وراسل الفرنج، وخوّفهم بقصد صلاح الدين لبلادهم، وأنه قد عزم على جهادهم، وتكلموا في الهدنة، وقطع مواد الحرب والفتنه، وحصلوا بقطيعة استعجلوها، وعدّة من أساراهم استطلقوها، وتمت المصالحة، وبلغ ذلك صلاح الدين فأنكره ولم يعجبه، وكتب إلى جماعة الأعيان كتباً دالة على التوبيخ والملام، ومن جملتها كتاب بالمثال الفاضلي إلى الشيخ شرف الدين بن أبي عصرون، يخبره فيه أنه لما أتاه كتاب الملك الصالح بقصد الفرنج تجهز وخرج وسار أربع مراحل، « ثم جاءه الخبر بالهدنة المؤذنة بذل الاسلام من دفع القطيعة وإطلاق الأسارى، وسيدنا الشيخ أولى من أطلق لسانه الذي تغمد له السيوف، وتجرّد، وقام في سبيل الله قيام من يقطع عادية من تعدّى وتمرّد»، وفي آخره: « وكتب من المنزل بفاقوس، والفجر قد هم أن يشق ثوب الصباح، لولا أن الثريا تعرّضت تعرّض أثناء الوشاح، وهذه الليلة سافرة عن نهار يوم الجمعة ثاني عشر ذي الحجة، بلغه الله فيه أمله، وقبل عمله بالغا أسنى المراد وأفضله».

وقال ابن الاثير : ولما توفي نور الدين قال الأمراء منهم شمس الدين ابن المقدّم، وحسام الدين الحسين بن عيسى الجرّاحي وغيرهما من أكابر الأمراء: قد علمتم أن صلاح الدين من مماليك نور الدين ونوّابه، والمصلحة أن نشاوره فيما نفعله، ولا نخرجه من بيننا فيخرج عن طاعة الملك الصالح، ويجعل ذلك حجة علينا، وهو أقوى منا لأن له مثل مصر، وربما أخرجنا وتولى هو خدمة الملك الصالح، فلم يوافق أغراضهم هذا القول، وخافوا أن يدخل صلاح الدين ويخرجوا، قال: فلم يمض

غير قليل حتى وصلت كتب صلاح الدين إلى الملك الصالح يهنيه بالملك ويعزيه بأبيه، وأرسل دنانير مصرية، وعليها اسمه ويعرّفه أن الخطبة والطاعة له كما كانت لوالده، فلما سار سيف الدين غازي ابن عمه قطب الدين، وملك الديار الجزرية، ولم يرسل من مع الملك الصالح من الأمراء إلى صلاح الدين ولا أعلموه الحال، كتب إلى الملك الصالح يعتبه حيث لم يعلمه قصد سيف الدين بلاده ليحضر في خدمته، ويمنعه، وكتب إلى الأمراء يقول:« إن الملك العادل لو علم أن فيكم من يقوم مقامي أو يثق إليه مثل ثقته بي لسلم إليه مصر التي هي أعظم ممالكه وولاياته، ولو لم يعجل عليه الموت لم يعهد إلى أحد بتربية ولده، والقيام بخدمته سواي وأراكم قد تفرّدتم بخدمة مولاي وابن مولاي دوني، فسوف أصل إلى خدمته وأجازي انعام والده بخدمة يظهر أثرها، وأقابل كلا منكم على سوء صنيعه واهمال أمر الملك الصالح ومصالحه، حتى أخذت بلاده».

فأقام الصالح بدمشق، ومعه جماعة من الأمراء لم يمكنوه من المسير إلى حلب لئلا يغلبهم عليه شمس الدين علي بن الداية، فإنه كان أكبر الأمراء النورية، وإنما تأخر عن خدمة الملك الصالح بعد وفاة نور الدين لمرض لحقه، وكان هو وأخوته بحلب وأمرها إليهم وعسكرها معهم في حياة نور الدين وبعده، ولما عجز عن الحركة أرسل إلى الملك الصالح يدعوه إلى حلب ليمنع البلاد من سيف الدين ابن عمه، وأرسل إلى الأمراء يقول لهم:« إن سيف الدين قد ملك إلى الفرات، ولئن لم ترسلوا الملك الصالح إلى حلب حتى يجمع العساكر ويسترد ما أخذ منه وإلا عبر سيف الدين الفرات إلى حلب، ولا نقوى على منعه». فلم يرسلوه ولا مكنوه من قصد حلب.

قال: وكان نور الدين من قبل أن يمرض، قد أرسل إلى البلاد الشرقية

كالموصل وغيرها استدعى العساكر منها فسار سيف الدين، فلما كان ببعض الطريق أتاه الخبر بموت عمه نور الدين، فعاد إلى نصيبين فملكها، وأرسل الشحن إلى الخابور، فاستولوا عليها، وسار هو إلى حران فحصرها عدّة أيام، ثم أخذها وملك الرها والرقة وسروج، واستكمل ملك سائر ديار الجزيرة سوى قلعة جعبر، فقال له فخر الدين عبد المسيح — وكان قد فارق سيواس بعد وفاة نور الدين، وقصد سيف الدين ظناً منه أن سيف الدين يرعى له خدمته وقيامه في أخذ الملك له من والده قطب الدين على ما ذكرناه أوّلاً — فلم يجن ثمرة ما غرس، وكان عنده كبعض الأمراء: ليس بالشام من يمنعك، فاعبر الفرات وأملك البلاد، فأشار أمير آخر معه، وهو أكبر أمرائه: قد ملكت أكثر من والدك والمصلحة أن تعود، فرجع إلى الموصل.

فصل

فال ابن الاثير: قد سبق أن نور الدين كان قد جعل بقلعة الموصل لما ملكها دزداراً له وهو سعد الدين كمشتكين بعض خدمه الخصيان، فلما سار سيف الدين إلى الشام كان في مقدّمته على مرحلة، فلما أتاه خبر وفاة نور الدين هرب وأرسل سيف الدين في أثره فلم يدرك، فنهب بركه ودوابه، وسار إلى حلب وتمسك بخدمة شمس الدين بن الداية وأخوته، واستقر بينهم وبينه أن يسير إلى دمشق ويحضر الملك الصالح، فسار إلى دمشق فأخرج إليه ابن المقدّم عسكراً لينهبه، فعاد منهزما إلى حلب فأخلف عليه شمس الدين ابن الداية ما أخذ منه، وجهزه وسيره إلى دمشق، وعلى نفسها تجني براقش، فلما وصلها سعد الدين دخلها واجتمع بالملك الصالح والأمراء، وأعلمهم ما في قصد الملك الصالح إلى حلب من المصالح، فأجابوا إلى تسييره، فسار إليها فلما وصلها

وصعد إلى قلعتها قبض الخادم سعد الدين على شمس الدين بن الداية وأخوته، وعلى ابن الخشاب رئيس حلب.

قال ابن الاثير: ولو لا مرض شمس الدين لم يتمكن منه ولا جرى من ذلك الخلف والوهن شيء، وكان أمر الله قدراً مقدوراً فاستبد سعد الدين بتدبير أمر الملك الصالح، فخافه ابن المقدّم وغيره من الأمراء الذين بدمشق، وكاتبوا سيف الدين ليسلموا إليه دمشق، فلم يفعل، وخاف أن تكون مكيدة عليه ليعبر الفرات ويسير إلى دمشق، فيمنع عنها ويقصده ابن عمه من وراء ظهره فلا يمكنه الثبات، فراسل الملك الصالح وصالحه على اقرار ما أخذ من يده، وبقي الملك الصالح بحلب، وسعد الدين بين يديه يدبر أمره، وتمكن منه تمكناً عظيماً يقارب الحجر عليه.

قال العماد: كان كمشتكين الخادم النائب بالموصل قد سمع بمرض نور الدين فأخفاه واستأذن في الوصول إلى الشام، فطلب سيف الدين غازي رضاه، وخرج وسار مرحلتين، وسمع النعي، فأغذّ السير والسعي، ونجا بماله وبحاله، وندم صاحب الموصل على الرضى بترحاله، وكانت عنده بوفاة عمه بشاره، وظهرت على صفحاته منها أماره، فإنه لم يزل من كمشتكين متشكياً، فإنه كان لجمر الأمر عليه مذكيا، وكان المرحوم قد أمر بإراقة الخمور، وإزالة المحظور، واسقاط المكوس، واعدام اقساط البوس، فنودي في الموصل يوم ورود الخبر بالفسحة في الشرب جهاراً ليلاً ونهاراً، وزال العرف وعاد النكر، وأنشد قول ابن هاني: «ولا تسقني سراً فقد أمكن الجهر».

وقيل أخذ المنادي على يده دنا وعليه قدح وزمر، وزعم أنه خرج بهذا أمر فلا حرج على من يغني ويشرب، وعادت الضرائب، وضربت العوائد، فأما كمشتكين فإنه وصل إلى حلب بعد أن جرى ما جرى،

وتمثل:« عنده الصباح يحمد القـوم السرى»، واجتمع هناك بالأمير شمس الـدين عليّ بـن الـداية وأخـوتـه أخـوه مجد الديـن، وأظهـر أنه لهم مـن المخلصين وكان مجد الـدين أبـو بكر أخو رضـاع نور الديـن، وقد تـربى معه ولزمه وتبعه إلى أن ملك الشام بعـد والده ففوّض إلى مجد الدين جميع مقاصـده من طريفـه وتالده، وحكمـه في الملك، ونظمه في السلـك، فلا يحل ولا يعقد إلاّ بـرأيه، وكـانت حصـونه محصنـة، وهو يسكـن عنده في قلعة حلـب، والحاضر عنده صبـاحا ومساء إذا طلـب، وشيزر مـع أخيه شمس الدين علي، وقلعة جعبر وتل باشر مـع سابق الدين عثمان، وحارم مع بدر الديـن حسن، وعين تاب وعزاز وغيرهما نوّابه فيهـا، وهو يصونها ويحميها، ولما تـوفي جرت أخـوته في القـرب والانبساط على عـادته، وهـم أعيان الـدولة وأعضـادها، وأبدال أرضهـا وأوتادهـا، وأمجادها وأجـوادها، فلما توفي نور الدين لم يشكوا في أنهم يكفلون ولـده ويربونه ويحبهم لأجل سابقتهم ويحبونه، فأقام شمس الدين علي وهو أكبرهم وأوجههم، ودخل

قـلعـة حلـب وبها واليـاشـاذبخـت، وسكنهـا وأسر مصلحـة الـدولـة وأعلنهـا، وعرف مـا جـرى بـدمشق مـن الاجتماع واتفـاق ذوي الأطماع، فكاتبهـم وأمرهـم بـالوصول إليـه في خدمة الملـك الصالح، وانفـذ أخاه سابق الدين عثمان وكان قليل الخبرة بعيـداً من الدهاء، فاستقر الأمر على أن يحملوا الملـك الصالـح إليه، ويقـدموا بـه عليه، وهـو يتسلم ممـالكه، ويكون أتابكه، ووصل كمشتكين إلى دمشـق في تلك الأيام، فوافقهم على ما دبروه مـن المرام، وسار الصالح ومعه كمشتكين والعـدل ابن العجمي واسماعيل الخازن، فبغتـوا أخوة مجد الدين الثـلاثة فقبضوهم واعتقلـوهم، وجاء ابن الخشـاب أبو الفضل مقدّم الشيعة فسفكوا دمـه، وأقام شمس الديـن ابن المقـدّم بدمشـق على عساكـرها مقـدّماً، وفي مصـالحها محكماً، وجمال الديـن ريحان والي القلعة والشحـن من قبلـه والأمر إليـه بتفصباه وجمله، والقاضي كمال الـدين الشهرزوري الحاكم النافـذ حكمه، الصائب سهمه، الثاقب نجمـه، وكان مسير الملك الصالح من دمشـق في الثالث

والعشرين من ذي الحجة، وغاظ صلاح الدين ما فعل بأخوة مجد الدين.

وقال ابن أبي طي الحلبي: لما مات نور الدين اجتمع أمراء دولته، واتفقوا على أن يكونوا في خدمة الملك الصالح بن نور الدين، وكان يومئذ صبياً، وأجمعوا على منابذة الملك الناصر، وقبض أصحابه الذي بالشام، ومصالحة الفرنج على يد ابن المقدّم شمس الدين مقدّم العساكر، وتم ذلك واستقر، وركب الملك الصالح بدمشق وخطب له، وكانت الفرنج قد تحركت إلى قصد دمشق، فخرج ابن المقدّم ونزل على بانياس في عساكر نور الدين، وراسل الفرنج في الهدنة فأجابوه بعد أن قطعوا قطيعة على المسلمين، فعجل حملها، وتم أمر الصلح، وعادت الفرنج إلى بلادها، وابن المقدّم إلى دمشق، واتصل خبر هذه الهدنة بالملك الناصر، وكان قد خرج من مصر أربع مراحل، فأعظم أمرها وأكبره، واستصغر أمر أهل الشام، وعلم ضعفهم، فراسل ابن المقدّم وغيره من الأمراء بانكار ذلك والتوبيخ عليه، وقال في كتابه إلى ابن أبي عصرون: « ورد الخبر بصلح بين الفرنج والدمشقيين، وبقية بلاد المسلمين ما دخلت في العقد ولا انتظمت في سلك هذا القصد، والعدوّ لهما واحد، وصرف مال الله الذي أعدّ لمغنم الطاعة ومصلحة الجماعه في هذه المعصية المغضبة لله ولرسوله ولصالحي الأمه، وكان مذخوراً لكشف الغمه، فصار عونا، وإن أسارى من طبرية وفرسانها كانت وطأتهم شديده وشوكتهم حديده، دفعوا في القطيعه، وجعلوا إلى السلم السبب والذريعه، فلما بلغنا هذا الخبر وقفنا به بين الورد والصدر، وإن أتممنا ظن بنا غير ما نريد، وإن قعدنا فالعدوّ من بقية الثغور التي لم تدخل في الهدنة غير بعيد، وإن فرقنا العساكر لدينا فاجتماعها بعد افتراقها شديد، فرأينا أن سيرنا إلى حضرة الأمير شمس الدين أبي الحسن علي وأخوته من يعرفهم قدر خطر هذا الارتباك، وأنه أمر ربما عجز فيه عن الاستدراك، وإن العدوّ طالب لا يغفل، وجاد لا ينكل، وليث لا يضيع الفرصه، مجدّ لايميل إلى الرخصه، فإن كانت الجماعة ساخطين فتظهر امارات السخط والتغيير ولا تمسك

في الأول فتعجز عن الأخير، لاسيما ونحن نغار لله ونغير، ونقصد للمسلمين ما نجمع به صلاح الرأي وصواب التدبير، وقد منعنا عساكرنا أن تفترق خوفاً أن يقصد العدوّ ناحية حارم بالمال الذي قويت به قوته، وثرت به ثروته، وانبسطت به خطوته فإنه ما دام يعلم أنا مجتمعون، وعلى طلبه مجمعون لايمكنه أن يزايل مراكزه، ولا يبادر مناهزه».

قال: وكان متولي قلعة حلب شاذبخت الخادم النوري، وكان شمس الدين علي أخو مجد الدين بن الداية إليه أمور الجيش والديوان، وإلى أخيه بدر الدين حسن الشحنكية، وكان بيده ويد أخوته جميع المعاقل التي حول حلب، فلما بلغ عليا موت نور الدين صعد إلى القلعة، وكان مقعداً ، واضطرب البلد، ثم سكنه ابن الخشاب فامتنع من الصعود إليهم، وتردّدت بينهم الرسالة وتحزب الناس بحلب أهل السنة مع بني الداية، والشيعة مع ابن الخشاب، وجرت أسباب اقتضت أن أنزل حسن بن الداية جماعة من القلعيين وأهل الحاضر، وزحفوا إلى دار ابن

الخشاب فملكوها ونهبوها واختفى ابن الخشاب، واتصلت هذه الأخبار بمن في دمشق فأخذوا الملك الصالح وساروا إلى حلب في الثالث والعشرين من ذي الحجة، وسار مع الملك الصالح سعد الدين كمشتكين وجرديك وإسماعيل الخازن، وسابق الدين عثمان بن الداية، وقد وكلت الجماعة به، وهو لا يعلم، وساروا إلى حلب، وخرج الناس إلى لقائهم وكان حسن قد رتب في تلك الليلة جماعة من الحلبيين ليصبح ويصلبهم، فلما خرج إلى لقاء الملك الصالح ووقعت عينه عليه ترجل ليخدم هو وجماعة من أصحابه، فتقدّم جرديك وأخذ بيده وشتمه وجذبه فأركبه خلفه رديفا، وقبض سابق الدين أخوه في الحال، وتخطفت أصحابهم جميعهم، واحتيط عليهم وساروا مجدين حتى سبقوا الخبر إلى القلعة، وصعدوا إليها وقبضوا على شمس الدين على بن الداية من فراشه وحمل إلى بين يدي الملك الصالح، فاستقبله أحد مماليك نور

الدين المعـروف بالجفينة فركله بـرجله ركلة دحابها على وجهـه، فانشقت جبهتـه، ثم صفـدوا جميعـا وحبسوا في جـب القلعـة، وقبضوا على جميـع الأجناد الذين حلفوا لأولاد الداية، وأخرجوا جميعاً من القلعة.

قلـت: وفي آخر هـذه السنـة تـوفي مرّي الفـرنجـي الملـك الذي كـان حاصر القـاهرة، وأشرف على أخذ الـديار المصرية، وفي كتـاب فاضلي: « ورد كتاب من الداروم يـذكر أنه لما كان عشية الخميس تـاسع ذي الحجة هلـك مري ملـك الفـرنـج لعنه الله، ونقلـه إلى عـذاب كـاسمه مشتقـاً، وأقدمه على نار (تلظى لايصلاها إلا الأشقى) [١٤٠]

ثم دخلت سنة سبعين وخمسمائة

قال ابـن أبي طي: ففي أوّلها ضمن القطـب ابن العجمي أبو صـالح، وابن أمين الدولـة لجرديك إن قتل ابن الخشاب، ردّوا عليـه جميع ما نهب له في دار ابن أمين الدولة، فدخل على الملك الصالح، وتحدّث معه وأخذ خاتمه أمانـا لابن الخشاب، ونودي عليه فحضر وركـب إلى القلعة، فقتل وعلق رأسه على أحد أبراج القلعة .

وبقـي الملـك الصـالـح في قلعة حلـب، ومضـى العماد الكـاتـب إلى الموصل، قال:« وعـزمت على خدمة سيف الـدين صاحبها وقـد أخذ من بلاد الجزيرة إلى حدّ الفرات، ومضى إليه ابـن العجمي للاصلاح فأصلح بين ابني العم، وعلـق رهن أخوة مجد الدين في الاعتقـال، وضيقوا عليهم في القيـود والأغلال، وألـزموهـم بتسليم الحصـون، وتقديـم الرهـون إلى أن غصبوا دورهم، وخربوا معمورهـم».

قال: وكـان الموفق خـالد بن القيسراني قـد وصل ونحـن بدمشـق من مصر، فلزم داره، ولم يدخـل مع القوم، فأمـا صلاح الدين فـإنه اعتقد أن ولد نـور الديـن يتولاه بعده أخـوة مجد الدين، فلما جـرى ما جـرى ساءه ذلك وقـال: أنا أحق بـرعي العهود، والسعـي المحمود فإنـه إن استمرت ولاية هؤلاء تفرقت الكلمة المجتمعه، وضـاقت المناهج المتسعه، وانفردت مصر عـن الشـام، وطمع أهـل الكفـر في بـلاد الاسلام، وكتـب إلى ابـن المقدّم ينكر ما أقدموا عليه مـن تفريق الكلمة، وكيف اجترؤا على أعضاد الدولـة وأركانها، بـل أهلها وأخـوانها، وإنه يلـزمه أمـرهم وأمـرها ويضره ضرهم وضرها، فكتب ابن المقدّم إليه يردعـه عن هذه العزيمه، ويقبح له استحسان هذه الشيمة ويقول له:«لايقال عنك إنك طمعت في بيت من غـرسك، وربـاك وأسسـك، وأصفـى مشربك، وأضفـى ملبسـك، وأجلى سكـونـك لملك مصر، وفي دستـه أجلسـك، فما يليـق بحالـك، ومحاسـن

أخلاقـك وخلالـك غير فضلك وأفضالـك». فكتب إليـه صلاح الـدين بالانشاء الفاضلي « إنـا لانؤثر للاسلام وأهله إلا مـا جمع شملهم، وألف كلمتهم، وللبيت الأتابكي أعلاه الله إلا مـا حفظ أصله وفرعه، ودفع ضره وجلب نفعه، فالـوفاء إنما يكون بعد الوفاء، والمحبة إنما تظهـر آثارها عند تكاثر أطماع العـداة، وبالجملة أنا في واد والظانون بنـا ظن السوء في واد، ولنا من الصلاح مراد، ولمن يبعدنـا عنه مراد، ولا يقال لمن طلب الصلاح إنك قادح، ولمن ألقي السلاح إنك جارح».

فصل

قال العماد: ثم عـزم السلطان على أن يسارع إلى تلافي الأمـر فاعترضه أمران: أحـدهما وصول اسطـول صقلية إلى الاسكنـدرية وادراكـه، والثاني نوبة الكنز ونفاقه وهلاكه، أمـا وصول الاسطول فكان يوم الأحد السادس والعشريـن من ذي الحجـة سنة تسـع وستين، وانهزم في أول المحرم سنـة سبعين، ثم ذكـر كتاباً وصـل من صلاح الديـن إلى بعض الأمراء بـالشام يشرح الحال، وحـاصلـه أن أوّل الأسطـول وصـل وقـت الظهـر، ولم يـزل متـواصـلاً متكـامـلاً إلى وقت العصر، وكـان ذلـك على حين غفلـة مـن المتوكلين بـالنظر لا على حين خفـاء من الخبر، فأمـر ذلك الأسطـول كان قد اشتهر، وروع به ابن عبد المؤمـن في البلاد المغربيه، وهدّد به في الجزائر الروميـه صاحـب قسطنطينيه، فشـوهد في الثغـر من وفـور عدّتـه، وكثرة عدّتـه، وعظيم الهمـة به، وفرط الاستكثـار منه، ما مـلأ البحر، واشتـدّ به الأمر، فحمى أهل الثغر عليهم البر، ثـم أشير عليهم أن يقربوا من السور فأمكـن الأسطول النـزول فاستنـزلوا خيـولهم من الطـرائد، وراجلهم مـن المراكب، فكانـت الخيل ألفاً وخمسمائة رأس، وكانوا ثلاثين ألـف مقاتل، ما بين فـارس وراجل، وكانـت عدّة الطرائد ستـة وثلاثين طريـدة تحمل

الخيـل، وكان معهـم مـائتـا شيني في كـل شينـى مـائة وخمسون راجـلاً، وكـانت عـدّة السفـن التي تحمـل آلات الحرب والحصـار من الأخشـاب الكبـار وغيرها سـت سفن، وكـانت عـدّة المراكب الحمالـة برسـم الأزواد والرجال أربعين مركبـاً، وفيها من الراجل المتفرق وغلمان الخيـالة، وصناع المراكب وأبراج الـزحف ودباباتـه والمنجنيقية مايتمم خمسين ألـف رجل، ولما تكاملوا نازلين على البر خارجين مـن البحر، حملوا على المسلمين حملة أوصلوهـم إلى السور، وفقد من أهل الثغـر في وقت الحملة ما يناهز سبعة أنفس، واستشهد محمود بـن البصار بسهم جرخ وجذفت مـراكب الفرنج داخلـة إلى الميناء، وكـان به مـراكب مقـاتله، ومـراكب مسـافره، فسبقهـم أصحابنا إليها فخسفوها وغرقوهـا وغلبوهم على أخذها وأحرقوا ما احترق منهـا، واتصل القتـال إلى المسـاء فضربوا خيـامهـم بـالبر، وكان عـدّتهم ثلاثمائة، فلما أصبحـوا زحفوا وضـايقوا وحاصروا ونصبـوا ثلاث دبـابات بكباشها وثـلاثة مجانيق كبار المقـادير، تضرب بحجارة سود استصحبـوها مـن صقلية، وتعجـب أصحابنـا مـن شدّة أثـرهـا وعظم حجـرها، وأمـا الدبابات فـإنها تشبه الأبراج في جفاء أخشابها وارتفاعهـا، وكثرة مقاتلتها واتساعها، وزحفـوا بها إلى أن قاربت السور، ولجوا في القتال عـامة النهار المذكور، وورد الخبر إلى منـزلة العسـاكر بفـاقوس يـوم الثلاثـاء ثالـث يوم نـزول العـدوّ على جنـاح الطـائر، فـاستنهضنـا العسـاكـر إلى الثغـريـن اسكندريـة ودمياط، احترازاً عليها واحتيـاطاً في أمرهـا وخوفاً مـن مخالفة العـدوّ إليها، واستمـرّ القتال وقـدّمت الـدبابـات وضربت المنجنيقـات، وزاحمت السـور إلى أن صارت منـه بمقدار أمـاج البحـر، وأهاج الـدور، فاتفق أصحـابنا على أن يفتحوا أبواباً قبـالتها من السور ويتركـوها معلقة بالقشـور، ثم فتحوا الأبواب وتكـاثر صالـح أهل الثغر من كـل الجهات فأحـرقوا الدبابـات المنصوبة، وصدّقـوا عندها من القتـال، وأنزل الله على المسلمين النصر، وعلى الكفار الخذلان والقهـر، واتصل القتـال إلى العصر من يوم الأربعـاء، وقد ظهر فشل الفرنج ورعبهـم، وقصرت عزائمهم وفتر

حربهم، وأحرقت آلات قتالهم، واستمر القتل والجراح في رجالهم، ودخل المسلمون إلى الثغر لأجل قضاء فريضة الصلاة، وأخذ ما به قوام الحياة، وهم على نية المباكرة، والعدوّ على نية الهرب والمبادرة، ثم كر المسلمون عليهم بغتة، وقد كاد يختلط الظلام فهاجموهم في الخيام، فتسلموها بما فيها وفتكوا في الرجالة أعظم فتك، وتسلموا الخيالة، ولم يسلم منهم إلاّ من نزع لبسه، ورمى في البحر نفسه، وتقحم أصحابنا في البحر على بعض المراكب فخسفوها وأتلفوها فولت بقية المراكب هاربة، وجاءتها أحكام الله الغالبه، وبقي العدوّ بين قتل وغرق، وأسر وفرق، واحتمى ثلاثمائة فارس منهم في رأس تل، فأخذت خيولهم، ثم قتلوا وأسروا، وأخذ من المتاع والآلات والأسلحة ما لا يملك مثله، واقلع هذا الاسطول عن الثغر يوم الخميس.

وذكر ابن شدّاد أن نزول هذا العدوّ كان في شهر صفر، وكانوا ثلاثين ألفاً في ستمائة قطعة ما بين شيني وطراده وبطسة وغير ذلك .

فصل

وأما نوبة الكنز فقال ابن شدّاد: الكنز انسان مقدّم من المصريين كان قد انتزح إلى أسوان فأقام بها ولم يزل يدبر أمره ويجمع السودان عليه، ويخيل لهم أنه يملك البلاد، ويعيد الدولة مصرية، وكان في قلوب القوم من المهاواة للمصريين ما تستصغر هذه الأفعال عنده، فاجتمع عليه خلق كثير، وجمع وافر من السودان، وقصد قوص وأعمالها، فانتهى خبره إلى صلاح الدين، فجرّد له عسكراً عظيماً شاكين في السلاح من الذين ذاقوا حلاوة ملك الديار المصرية، وخافوا على فوت ذلك منهم، وقدّم عليهم أخاه سيف الدين، وسار بهم حتى أتى القوم فلقيهم بمصاف

فكسرهم،وقتل منهم خلقاً عظيماً، واستأصل شافتهم، وأخمد نائرتهم، وذلك في السابع من صفر سنة سبعين، واستقرّت قواعد الملك.

قال العماد: وفي أوّل سنة سبعين مستهلها قام المعروف بالكنز في الصعيد، وجمع من كان في البلاد من السودان والعبيد، وعدا ودعا القريب والبعيد، وكان عنده من الأمراء أخ لحسام الدين أبي الهيجاء السمين، ففتك به وبمن هناك من المنقطعين، فغارت حمية أخيه، وثارت للثأر، وساعده أخو السلطان سيف الدين وعز الدين موسك ابن خاله، وعدّة من أمرائه ورجاله، وجاؤوا إلى مدينة طود، فاحتمت عليهم وامتنعت، فأسرعت البلية إليها وبها وقعت، وأتى السيف على أهلها وباءت بعد عزها بذلها، ثم قصد الكنز وهو في طغيانه وعدوانه، وسوءه وسودانه، فسفك دمه، وظهر بعد ظهور وجوده عدمه، وارتقب دماء سوده، وهجم غابه على أسوده، ولم يبق للدولة بعد كنزها كنز، وطل دمه ولم ينتطح فيه عنز، وارتدع المارقون فما رقوا بعده سلم نفاق، والله لناصري دينه ناصر وواق.

وقال ابن أبي طي: واتفق أيضاً أن خرج بقرية من قرى الصعيد يقال لها طود رجل يعرف بعباس بن شاذي، وثار في بلاد قوص ونهبها وخربها، وأخذ أموال الناس، واتصل ذلك بالملك العادل سيف الدين أبي بكر بن أيوب، وكان السلطان قد استنابه بمصر، فجمع له العساكر وأوقع به وبدّد شمله، وفض جموعه وقتله، ثم قصد بعده كنز الدولة الوالي بأسوان، وكان قصد بلد طود، فقتل أكثر عسكره وهرب فأدركه بعض أصحاب الملك العادل فقتله.

-٨١٥٦-

فصل

في توجه صلاح الدين إلى دمشق، ودخوله إليها في يوم الاثنين اخر شهر ربيع الأول

قال العماد: لما خلا باله مما تقدّم ذكره تجهز لقصد الشام، فخرج إلى البركة مستهل صفر، وأقام حتى اجتمع العسكر، ثم رحل إلى بلبيس ثالث عشر ربيع الأوّل، وكانت رسل شمس الدين صاحب بصرى صديق ابن جاولي، وشمس الدين بن المقدّم عنده تستوري في الحث والبعث زنده، وتستقدمه وجنده، وسار على صدر وائله، ووصل السير بالسرى حتى أناخ على بصرى بصيرا بالعلى نصيرا للهدى، فاستقبله صاحب بصرى وشدّ أزره، وسدّد أمره، واستضاف إلى بصرى صرخد، وتفرد بالسبق إلى الخدمة وتوحد، وسار في الخدمة معه إلى الكسوة، وبكر صلاح الدين يوم الاثنين انسلاخ الشهر، وسار في موكب قوي بالعدد والعدد وحسب أن يمتنع عليه البلد، وأن الاطراف توثق، والأبواب تغلق، فأقبل وهو يسوق وإقباله يشوق، حتى دخل دمشق، وخرقها وكأن الله تعالى له خلقها، ودخل إلى دار العقيقي مسكن أبيه، وبقي جمال الدين ريحان الخادم في القلعة على تأبيه، فراسله حتى استماله، وأغزر له نواله، وتملك المدينة والقلعة، ونزل بالقلعة سيف الاسلام أخو السلطان صلاح الدين، وملك ابن المقدّم داره وكل ما حواليها، وبذل له طلبته التي أشار إليها ونص عليها، وأظهر أنه قد جاء لتربية الملك الصالح، وحفظ ماله من المصالح، وتدبير ملكه، فهو أحق بصيانة حقه، واجتمع به أعيانها، وخلص لولاية اسرارها واعلانها، وأصبح وهو سلطانها، وزاره القاضي كمال الدين ابن الشهرزوري فوفاه حقه من الإحترام وأوفر له حظ التبجيل والاعظام، ونفذت الكتب بالأمثلة الفاضلية إلى مصر بهذا الفتح والنصر.

وفي بعضها: « يـوم وصولنا إلى بصرى وقبلـه وفدت وهاجـرت وتزاحمت وتكاثـرت وتوافـت الأمراء والأجنـاد الأتراك والأكـراد والعربـان، وراجل الأعمال، وأعيان الـرجال، وورد كتـاب من دمشـق بعد كتـاب، وكل مخبر وذاكر، وهو غائب بكتـابه حاضر، يذكر أن البلاد ممكنـة القياد مذعنة إلى المراد، وأما الفرنج خذلهم الله فإنا في هذه السفـرة المباركة نزلنا في بلادهم نزول المتحكم، وأقمنـا بها إقامة الحاضر المتخيم، وعيونهم متناومـة، وجزنا وأنوفهم راغمـة، ووطئنا ورقابهم صغر، ومـررنا وعيشهم مر، والله يـزيدهم ذلاً، ويجعل عداوة الاسلام في صدورهم غلا، وفي أعناقهم غلاً».

وفي كتـاب آخـر: «وكـان رحيلنـا مـن بصرى يـوم الأربعـاء الـرابع والعشرين مـن ربيع الأوّل، وقـد توجـه صاحبهـا بين أيدينـا قائماً بشروط الخدمة ولوازمها، ثـم لقينا الأجل ناصر الدين ابـن المولى أسد الدين رحمة الله عليه، وأدام نعمته، والأمير سعد الدين ابـن أنر في يوم السبت السابع والعشريـن، ونزلنـا يوم الأحـد بجسر الخشـب، والأجناد الـدمشقية إلينـا متـوافيه، والـوجوه على أبـوابنا مترامية، ولم يتـأخر إلاّ مـن أبقى وجهـه، وراقب صـاحبه، ومن اعتقـد بالقعود أنه قـد نظر لنفسه في العـاقبه، ولما كان يـوم الاثنين التاسع والعشريـن من الشهر ركبنـا على خيرة الله تعالى، وعـرض دون الدخـول عدد مـن الرجـال فدعستهـم عساكـرنا المنصـورة وصدمتهم وعـرفتهم كيف يكون اللقاء وعلمتهم، ودخلنـا البلد واستقرت بنا دار والدنا رحمة الله عليـه قريرة عيوننا مستقرا سكون الـرعية وسكوننا، وأذعنا في أرجـاء البلد النـداء بإطابـة النفوس، وإزالـة المكوس، وكـانت الولاية فيهـم قد ساءت وأسرفت، واليـد المتعدّية قد امتـدّت إلى أحوالهم وأجحفـت، فشرعنـا في امتثـال أمـر الشرع برفعهـا، وإعفـاء الأمـة منهـا بوضعها».

قـال ابـن الاثير: لما خـاف مـن بـدمشـق مـن الأمـراء أن يقصـدهـم كمشتكين والملك الصـالح من حلـب فيعاملهم بما عامـل به بني الـداية

راسلوا سيف الدين غازي ليسلموها إليه، فلم يجبهم فحملهم الخوف على أن راسلوا صلاح الدين يوسف بن أيوب بمصر، وكان كبيرهم في ذلك شمس الدين بن المقدّم، ومن أشبه أباه فما ظلم، فلما أتته الرسل لم يتوقف وسار إلى الشام، فلما وصل دمشق سلمها إليه من بها من الأمراء، ودخلها واستقر بها، ولم يقطع خطبة الملك الصالح، وإنما أظهر أني إنما جئت لأخدمه واستردّ له بلاده التي أخذها ابن عمه، وجرت أمور آخرها أنه اصطلح هو وسيف الدين والملك الصالح على ما بيده.

وقال القاضي ابن شدّاد: لما تحقق صلاح الدين وفاة نور الدين، وكون ولده طفلاً لاينهض بأعباء الملك، ولا يستقل بدفع عدوّ الله عن البلاد، تجهز للخروج إلى الشام، إذ هو أصل بلاد الاسلام، فتجهز بجمع كثير من العساكر، وخلف بالديار المصرية من يستقل بحفظها وحراستها، ونظم أمورها وسياستها، وخرج هو سائراً مع جمع من أهله وأقاربه، وهو يكاتب أهل البلاد وأمراءها، واختلفت كلمة أصحاب الملك الصالح، واختلت تدبيراتهم وخاف بعضهم من بعض، وقبض البعض على جماعة منهم، وكان ذلك سبب خوف الباقين ممن فعل ذلك، وسببا لتنفير قلوب الناس عن الصبي، فاقتضى الحال أن كاتب ابن المقدّم صلاح الدين، فوصل إلى البلاد مطالباً بالملك الصالح فيكون هو الذي يتولى أمره ويرب حاله، فدخل دمشق يوم الثلاثاء سلخ ربيع الآخر، وكان أوّل دخوله إلى دار أبيه واجتمع الناس إليه، وفرحوا به، وأنفق في ذلك اليوم في الناس مالا طائلاً، وأظهر الفرح والسرور بالدمشقيين، وأظهروا الفرح به وصعد القلعة، واستقر قدمه في ملكها، فلم يلبث أن سار في طلب حلب، فنازل حمص، وأخذ مدينتها في جمادى الأولى ولم يشتغل بقلعتها، وسار حتى أتى حلب، ونازلها سلخ جمادى المذكور وهي الدفعة الأولى.

وقال ابن أبي طي: بلغ السلطان أن ابن المقدّم نقض عهد الملك الصالح، وهو كان السبب في خروج سيف الدين صاحب الموصل

واستيلائه على البلاد الشرقية ومضايقته للملك الصالح في ممالكه، وقيل إن ابن المقدّم كاتب السلطان ودعاه إلى الخروج، وقيل إنما خرج إلى الشام خوفاً من حركة تنشأ من جانب الفرنج بسبب اختلاف أمراء الشام، وشغل بعضهم ببعض، وبجواب ممض ورد من ابن المقدّم، ولما تيقن ابن المقدّم خروج السلطان إلى جهة دمشق أشفق من ذلك، واستدرك ما بدا منه، وتذلل له، ووعده تسليم دمشق إليه.

قال: ولما حصل على دمشق وقلعتها، واستوطن بقعتها، نشر علم العدل والإحسان، وعفى آثار الظلم والعدوان، وأبطل ما كان الولاة استجدّوه بعد موت نور الدين من القبائح والمنكرات والمون والضرائب المحرّمات.

قلت: وكان قد كتب إليه أسامة بن منقد قصيدة بعد مصاف عسقلان أوّلها:

تهنّ يا أطول الملوك يدا ... في بسط عدل وسطوة وندى

أجراً وذكراً من ذلك الشكر في الدنيا ومن ذلك الجنان غدا

لا تستقل الذي صنعت فقد ... قمت بفرض الجهاد مجتهدا

وجست أرض العدى وأفنيت من ... أبطالهم ما يجاوز العددا

وما رأينا غزا الفرنج من الملوك في عقر دارهم أحدا

فسر إلى الشام فالملائكة الأبرار تلقاك ملتقى حمدا

فهو فقير إليك يأمل أن ... تصلح بالعدل منه ما فسدا

والله يعطيك فيه عاقبة الـ
نصر كما في كتابه وعدا
فما حباك الورى وألهمك الـ
عدل وأعطاك ما ملكت سدى (١٤١)

ومدح وحيش الأسدي صلاح الدين عند أخذه دمشق بقصيدة أوّلها:

قد جاءك النصر والتوفيق فاصطحبا
فكن لأضعاف هذا النصر مرتقبا
لله أنت صلاح الدين من أسد
أدنى فريسته الأيام أن وثبا
رأيت جلق ثغراً لا نظير له
فجئتها عامراً منها الذي خربا
نادتك بالذل لما قلّ ناصرها
وأزمع الخلق من أوطانها هربا
أحييتها مثل ما أحييت مصر فقد
أعدت من عدلها ما كان قد ذهبا
هذا الذي نصر الاسلام فاتضحت
سبيله وأهان الكفر والصلبا
ويوم شاور والايمان قد هزمت
جيوشه كان فيه الجحفل اللجبا
أبت له الضيم نفس مرة ويد
فعالة وفؤاد قط ما وجبا
يستكثر المدح يتلى في مكارمه
زهداً ويستصغر الدنيا إذا وهبا
ويوم دمياط والاسكندرية قد
أصارهم مثلاً في الأرض قد ضربا
والشام لو لم يدارك أهله اندرست
آثاره وعفت آياته حقبا

- ٨١٦١ -

فصل

فيما جرى بعد فتح دمشق من فتح حمص وحماه وحصار حلب

قال ابن أبي طي: لما اتصل بمن في حلب حصول دمشق للملك الناصر، وميل الناس إليه وإنعكافهم عليه، خافوا وأشفقوا وأجمعوا على مراسلته فحملوا قطب الدين ينال بن حسان رسالة أرعدوا فيها وأبرقوا، وقالوا له: هذه السيوف التي ملكتك مصر بأيدينا والرماح التي حويت بها قصور المصريين على أكتافنا، والرجال التي ردّت عنك تلك العساكر هي تردّك، وعما تصدّيت له تصدّك، وأنت فقد تعدّيت طورك، وتجاوزت حدّك، وأنت أحد غلمان نور الدين، وممن يجب عليه حفظه في ولده.

قال: ولما بلغ السلطان ورود ابن حسان عليه رسولاً تلقاه بموكبه وبنفسه، وبالغ في إكرامه والاحسان إليه، ثم أحضره بعد ثالثة لسماع الرسالة منه، فلما فاه ابن حسان بتلك الشقاشق الباطلة، وقعقع بتلك التمويهات العاطلة، لم يعره السلطان رحمه الله طرفا ولا سمعا، ولا ردّ عليه خفضا ولا رفعا، بل ضرب عنه صفحا وتغاضيا، وترك جوابه احسانا وتجافيا، وجرى في ميدان أريحيته واستن في سنن مروّته، وخاطبه بكلام لطيف رقيق وقال له: يا هذا اعلم إنني وصلت إلى الشام لجمع كلمة الاسلام، وتهذيب الأمور وحياطة الجمهور، وسدّ الثغور، وتربية ولد نور الدين وكف عادية المعتدين، فقال له ابن حسان: إنك إنما وردت لأخذ الملك لنفسك، ونحن لا نطاوعك على ذلك ودون ما ترومه خرط القتاد، وفت الأكباد، وإيتام الأولاد، فلم يلتفت السلطان لمقاله، وتزايد في احتماله وأومى إلى رجاله باقامته من بين يديه بعد أن كاد يسطو عليه، ونادى في عساكره بالاستعداد لقصد الشام الأسفل، ورحل متوجهاً إلى حمص، فتسلم البلد وقاتل القلعة، ولم ير تضييع الزمان عليها، فوكل بها

من يحصرها ورحل إلى جهة حماه فلما وصل إلى الرستن، خرج صاحبها عز الدين جرديك، وأمر من فيها من العسكر بطاعة أخيه شمس الدين علي واتباع أمره، وسار جرديك حتى لقي السلطان واجتمع به بالرستن، وأقام عنده يوما وليله، وظهر من نتيجة اجتماعه به أنه سلم إليه حماه وسأله أن يكون السفير بينه وبين من بحلب، فأجابه السلطان إلى مراده، وسار إلى حلب، وبقي أخو جرديك بقلعة حماه.

قال: وسار جرديك إلى حلب وهو ظان أنه قد فعل شيئاً، وحصل عند من بحلب يدا، فاجتمع بالأمراء والملك الصالح وأشار عليهم بمصالحة الملك الناصر، فاتهمه الامراء بالمخامرة، وردّوا مشورته، وأشاروا بقبضه فامتنع الملك الصالح ولج سعد الدين كمشتكين في القبض عليه، فقبض وثقل بالحديد، وأخذ بالعذاب الشديد، وحمل إلى الجب الذي فيه أولاد الداية.

قال: ولما قدّم جرديك وشدّ في وسطه الحبل ودلي إلى الجب، وأحس به أولاد الداية قام إليه منه حسن وشتمه أقبح شتم وسبه ألأم سب، وحلف بالله إن أنزل إليهم ليقتلنه، فامتنعوا من تدليته، فأعلم سعد الدين كمشتكين فحضر إلى الجب وصاح على حسن وشتمه وتوعده، فسكن حسن وأمسك وأنزل جرديك الجب، فكان عند أولاد الداية، واسمعه حسن كل مكروه.

قال: وكتب أبي إلى حلب حين اتصل به قبض أولاد الداية وجرديك، وكانوا تعصبوا عليه حتى نفاه نور الدين من حلب قصيدة منها:

بنو فلانة أعوان الضلالة قد ... قضى بذلهم الأفلاك والقدر

واصبحوا بعد عز الملك في صفد ... وقعر مظلمة يغشى لها البصر

وجرد الدهر في جرديك عزمته
والدهر لا ملجأ منه ولا وزر

قال: ولم يزل السلطان مقيما على الرستن، ثم طال عليه الأمر فسار إلى جباب التركمان فلقيه أحد غلمان جرديك وأخبره بما جرى على جرديك من الاعتقال والقهر، فرحل السلطان من ساعته عائداً إلى حماه وطلب من أخي جرديك تسليم حماه إليه، وأخبره بما جرى على أخيه، ففعل وصعد السلطان إلى قلعة حماه واعتبر أحوالها وولاها مبارز الدين علي بن أبي الفوارس، وذلك مستهل جمادى الآخرة، وسار السلطان إلى حلب، ونزل على أنف جبل جوشن فوق مشهد الدكة ثالث الشهر، وامتدّت عساكره إلى الخناقية وإلى السعدي، وكان من بحلب يظنون أن السلطان لا يقدّم عليهم، فلم يرعهم إلا وعساكره قد نازلت حلب، وخيمه تضرب على جبل جوشن، وأعلامه قد نشرت فخافوا من الحلبيين أن يسلموا البلد كما فعل أهل دمشق، فأرادوا تطييب قلوب العامة فأشير على ابن نور الدين أن يجمعهم في الميدان ويقبل عليهم بنفسه ويخاطبهم بنفسه: أنهم الوزر والملجأ، فأمر أن ينادى باجتماع الناس إلى ميدان باب العراق، فاجتمعوا حتى غص الميدان بالناس، فنزل الصالح من باب الدرجة وصعد من الخندق، ووقف في رأس الميدان من الشمال وقال لهم: يا أهل حلب أنا ربيبكم ونزيلكم واللاجىء إليكم، كبيركم عندي بمنزلة الأب، وشابكم عندي بمنزلة الأخ، وصغيركم عندي يحل محل الولد، قال: وخنقته العبرة وسبقته الدمعه، وعلا نشيجه، فافتتن الناس، وصاحوا صيحة واحدة، ورموا بعمائمهم، وضجوا بالبكاء والعويل وقالوا: نحن عبيدك وعبيد أبيك، نقاتل بين يديك ونبذل أموالنا وأنفسنا لك، وأقبلوا على الدعاء له والترحم على أبيه، وكانوا قد اشترطوا على الملك الصالح أنه يعيد إليهم شرقية الجامع يصلون فيها على قاعدتهم القديمه، وأن يجهر بحي على خير العمل والأذان والتذكير في الاسواق وقدّام الجنائز بأسماء الأئمة الاثني عشر، وأن يصلوا على

أمواتهم خمس تكبيرات، وأن تكـون عقود الأنكحـة إلى الشريف الطـاهر أبي المكارم حمزة بن زهرة الحسيني، وأن تكون العصبيـة مرتفعة، والناموس وازع لمن أراد الفتنة وأشيـاء كثيرة اقترحوها، مما كـان قد أبطله نور الـدين رحمه الله، فأجيبوا إلى ذلك.

قال ابن أبي طـيّ: فأذن المؤذنون في منارة الجامـع وغيره بحي علي خير العمل، وصلى أبي في الشرقيـة مسبلاً، وصلى وجوه الحلبيين خلفـه، وذكروا في الأسـواق وقـدّام الجنـائز بـأسماء الأئمـة، وصلـوا على الأمـوات خمس تكبيرات، وأذن للشريـف في أن تكون عقـود الحلبيين من الإمـامية إليـه، وفعلوا جميع ما وقعت الايمان عليه.

فصل

قـال ابن أبي طـيّ: وكانـت هـذه السنة شـديدة البرد، كثيرة الثلـوج، عظيمة الأمطـار، هائجة الأهـوية، وكان السلطـان قد جعل أولاد الـداية علالة لـه وسبباً يقطع به ألسنـة من ينكر عليه الخروج إلى الشـام، وقصد الملك الصالح، ويقول: أنا إنما أتيـت لاستخلاص أولاد الداية، وإصلاح شأنهم، وأرسل السلطـان إلى حلب رسولا يعرّض بطلب الصلـح، فامتنع كمشتكين، فاشتـدّ حينئذ السلطـان في قتال البلد، وكـانت ليـالي الجماعة عند الملـك الصالـح لاتنقضي إلا بنصب الحبـائل للسلطان، والفكـرة في مخاتلته، وارسال المكروه إليـه، فأجمعوا آراءهم على مراسلة سنـان صاحب الحشيشية في ارصاد المتالف للسلطان، وإرســال من يفتك به، وضمنوا له على ذلـك أموالاً جمة وعـدة من القـرى، فأرسـل سنان جماعـة من فتـاك أصحابـه لاغتيال السلطان، فجاؤوا إلى جبـل جوشن واختلطوا بـالعسكر فعرفهـم صاحب أبـو قبيس، لأنه كان مشـاغراً لهم، فقال لهم: يـا ويلكم

كيف تجاسرتم على الوصول إلى هذا العسكر ومثلي فيه؟ فخافوا غائلته، فوثبوا عليه فقتلوه في موضعه، وجاء قوم للدفع عنه فجرّحوا بعضهم، وقتلوا البعض وبدر من الحشيشية أحدهم وبيده سكينة مشهورة ليقصد السلطان ويهجم عليه، فلما صار إلى باب الخيمة اعترضه طغريل أمير جاندار فقتله ، وطلب الباقون فقتلوا بعد أن قتلوا جماعة.

قال: ولما فات من بحلب الغرض من السلطان بطريق الحشيشية، كاتبوا قمص طرابلس وضمنوا له أشياء كثيرة متى رحل السلطان عن حلب، وكان لعنه الله في أسر نور الدين منذ كسرة حارم، وكان قد بذل في نفسه الأموال العظيمة فلم يقبلها نور الدين، فلما كان قبل موت نور الدين سعى له فخر الدين مسعود بن الزعفراني حتى باعه نور الدين بمبلغ مائة وخمسين ألف دينار، وفكاك ألف أسير، واتفق في أوّل هذه السنة موت ملك الفرنج صاحب القدس وطبرية وغيرهما، فتكفل هذا القمص بأمر ولده المجذوم، فعظم شأنه وزاد خطره، فأرسل إلى السلطان في أمر الحلبيين، وأخبره الرسول أن الفرنج قد تعاضدوا وصاروا يداً واحدة، فقال السلطان لست ممن يرهب بتألب الفرنج، وها أنا سائر إليهم، ثم أنهد قطعة من جيشه وأمرهم بقصد انطاكيه فغنموا غنيمة حسنة وعادوا، فقصد القمص جهة حمص، فرحل السلطان من حلب إليها، فسمع الملعون فنكص راجعاً إلى بلاده وحصل الغرض من رحيل السلطان عن حلب ووصل إلى حمص، فتسلم القلعة ورتب فيها واليا من قبله.

قال: وفي فتح قلعة حمص يقول العماد الكاتب من قصيدة وستأتي:

إياب ابن أيوب نحو الشآ
م على كل ما يرتجيه ظهور

بيوسف مصر وأيامه
تقرّ العيون وتشفى الصدور

رأت منـــــك حمص لها كـــــافيـــــا
فـــواتـــاك منهـــا القـــوي العسير

ومن كتاب فاضلي عـن السلطان إلى زين الدين بن نجـا الواعظ يقول في وصف قلعة حمص:« والشيـخ الفقيه قد شاهـد ما يشهد به مـن كونها نجماً في سحاب، وعقـابا في عقاب، وهـامة لها الغمامة عمامـة، وأنملة إذا خضبها الأصيل كان الهلال منها قلامه، عـاقدة حبوة صالحها الدهر على أن لا يحلها بقـرعه، عـاهدة عصمـة صافحهـا الزمـن على أن لا يروعهـا بخلعـه، فـاكتنفـت بها عقـارب، منجنيقـات لا تطبـع طبـع حمص في العقارب، وضربـت حجارة بها الحجارة، فأظهـرت فيها العداوة المعلـومة بين الأقارب، فلـم يكن غير ثالثـة من الحدّ إلاّ وقـد أثرت فيها جـدر يا يضربها، ولم تصـل السابـع إلا والبحـران منـذر نقبها، واتسـع الخرق على الراقـع، وسقط سعدها عـن الطالع إلى مولـد هو إليها الطالـع، وفتحت الأبـراج فكـانـت أبـوابا (وسيرت الجبال)بها (فكـانت سرابـا) (١٤٢) فهنالك بـدت نقوب يرى قائم مـن دونها ما وراءها، وحشيت فيهـا النار فلولا الشعاع من الشعاع أضاءها».

ومن كتـاب آخر فـاضلي عن السلطان إلى أخيـه العادل: «قـد اجتمع عندنا إلى هذه الغـاية ما يزاحم سبعة آلاف فارس، وتكاثفت الجموع إلى الحدّ الـذي يخرج عن العـد، وبعد أن نـرتب أحـوال حمص حرسهـا الله، نتوجـه إلى حماه، والله المعين على ما ننـويه مـن الرشـاد، وننظفه مـن طرق الجهاد».

وقال العماد: لما سمـع المدبرون للملك الصالـح بإقبال صلاح الـدين المؤذن بإدبـارهم، سقط في أيديهم، وراسلـوا المواصلة، وكاتبوهـم وأرسلوا إلى صلاح الديـن بالاغلاظ والاحفاظ، وكـان الواصل منهم قطـب الدين ينال بـن حسان، وقـال له: هذه السيـوف التي ملكتـك مصر، وأشار إلى

سيفـه، إليهـا تردّك، وعما تصـدّيـت لـه تصـدّك، فحلم عنـه السلطـان، واحتمله وتغافل كـرماً وأغفله، وخاطبه بما أبى أن يقبلـه، وذكر أنه وصل لترتيب الأمـور وتهذيب الجمهـور، وسدّ الثغـور، وتربيـة ولد نـور الديـن، واستنقاذ أخوة مجد الديـن، فقال له: أنت تريد الملـك لنفسك، ونحن لا ننـزع في قوسـك، ولا نأنـس بأنسـك، ولا نرتـاع لجرسك، ولا نبنـي على أسك، فـارجع حيث جئت أو اجهـد واصنع مـا شئت، ولا تطمـع فيما ليـس فيه مطمـع، ولا تطلـع حيـث ما لسعـودك فيـه مطلـع، ونال مـن تقطيب القطب ينال كل ما أحـال الحال، وأبلى البال، وأبدى له التبسم، وأخفى الاهتمال، ثم إنـه استناب أخاه سيف الاسـلام طغتكين بدمشق، وسار بالعسكـر ونزل على حمص فأخذهـا يوم الثلاثاء ثـالث عشر جمادى الأولى، وامتنعت القلعة فأقام عليها مـن يحصرها، ورحل إلى حماه فأخذها مستهل جمادى الآخرة، ثم مضى ونزل على حلـب فحصرها ثالث الشهر، فلما اشتدّ على الحلبيين الحصار، وأعوزهـم الانتصـار، استغاثوا بالاسماعيلية وعينوا لهم ضياعاً، وبذلوا لهم من البـذول أنواعاً، فجاء منهم في يوم بارد شات مـن فتاكهـم كل عـات، فعرفهـم الأمير ناصـح الديـن خمار تكين صـاحب أبـو قبيـس، وكان مشـاغـرا لـلاسماعيلية، فقـال لهم: لأي شيء جئتم، وكيف تجاسرتم على الـوصول وما خشيتم، فقتلوه وجاء مـن يدفع عنه فـأثخنوه، وعدا أحـدهم ليهجم على السلطـان في مقامه، وقـد شهر سكين انتقامه، وطغـريل أمير جاندار واقف ثـابت ساكن سـاكت، حتى وصل إليه فشمل بالسيف رأسه، وما قتـل الباقون حتى قتلوا عدة، ولاقى مـن لاقاهـم شدّة، وعصـم الله حشاشتـه في تلـك النوبـة من سكـاكين الحشيشيـة، فـأقـام إلى مستهـل رجـب، ثـم رحـل إلى حمص بسبـب أن الحلبيين كاتبـوا قمص طـرابلس، وقـد كان في أسر نـور الديـن مذ كسرة حارم، وبقي في الأسرأكثر من عشر سنين، ثم فـدا نفسه بمبلغ مائة ألف وخمسين ألف دينـار، وفكاك ألـف أسير، فتوجـه في الافرنجيـة إلى حمص، فلما سمع بالسلطان رجع ناكصا على عقبيه مخوفاً مما يقع فيه ويتم عليه.

ومن كتاب فاضلي عن السلطان إلى العادل: « قد اعلمنا المجلس أن العدوّ خذله الله كان الحلبيون قد استنجدوا بصلبانهم، واستصالوا على الاسلام بعدوانهم، وأنه خرج إلى بلد حمص، . فوردنا حماه، وأخذنا في ترتيب الأطلاب لطلبه ولقاه، فسار إلى حصن الأكراد متعلقا بجبله، متفحصاً بحيله، وهذا فتح تفتح له أبواب القلوب، وظفر وإن كان قد كفى الله تعالى فيه القتال المحسوب، فإن العدوّ قد سقطت حشمته، وانحطت فيه همته، وولى ظهراً كان صدره يصونه، ونكس صليباً كانت ترفعه شياطينه».

وقال العماد في الخريدة: لما خيم السلطان بظاهر حمص قصده المهذب ابن أسعد بقصيدة أوّلها:

ما نام بعد البين يستحلي الكرى
إلا ليطرقه الخيال إذا سرى

كلف بقربكم فلما عاقه
بعد المدى سلك الطريق الأخصرا

ومودع أمر التفرّق دمعه
ونهته رقبة كاشح فتحيرا

ومنها في المديح:

تردي الكتائب كتبه فإذا غدت
لم يدر أنفذ أسطراً أم عسكرا

لم يحسن الأتراب فوق سطورها
إلا لأن الجيش يعقد عثيرا

فقال القاضي الفاضل لصلاح الدين هذا الذي يقول: « والشعر ما زال عند الترك متروكا» فعجل جائزته لتكذيب قوله، وتصديق ظنه،

فشرفه وجمع له بين الخلعة والصنعة، وعنى الفاضل ما قاله في قصيدة في مدح الصالح بن رزيك التي أولها : « أما كفاك تلافي في تلافيكا».

يقول فيها

يا كعبة الجود إن الفقر أقعدني
ورقة الحال عن مفروض حجيكا

من ارتجي يا كريم الدهر ينعشني
جدواه إن خاب سعيي في رجائيكا

أأمدح الترك أبغي الفضل عندهم
والشعر ما زال عند الترك متروكا

أم أمدح السوقة النوكى لرفدهم
واضيعتا إن تخطتني أياديكا

لا تتركني وما أملت في سفري
سواك اقفل نحو الأهل صعلوكا

قلت: وقد مضى ذكر ابن أسعد هذا في اخبار سنة ثمان وخمسين، وسيأتي من شعره أيضاً في أخبار سنة ست وسبعين وثمان وسبعين، وما أحسن ما خرج ابن الدهان من الغزل إلى مدح ابن رزيك في قوله من قصيدة أوّلها :

إذا لاح برق من جنابك لامع
أضاء لسواش ما تجنّ الاضالع

يقول فيها:

تمادى بنا في جاهلية نحلها
وقد قام بالمعروف في الناس شارع

وتحسب ليل الشح يمتدّ بعدما
بدا طالعا شمس السخاء طلايع (١٤٣)

فصل

ثم أرسل السلطان الخطيب شمس الدين بن الوزير أبي المضا إلى الديوان العزيز برسالة ضمنها القاضي الفاضل كتابا طويلاً رائقا فائقاً يشتمل على تعداد ما للسلطان من الأيادي من جهاد الافرنج في حياة نور الدين ثم فتح مصر واليمن وبلاد جمة من أطراف المغرب، وإقامه الخطبة العباسية بها يقول في أوّله للرسول: «فإذا قضى التسليم حق اللقاء، واستدعى الاخلاص جهد الدعاء، فليعد و ليعد حوادث ما كانت حديثاً يفترى، وجواري أمور إن قال فيها كثيراً فأكثر منه ما قد جرى، وليشرح صدراً، منها لعله يشرح منا صدرا، وليوضح الأحوال المستسرة فإن الله لا يعبد سرا.

ومن الغرائب أن تسير غرائب
في الأرض لم يعلم بها المأمول
كالعيس أقتل ما يكون لها الصدى
والماء فوق ظهورها محمول

فإنا كنا نقتبس النار بأكفنا، وغيرنا يستنير، ونستنبط الماء بأيدينا، وسوانا يستمير، ونلقى السهام بنحورنا، وغيرنا يعتمد التصوير، ونصافح الصفاح بصدورنا، وغيرنا يدّعي التصدير، ولابد أن نستردّ بضاعتنا بموقف العدل الذي تردّ به الغصوب، وتظهر طاعتنا فنأخذ بحظ الألسن كما أخذنا بحظ القلوب، وما كان العائق إلاّ أنا كنا ننتظر ابتداء من الجانب الشريف بالنعمه يضاهي ابتداءنا بالخدمه، وانجابا للحق يشاكل انجابنا للسبق، وكان أوّل أمرنا أنا كنا في الشام لفتح الفتوح مباشرين بأنفسنا، ونجاهد الكفار متقدّمين لعساكرنا، نحن ووالدنا وعمنا في أي مدينة فتحت أو معقل ملك أو عسكر للعدوّ كسر، أو مصاف للاسلام معه ضرب، فما يجهل أحد صنعنا، ولا يجحد عدوّنا أنا نصطلي الجمره، ونملك الكره، ونتقدّم الجماعه، ونرتب المقاتله، وندبر

التعبيه إلى أن ظهرت في الشام الآثار التي لنـا أجرها، ولا يضرنا أن يكون لغيرنا ذكـرها، وكـانت أخبار مصر تتصـل بنا بها الأحـوال عليه فيهـا من سوء تدبير، وبها دولتها عليه مـن غلبة صغير على كبير، وإن النظام بها قد فسد، والإسلام بها قـد ضعف عن إقامة كـل من قام وقعد، والفـرنج قد احتاج من يـدبرها إلى أن يقاطعهم بأمـوال كثيرة، لها مقادير خطيرة، وإن كلمة السنة بها وإن كـانت مجموعه فإنها مقموعـه، وأحكام الشريعة وإن كـانـت مسماه فـإنها متحـاماه، وتلـك البـدع بها على مـا يعلـم، وتلـك الضلالات فيهـا على ما يفتى فيه بفـراق الاسلام ويحكم، وذلـك المذهب قد خالـط من أهله اللحم والـدم، وتلك الأنصاب قد نصبـت آلهة تعبد من دون الله وتعظـم وتفخم، فتعـالى الله عن شبـه العباد، وويـل لمن غرّه تقلب الذيـن كفروا في البلاد، فسمت همتنـا دون همم أهل الأرض إلى أن نستفتح مقفلهـا، ونسترجع لـلاسلام شاردهـا، ونعيد على الـدين ضـالته منهـا، فسرنـا إليها في عسـاكـر ضخمـه، وجموع جمه، وبأمـوال انتهكـت الموجود، وبلغت منا المجهـود، أنفقناها من حاصل ذممنـا وكسب أيدينا، وثمـن أسارى الفـرنـج الواقعين في قبضتنـا، فعـرضـت عوارض منعـت، وتوجهت للمصريين رسل باستنجاد الفـرنج قطعت (لكل أجل كتاب) (١٤٤)، ولكـل أمل بـاب، وكان في تقـديـر الله أنا نملكهـا على الوجـه الأحسن، ونـأخذهـا بالحكـم الأقوى الأمكـن، فغدر الفـرنج بـالمصريين غدرة في هـدنة عظم خطبها وخبطهـا، وعلم أن استئصال كلمـة الاسلام محطها، فكـاتبنا المسلمون مـن مصر في ذلك الزمان كما كـاتبنا بالعسـاكر المجموعة والأمراء والأهل المعروفة إلى بلاد قد تمهد لنا بها أمران، وتقرّر لنا في القلوب ودّان: الأوّل مـا علموه مـن ايثارنا للمـذهب الأقـوم، وإحياء الحق الأقدم، والآخر ما يـرجونه من فك أسارهم، وإقالـة عثارهم، ففعل الله ما هو أهلـه، وجاء الخبر إلى العدوّ فانقطـع حبله، وضاقت بـه سبله، وأفرج عن الديار بعد أن كانت ضياعهـا ورساتيقها وبلادها وأقاليمها قد نفذت فيها أوامره، وخفقت عليها صلبانـه، ونصبت بها أوثانه، وأيس من

أن يسترجع ما كان بأيديهم حاصلاً، وأن يستنقذ ما صار في ملكهم داخلاً، ووصلنا البلاد، وبها أجناد عددهم كثير، وسوادهم كبير وأموالهم واسعه، وكلمتهم جامعه، وهم على حرب الاسلام أقدر منهم على حرب الكفر، والحيلة في السر فيهم أنفذ من العزيمة في الجهر، وبها راجل من السودان يزيد على مائة ألف، كلهم أغتام أعجام، إن هم إلاّ كالانعام لا يعرفون رباً إلاّ ساكن قصره، ولا قبلة إلا ما يتوجهون إليه من ركنه، وامتثال أمره، وبها عسكر من الأرمن باقون على النصرانيه، موضوعة عنهم الجزيه، كانت لهم شوكة وشكة، وحمة وحمية، ولهم حواش لقصورهم من بين داع تتلطف في الضلال مداخله، وتصيب القلوب مخاتله، ومن بين كتاب تفعل أقلامهم أفعال الأسل، وخدّام يجمعون إلى سواد الوجوه سواد النحل، ودولة قد كبر نملها الصغير، ولم يعرف غيرها الكبير، ومهابة تمنع ما يكنه الضمير، فكيف بخطوات التدبير، هذا إلى استباحة للمحارم ظاهرة، وتعطيل للفرائض على عادة جارية جائره، وتحريف للشريعة بالتأويل، وعدول إلى غير مراد الله بالتنزيل، وكفر سمي بغير اسمه، وشرع يتستر به ويحكم بغير حكمه، فما زلنا نسحتهم سحت المبارد للشفار، ونتحيفهم تحيف الليل والنهار، فعجائب تدبير لا تحتملها المساطير، وغرائب تقدير لا تحملها الأساطير، ولطيف توصل ما كان من حيلة البشر ولا قدرتهم لولا إعانة المقادير، وفي أثناء ذلك استنجدوا علينا الفرنج دفعة إلى بلبيس ودفعة إلى دمياط، وفي كل دفعة منها وصلوا بالعدد المجهز، والحشد الأوفز، وخصوصاً في نوبة دمياط فإنهم نازلوها بحراً في ألف مركب مقاتل وحامل، وبراً في مائتي ألف فارس وراجل، وحصروها شهرين يباكرونها ويراوحونها ويصابحونها القتال الذي يصلبه الصليب، والقراع الذي ينادي به الموت من مكان قريب، ونحن نقاتل العدوين الباطن والظاهر، ونصابر الضدّين المنافق والكافر حتى أتى الله بأمره وأيدنا بنصره، وخابت المطامع من المصريين والفرنج وشرعنا في تلك الطوائف من الأرمن والسودان والأجناد

فأخرجناهم من القاهرة تارة بالأوامر المرهقة لهم وتارة بالأمور الفاضحة منهم، وطوراً بالسيوف المجرده وبالنار المحرقه، حتى بقي القصر ومن به من خدم ومن ذرية قد تفرّقت شيعه، وتمزقت بدعه، وخفتت دعوته، وخفيت ضلالته، فهنالك تم لنا إقامة الكلمة، والجهر بالخطبة، والرفع للواء الأسود الأعظم، وعاجل الله الطاغية الأكبر بهلاكه وفنائه، وبرأنا من عهدة يمين كان إثم حنثها أيسر من إثم إبقائه، لأنه عوجل لفرط روعته، ووافق هلاك شخصه هلاك دولته، ولما خلا ذرعنا، ورحب وسعنا، نظرنا في الغزوات إلى بلاد الكفار، فلم تخرج سنة إلا عن سنة أقيمت فيها براً وبحراً مركبا وظهراً إلى أن أوسعناهم قتلاً وأسرا، وملكنا رقابهم قهراً وقسراً، وفتحنا لهم معاقل ما خطر أهل الاسلام فيها مذ أخذت من أيديهم، ولا أوجفت عليها خيلهم ولا ركابهم مذ ملكها أعاديهم، فمنها ما حكمت فيه يد الخراب، ومنها ما استولت عليه يد الاكتساب، ومنها قلعة بثغر ايلة، كان العدوّ قد بناها في بحر الهند، وهو المسلوك منه إلى الحرمين واليمن وغزا ساحل الحرم فساء منه خلقاً، وخرق الكفر في هذا الجانب خرقاً، فكادت القبلة أن يستولى على أصلها، ومشاعر الله أن يسكنها غير أهلها، ومقام الخليل عليه السلام أن يقوم به من ناره غير برد وسلام، ومضجع الرسول صلى الله عليه وسلم أن يتطرّقه من لا يدين بها جاء به من الإسلام، فأخذت هذه القلعة، وصارت معقلاً للجهاد وموئلا لسفار البلاد وغيرهم من عباد العباد.

ثم قال: «وكان باليمن ما علم من أمر ابن مهدي الضال الملحد المبدع المتمرد، وله آثار في الاسلام وثار طالبه النبي صلى الله عليه وسلم لأنه سبى الشرائف الصالحات، وباعهن بالثمن البخس، واستباح منهن كل ما لا يقر لمسلم عليه نفس، ودان ببدعه، ودعا إلى قبر أبيه وسماه كعبة، وأخذ أموال الرعايا المعصومة وأجاحها، وأحل الفروج المحرمة وأباحها، فانهضنا إليه أخانا بعسكرنا بعد أن تكلفنا له نفقات واسعه، واسلحة رائعة، وسار فأخذناه ولله الحمد، وأنجز الله فيه القصد،

والكلمة هنالك بمشيئة الله إلى الهند ساميه، وإلى ما يفتض الاسلام عذرته متماديه، ولنا في الغرب أثر أغرب، وفي أعماله أعمال دون مطلبها مهالك، كما يكون المهلك دون المطلب، وذلك أن بني عبد المؤمن قد اشتهر أن أمرهم قد أمر، وملكهم قد عمر، وجيوشهم لاتطاق، وأمرهم لا يشاق، ونحن بحمد الله قد تملكنا مما يجاورنا منه بلاداً تزيد مسافتها على شهر، وسيرنا إليها عسكراً بعد عسكر، فرجع بنصر بعد نصر، ومن البلاد المشاهير والأقاليم الجماهير: برقة، قفصه، قسطيليه، توزر، كل هذا تقام فيها الخطبة لمولانا الامام المستضيء بأمر الله أمير المؤمنين سلام الله عليه، ولا عهد للاسلام باقامتها وتنفذ فيها الاحكام بعلمها المنصور وعلامتها، وفي هذه السنة كان عندنا وقد شاهده وفود الامصار، ورموه بأسماع وأبصار مقداره سبعون راكباً كلهم يطلب لسلطان بلده تقليداً، ويرجو منا وعداً ويخاف وعيداً، وقد صدرت عنا بحمد الله تقاليدها، وألقيت إلينا مقاليدها، وسيرنا الخلع والمناشير والألويه بما فيها من الأوامر والأقضيه، فأما الأعداء المحدقون بهذه البلاد، والكفار الذين يقاتلوننا بالممالك العظام، والعزائم الشداد، فمنهم صاحب قسطنطينيه، وهو الطاغية الأكبر، والجالوت الأكفر، وصاحب المملكة التي أكلت على الدهر وشربت ، وقائم النصرانية الذي حكمت دولته على ممالكها وغلبت، جرت لنا معه غزوات بحريه، ومناقلات ظاهرة وسريه، ولم نخرج من مصر إلى أن وصلتنا رسله في جمعة واحدة نوبتين بكتابين كل واحد منهما يظهر فيه خفض الجناح، وإلقاء السلاح، والانتقال من معاداة إلى مهاداه، ومن مفاضحة إلى مناصحه، حتى أنه انذر بصاحب صقلية وأساطيله التي تردّد ذكرها وعساكره التي لم يخف أمرها، ومن هؤلاء الكفار هذا صاحب صقلية، كان حين علم بأن صاحب الشام وصاحب قسطنطينية قد اجتمعا في نوبة دمياط فغلبا وقسرا وهزما وكسرا، أراد أن يظهر قوّته المستقلة فعمر أسطولاً يستوعب فيه ماله وزمانه، فله الآن خمس سنين تكثر عدّته وتنتخب عدّته، إلى أن وصل منها في السنة

الخالية إلى الاسكندرية أمر رائع وخطب هائل، وما أثقل ظهر البحر مثل حمله، ولا ملأ صدره مثل خيله ورجله، وما هو إلا إقليم بل أقاليم يقله، وجيش ما احتفل ملك قط بنظيره لو لا أن الله خذله، ومن هؤلاء الجيوش البنادقة والبياشنة والجنوية، كل هؤلاء تارة يكونون غزاة لا تطاق ضراوة ضرهم ولا تطفأ شرارة شرهم، وتارة يكونون سفاراً يحتكمون على الاسلام في الأموال المجلوبه، وتقصر عنهم يد الاحكام المرهوبه، وما منهم إلاّ من هو الآن يجلب إلى بلدنا آلة قتاله وجهاده، ويتقرب إلينا باهداء طرائف أعماله وتلاده، وكلهم قد قرّرت معهم المواصله، وانتظمت معهم المساله، على ما نريد ويكرهون، وعلى ما نؤثر وهم لا يؤثرون،ولما قضى الله سبحانه بالوفاة النورية، وكنا في تلك السنة على نية الغزاة والعساكر قد تجهزت والمضارب قد برّزت، ونزل الفرنج على بانياس وأشرفوا على احتيازها، ورأوها فرصة مدّوا يد انتهازها، استصرخ بنا صاحبها، فسرنا مراحل اتصل بالعدوّ أمرها، وعوجل بالهدنة الدمشقية التي لو لا مسيرنا ما انتظم حكمها، ثم عدنا إلى البلاد، وتوافت إلينا الأخبار بما المملكة النورية عليه من تشعب الآراء وتوزعها، وتشتت الأمور وتقطعها، وأن كل قلعة قد حصل فيها صاحب، وكل جانب قد طمح إليه طالب، والفرنج قد بنوا قلاعاً يتخوفون بها الأطراف الاسلاميه، ويضايقون بها البلاد الشاميه، وأمراء الدولة النورية قد سجن كبارهم وعوقبوا وصودروا، والمماليك إلاّ عماد الدين خلقوا للاطراف لا للصدور، وجعلوا للقيام لا للقعود في المجلس المحضور، قد مدّوا الأيدي والأعين والسيوف، وسارت سيرتهم في الأمر بالمنكر والنهي عن المعروف، وكل واحد يتخذ عند الفرنج يداً، ويجعلهم لظهره سنداً، وعلمنا أن البيت المقدّس إن لم تتيسر الأسباب لفتحه وأمر الكفر إن لم نجرّد العزم في قلعه وإلا نبتت عروقه، واتسعت على أهل الدين خروقه، وكانت الحجة لله قائمه، وهم القادرين بالقعود دائمة، وإنا لا نتمكن بمصر منه مع بعد المسافة، وانقطاع العمارة، وكلال الدواب التي بها على الجهاد القوّه ، وإذا جاورناه كانت المصلحة باديه، والمنفعة

جامعه، واليد قادره، والبلاد قريبه، والغزوة ممكنه، والميرة متسعه، والخيل مستريحه، والعساكر كثيرة الجموع، والأوقات مساعده، وأصلحنا ما في الشام من عقائد معتله، وأمور مختله، وأراء فاسده، وأمراء متحاسده، وأطماع غالبه، وعقول غائبه، وحفظنا الولد القائم بعد أبيه فما نابه أولى من قوم يأكلون الدنيا باسمه، ويظهرون الوفاء في خدمته وهم عاملون بظلمه، والمراد الآن هو كل ما يقوّي الدولة، ويؤكد الدعوة، ويجمع الأمة، ويحفظ الالفه، ويضمن الرأفه، ويفتح بقية البلاد، وأن يطبق الاسم العباسي كل ما تطبقه العهاد، وهو تقليد جامع بمصر واليمن والمغرب والشام، وكلما تشتمل عليه الولاية النوريةوكل ما يفتحه الله للدولة العباسية بسيوفنا وسيوف عساكرنا، ولمن نقيمه من أخ أو ولد من بعدنا تقليداً يضمن للنعمة تخليداً، وللدعوة تجديداً، مع ما ينعم به من السمات التي فيها الملك، وبالجملة فالشام لا تنتظم أموره بمن فيه، والبيت المقدّس ليس له قرن يقوم به ويكفيه، والفرنج فهم يعرفون منا خصماً لايمل الشر حتى يملوا، وقرنا لا يزال محرم السيف حتى يحلوا، وإذا شدّ رأينا حسن الرأي ضربنا بسيف يقطع في غمده، وبلغنا المنى بمشيئة الله ويد كل مؤمن تحت برده، واستنقذنا أسيراً من المسجد الذي أسرى الله إليه بعبده».

ومن كتاب آخر فاضلي عن السلطان إلى الديوان في تعداد ماله من الأيادي: « والذي أجراه الله على يد المملوك من الممالك التي دوّخها، وسنن الضلال التي نسخها، وعقود الالحاد التي فسخها، ومنابر الباطل التي رحضها، وحجج الزندقة التي دحضها فلله عليه المنة فيه إذ أهله لشرف مشهده، وما فعله إلا لوجهه، ويد الله كانت عون يده، وإلا فقد قضت الليالي والأيام على تلك الأمور، وما تحركت للفلك في قلعها نابضه، وغيرت الأحوال على تلك البدعة وما ثارت لأفراسها رابضه، فشكر يد الله تعالى فيما أجراه على يده منهما أن يجتهد في أخرى مثلها في الكفار، وقد عاد الاسلام إلى وطنه، وصوّحت من الكفر خضراء دمنه».

ومن كتاب آخر للفاضل يذكر فيه اعادة صلاح الدين الخطبة بمصر للدولة العباسية يقول فيه:« حتى أتى الدنيا ابن بجدتها، فقضى من الأمر ما قضى، وأسخط من لله في سخطه رضا، وجعل وجه لابسي السواد مبيضا، فأدرك لهم بثأر نامت عنه الهمم ودوّخت عليه الأمم، وشفى الصدور، وجاء بالحق إلى من غرّه بالله الغرور واستبضع إلى الله تعالى تجارة لن تبور».

ومن كتاب آخر: « قد بورك للخادم في الطاعة التي لبس الأولياء شعارها، وأمضى في الاعداء شفارها، وجمع عليها الدين وكان أديانا، واستقامت بها القلوب على صبغة التكلف وكانت ألوانا».

ومن كتاب آخر: « لم يكن سبب خروج المملوك من بيته إلاّ وعد كان العقد بينه وبين نور الدين رحمه الله في أن يتجاذبا طرفي الغزاة من مصر والشام المملوك بعسكري بره وبحره، ونور الدين من جانب سهل الشام ووعره، فلما قضى الله بالمحتوم على أحدهما، وحدثت بعد الأمور أمور اشتهرت للمسلمين عورات وضاعت ثغور، وتحكمت الآراء الفاسدة، وفورقت المحاج القاصده، وصارت الباطنية بطانة من دون المؤمنين، والكفار محمولة إليها جزي المسلمين، والأمراء الذين كانوا للاسلام قواعد، وكانت سيوفهم للنصر موارد، يشكون ضيق حلقات الإسار، وتطرّق الكفار بالبناء في الحدود الاسلامية، ولا خفاء أن الفرنج بعد حلولنا بهذه الخطة قاموا وقعدوا، واستنجدوا علينا أنصار النصرانية في الاقطار وسيروا الصليب، ومن كسى مذابحهم بقمامه، وهدّدوا طاغية كفرهم بأشراط القيامه، وأنفذوا البطارقة والقسيسين برسائل صور من يصورونه ممن يسمونهم القدّيسين، وقالوا: إن وقعت أوقعت فيها لا يستدرك فارطه وإن كلا من صاحب قسطنطينية وصاحب صقلية وملك الالمان وملوك ما وراء البحر وأصحاب الجزائر كالبندقية والبيشانية والجنوية وغيرهم قد تأهبوا بالعمائر البحرية، والاساطيل القوية،

وللاسلام بأمير المؤمنين أعز ناصر لا سيما وهم ينصرون باطلاً وهو ينصر حقا، وهو يعبد خالقاً، وهم يعبدون خلقاً».

فصل

قال العماد: وكنت بالموصل فسئلت نظم مرثية في نور الدين، فنظمت بعد عودي إلى دمشق في رجب:

الـــديـــن في ظلـــم لغيبـــة نـــوره
والـــدهـــر في غمـــم لفقـــد أميره

فلينـــدب الاســـلام حـــامـــي أهلـــه
والشـــام حـــافـــظ ملكـــه وثغـــوره

مـــا أعظـــم المقـــدار في اخطـــاره
إذ كـــان هـــذا الخطـــب في مقـــدوره

مـــا أكثـــر المتـــأسفين لفقـــد مـــن
قـــرّت نـــواظـــرهـــم بفقـــد نظيره

مـــا أغـــوص الانســـان في نسيـــانـــه
أو مـــا كفـــاه الموت في تـــذكيره

مـــن للمســـاجـــد والمدارس بـــانيـــا
لله طـــوعـــا عـــن خلـــوص ضميره

مـــن ينصر الاســـلام في غـــزواتـــه
فلقـــد أصيـــب بـــركتـــه وظهيره

مـــن للفـــرنـــج ومـــن لأسر ملـــوكهـــا
مـــن للهـــدى يبغـــي فكـــاك أسيره

مـــن للخطـــوب مـــذلـــلا لجماحهـــا
مـــن للـــزمـــان مسهـــلا لـــوعـــوره

مـــن كـــاشـــف للمعضـــلات بـــرأيـــه
مـــن مشرق في الـــداجيـــات بنـــوره

من للكريم ومن لنعش عثاره
من لليتيم ومن لجبر كسيره
من للبلاد ومن لنصر جيوشها
من للجهاد ومن لحفظ أموره
من للفتوح محاولاً أبكارها
يرواحه في غدوه وبكوره
من للعلى وعهودها من للندى
ووفوده من للحجى ووفوره
ما كنت أحسب نور دين محمد
يخبو وليل الشرك في ديجوره
أعزز عليّ بليث غاب للهدى
يخلو الشرا من زوره وزئيره
أعزز عليّ بأن آراه مغيباً
عن محفل متشرف بحضوره
لهفي على تلك الأنامل إنها
مذ غيبت غاض الندى ببحوره
ولقد أتى من كنت تجري رسمه
فضع العلامة منك في منشوره
ولقد أتى من كنت تكشف كربه
فارفع ظلامته بنصر عشيره
ولقد أتى من كنت تؤمن سربه
وقع له بالأمن من محذوره
ولقد أتى من كنت تؤثر قربه
فأدم له التقريب في تقريره
والجيش قد ركب الغداة لعرضه
فاركب لتبصره أوان عبوره
أنت الذي أحييت شرع محمد
وقضيت بعد وفاته بنشوره

كم قد أمرت بحفر خندق معقل
حتى سكنت اللحد في محفوره

كم قيصر للروم رمت بقسره
ارواء بيض الهند من تاموره

أوتيت فتح حصونه وملكت عقر
بلاده وسبيت أهل قصوره

أزهدت في دار الفناء وأهلها
ورغبت في الخلد المقيم وحوره

أو ما وعدت القدس أنك منجز
ميعاده في فتحه وطهوره

فمتى تجير القدس من دنس العدى
وتقدّس الرحمن في تطهيره

يا حاملين سريره مهلا فمن
عجب نهوضكم بحمل ثبيره

يا عابرين بنعشه انشقتم
من صالح الأعمال نشر عبيره

نزلت ملائكة السماء لدفنه
مستجمعين على شفير حفيره

ومن الجفاء له مقامي بعده
هلا وفيت وسرت عند مسيره

حياك معتل الصبا بنسيمه
وسقاك منهل الحيا بدروره

ولبست رضوان المهيمن ساحبا
أذيال سندس خزه وحريره

وسكنت عليين في فردوسه
حلف المسرة ظافراً بأجوره

قال العماد: وجاء نجاب إلى الموصل وذكر أنه فارق صلاح الدين بقرب دمشق بالكسوة، وهو الآن يستكمل من ملك دمشق الخطوة،

فهاجني الطرب لقصده لسابق معرفته وقديم ودّه، فقدمت دمشق على طريق البرية، والسلطان على حلب، وكان العماد في عقابيل ألم فلما شفي وعاد السلطان إلى حمص قصده فيها، وقد تسلم قلعتها في شعبان في الحادي والعشرين منه، وقال: وكنت نظمت قصيدة في الشوق إلى دمشق والتأسف عليها، ثم جعلت مدح السلطان مخلصها وهي طويلة أوّلها:

أجيران جيرون مالي مجير
سوى عطفكم فاعدلوا أو فجوروا

ومالي سوى طيفكم زائر
فلا تمنعوه إذا لم تزوروا

يعز عليّ بأن الفؤاد
لديكم أسير وعنكم أسير

وما كنت أعلم أني أعيش
بعد الأحبة إني صبور

وفت أدمعي غير أن الكرى
وقلبي وصبري كل غدور

إلى ناس بانا سلي صبوة
لها الوجد داع وذكرى مثير

يزيد اشتياقي وينمو كما
يزيد يزيد وثورا يثور

ومن بردى برد قلبي المشوق
فها أنا من حره مستجير

وبالمرج مرجو عيشي الذي
على ذكره العذب عيشي مرير

فقدتكم ففقدت الحياة
ويوم اللقاء يكون النشور

تطاول لسؤلي عند القصير
فعن نيله اليوم باعي قصير

وكن لي بريداً بباب البريد
فأنت بأخبار شوقي خبير

متـــى تجدّ الـــسري بـــالقـــريتين
خـــوامـــص أثـــر فيهـــا الهجير
ونحـــو الجليجـــل أزجـــي المطـــي
لقـــد جـــل هـــذا المرام الخطير
تـــراني أنيـــخ بـــأدنـــى ضمير
مطـــايـــا بـــراهـــا الـــوجـــا والضمـــور
وعنـــد القطيفـــة والمشتهـــاة
قطـــوف بهـــا لـــلأمـــاني سفـــور
ومنهـــا بكـــوري نحـــو القصير
ومنيـــة عمـــري ذاك البكـــور
ويـــا طيـــب بشراي مـــن جلـــق
إذا جـــاء في بـــالنجـــاح البشير
ويستبشر الأصـــدقـــاء الكـــرام
هنـــالـــك بي وتـــوفى النـــذور
تـــرى بـــالســـلامـــة يـــومـــا يكـــون
ببـــاب الســـلامـــة منـــي عبـــور
وإن جـــوازي ببـــاب الصغير
لعمـــري مـــن العمـــر حـــظ كبير
ومـــا جنـــة الخلـــد إلاّ دمشـــق
وفي القلـــب شـــوق إليهـــا سعير
ميـــادينهـــا الخضر فيـــح الـــرحـــاب
وسلســـالها العـــذب صـــاف نمير
وجـــامعهـــا الـــرحـــب والقبـــة الـــ
ـــمنيفة والفلـــك المستـــديـــر
وفي قبـــة النسر لي ســـادة
بهم للمكـــارم أفـــق منير
وبـــاب الفـــراديـــس فـــردوسهـــا
وسكـــانها أحســـن النـــاس حـــور

والارزه فـــالسهـــم فـــالنيربـــان
فجنـــات مـــزتها فـــالكفـــور
كـــأن الجواســـق مـــأهـــولـــة
بـــروج تطلـــع منهـــا البـــدور
بنير بها تستبير الهمـــــوم
بـــربـــوتها يتربـــى السرور
ومـــاغـــرّ في الـــربـــوة العاشقـــ
ـــين بـــالحسن إلا الـــربيـــب الغـــريـــر
وعنـــد المغـــارة يـــوم الخميـــس
أغـــار على القلـــب منـــي مغير
وعنـــد المنيبـــع عين الحيـــاة
مـــدى الـــدهـــر نـــابغـــة مـــا تغـــور
بجسر ابـــن شـــواش ثـــم السكـــون
لنفسي بنفسي تلـــك الجســـور
ومـــا أنـــس لا أنـــس انـــس العبـــور
على جسر جسريـــن إني جســـور
وكـــم بـــت ألهو بقـــرب الحبيـــب
في بيـــت لهيـــا ونـــام الغيـــور
فـــأيـــن اغتبـــاطـــي بـــالغـــوطتين
وتلـــك الليـــالي وتلـــك العصـــور
وأشجـــار سطـــرا بـــدت كـــالسطـــو
ر نمقهـــن البليـــغ البصير
وأيـــن تـــأملـــت فلـــك يـــدور
وعين تفـــور وبحـــر يمـــور
وأيـــن نظـــرت نسيـــم يـــرق
وزهـــريـــروق وروض نضير
إلام القســـاوة يـــاقـــاسيـــون
وبين السنـــايتجلى سنير

ومنـــذ ثـــوى نـــور ديـــن الالـــه
لم يبــق للـــديـــن والشـــام نـــور
وللنـــاس بـــا لملـــك النـــاصر الـــ
ـــصلاح صـــلاح ونصر وخير
هـــو الشمـــس أفـــلاكـــه في البـــلاد
ومطلعـــه سرجـــه والسريـــر
إذا مـــاسطـــا أو حبـــى واحتبـــى
فما الليـــث مـــاحـــاتـــم مـــاثبير
بيـــوســـف مصر وأيـــامـــه
تقـــر العيـــون وتشفـــى الصـــدور
ملكـــت فـــاسجـــح فما للبـــلاد
ســـواك مجير ومـــولى نصير
وفي معصـــم الملـــك للعـــز منـــ
ـــك سـوار ومنك على الـديـن سـور
لـــك الله في كـــل مـــا تبتغيـــ
ـــه بحـــق ظهير ونعـــم الظهير
أمـــا المفســـدون بمصر عصـــوك
وهـــذي ديـــارهـــم اليـــوم قـــور
أمـــا الادعيـــاء بها إذ نشطـــت
لابعـــادهـــم زال منـــك الفتـــور
ويـــوم الفـــرنـــج إذا مـــا القـــوك
عبـــوس بـــرغمهـــم قمطـــريـــر
نهوضـــاً إلى القـــدس يشفـــي الغليـــ
ـــل بفتـــح الفتـــوح ومـــا ذا عسير
ســـل الله تسهيـــل صعـــب الخطـــو
ب فهـــو على كـــل شيء قـــديـــر
إليـــك هجـــرت ملـــوك الـــزمـــان
فما لـــك والله فيهـــم نظير

وفجــــرك فيـــه القــــرى والقـــرآن
جميعــــاً وفجـــر الجميــــع الفجــــور
وأنــــت تــريـــق دمـــاء الفــرنـــج
وعنـــدهـــم لا تـــــراق الخمـــــور

فصل

في فتح بعلبك

قال العماد: ولما فرغ السلطان من حمص وحصنها سار إلى بعلبك فتسلمها في رابع شهر رمضان

قال ابن أبي طيّ: وكان بها خادم يقال له يمن، فلما شاهد كثرة عساكر السلطان اضطرب في أمره وراسل من بحلب على جناح طائر، فلم يرجع إليه منهم خبر فطلب الأمان، وسلم بعلبك إلى السلطان.

قال العماد: وهنأته بأبيات منها :

بفتـــوح عصرك يفخـــر الاســــلام
وبنـــــور نصرك تشرق الايــــــام
وبفتـــح قلعـــة بعلبـــك تهذبـــت
هــــذي الممالــــك واستقـــام الشــــام
ويبكــى الحســود دمـــا وثغـــر الثغــر مـــن
فـــرح بنصرك للهـــــدى بســــــام
فتـــح تسنـــى في الصيـــام كـــأننـــا
شكـــــراً لما منـــــح الإلـــــه صيـــــام
مـــن ذا رأى في الصـــوم عيـــد سعـــادة
حلـــت لنـــا والفطـــر فيــــه حـــرام

أسدى صلاح الدين والدنيا يدا
بنوالها سوق الرجاء تقام
فتمل فتحك واقصد الفتح الذي
بحصوله لفتوحك الاتمام
دم للعلى حتى يدوم نظامها
واسلم يعز بنصرك الاسلام

قال: ولزمت خدمته أرحل برحيله، وأنزل بنزوله، وكنت ليلة عنده، وهو يذكر جماعة من شعراء الزمان، وعنده ديوان الأمير مؤيد الدولة أسامة بن مرشد بن سديد الملك علي بن منقد، وهو به مشغوف، وخاطره على تأمله موقوف، وإلى استحسانه مصروف، وقد استحسن قصيدة له طائية لو عاش الطائيان لأقرا بفضلها، وإن خواطر المبتكرين لتقصر عن مثلها على أن الشعراء المحدّثين ما منهم إلاّ من نظم على رويها ووزنها، واستمد خصب خاطره من مزنها فمنهم المعري وابن أبي حصينة والأرجاني والصالح ابن رزيك، وقد أوردت جميعها في كتاب الخريدة ومطلع قصيدة المعري: (١٤٥)

«لمن جيرة سيموا النوال فلم ينطوا»

فنظمت في السلطان ونحن على بعلبك بتاريخ انسلاخ شعبان قصيدة طائية منها:

عفا الله عنكم مالكم أيها الرهط
قسطتم ومن قلب المحب لكم قسط
شرطتم لنا حفظ الوداد وخنتم
خيانتكم ما هكذا الود والشرط
جعلتم فؤاد المستهام بكم لكم
محطاً أفعنه ثقل همكم حطوا
ملكتم فأنكرتم قديم مودّتي
كأن لم يكن في البين معرفة قسط

فــدت مهجتــي مــن لا يــذم لمهجتــي
إذا حــاكمتــه وهــو في الحكــم مشتــط

ومــا كنــت أدري قبــل سطــوة طــرفــه
بــأن ضعيفــاً فــاتــراً مثلــه يسطــو

وأهيــف لــلاشفــاق مــن ضعــف خصره
يحل نطــاقــاً للقلــوب بــه ربــط

يــلازم قلبــي في الهوى القبــض مثلما
يــلازم كــف النــاصر الملــك البســط

مليــك حــوى الملــك العقيــم بضبطــه
كــريــم ومــا للمال في يــده ضبــط

إذا التمســت أيــدي الملــوك فعنــده
مــدى الــدهــر إجــلالاً لــه تلثم البسـط

عنــا لــك طــوعــاً نيــل مصر ودجلــة الـــ
ـــعراق ودان الغــرب والعجــم والقبــط

وللنيــل شــط ينتهــي سيبــه بــه
ونيلــك للــراجين نيــل ولا شــط

عــدوّك مثــل الشمــع في نــار حقــده
لــه عنــق اصــلاح فــاســده القســط

وهي ثمانية وثمانون بيتاً، ولسعادة الأعمى قصيدة طائية في السلطان سيأتي ذكرها.

قال العماد: ولما وصلت إلى السلطان ورغبت منه في الاحسان وجدته لأمري مغفلاً، ولشغلي مهملاً، ثم عرفت أن حسادي قالوا له: متى أعدت ديوان الكتابة إلى العماد وهو لا شك بمحل الوثوق والاعتماد، وهذا منصب الأجل الفاضل، وهو عنده في أجل المنازل، ربما ضاق صدره، وتشعث سره، فلما عرفت هذا المعنى، لجأت إلى الفضل الفاضلي لأنه به يعني، فقام بأمري، ونوّه بقدري وأراح سري وشدّ أزري.

فصل

فيما جرى للمواصلة والحلبيين مع السلطان في هذه السنة

قال ابن شدّاد: ولما أحسّ سيف الدين صاحب الموصل بما جرى، علم أن الرجل قد استفحل أمره، وعظم شأنه، وعلت كلمته، وخاف أنه إن غفل عنه استحوذ على البلاد، واستقر قدمه في الملك وتعدّى الأمر إليه، فجهز عسكراً وافراً وجيشاً عظيماً، وقدّم عليهم أخاه عز الدين مسعوداً و ساروا يريدون لقاء السلطان وضرب المصاف معه وردّه عن البلاد، فوصل إلى حلب والسلطان بحمص، وإنضم إليه من كان بحلب من العسكر، وخرجوا في جمع عظيم، ولما عرف السلطان بمسيرهم سار حتى وافاهم بقرون حماه وراسلهم وراسلوه، واجتهد أن يصالحهم فما صالحوه، ورأوا أن المصاف ربما نالوا به الغرض الأكبر والمقصود الأوفر، والقضاء يجر إلى أمور وهم بها لا يشعرون، وقام المصاف بين العسكرين، فقضى الله تعالى أن انكسروا بين يديه، وأسر جماعة منهم ومن عليهم وأطلقهم، وذلك عند قرون حماه في تاسع عشر شهر رمضان، ثم سار عقيب انكسارهم، ونزل على حلب وهي الدفعة الثانية، وصالحوه على أن أخذ المعرة وكفر طاب وبارين.

قال العماد: لما تسلم السلطان قلعة بعلبك عاد إلى حمص، وقد وصل عز الدين مسعود أخو صاحب الموصل إلى حلب نجدة، ولما عرفوا أن السلطان مشغول بالحصون جاؤوا إلى حماه فحصروها وراسلوا في الصلح فقدم السلطان في خف من أصحابه وجاء كمشتكين وابن العجمي وغيرهما، وأجابهم السلطان إلى ما طلبوا وأن يردّ عليهم الحصون، وأن يقنع بدمشق نائباً عن الملك الصالح وله خاطباً، وعلى الانتهاء إليه مواظباً، وأن يردّ كل ما أخذه من الخزانة، وأن يسلك فيه سبيل الأمانة، فلما رأوه مجيباً لكل ما يلتمس منه، وهو في عسكر خفيف قالوا: ما خبره

صحيح فشرعوا في الاشتطاط، فطلبوا الرحبة وأعمالها، فقال: هي لابن عمي ناصر الدين محمد بن شيركوه، وكيف ألحق به في رضاكم المكروه فنفروا وجفلوا وأصبحوا على الرحيل إلى جانب العاصي قريباً من شيزر، وجمعوا العسكر، وأظهروا أنهم على المصاف، وعزم الانتصاف، فعبر السلطان إلى سفح قرون حماه خيامه، وركز على مقابلتهم أعلامه، ووصل العسكر المصري في عشرة من المقدّمين، منهم: فرخشاه وأخوه تقي الدين، والتقوا فهزمهم السلطان ونزل في منزلتهم.

قال العماد: ومما نظمت في هذه الوقعة في مدح ناصر الدين محمد بن شيركوه قصيدة، فقد كان له فيها غناء وبلاء حسن منها:

ولقد ألفت نفارها وهويتها
إذ ليس ينكر للظباء نفار

يا جارة للقلب جائرة دعي
ظلمي وإلا قلت جار الجار

قلبي كطرفك ما يفيق افاقة
سكران ما دارت عليه عقار

صب بصب الدمع محترق الحشا
خطرت ببال بلائه الاخطار

لم يخش من خطر الهوى حتى حمى
ذاك القوام شبيهه الخفار

يذري الدموع كأنهن عوارف
لابن الملك شيركوه غزار

من آل شاذي الشائدين بنا العلى
أركانهن لهادم وشفار

حسنت بهم للدولة الأيام والـ
ـأعمال والأحوال والآثار

قد حاز ملك الشام يوسف الذي
في مصر تغبط عصره الاعصار

نصر الهدى فتـــوطـــد الاســـلام في
أيـــامـــه وتضعضـــع الكفـــار

ومنها :

لما لقيـــت جموعهـــم منظـــومـــة
صيرت ذاك النظـــم وهـــو نثـــار

ومنها:

في حـــالتـــي جـــود وبـــأس لم يـــزل
للتبر والأعـــداء منـــك تبـــار

تهب الألـــوف ولا تهاب ألـــوفهـــم
هـــان العـــدوّ عليـــك والـــدينـــار

لما جـــرى العـــاصي هنـــالـــك طـــائعـــا
بدمائهم فجرت به الأنهار

وتحطمـــت عنـــد القـــرون قـــرونهم
بـــل كلـــت الأنيـــاب والأظفـــار

عبروا المعـــرة مـــالكين معـــرة
والعـــار يملـــك تـــارة ويعـــار

أو مـــا كفـــاهـــم يـــوم حمص وكفهـــم
في بعلبـــك بمثلهـــا الانـــذار

قال: وهنأت الملك المظفر تقي الدين عمر بن شاهنشاه بن أيوب بقصيدة منها:

لا تفـــن مـــن فـــرق الفـــراق الأدمعـــا
فهـــي الشهـــود على الغـــرام المدّعـــى

واستبـــق صبرك مـــا استطعـــت فـــإنـــه
عـــون لقلبـــك إن هما ثبتـــا معـــا

قلب أصابته العيون ولم يزل
من مسها بالهاجسات مروّعا
ما باله قد صدّ عند صدودهم
عني ولما ودّعوني ودّعا
ومن التحير أنني أبصرته
في ظعنهم وسألت عنه الأضلعا
أصبحت إذ شيعتهم لثلاثة
صبري وغمضي والفؤاد مشيعا

ومنها:
أو ما اتقيتم حين رعتم سربه
فيه تقي الدين ذاك الأروعا
عمر بن شاهنشاه من هو عامر
أركان ملك الشام حين تضعضعا
خضع العدوّ وذل بعد تعزز
لكم وحق عدوّكم أن يخضعا
من معشر غر يرون جميع ما
لم يبذلوه في السماح مضيعا
في مصر واليمن اجتلينا منهم
في عصرنا تبعاً ليوسف تبعا
الحاويان بملك مصر ومكة
والشام واليمن الخطايا الأربعا
لما عصى الأعداء بالعاصي جرى
بدمائهم طوعا سيولا دفعا

وقال ابن أبي طي: لما تسلم السلطان بعلبك، وأزاح عللها، عاد إلى حمص ونزل بها، فاتصل به ورود عز الدين مسعود أخي سيف الدين صاحب الموصل نجدة للملك الصالح، وكان سبب وروده أن جماعة من أمراء حلب لما كان السلطان نازلاً على حلب أجمعوا آراءهم، وكاتبوا

سيف الـدين وألـزموه نجـدة ابن عمـه، وأخبروه أن السلطان متـى ملك حلـب لم يكن لـه قصد إلا الموصـل، وأرسلوا بـذلك أمين الـدين هـاشما خطيب حلب، وقطب الدين ينال بـن حسان، وغرس الدين قليج، وكان سيف الـدين منازلاً لسنجـار، وفيها أخـوه عماد الدين زنكـي، وكان عماد الدين قـد أظهر الانتماء إلى السلطان فأنجده السلطان بقطعـة من جيشه فكسرهم ونهبهـم عماد الدين بهم وبعسكـره، فلما وصلت رسـالة الحلبيين إلى سيف الدين صـالح أخاه عماد الدين، وحشد عسكـره، وأنفذ يجيبهم مع أخيـه عز الـدين مسعود، فـورد حلب بعـد رحيل السلطـان عنها إلى بعلبك، فاغتنـم الحلبيون بعد السلطان عنهـم، فاحتشدوا وخرجـوا جميعاً حتـى خيموا على حماه، وأخـذوا في حصارهـا، واتصل بـالسلطان ذلـك، فرحل من بعلبك إلى حمص ، وبلغ عز الـدين، فعاد عن حماه، ونزل قريباً من جباب التركمان إلى جهة العاصي إلى قريـب من شيزر، وراسل النائب بحماه علي بـن أبي الفـوارس يقـول لــه: إنما وصلـت في إصـلاح الحال، ووضـع أوزار القتال، وسـأله مكـاتبـة السلطان فيما يجمـع الكلمة،ويلـم شعب الفـرقه، فكتب ابـن أبي الفوارس بـذلك إلى السلطان، وحسـن له الصلح، وتلطف في ذلك غـاية التلطف، وقدم أبو صالـح ابن العجمي، وسعد الـدين كمشتكين لطلـب الصلح فـأجابهما السلطـان إلى ما أرادوا وتقـرر الأمر على أنـه يردّ إليهـم جميع الحصـون والبلاد، ويقنـع بدمشـق وحدهـا، ويكون نـائباً للملك الصـالح، فلما عـاين سعد الـدين اجـابة السلطان إلى الصلح والنـزول عن جميع الحصون التـي أخذها حمص وحماه وبعلبـك طمـع في جـانـــب السلطـان وتجاوز الحدّ في الإقتراح، وطلـب الرحبـة وأعمالها فقال: هي لابـن عمي ولا سبيـل إلى أخذها، فقـام سعد الدين من بين يـديه نافراً، وكان ذلك برأي أبي صالـح ابن العجمي لأنه كان معـه فاجتهد السلطان بـه أن يرجع فلـم يفعل وخرج إلى عز الـدين مسعـود، وكان بعـد نـازلاً على حماه وحدّثـه مـا دار بينه وبين السلطـان، وهـون عليـه أبـو صـالـح أمر السلطـان، وأخبره بقلـة مـن معـه، وكـان

السلطان لما كوتب في أمر الصلح سار في خف من أصحابه فلما علموا بذلك طمعوا في جانبه، وعوّلوا على لقائه وانتهاز الفرصة في أمره، فكاتب باقي أصحابه واستعدّ لحربهم، وسار إلى أن نزل على قرون حماه، وأخذ في مدافعة الأيام، حتى يقدم عليه باقي عسكره، وراسلهم في التلطف للأحوال، فلم ينجع فيهم حال وكانوا في كل يوم يعزمون على لقائه وقتاله، فيبطل عزيمتهم بمراسلة يفتعلها تسويفاً للأوقات، وتقطيعا للزمان حتى يقدم عليه عسكره، وكانت هيبته قد ملأت صدور القوم، ولولا ذلك لكانوا قد ناهزوا الفرصة ونالوا منه الغرض.

قال: وفي يوم الأحد تاسع عشر رمضان التقوا، ولم يكن بعد قد وصل للسلطان من عسكره أحد، فتجمع أصحاب السلطان كردوسا واحداً وأخذوا يحملون يمنة ويسرة ويدافعون الأوقات رجاء أن يتصل بهم بعض العسكر، وضري عسكر حلب والعسكر الموصلي على أصحاب السلطان حين شاهدوا قلتهم واجتماعهم، وكاد أصحاب السلطان يولون الأدبار، فوصل تقي الدين عمر عند الحاجة إليه لتمام السعادة للسلطان، فإنه لو تأخر ساعة لانكسر عسكره، فوصل تقي الدين في عسكر مصر وجماعة من الأمراء وهم غير عالمين بالحرب وقيامها فلما رأوا الناس في الكر والضرب الهبر، حملوا جميعاً بعد أن افترقوا في الميمنة والميسرة فصدموا عسكر الموصل صدمة ضعضعتهم، وكان السلطان في هذه المدّة قد كاتب جماعة من عسكرهم واستفسدهم إليه وحمل إليهم الأموال وهذا هو الذي أبطأ بهم إلى أن وصلت عساكره وإلا فلو كان عسكر حلب نصح لم يقدر السلطان على الثبوت ساعة، فلما اشتدّ القتال لم ينصح الجماعة التي كاتبها السلطان، بل كانوا مثبطين مخوّفين لمن قرب منهم، ثم إنهم بعد ذلك انهزموا وتبعهم عسكر السلطان، واستباحوا أموالهم وخيامهم، وأمر السلطان أصحابه أن لا يوغلوا في طلبهم، ولا يقتلوا من رأوه منهزماً ولا يذففوا على جريح، ورحل حتى نزل في منزلتهم، ثم سار من وقته مجدا حتى نزل بمرج قرا حصار، ولم يزل هناك حتى عيد عيد

الفطر، فجاءته رسل الملك الصالح يسألونه المهادنة، وأن يقر الملك الصالح على ما في يده وما هو جار تحت حكمه من الشام الأسفل إلى بلد حماه، فلم يرض بذلك فجعلوا له مع حماه المعرّة وكفر طاب فرضي بذلك، وحلف على نسخة رأيتها وعليها خطه.

قال: وكان في جملة اليمين أنه متى قصد الملك الصالح عدوّ حضر بنفسه وجيوشه ودافع عنه، وأن لا يغير الدعاء له من جميع منابر البلاد التي تحت يد السلطان وولايته وولاية أصحابه، وأن تكون السكة باسمه، ولما حلف السلطان والملك الصالح وأمراؤه، عاد السلطان قاصداً دمشق، فلما وصل إلى حماه وصلت إليه رسل الخليفة المستضيء ومعهم التشريفات الجليلة والاعلام السود، وتوقيع من الديوان بالسلطنة ببلاد مصر والشام، وفي هذه الخلع يقول ابن سعدان الحلبي:

يا أيها الملك العزيز فضله
لقد غدوت بالعلى مليا

كفى أمير المؤمنين شرفا
أنك أصبحت له وليا

طارحك الودّ على شحط النوى
فكنت ذاك الصادق الوفيا

أولاك من لباسه زخرفة
لم يولها قبلك آدميا

ناسبت الروض سنا وبهجة
حتى حكته رونقا وريا

قال: ورحل السلطان من حماه إلى بعرين، وكان فيها فخر الدين مسعود ابن الزعفراني، وكان خرج إلى السلطان لما وصل إلى الشام، وتطارح عليه وخدمه، وظنّ أن السلطان يقدّمه على عساكره فلم يلتفت إليه، فترك السلطان وعاد إلى حصن بعرين فأغضب السلطان ذلك، وسار إليه وحاصره حتى تسلم حصنه.

وقال العماد: نـزل السلطان قـرا حصار بنيـة الحصار، فجـاءت رسلهم بالانقياد، وأجابوا إلى المراد، وقـالوا: اقنعوا بها أخذتموه إلى حماه ولا تشتموا بنا العـداه فاستـزدنا عليهم كفـر طاب والمعـرّة، واستوفينـا عليهم الأيهان المستقرّة، وسـألهم في المعتقلين أخوة مجد الدين، فـأجابوا وأفرجـوا عنهم، وتم الصلـح، وعم النجـح، ورحلنا ظـاهريـن ظافـرين، ونـزلنا حماه يـوم الاثنين ثـاني عشر شـوّال، وبها وصلـت إليـه رسـل الـديـوان العـزيـز بـالتشريفـات والتقليـد بها أراد مـن الولايـات، وأفـاضـوا على السلطـان وأقاربه الخلـع وخص ناصر الديـن محمد بن شيركوه بمـزيد تفضيل على أقارب السلطان، وكأنـه رعاية لحق والده أسد الديـن رحمه الله، ثم تسلم السلطـان حصـن بعـريـن، وكـان بيد الأمير فخـر الـديـن مسعـود ابـن الزعفـراني، وهو مـن أكابـر أمراء نـور الديـن ، وذلك في أواخـر شوّال، وأقطع مدينة حماه لابـن خاله وصهره الأمير شهاب الديـن محمود، وأنعم بحمص على ابن عمه ناصر الدين

قـال العماد: وأذكـر أنـا عبرنـا نهر العاصي عـائديـن، وقـد انكسفـت الشمس وادلهم النهـار، وغلب على القلوب الاستشعـار وطاحـت الأنوار وخفيـت الرسـوم وظهرت النجـوم، وجئنـا حمص، ثم بعلبـك ثم البقـاع، ووصلنا دمشق في ذي القعدة.

فصل

قال العماد: قد سبق ذكـر ما قرره حسادي في خاطر السلطـان، وقالوا: شغله المكاتبة وهي منصب الأجل الفـاضل، وهو يستنيب فيه من رآه من الأفاضـل، وهذا تصرّفـه برفـد جزيـل، ووجه جميـل، والسلطان مـع شدة رغبته، متـوقف، وإلى ظهـور وجه النجـاح في أمري متشـوّف، وكنت قـد أنست مدّة مقـامي بالعسكر بـذي المجد والمفخر ومورد الكـرم والمصدر الأمير نجم الدين بن مصال، وهـو ذو فضل وأفضال، وقبول واقبال، وله

من السلطان ومن الفاضل لجلالة قدره إجلال، وقد مال إلى فضله ونباهته ونبله، وكان أبوه قد وزر للحافظ في آخر عهده، متفرداً بسؤدده ومجده، وكان من أهل السنة والجماعة، والتقى والورع والعفاف والطاعة، وله يد عند السلطان في النوب التي قصدوا فيها مصر، وأجزل عنده الاحسان والبرّ لاسيما عند كونه بالاسكندرية محصوراً، وكان احسانه مشكوراً، واعتناؤه لحفظه مشهوراً، فلما ملك أحبه، واختار قربه، فلزمت له التودد وجعلته الوسيط بيني وبين الأجل الفاضل، واتخذته من الحجج والوسائل، ووقفت خاطري على تقاضيه نظماً ونثراً، ورسالة وشعراً، فمن ذلك ما كتبته إليه:

لعل نجم الدين ذا الفضل
يذكر الفاضل في شغلي
إن أجل الناس قدراً فتى
بفضله يتعب من أجلي
ومثله من يعتني بالعلى
ويستديم الحمد من مثلي

قال: وأوّل ما أهديته للفاضل مدحة حين لقيته بحمص في شعبان منها:

عاينت طود سكينة ورأيت شمـ
ـس فضيلة ووردت بحر فواضل
ورأيت سحبان البلاغة ساحبا
ببيانه ذيل الفخار لوائل
أبصرت قساً في الفصاحة معجزا
فعرفت أني في فهاهة باقل
حلف الحصافة والفصاحة والسما
حة والحماسة والتقى والنائل
بحر من الفضل الغزير خضمه
طامي العباب وماله من ساحل

وجميع ما في الأرض سبعة أبحر
وبحوره تسمى بعشر أنامل
في كفه قلم يعجل جريه
ما كان من أجل ورزق آجل
يجري ولا جري الحسام إذا جرى
حداه بل جري القضاء النازل
نابت كتابته مغاب كتيبة
كفلت بهزم كتائب وجحافل
فعدوّه في عدوه ووليه
في عدله أكرم بعاد عادل
ريان من ماء التقى صاد إلى
كسب المحامد وهي خير مناهل
يا واحد العصر الذي بذ الورى
فضلاً بغير مشابه ومشاكل
مالي وجاه الجاهلين فأغنني
عنهم كفيتهم وجد بالجاه لي
أرجوك معتنيا لدى السلطان بي
كرما فمثلك يعتني بأماثلي
قرّر لي الشغل المبجل مخليا
بالي من الهم المقيم الشاغل

قال: فدخل الفاضل إلى السلطان وعرّفه أنه فيّ راغب، وقال: أنا لا يمكنني الملازمة الدائمة في كل سفرة، وغداً تكاتبك ملوك الأعاجم، ولا تستغني في الملك عن عقد الملطفات، وحل التراجم، والعماد يفي بذلك، ولك اختاره وقد عرف في الدولة النورية مقداره، وأخذ لي خط السلطان بما قرره لي من شغلي، وقد عرف أن الأجل الفاضل قد أجل فضلي.

قال وخدمت أمير المؤمنين المستضيء بالله في ذي القعدة مع الرسل بهذه القصيدة:

أصــح عقــود الغــانيــات مــريضهـــا
وأفتـــك ألحاظ الحســـان غضيضهــــا

يقول في مديحها:
ومــن عجــب صلــت لقبلــة بــأسهــم
رؤوس أعـــاد مـــن ظبــاهـــم محيضهـــا

قال ابـن أبي طي: وظهر في مشغـرا قرية مـن قرى دمشق رجـل ادّعى النبوّة، وكان مـن أهل المغرب، وأظهر مـن التخاييل والتمويهات مـا فتن به الناس واتبعـه عالم عظيم من الفلاحين وأهل الســواد وعصى على أهل دمشق، ثـم هرب مـن مشغرا في الليـل وصار إلى بلـد حلب، وعـاد إلى افساد عقـول الفلاحين بما يـريهم من الشعبـذة والتخاييـل، وهوى امـرأة وعلمها ذلك وادّعت أيضا النبوّة.

قال: وفيها توفى شهاب الدين الياس الارتقي، صاحب البيرة، وأوصى إلى الملك الناصر صلاح الدين بولده شهاب الدين محمد

ثم دخلت سنة احدى وسبعين

قال العماد: والسلطان نازل بمرج الصفر من دمشق، فجاءه رسول الفرنج يطلب الهدنة فأجابهم السلطان بعد أن اشترط عليهم أموراً فالتزموها، وكان الشام ذلك العام جدبا، فأذن السلطان للعساكر المصرية في الرحيل إلى بلادهم، وإذا استغلوها خرجوا إليه، وسار معهم الفاضل واعتمد على العماد فيما كان بصدده، وواظب السلطان على الجلوس في دار العدل، وعلى الصيد، ومدحه العماد بقصيدة منها:

سواك لسهم العلى لن يريشا
فنسأل رب العلى أن تعيشا

من الناس بالبرصدت الكرا
م وبالبأس في البرصدت الوحوشا

وكم سرت من مصر نحو العريـ
ـش فهدّمت للمشركين العروشا

سراياك تبعث قدّامها
من الرعب نحو الاعادي جيوشا

ويوم حماة تركت العدا
ة كما طيرت بالفلا الريح ريشا

قال: ومدحت مستهل ربيع الأول تقي الدين بقصيدة موسومة، وكان قد فوّض إليه ولاية دمشق، ومنها بيتان ابتكرت المعنى فيهما، ولم أسبق إليهما وهما:

يفيد العاقل اليقظ التغابي
ليدرك في الغنى حظ الغبيّ

ولم تصب السهام على اعتدال
بها لولا اعوجاج في القسيّ

فقل للدهر يقصر عن عنادي
أما هو يتقي بأس التقيّ

حلفت بـرب مكـة والمصلى وثـاوي تـرب طيبـه والغـريّ(١٤٦)
لأنتـم يـا بنـي أيـوب خير الـ ـورى بعـد الامـام المستضيّ

قال: وفي أوّل هـذه السنة وصل إلى دمشق الجماعـة الذين خرجـوا من بغـداد لموافقـة قطـب الـديـن قايماز، فـأخـذوا لأنفسهـم بـالالتجـاء إلى السلطان والاحتراز، وكـان قايماز هـذا محكماً في الدولـة الامامية، من أوّل الأيام المستنجـدية، وقـوي في الأيام المستضيئيـة على وزير الخليفـة عضد الدين ابن رئيس الرؤساء، وسامه أنواع البلاء، وأخافـه ورام اتلافه حتى استعاذ منـه بربـاط صدر الـدين شيـخ الشيوخ فسلـم به، ثـم إن قايماز خـالف الخليفـة، وشـق العصـى وعنّ لـه حصـار الـدار، فأمـر الخليفـة بالقبـض عليه، فلـم ينج لما احيط بـداره إلاّ بفتح بـاب في جداره، وانهزم فوصـل إلى الحله في أوائل ذي القعـدة سنة سبعين وهـو في موسـم الحج فجمع رجالـه وتوجه إلى الموصل وخانـه أخوانه وخذله أصحـابه فتوفي في بعـض قرى الموصـل، وتفـرّق أصحابـه في البـلاد، فمنهـم من رجـع إلى بغداد، ومنهـم من أتى الشام منهـم: حسام الـدين تمريـك، وعز الـدين اقبودي بن ازغـش، وكان صهر السلطان قديماً، وعنده كـريماً، فأقطعه في الـديار المصريـة، وكتب في حقـه إلى الديـوان شفـاعة في تخليـص مالـه، واستقامـة حالـه، وكان ذا خـزائن مملوّه، وخيـل مسومـه، فلم يكـن ذنبه عنـدهم في متـابعـة قايماز ممـا يقبل الصفـح، وكـان اقبودي زوج أخـت السلطان، والسلطان خال بنتـه، وهي زوجة عز الدين فـرخشاه ابن أخي السلطان.

قلت: وفي بعض الكتـب المحررة عن السلطان إلى وزير بغـداد بالمثال الفاضلي:« وما نحسب أنا مع الموالاة المتنـاصرة المستظهرة والمساعي التي كـانت لشارات هذه الـدولة بـالغـة ولأعدائهـم دافعة، ولمنـازعيهم الأمـر

قاصمه، ولمجاذيبهم الحق واقمة، وبحقوق الله تعالى الواجبة لهم قائمه، وكوننا ما أعنا منهم بنجدة من رجال ولا بمادة من مال، ولا بإعانة بحال من الأحوال، يردّ سؤالنا من الدولة أعلاها الله في ذي قربى لا نستطيع دفعه، ولا يقبل أسباب النفع إذا أردنا نفعه، فالاجبار عندنا واسعه، والأعواض لدينا غير متعذره، والولايات التي نفوّضها إليه عن كفايته غير مستغنيّه، ولكنه ما باع بمكانه من الخدمة مكاناً، ولاآثر غير سلطانه سلطانا، وله إعذار لا بأس أن نعيره فيها لسانا وبيانا»، ثم ذكرها، ثم قال: «وهذا الأمير جزء منا فكيف يعدّ جزء منا عاصيا وبألسنتنا وسيوفنا يدعى الخلق إلى الطاعة، وكيف تخلو دار الخلافة من واحد من أهلنا ينوب عنا، وعن بقية الجماعة، فنحن في أنفسنا نشفع، وعن جاهنا ندفع، وفي مكاننا نسأل، وبحظنا الذي لا نسمح به للاسلام نبخل، وأنت أيها الأمير السائر ثالث رسول ندب في أمر هذا الأمير، والله وليّ التدبير».

وقال العماد في الخريدة: كنت جالساً بين يدي الملك الناصر صلاح الدين بدمشق في دار العدل أنفذ ما يأمر به من الشغل، فحضر سعادة الأعمى من أهل حمص، وكان مملوكاً لبعض الدمشقيين مولداً و يكتب على قصائده سعيد بن عبد الله فوقف ينشد هذه القصيدة في عاشر شعبان سنة احدى وسبعين:

سلطانها الملك ابن أيوب الذي
كفاه لا ينكف عن هطلانها
بمواهب لو لم أكن نوحاً لما
نجيت يوم نداه من طوفانها
سمح يروح إلى الندى براحة
قد أعشب المعروف بين بنانها
وفتى إذا زخرت بحار نواله
غرقت بحار الأرض في خلجانها
تلك السيوف المرهفات بكفه
أمضى على الأيام من حدثانها

ملك إذا جليت عرائس ملكه
رصعت فريد العدل في تيجانها
فأسلم صلاح الدين وابق لدولة
ذلت لدولتها ملوك زمانها
وانهض إلى فتح السواحل نهضة
قادت لك الأعداء بعد حرانها

وهي طويلة.

قال: وقام اليوم الذي يليه وقد جلس السلطان للعدل، فأنشده قصيدة منها:
هل بعد جلق إلا أن ترى حلبا
وقد تحلل منها مشكل عقد
وقد أتتك كما تختار طائعة
وقد عنا لك منها الحصن والبلد

قال: وكان سعادة سافر إلى مصر في أوّل مملكة الملك الناصر، فمدحه بقصيدة طائيه فأعطاه ألف دينار، فمنها يصف غارته على غزه، وعوده من ذلك الغزو بالعزه:
فتى مذ غزا بالخيل والرجل غزة
نأى عن نواحيها الرضى ودنا السخط
رماها بأسد ما لهنّ مرابض
ولا أجم إلاّ الذي تنبت الخط
وعاث ضواحيها ضحى بكتائب
من الترك لا نوب طعام ولا قبط

وله في السلطان قصائد (١٤٧) أخرى

قال: وقام البهاء السنجاري وأنشد الملك الناصر قصيدة في دار

العدل بدمشق سنة احدى وسبعين في شعبان منها:

يـا ظبيـة الهرمين مـن مصر على الـ
ـربيع السـلام إذا تقـوّض أو عفـا
اصبـو إلى عصر تقـادم عهـده
فـأزيـد مـن ولـه عليـه تلهفـا
أحبـابنـا بـالقصر لـو قصرتـم الـ
ـهجران مـا شمـت الحسود ولا اشتفـى
أشكـو إلى الـوادي فيحنـو بـانـه
مـن رقـة الشكـوى عليّ تعطفـا

ومنها:

وجـرى بي الأمـل الطمـوح فـأم بي
سلطـان أرض الله طـرا يـوسفـا
النـاهـب الأرواح في طلـب العلى
والـواهـب الآجـال في حسـن الـوفـا (١٤٨)

فصل

فيما تجدد للمواصلة والحلبيين

قد سبـق ذكر الصلح الـذي جرى بين السلطـان والحلبيين، فلما سمع به المواصلة عتبوا عليهم ووبخوهـم ونسبوهم إلى العجلة في ذلك وسلوك غير طـريق الحزم، فحملـوهـم على النقض والنكـث، وأنفـذوا من أخـذ عليهم المواثيـق، وتوجه ذلـك الرسول منهم إلى دمشـق ليأخذ للمـواصلة مـن السلطان عهـده، ويكشـف أيضـاً ما عنـده، فلما خـلا بـه، طالبـه السلطان بنسخة الـرأي، فغلط وأخرج من كمـه نسخة يمين الحلبيين لهم وناولها إيـاه، فتأملهـا وأخفى سرّه ومـا أبداه، واطلـع على ما اتفقـوا عليه

وردها إليه، وقال: لعلها قد تبدلت، فعرف الرسول أنه قد غلط ولم يمكنه تلافي ما فرط وقال السلطان: كيف حلف الحلبيون للمواصلة ومن شرط ايمانهم أنهم لا يعتمدون أمراً إلا بمراجعتهم لنا واستئذانهم، وعرف من ذلك اليوم أن العهد منقوض، والوفاء مرفوض، وشاع الخبر عن المواصلة بالخروج في الربيع، فكتب السلطان إلى أخيه العادل، وهو نائبه بمصر يعلمه بذلك، ويأمره أن يأمر العساكر بالاستعداد للخروج في شعبان

قلت: وفي كتاب طويل فاضلي جليل إلى بغداد عن السلطان « يطالع بأن الحلبيين والموصليين لما وضعوا السلاح وخفضوا الجناح اقتصرنا بعد أن كانت البلاد في أيدينا على استخدام عسكر الحلبيين في البيكارات إلى الكفر، وعرضنا عليهم الأمانة فحملوها، والأيمان فبذلوها، وسار رسولنا وحلف صاحب الموصل بمحضر من فقهاء بلده وأمراء مشهده يمينا جعل الله فيها حكما، وضيق في نكثها المجال على من كان حنيفاً مسلماً، وعاد رسوله ليسمع منا اليمين، فلما حضر وأحضر نسختها أومى بيده ليخرجها، فأخرج نسخة يمين كانت بين الموصليين والحلبيين، مضمونها الاتفاق على حزبنا، والتداعي إلى حربنا، والتساعد على إنالة خطبنا، والإستنفار لمن هو على بعدنا وقربنا، وقد حلف بها كمشتكين الخادم بحلب وجماعة معه يمينا نقضت الأولى، فرددنا اليمين إلى يمين الرسول، وقلنا هذه يمين عن الايمان خارجه، وأردت عمراً وأراد الله خارجه، وانصرف الرسول عن بابنا وقد نزهنا الله أن يكون اسمه معرّضاً للحنث العظيم، والنكث الذميم، وعلمنا أن الناقد بصير، والأخذ قدير، والمواقف الشريفة النبوية أعلاها الله مستخرجة الأوامر إلى الموصلي إما بكتاب مؤكد بأن لا ينقض عهد الله من بعد ميثاقه، وإما أن تكون الفسحة واقعة لنا في تضييق خناقة».

ثم ذكر أمر الفرنج ثم قال:« والمملوك بين عدوّ اسلام يشاركونه في

هذا الاسـم لفظا ولا ينوون لما استحفظـوا حفظاً، وعدوّ كفـر فما يجاورهم إلا بلاده ولا يقارعهـم إلا أجناده»، ثم طلب خروج الأمـر بخطاب جميع ملوك الاطراف « أن يكونوا للمملوك على المشركين أعوانا، وأن يمتثل أمر نبينا محمد صلى الله عليه وسلم في أن يكونـوا بنيانا، فيعضدوها إذا سعى، ويلبوه إذا دعـا، ولا يقعدوا عـن المعاضدة في فتـح البيت المقـدّس الذي طابت النفـوس عن ثاره، وطأطأت الرؤوس تحت عـاره، وصارت القلوب صخـرة لا ترق على صخـرتـه، والعزائم قـاصيـة عـن تطهير أقصاه مـن رجـس الشرك ومعـرّته، فـإن قعـدت بهم العـزائم وأخذتهم في الله لـومـة لائم، فـلا أقـل من أن لا يكـونـوا أعـوانـا عليـه، يلقنونـه عـن قصـده، حريصين على اتصال المكروه إليه»

قال ابـن شدّاد: لما وقعـت الوقعـة الأولى مع الحلبيين والمواصلـة، كان سيف الدين صاحب الموصل على سنجار يحاصر أخاه عماد الدين يقصد أخذها منه ودخـوله في طاعته، وكان أخوه قـد أظهر الانتماء إلى السلطان صلاح الـدين، واعتصـم بذلك، واشتـدّ سيف الـدين في حصـار المكان وضربه بـالمنجنيق حتى استهـدم من سوره ثلـم كثيرة وأشرف على الأخذ، فبلغه وقـوع هذه الـواقعة فخاف أن يبلـغ ذلك أخـاه فيشدّ أمـره ويقوي جأشـه، فراسله في الصلح فصـالحه، ثم سار من وقتـه إلى نصيبين واهتم بجمـع العساكـر، والانفـاق فيها، وسـار حتـى أتـى الفرات وعبر بـالبيرة وخيم على جـانب الفـرات الشامي، وراسـل كمشتكين والملك الصـالح حتـى تستقرّ قـاعدة يصـل عليها إليهـم، فوصـل كمشتكين إليه وجـرت مراجعـات كبيرة عزم فيها على العـود مراراً حتـى استقرّ اجتماعه بـالملك الصـالح وسمحـوا بـه، وسار ووصـل حلب، وخـرج الصـالح إلى لقـائه بنفسه، فالتقـاه قريب القلعة، واعتنقه وضمـه إليه وبكى، ثم أمـره بالعود إلى القلعة، فعـاد إليها وسار هـو حتى نـزل بعين المباركة وأقـام بها مدّة، وعسكر حلـب يخرج إلى خدمته في كل يـوم، وصعد القلعة جريـدة وأكل فيها خبزاً، ونـزل وسار راحلاً إلى تل السلطان ومعـه جمع كبير وأهل ديار

بكر، والسلطان رحمه الله قد أنفذ في طلب العساكر من مصر، وهو يرقب وصولها، وهؤلاء يتأخرون في أمورهم وتدابيرهم وهم لا يشعرون أن التأخير تدمير، حتى وصل عسكر مصر فسار رحمه الله حتى أتى قرون حماه، فبلغهم أنه قد قارب عسكرهم فأخرجوا اليزك، ووجهوا من كشف الأخبار فوجدوه قد وصل جريدة إلى جباب التركمان ، وتفرق عسكره يسقي ، فلو أراد الله نصرتهم لقصدوه في تلك الساعة، لكن صبروا عليه حتى سقى خيله هو وعسكره، واجتمعوا وتعبوا تعبئة القتال، وأصبح القوم على مصاف، وذلك بكرة الخميس العاشر من شوّال، فالتقى العسكران وتصادما، وجرى قتال عظيم، وانكسرت ميسرة السلطان بابن زين الدين بن مظفر الدين، فإنه كان في ميمنة سيف الدين وحمل السلطان بنفسه فانكسر القوم، وأسر منهم جمعاً عظيماً من كبار الأمراء، منهم الأمير فخر الدين عبد المسيح، فمنّ عليهم وأطلقهم، وعاد سيف الدين إلى حلب، فأخذ منها خزانته، وسار حتى عبر الفرات، وعاد إلى بلاده، وأمسك هو رحمه الله عن تتبع العسكر ونزل في بقية ذلك اليوم في خيم القوم فإنهم كانوا قد أبقوا الثقل على ما كان عليه، والمطابخ قد عملت، ففرق الاصطبلات ووهب الخزائن، وأعطى خيمة سيف الدين عز الدين فرخشاه.

وقال العماد: رحلنا في شهر رمضان من دمشق مستأنفين، فعبرنا العاصي لله طائعين، وإلى المسار مسارعين، فما عرجنا على بلد، ولا انتظرنا ما وراءنا من مدد، ونزلنا الغسولة، وجزنا حماه وخيمنا في مرج بوقبيس، وجاء الخبر أنهم في عشرين ألف فارس سوى سوادهم وماوراءهم من أمدادهم، وأنهم موعودون من الفرنج بالنجدة، وأنهم يزيدون في كل يوم قوّة وشدّة، وما كان اجتمع من عسكرنا سوى ألف فارس، فرتب السلطان عسكره، وقوّى بقوّة قلبه قلبه، وأمدّ الله بحزب ملائكته حزبه

ولما وصل المواصلة إلى حلب أطلقوا من كان في الأسر من ملوك

الفرنج منهم أرناط ابرنس الكرك، وجوسلين خال الملك، وقرّروا معهم أن يدخلوا من مساعدتهم في الدرك، فلما عيدنا وصل إلى السلطان الخبر بوصولهم إلى تل السلطان، فعبرنا العاصي عند شيزر، ورتبنا العسكر وأعدنا الاثقال إلى حماه.

ثم وصف الوقعة إلى أن قال: وركب السلطان أكتافهم فشل مئيهم وآلافهم حتى أخرجهم من خيامهم وأشرقهم بمائهم، ووكل بسرادق سيف الدين غازي ومضاربه ابن أخيه فرخشاه، وركض وراءه حتى علم أنه تعدّاه، ووقع في الأسر جماعة من الأمراء المقدّمين، ثم منّ عليهم بالخلع بعد أن نقلهم إلى حماه، وأطلقهم ثم نزل في السرادق السيفي، فتسلمه بخزائنه ومحاسنه، واصطبلاته ومطابخه، ورواسي عزه ورواسخه، فبسط في جميع ذلك، أيدي الجود، وفرقها على الحضور والشهود، وأبقى منها نصيباً للرسل والوفود، ورأى في بيت الشراب، بل في السرادق الخاص طيوراً من القماري والبلابل والهزاز والببغا في الأقفاص، فاستدعى أحد الندماء مظفر الأقرع فآنسه وقال: خذ هذه الأقفاص، واطلب بها الخلاص، واذهب بها إلى سيف الدين فأوصلها إليه، وسلم منا عليه، وقل له: عد إلى اللعب بهذه الطيور، فهي سليمة لا توقعك في مثل هذا المحذور.

قال: ولما كسر القوم ولوا مدبرين إلى حلب، فلم يقف بعضهم على بعض، وظنوا أن العساكر وراءهم ركضاً وراء ركض، فتبعجت خيولهم، وتموّجت سيولهم، وما صدّقوا كيف يصلون إلى حلب ويغلقون أبوابها، ويسكنون اضطرابها، وأما سيف الدين فإنه ركض في يومه من تل السلطان إلى بزاعه، وجاوز في سوقه الاستطاعه، وفرق وفارق الجماعة

وفي كتاب ابن أبي طي ان ميسرة سيف الدين انكسرت، فتحرك إلى جانبها ليكون ردءا لها ومدداً فظنّ باقي العسكر أنه قد انهزم، فانهزموا

فحقق ما كان وهماً، فسار على وجهه لا يلوي على شيء، وتبعهم السلطان فهلك منهم جماعة قتلاً وغرقاً، وأسر جماعة كثيرة من وجوههم وأمرائهم، ثم رجع وأمر أصحابه برفع السيف عن الناس، وترك التعرض لمن وجد منهم بقتل أو نهب، وفرق ما وجد في خزائن سيف الدين، وسير جواريه وحظاياه إلى حلب وأرسل إليه بالأقفاص، وقال له: عد إلى اللعب بهذه الطيور فإنها الذمن مقاساة الحرب، ووجد السلطان عسكر الموصل كالحانة من كثرة الخمور والبرابط والعيدان والجنوك والمغنيين والمغنيات.

قال: واشتهر أنه كان مع سيف الدين أكثر من مائة مغنية، وأن السلطان أرى ذلك لعساكره، واستعاذ من هذه البلية، وكان أنفذ الأمراء الذين أسرهم إلى حماه، ثم ردّهم وخلع عليهم، وأرسلهم إلى حلب، وهنأ العماد للسلطان بقصيدة منها:

فالحمد لله الذي افضاله
حلو الجنى عالي السنا وضاحه
عاد العدوّ بظلمة من ظلمه
في ليل ويل قد خبا مصباحه
وجنا عليه جهله بوقوعه
في قبضة البازي فهيض جناحه

حمل السلاح إلى القتال وما درى
أن الذي يجني عليه سلاحه
أضحى يريد مواصليه صدوده
وغدا يجيد رثاءه مداحه
إن أفسد الدين الغلاة بحنثهم
فالناصر الملك الصلاح صلاحه
قد كان عزمك للإله مصمما
فيهم فلاح كما رأيت فلاحه

وكأنني بالساحل الأقصى وقد
ساحت بنحر دم الفرنجة ساحه
فاعبر إلى القوم الفرات ليشربوا الـ
ـموت الأجاج فقد طمى طفاحه
لتفك من أيديهم رهن الرها
عجلا ويدرك ليلها إصباحه
وابغوا الحران الخلاص فكم بها
حرّان قلب نحوكم ملتاحه
نجوا البلاد من البلاء بعدلكم
فالظلم باد في الجميع صراحه
واستفتحوا ما كان من مستغلق
فيها فربكم لكم فتاحه
أنتم رجال الدهر بل فرسانه
ولدى الحلوم الطائشات رجاحه
فتاكه نساكه ضراره
نفاعه مناعه مناحه
وأبو المظفر يوسف مطعامه
مطعانه مقدامه جحجاحه
وإذا انتدى في محفل فحميه
وإذا غدا في جحفل فوقاحه

قال: وكان لعز الدين فرخشاه في هذه الوقعة يد بيضاء وهو محب للفضل وأهله، باعث للخواطر على مدحه ببذله، فنظمت فيه قصيدة منها:

نصر أنار لملككم برهانه
وعلا لذلة شانئيكم شانه
ما أسعد الاسلام وهو مظفر
وأبو المظفر يوسف سلطانه

الملـــك مـــرفـــوع لكـــم مقـــداره
والعـــدل مـــوضـــوع بكـــم ميـــزانـــه
والـــدهـــر لا يـــأتي بغير مـــرادكـــم
فهـــل القضـــاء لأجلكـــم جـــريـــانـــه
وكـــأنما الله في أحكـــامـــه
فلـــك على إيثـــاركـــم دورانـــه
فخـــراً بنـــي أيـــوب إن فخـــاركـــم
بـــذّ الملـــوك الســـابقين رهـــانـــه
يكفـــي حســـودكـــم اعتقـــالاهمه
فكـــأنما أشجـــانـــه أشجـــانـــه
الـــديـــن عـــز الـــديـــن عـــز بنصركـــم
والكفـــر ذل بعـــونكـــم أعـــوانـــه
قـــد كـــان جيشكـــم كبحـــر زاخـــر
والـــلابســـون جـــواشنـــا حيتـــانـــه
فطما لهلكهـــم عليهـــم بحـــركـــم
بـــأســـا وغـــرق فلككـــم طـــوفـــانـــه
فضـــل الملـــوك الأكـــرمين بفضلـــه
فعـــلا زمـــانهم البهيـــج زمـــانـــه
في فضلـــه في عـــدلـــه في حلمـــه
صـــدّيقـــه فـــاروقـــه عثمانـــه
هـــو في السماح وفي اللقـــاء عليـــه
هـــو في العفـــاف وفي التقـــى سلمانـــه

مـــن آل شـــاذي الشـــائديـــن لمجـــده
ببنيـــه بيتـــا عـــاليـــا بنيـــانـــه
بيـــت مـــن العليـــاء ســـام شـــاهـــق
يبنـــي على كيـــوانها أيـــوانـــه
يـــا ســـالـــب التيجـــان مـــن أربـــابها
ومـــن الثنـــاء مصـــوغـــة تيجـــانـــه

والحمــــد مـــــال أنتـــــم بــــذّالـــــه
والمال حمد أنتـــــم خـــــزانـــــه

قال: ثـم إن صاحب الموصل أسرع عـودته، وواصل لذتـه، و الحلبيون أوثقـوا الأسبـاب، وغلقـوا الأبـواب، وسقـط في أيـديهم حين أفـرطـوا في تعدّيهم، وتهيئوا للحصار، وخافوا مـن البوار، وتبلدّوا وتلدّدوا، وتجادلوا ثم تجلدوا، وقـال ابن سعـدان الحلبي مـن جملة قصيـدة يهنيء بها السلطـان بهذه الكسره:

ومـــا شـــك قـــوم حين قمـــت عليهـــم
غـــداة التقـــى الجمعـــان أنـــك غـــالـــب
ولـــو لم تقـــد تلـــك المقـــانـــب لاغتـــدى
لنفســـك في نفـــس العـــدّو مقـــانـــب

قال ابن أبي طي: وأمـا سيف الدين فإنه امتدّت بـه الهزيمة إلى بزاعة، فأقام بها حتى تلاحق به من سلم مـن أصحابه، ثم خرج منها حتى قطع الفرات، وصار إلى الموصل، وصار باقـي عسكر حلب إلى حلب في سابع شوّال في أقبح حـال وأسوئه،عراة حفاة فقراء يتـلاومون على نقض الأيمان والعهود، وخاف أهل حلب من قصـد السلطان لهم فأخذوا في الاستعداد للحصار، وجاء السلطان وخيـم عليها أياما، ثم قال: الـرأي أن نقصد ما حولها من الحصون والمعاقل والقلاع،فنفتحهـا فإنا إذا فعلنا ذلك ضعفت حلب، وهـان أمرهـا فصوّبـوا رأيه، فنـزلوا على بـزاعة فتسلمهـا بالأمـان وولاها عز الدين خشترين الكردي.

فصل

في فتح جملة من البلاد حوالي حلب

قال العماد: ثم نزل السلطان على حصن بزاعة وتسلمه في الثاني والعشرين من شوّال، ثم فتح منبج في التاسع والعشرين منه، وكان فيها الأمير قطب الدين ينال بن حسان، والسلطان لا ينال به احسان، بل كان في جر عسكر الموصل إليه أقوى سبب، ولا يماذقه ولا يحفظ معه شرط أدب، ويواجهه بما يكره فسلم القلعة بما فيها، وقوّم ما كان سلمه ثلاثمائة ألف دينار منها عين ونقود ومصوغ ومطبوع ومصنوع ومنسوج وغلات، وسامه على أن يخدم فأبى وأنف وكبرت نفسه فتعب سره، وذهب ما جمعه، ومضى إلى صاحب الموصل فاقطعه الرقة، فبقي فيها إلى أن أخذها السلطان منه مرة ثانية في سنة ثمان وسبعين، قال العماد:

نزولك في منبج
على الظفر المبهج

ونجحك في المرتجى
وفتحك للمرتج

دليل على نجح ما
تحاول أو ترتجي

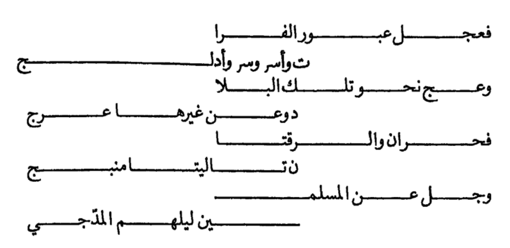
أمورك فيما ترو
م واضحة المنهج

وشانيك دامي الشؤو
ن منك شقي شجي

ومن كان في حصنه
ومن قبل لم يخرج

يقال له ليس ذا
بعشك قم فادرج

فرأيك يستنزل الـ
ـنجوم من الأبرج



فعجـل عبـور الفـرا ... ت وأسر وسر وأدلـج

وعـج نحـو تلـك البـلا ... د وعـن غيرهـا عـرج

فحـران والـرقتـا ... ن تـاليتـا منبـج

وجـل عـن المسلمـ ... ـين ليلهـم المدّجـي

قال ابن أبي طـيّ : لما ملك السلطان منبج وتسلم الحصـن صعد إليه وجلـس يستعرض أمـوال ابـن حسان وذخـائره، فكـان في جملـة أموالـه، ثلاثمائة ألف دينـار، ومن الفضة والآنية الـذهبية والأسلحة والذخـائر ما يناهـز ألفي ألف دينـار، فحان من السلطـان التفانة فـرأى على الأكياس والآنية مكتوبـا يوسف، فسأل عن هـذا الاسم، فقيل له ولد يحبـه ويؤثره اسمه يوسف كان يدّخر هذه الأمـوال له، فقال السلطان أنا يوسف، وقد أخذت ما خبيء لي فتعجب الناس من ذلك.

قـال: ولما فرغ مـن منبج نـزل على عـزاز، ونصب عليهـا عدّة مجانيـق، وجدّ في القتال، وبذل الأموال.

قـال العماد: ثم نـزل السلطـان على حصـن عزاز، وقطـع بين الحلبيين وبين الفرنـج الجواز، وهو حصن منيع رفيـع فحاصره ثمانية وثلاثين يـوماً، وكان السلطـان قد أشفق على هـذا الحصن مـن موافقة الحلبيين للفـرنج فإن الغيـظ حملهم على مهادنة الفـرنج واطلاق ملـوكهم الذين تعـب نور الـديـن رحمه الله في أسرهـم، فـرجـى السلطـان أن يحتـاط على المعـاقـل ويصـونها صـون العقـائل، فتسلمها حـادي عشر ذي الحجـة بعـد مـدّة حصارها المذكورة، وقال العماد قصيدة منها:

أعطـــــاه رب العـــــالمين دولـــــة
عــزة أهـــل الــديــن في اعـــزازهـــا
حـــازالعلى ببـــأســـه وجـــوده
وهـــو أحـــق الخلـــق بـــاحتيـــازهـــا
بحـــدّه أفنـــى كنـــوزاً أفنـــي الـــ
ـــملوك في الجدّ على اكتنـــازهـــا
مهلـــك أهـــل الشرك طـــرارومهـــا
أرمنهـــا أفـــرنجهـــا أبخـــازهـــا
تفـــاخـــر الاســـلام مـــن سلطـــانـــه
تفـــاخـــر الفـــرس بـــأبـــراوازهـــا
تهن مـــن فتـــح عـــزاز نصرة
أوقعـــت العـــداة في اهتـــزازهـــا
واليـــوم ذلـــت حلـــب فـــإنها
كـــانـــت تنـــال العـــز مـــن عـــزازهـــا
وحلـــب تنفـــي كمشتكينهـــا
كما انتفـــت بغـــداد مـــن قيمازهـــا
بـــرزت في نصر الهدى بحجـــة
وضـــوح نهج الحق في ابـــرازهـــا
كـــم حـــامـــل للـــرمـــح عـــاد مبـــديـــا
عجـــز عجـــوز الحيّ عـــن عكـــازهـــا
ارفـــع حظـــوظي مـــن حضيـــض نقصهـــا
وعـــدّ عـــن همازهـــا لمازهـــا
والشعـــر لا بـــدّ لـــه مـــن بـــاعـــث
كحـــاجـــة الخيـــل إلى مهمازهـــا

قـال: وأغـار عسكر حلـب على عسكـرنـا في مـدّة مقامنـا على عـزاز فأخذوا على غرة وغفلـة ما تعجلوه وعادوا، فركب أصحـابنا في طلبهم فما أدركوا إلاّ فارسـا واحداً، فأمر السلطـان بقطع يده، بحكم جـرده، فقلت للمـأمور وذلـك بمسمـع مـن السلطان: تمهـل سـاعـة لعله يقبـل مني

شفاعه، ثم قلت: هذا لا يحل، وقدرك بل دينك عن هذا يجل، وما زلت أكرر عليه الحديث حتى تبسم، وعادت عاطفته ورحم وأمر بحبسه، وسرني سلامة نفسه، ودخل ناصر الدين بن أسد الدين وقال: ما هذا الفشل والونا وإن سكتم أنتم فما أسكت أنا، ودمدم وزمجر، وغضب وزأر، وقال: لم لا يقتل هذا الرجل، ولماذا اعتقل،فوعظه السلطان واستعطفه، وسكن غضبه وتعطفه، وتلا عليه (ولا تزر وازرة وزر أخرى) (١٤٩) وأطلق سراحه وتم في نجاته نجاحه.

فصل

في وثوب الحشيشية على السلطان مرة ثانية على عزاز وكانت الأولى على حلب

قال العماد: وفي حادي عشر ذي القعدة قفز الحشيشية على السلطان ليلة الأحد، وهو نازل على عزاز وكان للأمير جاولي الأسدي خيمة قريبة من المنجنيقات، وكان السلطان يحضر فيها كل يوم لمشاهدة الآلات وترتيب المهمات وحض الرجال والحث على القتال، وهو بار ببث أياديه، قار على الدهر بكف عواديه، والحشيشية في زي الاجناد وقوف والرجال عنده صفوف، إذ قفز واحد منهم فضرب رأسه بسكينة فعاقته صفائح الحديد المدفونة في لمته عن تمكينه ولفحت المدية خدّه فخدشته، فقوى السلطان قلبه، وحاش رأس الحشيشي إليه وجذبه، ووقع عليه وركبه، وأدركه سيف الدين يازكوج فأخذ حشاشة الحشيشي وبضعة وقطعه، وجاء آخر فاعترضه الأمير داود بن منكلان فمنعه، وجرحه الحشيشي في جنبه فمات بعد أيام، وجاء آخر فعانقه الأمير علي بن أبي الفوارس وضمه من تحت ابطيه، وبقيت يد الحشيشي من ورائه لا يتمكن من

الضرب، ولا يتأتى له كشف ما عراه مـن الكرب فنادى، اقتلوني معه فقد قتلنـي وأذهب قـوّتي وأذهلني، فطعنـه ناصر الـدين بـن شيركوه بسيفـه، وخرج آخـر من الخيمـة منهزما، وعلى الفتـك بمن يعارضـه مقدمـا، فثار عليه أهل السوق فقطعوه، وأما السلطان فـإنه ركب وجاء إلى سرادقه وقد خرعه الحادث، وفزعه الكارث، وصوته جهوري، وزئيره قسوري، ودم خده سائل، وعطـف روعه مائل، وطوق كـزاغنده بتلك الضربـة مفكوك ونهج سلامتـه مسلوك، وكان سـلا سلامته ، وأقام القـوم قيامته ، ومـن بعد ذلـك رعب ورهـب واحترز واحتجب، وضرب حـول سرادقه على مثـل خشـب الخركاه تـأزيرا، ووقفـه تحجيرا، وجلس في بيـت الخشب، وبـرز للناس كالمحتجب وما صرف إلا من عرفـه، ومن لم يعرفه صرفه،واذا ركـب وأبصر من لايعرفه في مـوكبه أبعده، ثم سأل عنه فـإن كان مستشفعـا أو مستسعدا أسعفـه واسعـده، ومـن كتاب فـاضلي الى العـادل: « السـلامـة شاملـة، والراحة بحمـد الله للجسم الشريـف الناصري حاصلـه، ولم ينله من الحشيشي الملعون إلا خـدش قطرت منه قطرات دم خفيفـة، انقطعت لـوقتها، وانـدملت لسـاعتها والـركوب على رسمـه ، والحصار لعـزاز على حكمه، وليس في الأمر بحمد الله ما يضيق صدرا، ولا ما يشغل سراً».

وقال ابـن أبي طي: لما فتـح السلطان حصـن بزاعـة ومنبج أيقـن من بحلب بخـروج ما في أيديهم من المعـاقل والقلاع، فعـادوا إلى عادتهم في نصب الحبـائل للسلطان، فكـاتبوا سنـانا صـاحب الحشيشيـة مرة ثـانية ورغبوه بالأموال والمواعيد، وحملوه على انفاذ مـن يفتك بالسلطان، فأرسل لعنه الله جماعـة من أصحـابه فجـاؤوا بزي الأجنـاد ودخلوا بين المقـاتلة، وباشروا الحرب، وأبلـوا فيها أحسن البلاء، وامتـزجوا بأصحـاب السلطان لعلهـم يجدون فـرصة ينتهـزونها، فبينما السلطـان يـومـاً جالسـاً في خيمـة جـاولي، والحرب قائمـة، والسلطـان مشغول بـالنظـر إلى القتال إذ وثـب عليـه أحـد الحشيشيـة وضربه بسكينـة على رأسـه، وكـان رحمه الله محترزاً خائفـاً من الحشيشية لا ينـزع الزردية عن بـدنه، ولا صفائح الحديـد عن

رأسه، فلـم تصنع ضربـة الحشيشي شيئاً لمكـان صفائح الحديـد، وأحس الحشيشي بصفائح الحديـد على رأس السلطان فمدّ يده بالسكينـة إلى خدّ السلطان فجـرحه، وجـرى الدم على وجهه فتتعتـع السلطان لـذلك، ولما رأى الحشيشي ذلـك هجـم على السلطـان وجـذب رأسـه ووضعـه على الأرض وركبه لينحره، وكان من حول السلطـان قد أدركهم دهشة أخذت بعقولهم وحضر في ذلـك الوقـت سيف الـدين يـازكوج، وقيـل إنه كـان حاضراً، فاخترط سيفـه وضرب الحشيشي فقتله، وجاء آخر مـن الحشيشية أيضاً يقصد السلطان، فاعترضه الأمير منكـلان الكردي وضربه بالسيف، وسبـق الحشيشي إلى منكـلان فجـرحه في جبهتـه وقتلـه منكـلان، ومـات منكلان من ضربة الحشيشي بعد أيام، وجـاء آخر من الباطنية فحصل في سهم الأمير علي بن أبي الفوارس فهجم على الباطني، ودخل الباطني فيه ليضربه فـأخذه علي تحت إبطه، وبقيت يـد الباطني مـن ورائه لا يتمكن من ضربـه فصاح علي اقتلوه واقتلـوني معه، فجاء نـاصر الدين محمـد بن شيركروه فطعـن بطن الباطني بسيفـه وما زال يخضخضه فيه حتـى سقط ميتـاً، ونجا ابـن أبي الفوارس، وخـرج آخر مـن الحشيشية منهـزماً فلقيـه الأمير شهاب الديـن محمود خال السلطان، فتنكـب الباطني عن طـريق شهاب الـدين، فقصده أصحـابه وقطعوه بالسيـوف، وأما السلطان فـإنه ركب من وقته إلى سرادقـه ودمه على خده سائل، وأخذ من ذلـك الوقت في الاحتراس والاحتراز، وضرب حـول سرادقـه بـرجاً مـن الخشـب، كـان يجلس فيه وينـام، ولا يدخل عليه إلاّ من يعرفـه، وبطلت الحرب في ذلك اليوم، وخـاف الناس على السلطـان، واضطرب العسكـر، وخاف النـاس بعضهم من بعـض، فألجأت الحال إلى ركوب السلطان ليشـاهده الناس، فركب حتى سكن العسكر، وعاد إلى خيمتـه، وأخذ في قتال عزاز فقاتلها مدّة ثمانية وثلاثين يوماً حتى عجز مـن كان فيها، وسألوا الأمان فتسلمها حادي عشر ذي الحجـة، وصعد إليها واصلـح ما تهدّم منها، ثـم أقطعها لابن أخيه تقي الـدين عمر، وكانت عزاز أوّلا للجفينة غـلام نور الدين،

فلما ملك السلطان منبج أخذها منه الملك الصالح وقوّاها لعله يحفظها من الملك الناصر فلم يبلغ ذلك، ولما فرغ السلطان من أمر عزاز حقد على من بحلب لما فعلوه من أمر الحشيشية، فسار حتى نزل على حلب خامس عشر ذي الحجة، وضربت خيمته على رأس الياروقية فوق جبل جوشن وجبى أموالها، وأقطع ضياعها، وضيق على أهلها، ولم يفسح لعسكره في مقاتلتها، بل كان يمنع أن يدخل إليها شيء أو يخرج منها أحد، وكان سعد الدين كمشتكين في حارم، وكانت اقطاعه في يد نوابه، وكان انتزعها من يد أولاد الداية بعد أن عصى نائبها، وكان سبب خروجه إليها أن السلطان لما نزل على عزاز خاف كمشتكين أن ينتقل منها إلى حارم، فخرج إليها، فلما نزل السلطان على حلب ندم كمشتكين على كونه خارجاً في حارم، وخاف أن يجري بين السلطان وبين الأمراء الحلبيين صلح فلا يكون له فيه ذكر ولا اسم، فراسل السلطان يتلطف معه الحال ويقول : لو فسح لي في الدخول إلى حلب لسارعت في الخدمة وأصلحت الأمر على ما يرومه السلطان، وراسل أيضاً الملك الصالح والأمراء بحلب يقول لهم: قد حصلت خارجاً، وقد بلغتني أمور ولا بدّ من طلبي من الملك الناصر ليأذن لي في الصيرورة إليكم فإن الذي قد حصل عندي لايمكنني الكلام فيه، فراسل الملك الصالح السلطان في الإذن له في الدخول إلى حلب، فأذن له، وطلبوا الرهائن منه فأنفذ السلطان إليهم رهينة شمس الدين بن أبي المضا الخطيب، والعماد كاتب الانشاء وأنفذوا من حلب إلى السلطان رهينة نصرة الدين بن زنكي.

وحكى العماد الكاتب قال: لما حصلنا داخل حلب أخذنا برأي العدل ابن العجمي وجعلنا في بيت، ومنع منا غلماننا، ولم يحضر لنا طعام ولا مصباح، وبتنا في أنكد عيش، وفي تلك الليلة دخل كمشتكين إلى حلب فلما أصبحوا أحضرت أنا وابن أبي المضا إلى مجلس الملك الصالح، وكان عنده ابن عمه عز الدين مسعود بن مودود، وجماعة من

أرباب الدولة، وكان صاحب الكلام العدل ابن العجمي، فأخذ يتحدّث بلثغته، ويترجم بلكنته، ويضرب صفحاً عني ويوهم الجماعة أني وأني

وما درى الغمر بأني امرؤ
أميز التبر من الترب

قد عارك الأهوال حتى غدا
بين الورى كالصارم العضب

قد راضه الدهر فلو أمه
بخطبه ما ريع للخطب

قال: وعرضت نسخة اليمين علينا، وصرفنا، ولم يلتفت إلينا، فلما صارا إلى السلطان وأخبراه بما جرى في حقهما من الهوان، علم أن ذلك كان حيلة عليه حتى دخل كمشتكين إلى حلب، فأطلق نصرة الدين، وقاتل أهل حلب، ولم يزل منازلا لحلب إلى انسلاخ سنة إحدى وسبعين وخمسمائة، ثم كان ما سيأتي ذكره.

فصل

في بواقي حوادث هذه السنة ودخول قراقوش إلى المغرب

قال العماد: وفي سابع شوّال وصل أخو السلطان شمس الدولة من اليمن إلى دمشق، وذكر ابن شداد أنه قدم في ذي الحجة.

قلت: ولما سمع السلطان بقدومه أرسل إليه بالمثال الفاضلي كتاباً أوّله: «أنا يوسف وهذا أخي قد منّ الله علينا»، وقال في آخره: «ولقد أحسن عدنان المبشر إذ طلع علينا طلوع الفجر قبل شمسه، وغرس في القلوب ما يسرّنا ويسرّه حتى غرسه»

قال ابن أبي طيّ: كان سبب خروجه من اليمن كراهية البلاد والشوق إلى أخيه الملك الناصر، وأن يرى ملوك الشام وغيرها، وأمر للعساكر بما أنعم الله به عليه من النعم والأموال.

قال: وحكى أنه لما تحدّث الناس بخروج شمس الدولة من اليمن كان باليمن رجل يقال له عباس، وكا صهر ياسر بن بلال الحبشي صاحب عدن، وكان بين عباس وياسر عداوة، فافتعل عباس كتاباً على لسان ياسر وزوّر عليه علامته إلى زيد بن عمرو بن حاتم صاحب صنعاء يقول فيه: إن شمس الدولة سائر إلى أخيه الملك الناصر إلى الشام، وسبب خروجه ضعفه عن اليمن، فأمسكوا ما كنتم تحملون إليه من الأتاوة والرشوة يبق لكم، واحتال حتى وصل الكتاب إلى شمس الدولة، وكان نازلاً على حصن يعرف بالخضرا يحاصره، فلما وقف شمس الدولة على الكتاب استدعى ياسراً وقال له: هذا خطك وعلامتك، قال:كأنه هو، قال: بأي شيء استحققت منك هذا، وقد قرّبت منزلتك، وأبقيت عليك بلادك، ورفعت بضبعك على أهل اقليمك، وأراه الكتاب، فلما وقف عليه ياسر حلف أنه ما كتبه ولا يعرفه ولا أملاه لأحد، ولم يعلم خبره، فلم يصدّقه شمس الدولة، وأمر به فقتل بين يديه صبراً، فهاب شمس الدولة ملوك اليمن وحملوا إليه الأموال، وحلفوا له على الطاعة، ثم إن شمس الدولة خرج إلى تهامة وتوجه إلى الشام واستخلف على تهامة سيف الدولة مبارك بن كامل بن منقذ، وعثمان بن علي الزنجيلي على عدن، وتوجه إلى حضرموت ففتحها واستناب عنه بها رجلا كرديا يسمى هارون وكان مقامه بشبام، واستمرّ الكردي بها مدّة، ثم إن صاحب حضرموت تحرّك وجمع فقتل وعاث هارون في تلك البلاد، واستقام أمره، وولى شمس الدولة ثغر تعز ممىلوكه ياقوت، وجعل إليه أمر الجند، وولى قلعة تعكر مملوكه قايماز.

قال: وكان وصول شمس الدولة إلى السلطان قبل وقعة المواصلة

وكسرتهم، وكان شمس الـدولة هو سبب الظفـر، وأعطاه السلطان سرادق سيف الديـن صاحب الموصل بما كان فيه مـن الفرش والأثاث والآلات، وولاه دمشق وأعمالها والشام، وأمره أن يكون في وجه الفرنج لأن السلطان خاف من الحلبيين أن يكاتبوا الفرنج كعادتهم.

قال: وفيهـا قتل صديـق بن جولة صـاحب بصرى وصرخد، قتلـه ابن أخيـه وملك بعـده بصرى وصرخد شهـوراً، فكاتبـه شمس الـدولة أخـو السلطان وحلـف له على مـايريـده من اقطـاع، واقترح شمس الـدولة أن يكتب هـو ما يريـده ليحلف عليه، فـأنفذ من بصرى نسخـة يمين كتبها قاضي بصرى، وكان قليل المعرفة بـالفقه والتصرف في القول فلم يستقص فيها وجـوه التأويل، فلما استـوثق بها من شمس الـدولة وخرج إليـه تأوّل عليـه شمس الـدولـة في اليمين، وقبضه ثـم أقطعـه عشريـن ضيعة، ثـم أخذها منه بعد أن قتله.

قال: وفيهـا عصى الأمير غـرس الدين قليـج بتل خـالد بسبـب كلام جرى بينه وبين كمشتكين، فـأنفذ إليه من حلب عسكراً فحـاصروه أياماً وسلم الحصن وصلحت حاله.

قال: ولما ملك شمس الدولة اليمن سمـت نفس ابن أخيه تقي الدين إلى الملك، وجعل يرتاد مكاناً يحتـوي عليه، فأخبر أن قلعة أزبري هي فم درب المغرب، وكـانت خراباً فـأشير عليه بعمارتها، وقيل له: متـى عمرت وسكنها أجنـاد أقويـاء شجعان ملكت بـرقة، وإذا ملكت بـرقة ملـك ما وراءها، فأنفـذ مملوكه بهاء الدين قـراقوش، وقدّمه على جماعـة من أجناده ومماليكـه، فصـار إلى القلعـة المذكـورة، وشرعـوا في عمارتها، واجتمـع بقراقوش رجـل من المغرب فحدّثه عـن بلاد الجريد وفزان، وذكـر له كثرة خيرها، وغـزارة أموالها، وضعـف أهلها، ورغبـه في الدخـول إليها، فـأخذ جماعة مـن أصحابـه وسار في حـادي عشر المحرّم مـن هذه السنـة فكان

يكمن النهار ويسير الليل مدّة خمسة أيام وأشرف على مدينة أوجلة، فلقيه صاحبها وأكرمه واحترمه، وسأله المقام عنده ليعتضد به ويزوّجه بنته ويحفظ البلاد من العرب وله ثلث ارتفاعها، ففعل قراقوش ذلك فحصل له من ثلث الارتفاع ثلاثون ألف دينار، فأخذ عشرة آلاف لنفسه، وفرق على رجاله عشرين ألفاً، وكان إلى جانب أوجلة مدينة يقال لها الأزراقية، فبلغ أهلها صنيع قراقوش في أوجلة وأنه حرس غلالهم، فصاروا إليه ووصفوا له بلدهم وكثرة خيره وطيب هوائه، ورغبوه في المصير إليهم على أنهم يملكونه عليهم، فأجاب على ذلك واستخلف على أوجلة رجلا من أصحابه يقال له صباح، ومعه تسعة فوارس من أصحابه فحصل لقراقوش أموال كثيرة، واتفق أن صاحب أوجلة مات فقتل أهل أوجلة أصحاب قراقوش، فجاء قراقوش وحاصرها حتى افتتحها عنوة وقتل من أهلها سبعمائة رجل، وغنم أصحابه منها غنيمة عظيمة، واستولى على البلد، ثم إن أصحابه رغبوا في الرجوع إلى مصر وخشي قراقوش أن يقيم وحده، فرجع معهم، فلما حصل بمصر طاب له المقام، وثقل عليه العود، وزوّجه تقي الدين باحدى جواريه، وكان استناب بأوجلة وقال لأهلها: أنا أمضي إلى مصر لتجديد رجال وأعود إليكم.

قال ابن الاثير: وفيها في ربيع الآخر استوزر سيف الدين صاحب الموصل جلال الدين أبا الحسن علي بن جمال الدين الوزير رحمهما الله تعالى، وقد مكنه في ولايته، فظهرت منه كفاية لم يظنها الناس، وبدا منه معرفة بقواعد الدول وأوضاع الدواوين وتقرير الأمور، والاطلاع على دقائق الحسبانات والعلم بصناعة الكتابة الحسابية، والانشاء حيرت العقول، ووضع في كتابة الانشاء وضعا لم يعرفوه، وكان عمره حين ولي الوزارة خمسا وعشرين سنة، ثم قبض عليه في شعبان سنة ثلاث وسبعين، وشفع فيه كمال الدين بن نيسان وزير صاحب آمد، وكان قد زوّجه بنته، فأطلق وسار إليه وبقي بآمد يسيراً مريضاً، ثم فارقها وتوفي

بدنيسر سنة أربع وسبعين، وحمل إلى الموصل فدفن بها، ثم حمل منها في موسم الحج إلى المدينة ودفن عند والده، وكان من أحسن الناس صورة ومعنى، رحمه الله تعالى.

قال: ثم إن سيف الدين استناب دزداراً بقلعة الموصل الأمير مجاهد الدين قايماز في ذي الحجة سنة احدى وسبعين، وردّ إليه أزمة الأمور في الحل والعقد والرفع والخفض، وكان بيده قبل هذه الولاية مدينة إربل وأعمالها، ومعه فيها ولد صغير لزين الدين علي لقبه أيضا زين الدين، فكان البلد لولد زين الدين اسما لا معنى تحته، وهو لمجاهد الدين صورة ومعنى

قلت: وفيها في حادي عشر رجب توفي حافظ الشام أبو القاسم علي ابن الحسن بن عساكر، صاحب التاريخ الدمشقي رحمه الله تعالى، وحضر السلطان صلاح الدين جنازته، ودفن في مقابر باب الصغير.

وفيها قدم دمشق أبو الفتوح عبد السلام بن يوسف بن محمد بن مقلد الدمشقي الأصل، البغدادي المولد، التنوخي الجماهري الصوفي بن الصوفي، ذكره العماد في الخريدة، وقال: كان صديقي وجلس للوعظ، وحضر عنده صلاح الدين، وأحسن إليه، وعاد إلى بغداد، وذكر العماد من أشعاره مقطعات منها في الحقائق وأنشدها في مجلسه:

يا مالكاً مهجتي يا منتهى أملي
يا حاضراً شاهداً في القلب والفكر

خلقتني من تراب أنت خالقه
حتى إذا صرت تمثالاً من الصور

أجريت في قالبي روحا منوّرة
تمر فيه كجري الماء في الشجر

جمعت بين صفا روح منوّرة
وهيكل صغته من معدن كدر

إن غبـــت فيــك فيـــا فخـــري ويـــا شرفي
وإن حضرت فيـــا سمعـــــي ويـــا بصري
أو احتجبـــــت فسري منـــــك في ولـــــه
وإن خطـــرت فقلبـــي منـــك في خطـــر
تبـــدو فتمحـــو رســـومـــي ثـــم تثبتهـــا
وإن تغيبـــت عنـــي عشـــت بـــالأثـــر

ثم دخلت سنة إثنتين وسبعين وخمسمائة

قال العماد: والسلطان مقيم بظاهر حلب، فعرف أهلها أن العقوبة أليمة، والعاقبة وخيمة، فدخلوا من باب التذلل، ولاذوا بالتوسل، وخاطبوا في التفضل، وطلبوا الصلح فأجابهم وعفا وعف، وكفى وكف، وأبقى للملك الصالح حلب وأعمالها، واستقرأ كل عثرة لهم وأقالها، وأراد له الاعزاز فردّ عليه عزاز.

وقال ابن شدّاد: أخرجوا إليه ابنة لنور الدين صغيرة، سألت منه عزاز، فوهبها إياها .

قال ابن أبي طي: لما تم الصلح وانعقدت الأيمان، عوّل الملك الصالح على مراسلة السلطان، وطلب عزاز منه، فأشار الأمراء عليه بانفاذ أخته، وكانت صغيرة فأخرجت إليه، فأكرمها السلطان إكراما عظيما، وقدّم لها أشياء كثيرة، وأطلق لها قلعة عزاز وجميع ما فيها من مال وسلاح وميرة، وغير ذلك.

وقال غيره: بعث الملك الصالح أخته الخاتون بنت نور الدين إلى صلاح الدين في الليل، فدخلت عليه، فقام قائماً وقبل الأرض وبكى على نور الدين، فسألت أن يردّ عليهم عزاز فقال: سمعاً وطاعة، فأعطاها إياها، وقدّم لها من الجواهر والتحف والمال شيئاً كثيراً، واتفق مع الملك الصالح أن له من حماه وما فتحه إلى مصر، وأن يطلق الملك الصالح أولاد الداية.

قال العماد: وحلفوا له على كل ما شرطه، واعتذروا عن كل ما اسخطه، وكان الصلح عاماً لهم، وللمواصلة وأهل ديار بكر وكتبت في نسخة اليمين: أنه إذا غدر منهم واحد وخالف، ولم يف بها عليه حالف، كان الباقون عليه يداً واحدة، وعزيمة متعاقدة حتى يفيء إلى الوفاء

والوفاق، ويرجع إلى مرافقة الرفاق، فلما انتظم الصلح ذكر السلطان ثاره عند الاسماعيلية، وكيف قصدوه بتلك البلية، فرحل يوم الجمعة لعشر بقين من المحرم فحصر حصنهم مصياث ونصب عليه المجانيق الكبار، وأوسعهم قتلا وأسراً وساق أنفارهم، وخرب ديارهم وهدم أعمارهم، وهتك أستارهم حتى شفع فيهم خاله شهاب الدين محمود بن تكش صاحب حماه، وكانوا قد راسلوه في ذلك لأنهم جيرانه، فرحل عنهم وقد انتقم منهم.

قال: وكان الفرنج قد أغاروا على البقاع فخرج إليهم شمس الدين محمد بن عبد الملك المعروف بابن المقدّم، وهو متولى بعلبك ومقطع أعمالها، ومدبر أحوالها، والمتحكم في أموالها، فقتل منهم وأسر أكثر من مائتي أسير، وأحضرهم عند السلطان وهو على حصار مصياث، فجدّد منه إلى غزو الفرنج الانبعاث.

قال ابن أبي طي: وهذا أكبر الدواعي في مصالحة السلطان لسنان، وخروجه من بلاد الاسماعيلية، لأن السلطان خاف أن تهيج الفرنج في الشام الأعلى وهو بعيد عنه، فربما ظفروا من البلاد بطائل، فصالح سنانا وعاد إلى دمشق.

قال العماد: وكان قد خرج شمس الدولة أخو السلطان من دمشق حين سمع أن الفرنج على الخروج، وباسطهم عند عين الجر في تلك المروج، ووقع من أصحابه عدّة في الاسار منهم سيف الدين أبو بكر بن السلار، ووصل السلطان إلى حماه، وقد استكمل الظفر، واجتمع فيها بأخيه شمس الدولة ثاني صفر، وهو أول لقائه بعدما أزمع عنه إلى اليمن السفر، وتعانق الأخوان في المخيم بالميدان، وتحدّثا في الحدثان، وروعات الفراق، ولوعات الأشواق، وكان قد وصل إلى السلطان من أخيه هذا عند مفارقته بلاد اليمن كتاب ضمنه أبياتاً أظنها من شعر ابن المنجم

المصري أوّلها:

الشوق أولع بالقلوب وأوجع
فعلام أدفع منه ما لا يدفع

ومنها

وحملت من وجد الأحبة مفرداً
ما ليس تحمله الأحبة أجمع

لا يستقر بي النوى في موضع
الا تقاضاني الترحل موضع

فإلى صلاح الدين أشكو أنني
من بعده مضنى الجوانح موجع

جزعاً لبعد الدار منه ولم أكن
لولا هواه لبعد دار أجزع

فلأركبن إليه متن عزائمي
ويخب بي ركب الغرام ويوضع

حتى أشاهد منه أسعد طلعة
من أفقها صبح السعادة يطلع

قال العماد: فسألني السلطان أن أكتب له في جوابها على رويها ووزنها، فقلت: فذكر قصيدة منها:

مولاي شمس الدولة الملك الذي
شمس السيادة من سناه تطلع

مالي سواك من الحوادث ملجأ
مالي سواك من النوائب مفزع

ولأنت فخر الدين فخري في العلى
وملاذ آمالي وركني الأرفع

الا بخدمتك المجلة موقعي
والله ما للملك عندي موقع

وبغير قـــربـــك كلما أرجـــوه مـــن
درك المنـــى متعـــذر متمنـــع
للنصر إن أقبلـــت نحـــوي مقبـــل
واليمـــن إن أسرعـــت نحـــوي مسرع

قال: ثم سرنا إلى دمشق ووصلنا إليها سابع عشر صفر، وفوض ملك دمشق إلى أخيه الملك المعظم شمس الدولة وعزم إلى مصر السفر.

فصل

في ذكر جماعة من الاعيان تجدّد لهم ما اقتضى ذكره في هذه السنة

قال العماد: في السادس من المحرم توفي بدمشق القاضي كمال الدين ابن الشهرزوري وعمره ثمانون سنة لأن مولده في سنة اثنتين وتسعين وأربعمائة، وكان في الايام النورية بدمشق هو الحاكم المتحكم وصلاح الدين إذذاك يتولى الشحنكية بدمشق، وكمال الدين يعكس مقاصده بتوجيه الاحكام الشرعية، وربما كسر أغراضه، وأبدى عن قبوله إعراضه ويقصد في كل ما يعرض له اعتراضه، وكم صبر على جماحه بحلمه وراضه، إلى أن نقله الله سبحانه من نيابة الشحنكية إلى الملك، وصار كمال الدين من قضاة ممالكه المنتظمة في السلك، وكان في قلبه منه ما فيه، وما فرمنه فات وقت تلافيه، فلما ملك دمشق أجراه على حكمه، ولم يؤاخذه بجرمه، واحترم نوابه وأكرم أصحابه وفتح للشرع بابه وخاطبه واستحسن جوابه، ولم يزل يستفتيه ويستهديه ويعرض على رأيه ما يعيده ويبديه، وكان ابن أخيه ضياء الدين ابن تاج الدين الشهرزوري قد هاجر إلى صلاح الدين بمصر في ريعان ملكه، وأذنت هجرته في درك

إرادته بـادارة فلكه، وأنعم عليـه هناك بجزيـرة الذهب، ومـن دار الملك بمصر بدار الذهب، ووفـر حظه من الذهب، وملكه داراً بـالقاهرة نفيسة جميلـه جلية جليلـه، ورتـب له وظـائف، وخصـه بلطـائف، ووصل مـع صلاح الـدين إلى الشـام وأمره جار على النظـام، ولما اشتدّ بكمال الـدين المرض، وكـاد يفـارق جـوهره العـرض، أراد أن يبقـى القضـاء في ذويـه، فوصـى مع حضـور ولـده بالقضاء لضيـاء الديـن ابن أخيه علما منـه بأن السلطان يمضي حكمـه لأجل سوالفه، ويجعلـه عنده من عوائد عـوارفه، ومـات ولم يخلف مثلـه ومـن شاهـده شـاهد العقـل والفضـل كله، بـاراً بالأبرار، مختـاراً للاخيار، مكرماً للكـرام، ماضياً في الأحكام، وقـد قوّاه نور الدين رحمه الله وولده في أيـامه، وسدّد مرامي مرامـه، وهو الذي سن دار العدل لتنفـذ أحكامـه بحضرة السلطان، فلا يبقـى عليه مغمـز ولا ملمز لـذوي الشنـآن، وهـو الـذي تـولى لـه بنـاء أسـوار دمشـق ومـدارسهـا والبيمارستان، فاستمرت عـادته واستقرت قاعدته في دولـة السلطان، وتوفي ونحن بحلب محاصرون، وذكر العماد في الخريدة لابنـه محيي الدين قصيدة في مرثيته منها

ألموا بسفحـي قـاسيـون فسلمـوا
على جـدث بـادي السنـا وتـرحموا

وبـالـرغـم مني أن أنـاجيـه بـالمنـي
واسـأل مـع بعـد المدى مـن يسلـم

لقـد عـدمـت منـك البريـة والـداً
أحسـن مـن الأم الـرؤوف وأرحـم

ولا سيما أخـوان صـدق بجلـق
هـم في سماء المجـد والجود أنجـم

نشرت لـواء العـدل فـوق رؤوسهـم
فما كـان فيهـم مـن يُضـام ويظلـم

لقيـت مـن الـرحمن عفـواً ورحمة
كما كنـت تعفـو مـا حييـت وتـرحـم (١٥٠)

قال العماد: وجلس ابن أخيه ضياء الدين مكانه، وأحسن احسانه، وأبقى نواب عمه، وأنفذ أحكامه بنافذ حكمه، وكان الفقيه شرف الدين أبو سعد عبد الله بن أبي عصرون قد هاجر من حلب إلى السلطان، وقد أنزله عنده بدمشق في ظل الاحسان، وهو شيخ مذهب الشافعي رضي الله عنه والأقوم بالفتيا، وأعرفهم بما تقتضيه الشريعة من أمر الدين والدنيا، والسلطان يؤثر أن يفوّض إليه منصب القضاء ولا يرى عزل الضياء، فأفضى بسر مراده إلى الأجل الفاضل وكان الفقيه ضياء الدين عيسى يتعصب لشيخه، فاستشعر الضياء من العزل وأشير عليه بالاستعفاء ففعل فأعفي، وبقيت عليه الوكالة الشرعية عنه في بيع الاملاك.

قال العماد: وأوّل ما اشتريت منه بوكالة السلطان الأرض التي ببستان بقر الوحش التي بنيت فيها المواضع من الحمام والدور والاصطبل والخان، وكنت قد احتكرتها في الايام النورية، فملكتها في الأيام الصلاحية.

قلت: قد خربت هذه الاماكن في سنة ثلاث وأربعين وستمائة بسبب الحصار، واستمر خرابها، وعفت آثارها، وصارت طريقاً على حافة بردى وأنت خارج من جسر الصفي خارج باب الفرج ماراً إلى ناحية الميدان.

قال: فلما استعفى ضياء الدين ابن الشهرزوري من القضاء لم يبق في منصب القضاء إلاّ فقيه يعرف بالأوحد داود بن ابراهيم بن عمر بن بلال الشافعي، وكان ينوب عن كمال الدين في أمره فأمره السلطان أن يجري على رسمه ويتصرف في حكمه، وكان السلطان لإحياء القضاء في البيت الزكوي مؤثراً، ولذكر مناقبه مكثراً، وقد سبق منه الوعد للشيخ شرف الدين بن أبي عصرون وهو راج، وبطلب نجاز عدته مناج، ففوّض إليه القضاء والحكم والانفاذ والامضاء على أن يتولى محيي الدين أبو

المعالي محمد بـن زكي الدين والأوحد قـاضيين في دمشق يحكمان وهما عن نيابتـه يوردان ويصدران، وتـوليتهما بتوقيـع من السلطان، ولم يـزل الشيخ شرف الدين ابن أبي عصرون متولياً للقضـاء منفرداً بالحكم والامضاء سنة اثنتين وثلاث وسبعين في ولاية أخي السلطان الملـك المعظم فخر الدين، فلما عـدنا إلى الشـام تكلم النـاس في ذهاب نـور بصره، وأنه لا يقـوم في القضاء بـورده وصدره، ففـوّض السلطان القضاء بـالإشارة الفـاضلية إلى ابنه محيي الدين أبي حامد محمد، كـأنه نائب أبيه، ولا يظهر للناس صرفه عما هـو متوليـه، واستمـر القضـاء له إلى انقضـاء أشهـر مـن سنة سبـع وثمانين، ثـم صرف واستقل بـه ابـن زكـي الديـن، فـأقـام في مدّة ولايتـه للشرع القواعد والقـوانين، وفوّض ديوان الوقوف بجامـع دمشق وغيره من المساجد والمشاهـد إلى أخيه مجد الدين ابن الزكـي فتولاه إلى أن انتقل من أعمال الوقوف إلى موقـف اعتبار الأعمال، وتولاها بعده أخوه محيـي الدين على الاستقلال إلى آخر عهد السلطان وبعده.

قلت: وفيها في صفر وقف السلطان قريـة حزم باللوى من حوران على الجماعـة الذيـن يشتغلون بعلـم الشريعـة أو بعلم يحتـاج إليه الفقيـه، أو يحضر لسماع الدروس بالـزاوية الغربية من جـامع دمشق المعروفـة بالفقيه الزاهـد نصر المقدّسي رحمه الله، وعلى من هـو مدرسهم بهذا الموضـع، من أصحـاب الامام الشـافعـي رضي الله عنه، وجعـل النظـر لقطـب الديـن النسـابورى رحمه الله، ورأيـت كتـاب الوقـف بـذلـك على هذه الصـورة، وعليه علامة السلطان رحمه الله « الحمد لله وبه توفيقي»

قال العماد: وفيها في ليلة الجمعة الثاني عشر من صفر ونحن في طريق الوصول إلى دمشق توفي شمس الدين ابن الوزير أبي المضاء بدمشق وهو أوّل خطيب بـالديـار المصرية للـدولة العباسيـة، وكان يتـولى الرسـالة إلى الـذيـوان العـزيـز، ويقصده الشعـراء، ويحضره الكـرمـاء فيكثـر خلعهـم وجوائزهـم، ويبعث على مـدحه غـرائزهم، فحمـل السلطان همه، وقـرب

ولـده وجبر بتربيته يتمـه، ثم تعين ضيـاء الـدين ابـن الشهرزوري بعـده للرسـالة إلى الديوان، وصـارت منصباً له ينـافس عليه، واستتبت لـه هذه السفارة إلى آخـر العهد السلطاني، وذلك بعـد المضي إلى مصر والعود إلى الشام فإنه بعـد ذلك خاطب في هذا المرام، فأما في هذه السنـة فإنه كان في مسيرنا إلى مصر في الصحبه، وهو متودّد إليّ بصفاء المحبة.

وفيها في آخـر صفر تـزوّج السلطان بالخاتـون المنعوتـه عصمة الـدين بنت الأمير معين الـدين أنر، وكانـت في عصمة نور الـدين رحمه الله، فلما توفي أقـامت في منـزلها بقلعة دمشـق رفيعة القـدر مستقلة بـأمرهـا، كثيرة الصدقات، والأعمال الصـالحات، فأراد السلطان حفظ حرمتهـا وصيانتها وعصمتها، فـأحضر شرف الديـن ابن أبي عصرون وعدولـه وزوجه إيـاها بحضرتهم أخوهـا لأبيها الأمير سعد الديـن مسعود بن أنر، بـإذنها ودخل بها وبات عندها وقرن بسعده سعدها، وخرج بعد يومين إلى مصر.

وذكـر العماد بعد وفـاة ابن الشهـرزوري وابن أبي المضـاء الأمير مؤيـد الدولة أبـا الحارث أسامة بن مرشـد بن سديد الملـك أبي الحسن علي بن منقد وعـوده إلى الشام عنـد علمه بـوصول السلطـان، فقال: هـذا مؤيـد الدولة من الأمراء الفضلاء والكرماء الكبراء، والسادة القادة العظماء، وقد متعه الله بـالعمر وطـول البقاء، وهو مـن المعدوديـن من شجعـان الشام وفـرسـان الاسلام، ولم يـزل بنـو منقـد مـلاك شيـزر وقد جمعـوا السيـادة والمفخر، ولما تفرّد بـالمعقل منهم من تـولاه لم يرد أن يكون معه فيـه سواه، فخرجـوا منه في سنة أربع وعشريـن وخمسمائة وسكنوا دمشق وغيرهـا من البلاد، وكلهم من الأجواد الأمجاد ومـا فيهم إلاّ ذو فضل وبذل، واحسان وعدل، وما منهم إلاّ مـن له نظم مطبوع، وشعر مصنوع ومـن له قصيدة، وله مقطـوع، وهذا مـؤيد الدولـة أعرقهم في الحسـب، وأعرفهـم بالأدب، وكـانت جـرت له نبـوة في أيام الـدمشقيين وسافـر إلى مصر وأقام هنـاك سنين في أيام المصريين، فتمـت نوبة قتـل المنعوت بـالظافر وقتـل عباس

وزيرهم أخوته وإقامة المنعوت بالفائز، وما ردف ذلك من الهزاهز، فعاد مؤيد الدولة إلى الشام وسار إلى حصن كيفا وتوطن بها، ولما سمع بالملك الصلاحي جاء إلى دمشق وذلك في سنة سبعين وقال:

حمدت على طول عمري المشيبا
وإن كنت أكثرت فيه الذنوبا
لأني حييت إلى أن لقيت بعـ
ـد العدوّ صديقا حبيبا

قال: وكنت أسمع بفضله وأنا بأصبهان في أيام الشبيبه، وأنشدني له مجد العرب العامري بأصفهان في سنة خمس وأربعين هذين البيتين، وهما من مبتكرات معانيه في سنّ قلعها:

وصاحب لا أمل الدهر صحبته
يشقى لنفعي ويسعى سعي مجتهد
لم ألقه مذ تصاحبنا فحين بدا
لناظريّ افترقنا فرقة الأبد

قال: فلما لقيته بدمشق في سنة سبعين أنشدنيهما لنفسه، مع كثير من شعره المبتكر من جنسه.

قلت: ومن عجيب ما اتفق أني وجدت هذين البيتين مع بيتين آخرين، المجموع أربعة أبيات في ديوان أبي الحسين أحمد بن منير الاطرابلسي، ومات ابن منير سنة ثمان وأربعين وخمسمائة، قرأت في ديوانه وقال في الضرس:

وصاحب لا أمل الدهر صحبته
يسعى لنفعي وأجني ضره بيدي
أدنى إلى القلب من سمعي ومن بصري
ومن تلادي ومن مالي ومن ولدي
أخلو بيثي من خال بوجنته
مداده زائد التقصير للمدد

ثم قال: « لم ألقه مذ تصاحبنا «البيت، فالأشبه أن ابن منير أخذهما، وزاد عليهما، ولهذا غير فيهما كلمات، وقد وجدت هذا البيت الأوّل على صورة أخرى حسنة: « وصاحب ناصح لي في معاملتي»، ويجوز أن يكون أسامة أنشدهما متمثلاً فنسبا إليه لما كان مظنة ذلك، ويجوز أن يكون اتفاقا، والله اعلم.

قال العماد: وشاهدت ولده عضد الدين أبا الفوارس مرهفاً، وهو جليس صلاح الدين وأنيسه، وقد كتب ديوان شعر أبيه لصلاح الدين وهو لشغفه به يفضله على جميع الدواوين ولم يزل هذا الأمير العضد مرهف مصاحباً له بمصر والشام وإلى آخر عصره، وتوطن بمصر، فلما جاء مؤيد الدولة أبوه أنزله أرحب منزل، وأورده أعذب منهل، وملكه من أعمال المعرة ضيعة زعم أنها كانت قديماً تجري في أملاكه، وأعطاه بدمشق داراً وإدراراً، وإذا كان بدمشق جالسه وآنسه، وذاكره في الأدب ودارسه، وكان ذا رأي وتجربه وحنكة مهذبة، فهو يستشيره في نوائبه، ويستنير برأيه في غياهبه، وإذا غاب عنه في غزواته كاتبه وأعلمه بواقعاته ووقعاته، واستخرج رأيه في كشف مهماته، وحل مشكلاته، وبلغ عمره ستا وتسعين سنة فإن مولده سنة ثمان وثمانين وأربعمائة، وتوفي سنة أربع وثمانين وخمسمائة.

قلت: وقد تقدم من أخباره في قتل الأسد في شبيبته أيام كونه بشيزر، وذكرت أيضا له ترجمة حسنة في تاريخ دمشق.

- ٨٢٣٥ -

فصل

في رجوع السلطان إلى مصر

خرج من دمشق يوم الجمعة رابع شهر ربيع الأوّل

قال العماد: لما استتمت للسلطان بالشام أمور ممالكه، وأمن على مناهج أمره ومسالكه، أزمع إلى مصر الإياب، وقد أمحلت من بعده من جود جود السحاب، وتقدّمه الأمراء والملوك، وخرج بكرة الجمعة ونزل بمرج الصفر، ثم رحل عنه قبل العصر إلى قريب الصنمين، وخرجت معه وقلبي مروع إلى أهلي، فما نزلت منزلاً إلاّ نظمت أبياتاً فقلت يوم المسير وقد عبرت بالخياره:

أقول لركب بالخيارة نزل ... أثيروا فمالي في المقام خيار
هم رحلوا عنك الغداة وما دروا ... بأنهم قد خلفوك وساروا
حليف اشتياق لا يرى من يحبه ... وفي القلب من نار الغرام أوار
أجيروا من البلوى فؤادي فعندكم ... ذمام له يا سادتي وجوار

وقلت وقد نزلنا بالفقيع

رأيتني بالفقيع منفردا ... أضيع من فقع قاعها الضائع
بعت بمصر دمشق عن غرر ... مني فيا غبن صفقة البائع
صبري والقلب عاصيان وما ... غير همومي وأدمعي طائعي

وقلت بالفوار:

تحدّر بالفـوار دمعي على الفـور
فقلت لجيراني أجيروا من الجور

وأصعب ما لاقيت أني قانع
من الطيف مذ بنتم بزور من الزور

وقلت بالزرقاء:

ولم أنس بالزرقاء يوم وداعنا
أنامل تدمي حيرة للتندّم

أعدّتك يا زرقاء حمراء إنني
بكيتك حتى شيب ماؤك بالدم

تأخر قلبي عندهم متخلفا
وخالفتهم في عزمتي والتقدّم

فيا ليت شعري هل أعود إليهم
وهل ليت شعري نافع للمتيم

قال: وقلت وقد عبرنا على مسالك قريبة من قلعة الشوبك، وفيها تختطف الأفرنج القاصدين إلى مصر

طريق مصر ضيق المسلك
سالكه لا شك في مهلك

وحب مصر صار حبا لمن
أوقعه في شبك الشوبك

لكنها من دونها كعبة
محجوجة مبرورة المنسك

بها صلاح الدين يشكي الذي
إليه من أيامه يشتكي

قال: ونظمت في طريق مصر قصيدة مشتملة على ذكر المنازل بالترتيب، وإيراد البعيد منها والقريب، واتفق أن السلطان سير إلى مصر

الملك المظفر تقي الدين وكان لا يستدعي من شاديه إلا إنش
ناديه، ويطرب لسماعها ويعجب بإبداعها، وكان قد فارق أهله
كما فارقت بها أهلي، وجمع الله بهم بعد ذلك شملي، وهي هذه:

هجرتكم لا عن ملال ولا غدر
ولكن لمقدور أتيح من الأ

وأعلم أني مخطيء في فراقكم
وعذري في ذنبي وذنبي في ع

أرى نوب الدهر تحصى ولا أرى
أشدّ من الهجران في ثوب الد

بعيني إلى لقيا سواكم غشاوة
وسمعي عن نجوى سواكم لذو

وقلبي وصبري فارقاني لبعدكم
فلا صبر في قلبي ولا قلب في ص

وإني على العهد الذي تعهدونه
وسري لكم سري وجهري لكم جه

تجرعت صرف الهم من كاس شوقكم
وها أنا في صحوي نزيف من الس

وإن زمانا ليس يعمر موطني
بسكناكم فيه فليس من العم

وأقسم لو لم يقسم البين بيننا
جوى الهم ما أمسيت مقتسم الف

أسير لإلى مصر وقلبي أسيركم
ومن عجب أسري وقلبي في

أخلائي قد شط المزار فأرسلوا الـ
ـخيال وزوروا في الكرى واربحوا أج

تذكرت أحبابي بجلق بعدما
ترحلت والمشتاق يأنس بالذ

وناديت صبري مستغيثاً فلم يجب
فأسبلت دمعي للبكاء على ص

ولما قصدنا من دمشق غباغبا
وبتنا من الشوق الممض على الجمر
نزلنا برأس الماء عند وداعنا
موارد من ماء الدموع التي تجري
نزلنا بصحراء الفقيع وغودرت
فواقع من فيض المدامع في الغدر
ونهنهت بالفوار فيض مدامعي
ففاضت وباحت بالمكتم من سري
سرينا إلى الزرقاء منها ومن يصب
أوامأ يسر حتى يرى الورد أو يسري
تذكرت حمام القصير وأهله
وقد جزت بالحمام في البلد القفر
وبالقريتين القريتين وأين من
مغاني الغواني منزل الأدم والعفر
وردنا من الزيتون حسمى وإيلة
ولم نسترح حتى صدرنا إلى صدر
غشينا الغواشي وهي يابسة الثرى
بعيدة عهد القطر بالعهد والقطر
وضن علينا بالندى ثمد الحصى
ومن يرتجي ريا من الثمد النزر
فقلت اشرحي بالخمس صدراً مطيتي
بصدر وإلا جادك النيل للعشر
رأينا بها عين المواساة أننا
إلى عين موسى نبذل الزاد للسفر
وما حسرت عيني على فيض عبرة
أكفكفها حتى عبرنا على الجسر
وملنا إلى أرض الدير وجنة
هنالك من طلح نضيد ومن سدر

وجبنا الفلا حتى أصبنا مباركا
على بركة الجب المبشر بالقصر

ولما بدا الفسطاط بشرت رفقتي
بمن يتلقى الوفد بالوفر والبشر

بكت أم عمرو من وشيك ترحلي
فيا خجلتي من أم عمرو ومن عمرو

تقول إلى مصر تصير تعجبا
وماذا الذي تبغي ومن لك في مصر

فقلت: ملاذي الناصر الملك الذي
حصلت بجدواه على الملك والنصر

فقالت أقم لا تعدم الخير عندنا
فقلت وهل تغني السواقي عن البحر

ثقي برجوع يضمن الله نجحه
ولا يقتضي أن نبدل العسر باليسر

عطيّته قد ضاعفت منه الرجا
ونعمته قد أضعفت منة الشكر

قال: وكان الدخول إلى القاهرة يوم السبت سادس عشر ربيع الأوّل بالزي الأجمل، والعز الأكمل، وتلقى السلطان أخوه ونائبه الملك العادل سيف الدين إلى صدر، وعبر إلينا عند بحر القلزم الجسر وتلقانا حيز مصر ، ووصلت إلينا ثمراتها، وجليت علينا زهراتها، فظهر بنا نشاطها

وزاد اغتباطها، ودخل السلطان داره، ووفق الله في جميع الأمور ايراده واصداره، وكانت قد صعبت عليّ مفارقة دمشق وأهلها لقلة الوثوق بأني أحصل بمثلها، فنظمت يوم خروجي منها أبياتاً إلى ناصر الدين محمد ابن شيركوه منها:

بمهجتي خنث العطف مستلذ الدلال

يقــــول لي بـــــانكســـــار
ورقـــــــة واعتــــــــلال
معـــــاتبــــا بحـــديـــث
أصفـــــى مـــــن السلســـال
مـــــا مصر مثـــــل دمشـــــق
بعـــــت الهدى بـــالضـــــلال
فقلـــــــت عنـــــت أمــــور
عجيبــــــــة الأشكـــــــال
أسير في طلــــــب الـــــــــ
ـــــــــعز مثــــــل سير الهلال
لم يبلـــغ البـــدر لـــو لا الـــــــ
ـــــــــــمسير أوج الكمال
وكيــــــــف أتـــــرك شغلي
وإنـــــــه رأس مـــــالي
صـــلاح حـــالي صـــلاح الـــــــ
ـــــــدين الغـــزيـــر النـــوال
مـــــالي أفــــارق ملكـــــا
ملكتــــــــه أمـــــــالي
يــــا نـــاصر الـــديـــن قلبــــي
عليـــــــه في بلبـــــــال

ثم ذكر العماد المحسنين إليه بالقاهرة وسيدهم المولى الأجل الفاضل، وقد مدحه بقصيدة منها:

كيــف لا يغتـــدي لي الـــدهـــر عبـــداً
وأنـــا عبـــد عبـــد عبـــد الـــرحيـــم
بـــدوام الأجـــل سيـــدنـــا الفـــا
ضـــل يـــا دولـــة الأفـــاضـــل دومـــي
إذ أراه ينـــوب عنـــي لـــدى المـــــ
ـــــلك منـــاب الأرواح عنـــد الجســـوم

مــالــك الحل في الممالــك والعقـــ
ـــد وحكـم التحليـل والتحـريـم
معمــل للنفــاذ في كــل قطــر
قلماً حــاكماً على اقليــم
يتلقــى الملــوك في كــل أرض
كتبــه القــادمــات بــالتعظيــم
نــاحــل الجسـم ذو خطـاب بـه يصـ
ـغر الــدهــر كـل خطـب جسيـم

ثم ذكر الأخويـن تقي الدين عمر، وعز الدين فـرخشاه، وهما ابنا أخي السلطان، وهـو شاهنشاه بـن أيوب، وهمام الـدين بزغـش الشنباشي والي القاهرة، ومدح فرخشاه بقصيدة حسنة منها:

شــادن كــالقضيــب لــدن المهــزه
سلبــت مقلتــاه قلبــي بغمــزه
كلما رمــت وصلــه رام هجــري
وإذا زدت ذلــة زاد عــزه
للصبــا مــن عــذاره نســج حســن
رقــم المسـك في الشقــائق طــرزه
وعــزيــز عليّ أن اصطبــاري
فيــه قــد عــزه الغــرام وبــزه
مــا رأى مــا رأيــت مجنــون ليلى
في هــواه ولا كثير عــزه
مــا ذكــرنــا الفسطــاط إلا نسينــا
مــا رأينــا بــالنيربين والارزه
فمهــا الجيــزة الجوازي لها الميـ
ـزة حسنــا على ظبــاء المزه
ونصيري عليــه نــائل عــز الــديــن
ذي الفضــل خلــد الله عــزه

ومنها

فـــرّغ الكنـــز مـــن ذخـــائر مـــال
مـــالثـــامـــن نفـــائس الحمـــد كنـــزه

همة مستهـــــامـــــة بـــــالمعـــــالي
للـــــدنـــــايـــــا أبيـــــة مشمئـــــزه

قال العماد: وتـوفرنا على الاجتماع في المغاني لاستماع الأغـاني، والتنزه في الجزيـرة والجيزه، والأمـاكن العـزيزة، ومنـازل العز والـروضة، ودار الملـك والنيل والمقياس ومرامي السفن ومجاري الفلـك، والقصور بالقرافة، وربوع الضيافة، ورواية الاحاديث النبويـة، والمباحثة في المسائل الفقهية، والمعاني الأدبية.

قال: واقترحنـا على القاضي ضياء الديـن ابن الشهروزوري أن يفـرجنا في الاهـرام، فقد شغفنـا بـأخبـارها في الشـام، فخـرج بنـا إليها ودار بنـا حواليهـا ودرنا تلك البرابي والبراري والـرمال والصحاري، وأحمدنـا المقار والمقـاري، وهـالنـا أبـو الهول، وضـاق في وصفـه مجال القـول، ورأينـا العجـائب، وروينـا الغـرائب، واستصغـرنـا في جنـب الهرمين كـل مـا استعظمناه، وتداولنـا الحديث في الهرم ومن بناه، فكـل يأتي في وصفهما بما نقله لا بما عقله، واجتهدوا في الصعود إليه فلم يـوجد من توقله، وحارت العقول في عقـوده، وطارت الأفكـار عن توهـم حدوده، فيالـه من مـولود للدهـر قبل الطوفان، انقـرضت القرون الخالية على آبـائه وجدوده، وسمار الأخبار بـذكر حديـث أجداث عاده وثمـوده، ويدل إحكامـه وعلوه على همة بـانيـه في بـأسـه وجـوده، وأن في الأرض الهرمين، كما أن في السماء الفـرقديـن وهما كـالطوديـن الراسخين، وكـالجبلين الشـامخين، قد فنيـت الدهور، وهما بـاقيان، وتقاصرت القصور، وهما راقيـان، وكأنهما لأم الأرض ثـديان، وعلى تـرائب التراب نهدان، ولسلطان العـالم علمان، وإلى مراقـي الأملاك سلمان، وهما لليل والنهـار رقيبان، ولرضوى ولشمام نسيبـان، ومن

زحل والمريخ قريبان، ولعوادي الخطوب خطيبان، ولثور الفلك روقان، ولشخص الكرة الترابية ساقان.

قلت: ثم ذكر العماد جماعة ممن كان يقيم الضيافة له ولمثله من الفضلاء والأعيان، فذكر منهم الناصح مؤدّب أولاد السلطان، وله دار مشرفة على النيل، وذكر منهم اللسان الصوفي البلخي، وكان له صحبة قديمة بنجم الدين أيوب والد السلطان، وله دار أيضاً على شاطىء النيل برسم ضيافة من نزل به، قال: ثم وقف السلطان داره على الصوفية من بعده وانتقل بعد سنين إلى النعيم وخلده.

فصل

في بيع الكتب وعمارة القلعة والمدرسة والبيمارستان

قال العماد: وكان لبيع الكتب في القصر كل أسبوع يومان، وهي تباع بأرخص الأثمان، وخزائنها في القصر مرتبة البيوت مقسمة الرفوف، مفهرسة بالمعروف، فقيل للأمير بهاء الدين قراقوش متولي القصر، والحال والعاقد للأمر: هذه الكتب قد عاث فيها العث، وتساوى سمينها والغث، ولا غنى عن تهويتها ونفضها وإخراجها من بيوت الخزانة إلى أرضها، وهو تركي لا خبرة له بالكتب، ولا دربة له بأسفار الأدب، وكان مقصود دلالي الكتب أن يوكسوها، ويخرموها ويعكسوها، فأخرجت وهي أكثر من مائة ألف من أماكنها، وغربت من مساكنها، وخربت أوكارها، وذهبت أنوارها، وشتت شملها، وبت حبلها، واختلط أدبيها بنجوميها وشرعيها بمنطقيها، وطبيها بهندسيها، وتواريخها بتفاسيرها، ومجاهيلها بمشاهيرها، وكان فيها من الكتب الكبار وتواريخ الامصار ومصنفات الاخبار ما يشتمل كل كتاب على خمسين أو ستين جزأ مجلداً، إذا فقد منها جزؤ لا يخلف أبداً، فاختلطت واختبطت، فكان الدلال يخرج عشرة

عشرة من كل فن كتباً مبترة، فتسام بـالدون، وتباع بالهون، والدلال يعرف كل شدّة، وما فيها من عدّة، ويعلم أن عنـده من أجناسها وأنواعها، وقد شارك غيره في ابتياعها، حتى إذا لفق كتابـاً قد تقوّم عليه بعشرة باعه بعد ذلك لنفسه بمائة.

قال: فلما رأيـت الأمر حضرت القصر، واشتريت كما اشتروا، ومـريت الأطباء كما مـروا، واستكثرت من المتاع المبتـاع، وحويت نفـائس الأنواع، ولما عـرف السلطان مـا ابتعته وكـان بمئين أنعم علي بها وأبـرأ ذمتي مـن ذهبها، ثـم وهب لي أيضـاً من خزانـة القصر ما عينـت عليه مـن كتبها، ودخلت عليه يـوماً وبين يديه مجلدات كثيرة، انتقيت لـه من القصر، وهو ينظر في بعضهـا، وبسط يـدي لقبضها، قال: وكنـت طلبت كتباً عينتها فقـال: وهـل في هــذه شيء منهـا؟ فقلـت: كلهـا ومـا استغنـي عنهـا، فأخرجتها من عنده بحمال، وكان هذا منه بالإضافة إلى سماحه أقل نوال.

قال:وكان السلطـان لما تملك مصر رأى أن مصر والقاهرة لكـل واحدة منهما سور لا يمنعهـا، فقال: إن أفـردت كل واحـدة بسور احتـاجت إلى جند مفـرد يحميها، وإني أرى أن أديـر عليهما سوراً واحـداً من الشـاطىء إلى الشاطىء ، وأمـر ببناء قلعة في الوسـط عند مسجد سعد الـدولة على جبل المقطم، فابتدأ من ظاهـر القاهرة ببرج في المقسم وانتهى به إلى أعلى مصر ببروج وصلها بالبرج الأعظـم، ووجدت في عهد السلطان بيتـاً رفعه النواب وتكمل فيه الحساب، ومبلغه وهـو دائر البلدين مصر والقاهرة بما فيـه من سـاحـل البحـر والقلعة بـالجبـل تسعـة وعشرون ألفاً وثـلاثمائة وذراعان، من ذلـك ما بين قلعة المقسم على شاطىء النيـل والبرج بالكوم الأحمر بساحـل مصر عشرة آلاف وخمسمائة ذراع، ومن القلعة بـالمقسم إلى حائط القلعـة بالجبل بمسجـد سعد الـدولة ثمانية آلاف وثـلاثمائة واثنان وتسعون ذراعاً، ومـن جانب حائط القلعـة من جهة مسجد سعـد الدولة إلى البرج بـالكـوم الأحمر سبعـة آلاف ومـائتـا ذراع، ودائر القلعـة بجبـل

مسجد سعد الدولة ثلاثة آلاف ومائتان وعشرة أذرع، وذلك طول قوسه في أبدانه وأبراجه من النيل إلى النيل على التحقيق والتعديل، وذلك بالذراع القاسمي بتولي الأمير شهاب الدين قراقوش الأسدي، وبنى القلعة على الجبل، وأعطاها حقها من إحكام العمل، وقطع الخندق وتعميقه، وحفر واديه وتضييق طريقه، وهناك مساجد يعرف أحدها بمسجد سعد الدولة، فاشتملت القلعة عليها ودخلت في الجملة، وحفر في رأس الجبل بئر ينزل فيها بالدرج المنحوتة من الجبل إلى الماء المعين، ولم يتأت له هذا كله في سنين متقاربة لولا أعانه ربه المعين، وتوفي السلطان وقد بقي من السور مواضع والعمارة فيه مستمرة،ووظائف نفقاتها مستدرة.

قال: وأمر ببناء المدرسة بالتربة المقدسة الشافعية، ورتب قواعدها بفرط الألمعية، وتولاها الفقيه الزاهد نجم الدين الخبوشاني، وهو الشيخ الصالح الفقيه الورع التقي النقي.

قال: وأمر باتخاذ دار في القصر بيمارستانا للمرضى، وأستغفر الله بذلك واسترضى، ووقف على البيمارستان والمدرسة وقوفاً، وقد أبطل منكراً وأشاع معروفاً، وأضرب عن ضرائب فمحاها، وهب إلى مواهب فأسداها، واهتم بفرائض ونوافل فأدّاها.

فصل

في خروج السلطان إلى الاسكندرية وغير ذلك من بواقي حوادث هذه السنة

قال العماد: ثم خرج من القاهرة يوم الأربعاء الثاني والعشرين من شعبان، واستصحب ولديه الأفضل علياً والعزيز عثمان، وجعل طريقه على دمياط، ورأى في الحضور بالثغر المذكور ومشاهدته الاحتياط، وكان له بها سبي كثير جلبه الأسطول، فامتدّ بظاهر البلد يومين، ووهب لي منه جارية، ثم وصلنا إلى ثغر الاسكندرية، وتردّدنا مع السلطان إلى الشيخ الحافظ أبي طاهر أحمد بن محمد السلفي، وداومنا الحضور عنده واجتلينا من وجهه نور الايمان وسعده، وسمعنا عليه ثلاثة أيام الخميس والجمعة والسبت رابع شهر رمضان، واغتنمنا فرصة الزمان، فتلك الأيام الثلاثة هي التي حسبناها من العمر، فهي آخر ما اجتمعنا به في ذلك الثغر، وشاهدنا ما استجدّه السلطان من السور الدائر، وما أبقاه من حسن الآثار والمآثر، وما انصرف حتى أمر باتمام الثغور وتعمير الاسطول.

قال ابن أبي طيّ: ولما نوى السلطان المقام بالاسكندرية ليصوم فيها رأى أنه لا يخلي نفسه من ثواب يقوم له مقام القصد إلى بلاد الكفار والجهاد في المشركين، فرأى الاسطول وقد أخلقت سفنه وتغيرت آلاته، فأمر بتعمير الأسطول، وجمع له من الأخشاب والصناع أشياء كثيرة، ولما تم عمل المراكب أمر بحمل الآلات فنقل من السلاح والعدد ما يحتاج الاسطول اليه وشحنه بالرجال، وولى فيه أحد أصحابه، وأفرد له إقطاعاً مخصوصاً وديواناً مفرداً، وكتب إلى سائر البلاد يقول القول قول صاحب الأسطول، وأن لا يمنع من أخذ رجاله وما يحتاج إليه، وأمر صاحب الاسطول أن لا يبارح البحر، ويغزي إلى جزائر البحر.

قال العماد: وقلت في معنى تنقلي في البلاد:

يوماً بحيّ ويوماً في دمشق وبالـ
فسطاط يوماً ويوماً بالعراقين
كأن جسمي وقلبي الصب ما خلقا
إلا ليقتسما بالشوق والبين

وقلت يوم الخروج من القاهرة:

يا باخلاً عند الوداع بوقفة
لو سامني روحي بها لم أبخل
ما كان ضرك لو وقفت لسائل
ترك الفؤاد بدائه في المنزل
هلا وقفت لقلب من أحرقته
مقدار إطفاء الحريق المشعل
إن أسر مرتحلاً ففي أسر الهوى
قلبي لديك مقيداً لم يرحل
عذب العذاب لدى فؤادي المبتلى
إذ كنت أنت معذبي والمبتلي

وقلت وقد نزلنا بين منية غمر ومنية سمنود:

نزلت بأرض المنيتين ومنيتي
لقاؤكم الشافي ووصلكم المجدي
سأبلى ولا تبلى سريرة ودّكم
وتؤنسني إن مت في وحشة اللحد

قال: وعدنا من الاسكندرية في شهر رمضان، فصمنا بقية الشهر بالقاهرة، والسلطان متوفر في ليله ونهاره على نشر العدل وانشاره، وإفاضة الجود واغزاره، وسماع أحاديث الرسول صلى الله عليه وسلم وأخباره، وإشاعه العلم والإعلان بأسراره وإبداء شعار الشرع وإظهاره وابقاء المعروف على قراره، وإفناء أعلام الباطل وإنكاره.

وقال: ومن مدائحي في السلطان ما أنشدته إياه سادس شوّال:

فــديتــك مــن ظــالم منصــف ... ونــاهيــك مــن بــاخــل مسرف

ومنها:

أيبلــغ دهــري قصــدي وقــد ... قصــدت بمصر ذرا يــوســف

ويــوســف مصر بغير التقــى ... وبــذل الصنــائع لم يــوصــف

فسر وافتــح القــدس واسفــك بــه ... دمــاء متــى تجرهــا ينظــف

وإهــد إلى الاسبتــار البتــا ... روهــدّ السقــوف على الأسقــف

وخلــص مــن الكفــر تلــك البــلا ... د يخلصــك الله في الموقــف

وفيها وصل رسل المواصلة، وصاحبي الحصن وماردين إلى دمشق، فاستوثقوا بتحليف أخي السلطان شمس الدولة تورانشاه بن أيوب، ثم قصدوا مصر، ووقع رسول صاحب حصن كيفا في الأسر.

قال ابن أبي طي: وصل رسول الموصل القاضي عماد الدين بن كمال الدين بن الشهرزوري بهدية وقود، فخرج الموكب إلى لقائه، وأكرمه السلطان واحترمه، وقدم بعده رسول نور الدين قر ا أ رسلان، ورسول صاحب ماردين بهدايا، واجتمعوا في دمشق ، وخرجوا إلى السلطان بمصر، فاعترضهم الفرنج فأسر رسول صاحب الحصن ولم يزل في الأسر حتى فتح السلطان بيت الأحزان، فأطلقه وأحسن إليه.

قال: وفيها رجع قراقوش إلى أوجلة وتلك البلاد، فجمع أموالاً ورجع إلى مصر ثم أراد الرجوع فمنعه العادل ثم خلصه فرخشاه فرجع وفتح بلاد فزان باسرها.

-٨٢٤٩-

قال العماد: ثم خرج السلطان إلى مرج فاقوس من أعمال مصر الشرقية لإرهاب العدوّ، وهو يركب للصيد والقنص والتطلع إلى أخبار الفرنج لانتهاز الفرص، واقترح عليّ أن أمدح عز الدين فرخشاه بقصيدة موسومة ألزم فيها الشين قبل الهاء، فعملت ذلك في أواخر ذي الحجة فقلت:

مولاي عز الدين فرخشه
الدهر من برجك لا يخشه

ومنها:

تلقاه سمح الكف دفاقها
طلق المحيا كرما بشه
إن شئت فوتا بالردى فالقه
أو شئت فوزاً بالعلى فاغشه
يديم بالأيدي وبالأيد في
حزي لهاه والعدى بطشه
كم ملك عاداكم لم يبت
إلا جعلتم عرشه نعشه
خوّفتم الشرك فلا قمصه
أمنتم يوما ولا فنشه
أورثك السؤدد يابن العلى
والدك السيد شاهنشه

وقال في الخريدة: كنا مخيمين بمرج فاقوس مصممين على الغزاة إلى غزة، وقد وصلت أساطيل ثغري دمياط والاسكندرية بسبي الكفار، وقد أوفت على ألف رأس عدّة من وصل في قيد الاسار، فحضر ابن رواحة منشداً مهنئاً بعيد النحر سنة اثنتين وسبعين ومعرضاً بها وهبه الملك الناصر من الإماء والعبيد قصيدة منها:

لقد خبر التجارب منه حزم
وقلب دهره ظهراً لبطن
فساق إلى الفرنج الخيل براً
وأدركهم على بحر بسفن
وقد جلب الجواري بالجواري
يمدن بكل قد مرجحن
يزيدهم اجتماع الشمل بؤساً
فمريان يبوح على مرن
زهت اسكندرية يوم سيقوا
ودمياط إلى المينا بغين
يرون خياله كالطيف يسري
فلو هجعوا أتاهم بعد وهن
أبادهم تخوفه فأمسى
مناهم لو تبيتهم بأمن
تملك حولهم شرقاً وغرباً
فصاروا الاقتناص تحت رهن
أقام بآل أيوب رباطا
رأت منه الفرنجة ضيق سجن
رجا أقصى الملوك السلم منهم
ولم يرجهده في البأس يغني[151]

وفيها أبطل السلطان المكس الذي كان بمكة على الحاج، وسيأتي ذكره في أخبار سنة أربع وسبعين.

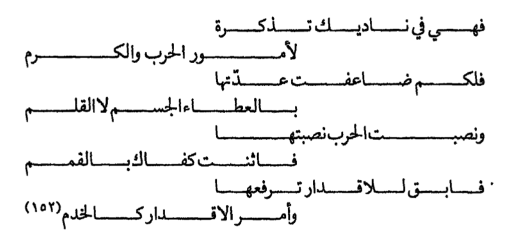
قال ابن الاثير: وفي سنة اثنتين وسبعين شرع مجاهد الدين ـ يعني ـ قايماز دزدار قلعة الموصل في عمارة جامعه بظاهر الموصل بباب الجسر، وهو من أحسن الجوامع، ثم بنى بعد ذلك الرباط والمدرسة والبيمارستان، وكلاهما متجاوران، قال: وتوفي في شهر ربيع الأول من سنة خمس وتسعين بقلعة الموصل وهو متوليها، والحاكم في الدولة الأتابكية النورية،

وكان ابتداء ولايته القلعة في ذي الحجة سنة احدى وسبعين، ثم قبض عليه سنة تسع و ثمانين وأعيد إلى ولايتها بعد الافراج عنه، وبقي إلى الآن، وكان أصله من أعمال شبختان، وأخذ منها وهو طفل، وكان عاقلاً خيراً ديناً فاضلا، تعلم الفقه على مذهب الامام أبي حنيفة رضي الله عنه، وكان يحفظ من الأشعار والحكايات والنوادر والتواريخ شيئاً كثيراً إلى غير ذلك من المعارف الحسنة، وكان يكثر الصوم، وله ورد يصليه كل ليلة، ويكثر الصدقة وبنى عدّة جوامع منها الذي بظاهر الموصل، وبنى عدّة خانقاهات منها التي بالموصل، ومدارس وقناطر على الأنهار إلى غير ذلك من المصالح، ومناقبه كثيرة.

قال العماد في الخريدة: تنزلنا ببركة الجب لقصد فرض الجهاد، وعرض الأجناد، فكتب الأسعد بن مماتي إليّ قصيدة في الملك الناصر، ويعرض بالشطرنج فإنه كان يشتغل به، وذلك في ذي القعدة سنة اثنتين وسبعين:

يا كريم الخيم في الخيم
أهيف كالريم ذو شمم
عجبي للشمس إذا طلعت
منه في داج من الظلم
كيف لا تصمي لواحظه
ورماة الطرف في العجم
لا تصد قلب المحب لكم
لا يحل الصيد في الحرم
يا صلاح الدين يا ملكا
مذ براه الله للأمم
أضحت الكفار في نقم
وغدا الاسلام في نعم
إن يك الشطرنج مشغلة
لعليّ القدر والهمم

-٨٢٥٢-


فهي في ناديك تذكرة
لأمور الحرب والكرم
فلكم ضاعفت عدّتها
بالعطاء الجسم لا القلم
ونصبت الحرب نصبتها
فاثنت كفاك بالفمم
فابق للاقدار ترفعها
وأمر الاقدار كالخدم[١٥٢]

وفيها توفي بالاسكندرية القاضي الشريف أبو محمد عبد الله العثماني الديباجي، من ولد الديباج محمد بن عبد الله بن عمرو بن عثمان بن عفان رضي الله عنهم، ويعرف بابن أبي الياس، من بيت القضاء والعلم، وكان واسع الباع في علم الأحاديث، كثير الرواية قيما بالأدب، متصرفاً في النظم والنثر إلا أنه مقل من النظم، أوحد عصره في علم الشروط وقوله المقبول على كل العدول، ذكر ذلك العماد رحمه الله في الخريدة.[١٥٣]

ثم دخلت سنة ثلاث وسبعين وخمسمائة

والسلطان مخيم بمرج فاقوس، فنظم العماد في الأجل الفاضل قصيدة ميمية في منتصف المحرم، وخدمه بها هناك في المخيم أوّلها:

ريم هضيم يروم هضمي
من سقم عينيه عين سقمي

إن رمت باعاذلي صلاحي
فخلني والهوى وزعمي

لو مسك يذكي الغرام قل لي
أنت نصحي أم أنت خصمي

أيا زماني الغشوم أقصر
إنك لا تستطيع غشمي

عبد الرحيم أضحى
عوني على خطبك الملم

الفاضل الأفضل الأجل
المفضل الأشرف الأشم

غيث غياث وجود جود
وبحر علم وطود حلم

يراعه في اليمين منه
تستخرج الدرّ من خضم

قال وكان عندنا بالمخيم بالعباسة في المحرم علم الدين الشاتاني، وهو من أدباء الموصل وشعرائها، وفصحائها وظرفائها، وفد سنة اثنتين وسبعين إلى مصر وأهدى النظم والنثر، واصطنعه عز الدين فرخشاه، وأنزله في جواره، وجمع له من رفده ومن الأمراء ألف دينار، فمدح السلطان بالمخيم بكلمة مطلعها:

غدا النصر معقودا برايتك الصفرا
فسر وافتح الدنيا فأنت بها أحرى (١٥٤)

قلت: لم يـذكر العماد من هذه القصيـدة غير هذا البيت، وإنـه لقائم مقام قصائد كثيرة، والشـاتاني هو أبو علي الحسن بن سعيـد، له ترجمة في تاريخ دمشق، وذكره العماد في الخريدة وذكر فيها من هذه القصيدة

يمينـك فيهـا اليمـن واليسر في اليسرى
فبشرى لمن يـرجـو النـدى منهما بشرى

قال العماد: وكانت الاعلام السلطانية صفراء لا يفارق نشرها نصراً

قلت: وفيها يقول بعض الفضلاء:

وأسـود خطـب دونـه الموت أحمر
أتـت بـالأيـادي البيـض أعـلامـه الصفـر
فمـذ ظهـرت منصـوبـة جـزمـت بها
ظهـور العـدى مـن رفعهـا انخفـض الكفـر
واضحـت تجوز الأرض شرقـا ومغـربـا
ولله في إعـلاء رتبتـه سرّ

وقال العماد: عـاد السلطان إلى القـاهرة، وأقام بها ثـم اهتمت بـالغزاة همتـه إلى غـزة وعسقلان، فخـرج يـوم الجمعـة ثالـث جمادى الأولى بعـد الصلاة، وخيـم بظاهـر بلبيس في خـامسه بخميسـه، ثم تقـدّمنا منـه إلى السـديـر، وخيمنا بـالمبرز ثـم نـودي خـذوا زاد عشرة أيام أخـرى زيـادة للاستظهار، ولإعواز ذلك عند توسط ديار الكفار.

قال العماد: فـركبت إلى سـوق العسكر لـلابتياع، وقـد أخذ السعـر في الارتفاع، فقلـت لغلامـي قد بدا لي وقـد خطر الرجـوع من الخطـر ببالي، فـاعرض للبيـع أجمالي وأثقـالي، وانتهـز فرصـة هـذا السعـر الغالي، وأنـا صاحب قلـم لا صاحب علم، وقد استشعرت نفسي في هـذه الغزوة من عاقبـة ندم، والمدى بعيد، والخطـب شديد، وهـذه نـوبة السيوف لا نـوبة الأقـلام، وفي سلامتنـا سلامـة الاسلام، والـواجب على كـل منا أن يلـزم

شغله، ولا يتعدّى حدّه ولا يتجاوز محله، لا سيما ونواب الديوان قد استأذنوا في العودة، وأظهروا قلة العدّة، وأظهرت سري للمولى الأجل الفاضل، فسره ذلك اشفاقا علي واحسانا إليّ، وكان السلطان أيضاً يؤثر ايثاري، ويختار اختياري فقال لي: أنت معنا أو عزمت أن تدعنا ولا تتبعنا؟ فقلت: الأمر للمولى، وما يختاره لي فهو أولى، فقال: تعود وتدعو لنا وتسأل الله أن يبلغنا من النصر سؤلنا، وكنت قد كتبت أبياتا إلى المخدوم الفاضل ونحن بالمبرز في العشرين من الشهر:

قيل في مصر نائل عدد الرمـ
ـل ووفر كنيلها الموفور
فاغتررنا بها وسرنا إليها
ووقعنا كما ترى في الغرور
وحظينا بالرمل والسير فيه
ومنعنا من نيلها الميسور
وبرزنا إلى المبرز نشكو
سدرا من نزولنا بالسدير
قيل لي سر إلى الجهاد وماذا
بالغ في الجهاد جهد مسيري
ليس يقوى في الجيش جأشي ولا قو
سي يرى موتوراً إلى موتور
أنا للكتب لا الكتائب إقدا
مي وللصحف لا الصفاح حضوري
كاد فضلي يضيع لولا اهتمام الـ
ـفاضل الفائض الندى بأموري
فأنا منه في ملابس جاه
رافلاً منه في حبير حبوري
فهو رقى من الحضيض حظوظي
وسما بي إلى سرير السرور

وقال: وما انقطعت عن السلطان في غزواته إلا في هذه الغزوة، وقد

عظم الله فيها من النبوة، وكانت غزوات السلطان بعدها مؤيدة، والسعادات فيها مجدّدة، وكنت لما فارقت القاهرة استوحشت وتشوّقت إلى أصدقائي وتشوّشت، وكتبت من المخيم ببلبيس إلى القاضي شمس الدين محمد بن محمد بن موسى المعروف بابن الفراش، وقد أقام بالقاهرة وكان صاحباً لي من الأيام النورية، واستشرته في التأخر عن السلطان، فكتب في الجواب: رافقه ولا تفارقه، فكرهت رأيه فكتبت إليه:

إذا رضيتم بمكروهي فذاك رضا
لا أبتغي غير ما تبغون لي غرضا
وإن رأيتم شفاء القلب في مرضي
فإنني مستطيب ذلك المرضا
أنتم أشرتم بتعذيبي فصرت له
متعذباً استلذ الهم والمضضا
أصبحت ممتعظاً من أجل أني لا
أرى صديقاً لما ألقاه ممتعضا
إن رمتم عوضاً بي في محبتكم
فحاش لله أن أبغي بكم عوضا
لله عيش تقضى عندكم ومضى
وكان مثل سحاب برقه ومضا
العيش دان جناه الغض عندكم
والقلب محترق مني بجمر غضا
ما كنت أعهد منكم ذا الجفاء ولا
حسبت أن ودادي عندكم رفضا
قد أظلم الأفق في عيني لغيبتكم
فإن أذنت لشخصي في الحضور أضا
ولست أوّل صب من أحبته
لما جفوا ما قضى أوطاره وقضى
مروا بما شئتم من محنة وأذى
فقد رأيت امتثال الأمر مفترضا

طوبى لكم مصر والدار التي قضيت
فيها المآرب والعيش الذي خفضا
بعيشكم إن خلوتم بانبساطكم
تذكروا ضجراً بالعيش منقبضا
رضيتم سفري عنكم واعهدكم
بسفرتي عنكم لا تظهرون رضا
هلا تكلفتم قولاً أسر به
هيهات جوهركم قد عادلي عرضا
تفضلوا واشرحوا صدري بقربكم
أو فاشرحوا لي ذا المعنى الذي غمضا

فكتب إلي في جوابها أبياتا منها:

لا تنسبوني إلى ايثار بعدكم
فلست أرضى إذا فارقتكم عوضا
ولي وداد تولى الصدق عقدته
فما تراه على الأيام منتقضا
يلقاك قلبي على سبل العتاب له
بصحة ليس يخشى بعدها مرضا
صرت كالدهر يجني أهله أسفا
ويلتقي من عتاب المذنب المضضا

قال: ثم ودعت وعدت ونهضوا وقعدت

فصل

في نوبة كسرة الرمله وكانت على المسلمين بالجملةوذلك يوم الجمعة غرة جمادى الآخرة أو ثانيه

ورحل السلطان بعساكره، فنزل على عسقلان يوم الأربعاء التاسع والعشرين من جمادى الأولى فسبى وسلب، وغنم وغلب، وأسر وقسر وكسب وكسر، وجمع هناك من كان معه من الأسارى، فضرب أعناقهم، وتفرق عسكره في الأعمال مغيرين ومبيدين، فلما رأوا أن الفرنج خامدون استرسلوا وانبسطوا، وتوسط السلطان البلاد، واستقبل يوم الجمعة مستهل جمادى الآخرة بالرملة راحلاً لقصد بعض المعاقل، فاعترضه نهر عليه تل الصافيه، فازدحمت على العبور أثقال العساكر المتوافيه، فما شعروا إلاّ بالفرنج طالبة بأطلابها، حازبة باحزابها، ذابة بذئابها، عاوية بكلابها، وقد نفر نفيرهم وزفر زفيرهم، وسرايا المسلمين في الضياع مغيره، ولرحى الحرب عليهم في دورهم مديره، فوقف الملك المظفر تقي الدين وتلقاهم وباشرهم ببيضه وسمره، فاستشهد من أصحابه عدّة من الكرام، انتقلوا إلى نعيم دار المقام، وهلك من الفرنج أضعافها، وكان لتقي الدين ولد يقال له أحمد أوّل ماطر شاربه، فاستشهد بعدما أردى فارساً.

قال: وكان لتقي الدين أيضاً ولد آخر اسمه شاهنشاه وقع في أسر الفرنج، وذلك أن بعض مستأمني الفرنج بدمشق خدعه، وقال له تجيء إلى الملك وهو يعطيك الملك، وزورّ له كتابا فسكن إلى صدقه، وخرج معه فلما تفرد به شدّ وثاقه وغله وقيده وحمله إلى الداوية، وأخذ به مالا، وجدّد عندهم حالاً وجمالاً، وبقي في الأسر أكثر من سبع سنين حتى فكه السلطان بمال كثير، وأطلق للداوية كل من كان لهم عنده من أسير، فغلظ القلب التقوي على ذلك الولد جر هلاك أخيه، ولما عاد من الغزوة زرناه للتعزية فيه، قال: ولو أن لتقي الدين رداء لأردى القوم، لكن

الناس تفرقوا وراء أثقالهم، ثم نجوا برحالهم وصوب العدوّ بجملتهم حملتهم على السلطان، فثبت ووقف على تقدمة من تخلف، وسمعته يوما يصف تلك النوبة، ويشكر من جماعته الصحبة، ويقول: رأيت فارساً يحث نحوي حصانه، وقد صوّب إلى نحري سنانه، فكاد يبلغني طعانه، ومعه آخران قد جعلا شأنهما شأنه، فرأيت ثلاثة من أصحابي خرج كل واحد إلى واحد منهم فبادروه وطعنوه، وقد تمكن من قربي فما مكنوه، وهم إبراهيم بن قنابر، وفضل الفيضي، وسويد بن غشم المصري، وكانوا فرسان العسكر، وشجعان المعشر، واتفق لسعادة السلطان أن هؤلاء الثلاثة رافقوه، وما فارقوه وقارعوا العدوّ دونه وضايقوه، فما زال السلطان يسير ويقف حتى لم يبق من ظن أنه يتخلف، ودخل الليل، وسلك الرمل، ولا ماء ولا دليل، ولا كثير من الزاد والعلف ولا قليل، وتعسفوا السلوك في تلك الرمال والأوعاث والأوعار، وبقوا أياما وليالي بغير ماء ولا زاد حتى وصلوا إلى الديار، وآذن ذلك بتلف الدواب وترجل الركاب ولغوب الأصحاب، وفقد كثير ممن لم يعرف له خبر ولم يظهر له أثر، وفقد الفقيه ضياء الدين عيسى وأخوه الظهير، ومن كان في صحبتهم فضل الطريق عنهم وكانوا سائرين إلى وراء، فأصبحوا بقرب الأعداء فأكمنو في مغاره وانتظروا من يدلهم من بلد الاسلام على عماره، فدل عليهم الفرنج من زعم أنه يدل بهم وسعى في أسرهم وعطبهم، فأسروا وما خلص الفقيه عيسى وأخوه إلا بعد سنين بستين أو سبعين ألف دينار، وفكاك جماعة من الكفار.

قال: وما اشتدّت هذه النوبة بكسره ولا عدم نصره، فإن النكاية في العدوّ وبلاده بلغت منتهاها وأدركت كل نفس مؤمنة مشتهاها، لكن الخروج من تلك البلاد شتت الشمل، وأوعر السهل، وسلك مع عدم الماء والدليل الرمل، ومما قدره الله تعالى من أسباب السلامة، والهداية إلى الاستقامة أن الأجل الفاضل استظهر في دخول بلاد الاعداء باستصحاب الكنانية والأدلاء وأنهم ما كانوا يفارقونه في الغداء والعشاء فلما وقعت

الواقعة خرج بدوابه وغلمانه وأصحابه وأدلائه وأثقالـه، وبث أصحابه في تلك الرمـال والوهاد والتلال، حتى أخذ خبر السلطـان، وقصده وأوضح بأدلائه جـدده، وفرّق ما كـان معه مـن الأزواد على المنقطعين، وجمعهم في خدمـة السلطان أجمعين، فسهل ذلـك الوعر وأنـس بعد الوحشـة القفر، وجبر الكسر، وكـان الناس في مبـدأ توجـه السلطـان إلى الجهاد، ودخـول الأجل الفـاضل معه إلى البـلاد، ربما تحدّثوا وقالـوا: لو قعد وتخلـف كان أولى بـه، فـإن الحرب ليست مـن دأبـه، ثـم عـرف أن السلامـة والبركـة والنجاة كـانت في استصحابه، وجـاء الخبر إلى القاهرة مع نجـابين فخلع عليهم وأركبـوا وأشيع بأن السلطـان نصره الله، وأن الفرنـج كسروا وغلبوا، فـركبت لأسمـع حديـث النجـابين، وكيف نصر الله المسلمين، وإذا هـم يقـولون :أبشروا فـإن السلطـان وأهله سـالمون، وإنهم واصلـون غانمـون، فقلت لرفيقي: مـا بشر بسلامة السلطان إلاّ وقد تمت كره، ومـا ثم سوى سلامته نصره، ولما قرب خـرجنا لتلقيه، وشكرنا الله على ما يسرّه مـن ترقيه وتوقيه، ودخل القاهرة يوم الخميس منتصـف الشهر، ونابت سلامته مناب الـدهـر، وسيرنا بها البشـائر، وأنهضنـا ببطـاقـاتها الطائر لإخـراس ألسنـة الأراجيف، وإبـدال التأمين مـن التخويـف، فقد كـانت نـوبتها هـائلة، ووقعتها غائله.

قال القـاضي ابن شـدّاد: خرج السلطـان يطلب السـاحل حتـى وافى الفـرنج على الـرملة، وذلـك في أوائل جمادى الأولى، وكان مقـدّم الفرنـج البرنـس أرناط، وكـان قد بيـع بحلب فـإنـه كان أسيراً بها مـن زمن نـور الديـن رحمه الله، وجرى خلـل في ذلك اليـوم على المسلمين، ولقد حكـى السلطـان قـدّس الله روحـه صـورة الكسرة في ذلـك اليـوم، وذلـك أن المسلمين كـانـوا قـد تعبّـوا تعبيـة الحرب فلما قـارب العـدوّ رأى بعـض الجماعـة تغيير الميمنـة إلى جهة الميسرة، والميسرة إلى جهـة القلـب ليكـون حال اللقـاء وراء ظهورهم تل معـروف بأرض الرملـة، فبينما اشتغلوا بهذه التعبية هجم الفـرنج، وقدّر الله كسرهم، فـانكسروا كسرة عظيمة، ولم يكن

لهم حصن قريب يأوون إليه، فطلبوا جهة الديار المصرية وضلوا في الطريق، وتبدّدوا، وأسر منهم جماعة منهم الفقيه عيسى، وكان وهناً عظيماً جبره الله تعالى بوقعة حطين المشهورة، ولله الحمد.

قلت: وذلك بعد عشر سنين، فكسرة الرملة هذه كانت في سنة ثلاث وسبعين، وكسرة حطين كانت في سنة ثلاث وثمانين.

قال العماد الكاتب وحيث كانت للملك المظفر تقي الدين في هذه الغزوة اليد البيضاء أنشدته قصيدة منها:

سقى الله العراق وساكنيه
وحيّاه حيا الغيث الهتون

وجيراناً أمنت الجور منهم
وما فيهم سوى واف أمين

صفوا والدهر ذو كدر وقدما
وفوا بالعهد في الزمن الخؤون

بنو أيوب زانوا الملك منهم
بحلية سؤدد وتقى ودين

ملوك أصبحوا خير البرايا
لخير رعية في خير دين

أسانيد السيادة عن علاهم
معنعنة مصححة المتون

بنو أيوب مثل قريش مجداً
وأنت لها كأنزعها البطين

أخفت الشرك حتى الذعر منهم
يرى قبل الولادة في الجنين

ويوم الرملة المرهوب بأسا
تركت الشرك منزعج القطين

وكنت لعسكر الاسلام كهفا
أوى منه إلى حصن حصين

وقد عرف الفرنج سطاك لما
رأوا آثارها عين اليقين
وأنت ثبت دون الدين تحمي
حماه أوان ولى كل دين

قال: واهتم السلطان بعد ذلك بإفاضة الجود، وتفريق الموجود، وانتقاد الناس بالنقود، والسنايا الصادقة الوعود، وجبر الكسير، وفك الأسير، وتوفير العدد وتكثير المدد، وتعويض ما نفق من الدواب، فسلوا ما نابهم، ولم يأسوا على ما أصابهم.

قال ابن أبي طي: وقال ابن سعدان الحلبي يمدح السلطان: ويذكر ما فعله على عسقلان، ويهون عليه أمر هذه الكسرة من قصيدة :

قربت من عسقلان كل نائبة
باتت تقل بوكاف من الاسل
فاض النجيع عليها وهي ممحلة
فأصبحت مرتعا للخيل والإبل
قل للفرنجية الخذلى رويدكم
بالثار أو تخرج الشعرى من الحمل
ترقبوها من الفوار طالعة
خوارق الأرض تمحو رونق الاصل
كأنني بنواصيهن يقدمها
كأس من الجود عريان من البخل
حسب العدا يا صلاح الدين حسبهم
أن يقرفوك بجرح غير مندمل
وهل يخاف لسان النحل ملتمس
مرت على أصبعيه لذة العسل

فصل

في وفاة كمشتكين وخروج السلطان من مصر بسبب حركة الفرنج

قال العماد: وقعت المنافسة بين الحلبيين مدبري الملك الصالح، واستولى على أمره العدل ابن العجمي، وكان سعد الدين كمشتكين الخادم مقدّم العسكر وأمير المعشر، وهو صاحب حصن حارم، وقد حسده أمثاله من الأمراء والخدّام، فسلموا لابن العجمي الاستبداد بتدبير الدولة، فقفز عليه الاسماعيلية يوم الجمعة بعد الصلاة في جامع حلب فقتلوه، واستقل كمشتكين بالأمر، فتكلم فيه حساده وقالوا للملك الصالح: ما قتل وزيرك ومشيرك ابن العجمي إلاّ كمشتكين فهو الذي حسن ذلك للإسماعيلية، وقالوا له: أنت السلطان، وكيف يكون لغيرك حكم أو أمر، فمازالوا به حتى قبض عليه وطالبوه بتسليم قلعة حارم، وأوقعوا به لأجلها العظائم، فكتب إلى نوابه بها فنبوا وأبوا فحملوه ووقفوا به تحت القلعة، وخوفوه بالصرعة فلما طال أمره قصر عمره، واستبد الصغار بعده بالأمور الكبار، وامتنعت عليه قلعة حارم، وجرد إليها العزائم، ونزل عليه الفرنج ثم رحلوا بقطيعة بذلها لهم الملك الصالح، واستنزل عنها أصحاب كمشتكين وولى بها مملوكاً لأبيه يقال له سرخك .

وقال ابن الاثير: سار الملك الصالح من حلب إلى حارم ومعه كمشتكين فعاقبه ليأمر من بها بالتسليم فلم يجب إلى ما طلب منه فعلق منكوسا ودخن تحت أذنه فمات وعاد الملك الصالح عن حارم ولم يملكها، ثم أنه أخذها بعد ذلك.

قال ابن شدّاد: أما الملك الصالح فإنه تخبط أمره، وقبض كمشتكين صاحب دولته، وطلب منه تسليم حارم إليه، فلم يفعل، فقتله، ولما سمع

الفرنج بقتله نـزلوا على حارم طمعاً فيها، وذلك في جمادى الآخـرة، وقاتل عسكر الملـك الصالح العسـاكر الفرنجيـة، ولما رأى أهل القلعة خطـرها من جانب الفرنج سلموها إلى الملك الصالح في العشر الأواخر من شهر رمضان، ولما عـرف الفرنـج بذلك رحلـوا عن حارم طـالبين بلادهـم، ثم عاد الصالـح إلى حلب، ولم يزل أصحابه على اختـلاف يميل بعضهم إلى جانب السلطان قدّس الله روحه.

قـال العماد: ووصل في هـذه السنة إلى السـاحل مـن البحر كنـد كبير يقال لـه اقلندس أكبر طواغيـت الكفر، واعتقـد خلو الشام مـن ناصري الاسلام، ومن جملـة شروط هدنة الفرنـج أنهم إذا وصل لهم ملك أو كبير مالهم في دفعـة تدبير أنهم يعاونـونه ولا يباينونـه، ويحالفونه ولا يخالفـونه، فإذا عاد عادت الهدنـة كما كانت ، وهانت الشدّة ولا نـت، وبحكم هذا الشرط حشدوا الحشود، وجنـدوا الجنود، ونزلوا على حماه في العشريـن من جمادى الأولى، وصاحبهـا شهاب الـدين محمـود الحارمي مـريض ونـائب السلطان بـدمشق يومئـذ أخوه الأكبر تورانشـاه، وهو والأمراء مشغـولون بلـذاتهم، وكان سيـف الديـن علي بن أحمد المشطـوب بالقـرب فدخلهـا وخرج للحرب، واجتمع إليها رجال الطعن والضرب، وجرت ضروب من الحروب، وكادت الفرنـج تهجم البلد فأخرجوهـم من الدروب، ونصر الله أهل الاسـلام بعد حصارهم لهم أربعـة أيام، فانهزم الملاعين، ونـزلوا على حصن حـارم كما تقدّم ذكـره، فرحلهـم عنه الملـك الصالـح بعد حصـار أربعة أشهر.

ومـن كتـاب فـاضلي إلى بغـداد: « خرج الكفـار إلى البـلاد الشـاميـة فاسخين لعقد كـان محكماً، غادرين غدراً صريحاً، مقـدّرين أن يجهزوا على الشام لما كـان بالجدب جريحاً، ونـزلوا على ظاهـر حماه يوم الاثنين الحادي والعشريـن مـن جمادى الأولى، وزحفـوا إليهـا في ثـانيـه، فخـرج إليهـم أصحابنا، وتضمـن كتاب سيف الديـن — يعني المشطوب — أن القتلى

من الفـرنج تزيـد على ألف رجل مـا بين فارس وراجل، شفـى الله منهم الصـدور، ورزق عليهـم النصر والظهـور، ثــم انصرفـوا مجمـوعـاً لهم بين تنكيس الصلب وتحطيم الأصلاب، مفرقـة أحزابهم عن المدينة المحروسة، كما افترقت عن المدينة الشريفة النبوية الأحزاب» .

قـال العماد: وتسامـع الحلبيـون بيوم رحيلنـا مـن مصر، لقصد الشـام، لنصرة الاسلام، وقالـوا: أوّل ما يصل صلاح الـدين نسلم حارم، فـراسلوا الفرنج وقاربـوهـم، وأرغبوهـم وأرهبوهـم، وقالوا لهم: صـلاح الدين واصل، ومالكـم بعد حصولـه عندكم حـاصل، فرحـل الفرنج بقطيعـة من المال أخذوهـا، وعدّة من الأسـارى خلصوها، ثـم توفي خال السلطـان شهاب الدين محمـود بن تكش الحارمي في جمادى الآخرة، وتوفي ولـده تكش ابن خـال السلطان قبلـه بثـلاثـة أيام، وذلـك أوان وقعـة الـرملة، ولما سمـع السلطـان بنـزول الفـرنـج على حـارم رحل مـن البركـة يـوم عيـد الفطـر بعسـاكره، ووصـل إيلة في عـاشر الشهر، واستنـاب بمصر أخاه العـادل، وأقـام بها أيضاً القـاضي الفـاضل بنيـة الحج في السنـة القـابلة، ووصـل السلطان إلى دمشـق في الرابع والعشريـن من شوّال، وممـا نظمه العماد في التشوق إلى مصر قوله:

ســـاكنـــي مصر هنـــا كـــم طيبهـــا
إن عيشي بعــــدكـــم لم يطـــب

لا عـــدمتـــم راحـــة مـــن قـــربها
فـــأنـــا مـــن بعـــدهـــا في تعـــب

بعـــد العهـــد بـــأخبـــاركـــم
فـــابعثـــوا أخبـــاركـــم في الكتـــب

ليـــت مصرا عـــرفـــت أني وإن
غبـــت عنهـــا فـــالهوى لم يغـــب

ومن ذلك قوله



تذكرت في جلق داركم
بمصر ويا بعد ما بيننا
وما أتمنى سوى قربكم
وذلك والله كل المنى
لكم بالجنان وطيب المقا
م وحسن النعيم بمصر الهنا

ومن ذلك أيضا

ياساكني مصر قد فقتم بفضلكم
ذوي الفضائل من سكان أمصار
لله دركم من عصبة كرمت
ودر مصركم الغناء من دار

ومن ذلك أيضا

يا حبذا مصر وبر
كتها وصدر والعريش
فهناك أملاكي الذي
ن سمت بعزهم العروش

قال: ووصل كتاب من الفاضل يذكر فيه أن العدوّ خذله الله نهض، ووصل إلى صدر، وقاتل القلعة ولم يتم له أمر، فصرف الله شره، وكفى أمره، ووصل من الفرنج مستأمن، وذكر أنهم يريدون الغارة على فاقوس، فاستقلوا أنفسهم، وعرجوا وذكر أنهم مضوا بنية تجديد الحشد، ومعاودة القصد.

قال: وأما نوبة العدوّ في الرملة، فقد كانت عثرة علينا ظاهرها، وعلى الكفار باطنها، ولزمنا ما نسي من اسمها، ولزمهم ما بقي من عزمها، ولا دليل أدل على القوة من المسير بعد شهرين من تاريخ وقعتها إلى الشام

- ٨٢٦٧ -

نخوض بلاد الفرنج بالقوافل الثقيلة، والحشود الكبيرة، والحريم المستور، والمال العظيم الموفور.

قال العماد: ولما دخلنا دمشق وجدنا رسل دار الخلافة قد وصلوا بأسباب العاطفة والرأفة، وكان حينئذ صاحب المخزن ظهير الدين أبوبكر منصور بن نصر العطار، وهو من ذوي الأخطار، وله التحكم في الايراد والاصدار، وقد توفر على محبة السلطان، وتربية رجائه، وتلبية دعائه، ووصل كتابه ورسوله بكل ما سر السرائر ونوّر البصائر.

- ٨٢٦٨ -

فصل

في ذكر أولاد السلطان

قال العماد: وفي هذه السنة ولد بمصر للسلطان ابنه أبو سليمان داود، وكتب الفاضل إلى السلطان يهنئه به ويقول: «إنه ولد لسبع بقين من ذي القعدة، وهذا الولد المبارك هو الموفي لاثني عشر ولداً بل لاثني عشر نجما متوقداً، فقد زاد الله في أنجمه على أنجم يوسف عليه السلام نجماً، ورآهم المولى يقظة، ورأى تلك الأنجم حلما، ورآهم ساجدين له، ورأينا الخلق له سجودا، وهو قادر سبحانه أن يزيد جدود المولى إلى أن يراهم أباء وجدوداً».

قال العماد: وكنت في بعض الليالي عند السلطان في آخر عهده، وجرى ذكر أولاده، واعتضاده بهم واعتداده، فقلت له: لو عرفت أيام مواليدهم في أعوامها لأنشأت رسالة على نظامها، فذكر لي ما أثبته على ترتيب أسنانهم:

— الملك الأفضل نور الدين أبو الحسن علي، ولد بمصر ليلة عيد الفطر عند العصر، سنة خمس وستين وخمسمائة.

— العزيز أبو الفتح عثمان، عماد الدين، ولد بمصر ثامن جمادى الأولى سنة سبع وستين.

— الظافر أبو العباس خضر مظفر الدين، ولد بمصر في خامس شعبان سنة ثمان وستين، وهو أخو الأفضل لأبويه

—الظاهر أبو منصور غازي غياث الدين، ولد بمصر منتصف رمضان سنة ثمان وستين.

— المعز أبـو يعقوب اسحـاق فتح الـدين، ولـد بمصر في ربيع الأوّل سنة سبعين.

— المؤيد أبـو الفتح مسعود نجم الـدين، ولد بدمشـق في ربيع الأوّل سنة إحدى وسبعين، وهو أخو العزيز لأبويه.

— الأعز أبو يـوسف يعقوب شرف الدين، ولـد بمصر في ربيع الآخر سنة اثنتين وسبعين، وهو أخو العزيز لأمه.

— الزاهر أبو سليمان داود مجير الديـن، ولد بمصر في ذي القعدة سنة ثلاث وسبعين، وهو أخو الظاهر لأمه.

—المفضل أبو موسى قطب الديـن، ثم نعت بالمظفر، ولد بمصر سنة ثلاث وسبعين وهو أخو الأفضل لأمه.

—الأشرف أبـو عبد الله محمـد عزيـز الديـن، ولد بـالشام سنـة خمس وسبعين وخمسمائة.

— المحسن أبـو العباس أحمد ظهير الدين، ولـد بمصر في ربيع الأوّل سنة سبع وسبعين وهو لأم الأشرف.

— المعظم أبو منصور تورانشاه فخر الدين، ولد بمصر في ربيع الأوّل سنة سبع وسبعين.

قلت: ومـات سنة ثمان وخمسين، وهـي السنة التـي أخرب العـدوّ من التتار خذلهم الله تعالى مدينة حلب وغيرها والله أعلم.

— الجواد أبو سعيـد أيوب ركن الـدين، ولد في ربيـع الأوّل سنة ثمان وسبعين وهو لأم المعز.

— الغالب أبـو الفتح ملكشاه نصير الديـن، مولده بالشـام في رجب سنة ثمان وسبعين وهو لأم المعظم.

—المنصور أبـو بكر، وهو أيضـاً أخو المعظم لأبـويه، ولد بحـران بعد وفاة السلطان.

قلت: فهـذه خمسة عشر ولداً ذكـرهم العماد في هذا الموضـع، وقال في آخـر كتاب الفتـح القـدسي، على ما سنـذكـره في آخـر هذا الكتـاب أن السلطان، لما توفي خلف سبعة عشر ولداً وابنـة صغيرة، فقد فاته هنا ذكر اثنين وهما عماد الدين شـاذي لأم ولد، ونصرة الدين مـروان لأم ولد، وأما البنت فهي مـؤنسة خاتون تزوّجهـا الملك الكامل محمد على مـا سنذكره، وهو ابـن عمها الملـك العادل أبي بكر بـن أيوب، وللسلطـان غير هؤلاء الأولاد ممـن درج في حياتـه كـالملك المنصـور حسن وسيـأتي ذكـر وفاتـه والأمير أحمد وهو الذي رثاه العرقلة بقوله:

أي هـــــــلال كسفـــــــا وأي غصـــــــن قصفـــــــا
كـــــان سراجـــــا قـــــد طفـــــى على الـــــورى ثـــــم انطفـــــا
لم يـــــركـــــب الخيـــــل ولم يقلـــــدوه مـــــرهفـــــا
قـــــل للنحـــــاة ويحكـــــم أحمد لم قد صرفا
صبرا صـــــلاح الـــــديـــــن يـــــا رب السماح والـــــوفـــــا(١٥٥)

قال العماد: وورد من الفـاضل كتاب تاريخه منتصـف ذي الحجة سنة ثلاث وسبعين ، يذكـر فيه فصولاً متعدّدة منها: للمـولى أولاد وقد صاروا رجالاً، ويجب أن يستجيد للقلاع رجـالاً، كما فعل السابقون أعماراً وأعمالاً،

وقيل القلاع أنوف من حلها شمخ بها «ما في الرجال على النساء أمين»
ومنها أبيات في ذكر السلام:

مملوك مولانا ومملوك ابنه ... وأخيه وابن أخيه والجيران
طي الكتاب إليه منه إجابة ... لسلام مولانا ابنه عثمان
والله قد ذكر السلام وإنه ... يجزي بأحسن منه في القرآن
وغريبة قد جئت فيها أوّلا ... ومن اقتفاها كان بعدي الثاني
فرسولي السلطان في أرسالها ... والناس رسلهم إلى السلطان

قلت: وقد وصف الفاضل الملك المؤيد في كتاب آخر فقال: « وقد تمطت به السنّ وامتدّت، وتأهبت السعادة لخطبته واعتدّت، ولا حظته العيون بالوقار، وطرفت دون جلالته وارتدّت».

وفي بعض كتب الفاضل عن السلطان إلى ولده الأفضل: « إعزازه لأهل الفضل دليل على فضله، وإن الأولى أن تكون كتب الأدب عند أهله، وما أبهجنا إذ جال في فضاء الفضائل، وخطب من أبكار المعالي كرائم العقائل، وآخى بين السيف والقلم، وصار في موكبه العلم والعلم».

ومن كتاب آخر في المعنى: « فلقد زادت هذه المنقبة في مناقبه، ونظمت عقود سؤدد في ترائبه».

فما ترجم الانسان عن سر فضله ... بأفضل من تقريبه لأولي الفضل

قال العماد: وخرج السلطان للصيد في ذي الحجة نحو قارا، فشكوت ضرسي، وعدمت أنسي، فرجعت مع عز الدين فرخشاه لحمى عرته فشكا منها لا تزور إلاّ نهاراً جهاراً، ولا يفارق العرق بالضد من الحمى التي وصفها أبو الطيب المتنبي فنظمت فيه كلمة طويلة أوّلها:

يمينك دأبها بذل اليسار
وكفك صوبها بدر النضار
وإنك من ملوك الأرض طراً
بمنزلة اليمين من اليسار
وأنت البحر في بث العطايا
وأنت الطود في بادي الوقار

ومنها في وصف الحمى

وزائرة وليس بها حياء
فليس تزور إلا في النهار
ولو رهبت لدى الاقدام جوري
لما رغبت جهاراً في جواري
أتت والقلب في وهج اشتياق
ليظهر ما أواري من أواري
ولو عرفت لظى سطوات عزمي
لكانت من سطاي على حذار
تقيم فحين تبصر من أتاني
ثبات الطود تسرع في الفرار
تفارقني على غير اغتسال
فلم أحلل لزورتها إزاري

ومنها:

أيا شمس الملوك بقيت شمساً
تنير على الممالك والديار

ومنها:

أحماك استعار لفح نار ... لعزمك لم تزل ذات استعار

فصل

قال العماد: وفي العشر الأوّل من ذي القعدة قتل عضد الدين رئيس الرؤساء وزير الخليفة ببغداد على أيدي الملاحدة، وكان قد توجه إلى الحج، فوقف له في مضيق قَطُفْتا (١٥٦) غربي دجلة كهل في يده قصة يزعم إنه يريد رفعها إلى الوزير من يده إلى يده، فأومأ ليوصل قصته فانتهز فيه فرصته فقتله، وبدر كمال الدين أبو الفضل بن الوزير فقتل قاتل أبيه بسيفه، وكان مع ذلك الجاهل الملحد رفيقان له، فجرح أحدهما حاجب الباب ابن المعوج فمات، وجرح آخر ولد قاضي القضاة، وقطع الملاحدة وأحرقوا واستقل ظهير الدين أبوبكر منصور بن نصر المعروف بابن العطار صاحب المخزن بالدولة، وكان للسلطان خدنا مصافيا.

قلت: وابن العطار هذا، هو المرجوم المسحوب بعد موته ببغداد كما سيأتي ذكره في آخر حوادث سنة خمس وسبعين.

قال ابن الاثير: وكنت حينئذ ببغداد عازماً على الحج، فعبر عضد الدين دجلة في شبارة، فلما ركب دابته والناس معه ما بين راكب وراجل تقدّم إليه بعض العامة ليدعو له، فمنعه أصحابه، فزجرهم وأمرهم أن لا يمنعوا أحداً عنه، فتقدّم إليه الباطنية فقتلوه بالجانب الغربي فتوفي بها.

قال العماد: ووردت مطالعة الفاضل إلى السلطان تتضمن التوجع لقتل الوزير عضد الدين وفيها: « (وماربك بظلام للعبيد (١٥٧)) فقد كان عفا الله عنه قتل ولدي الوزير ابن هبيرة، وأزهق أنفسهما وجماعة لا تحصى.

من ذا يسر بذنبه
والدهر لا يغتربه

وهذا البيت بيت ابن المسلمة عريق في القتل، وجده هو المقتول بيد البساسيري في وقت إخراج الخليفة القائم في أيام الملقب بالمستنصر بمصر، فهو من ذرّية لم تزل قاتلة مقتوله، وما زالت السيوف عليها ومنها مسلولة، فهم في هذه الحادثة المسمعة المصمة كما قال دريد:

أبى الموت إلا آل صمة (١٥٨)

والأبيات المولى يحفظها وهي في الحماسة، وقد ختمت له السعادة، بما ختمت به له الشهادة، لا سيما وهو خارج من بيته إلى بيت الله قال الله سبحانه: (ومن يخرج من بيته مهاجرا إلى الله ورسوله ثم يدركه الموت فقد وقع أجره على الله) (١٥٩)

إن المساءة قد تسر وربما
كان السرور بما كرهت جديرا
إن الوزير وزير آل محمد
أودى فمن يشناك كان وزيرا

وهذان البيتان قيلا في أبي سلمة الخلال أوّل وزير لبني العباس».

قلت: وبلغني أن الفاضل قال في ذلك:
وأحسن من نيل الوزارة للفتى
حياة تريه مصرع الوزراء

قال العماد: وكان ضياء الدين بن الشهرزوري قد سار في الرسالة إلى بغداد، وتوقف في الموصل لحادثة الوزير، ووافق وصوله إلى الموصل وفاة ابن عمه القاضي عماد الدين أحمد بن القاضي كمال الدين بن الشهرزوري، وكان شاباً، وجاء كتاب الفاضل يذكر ذلك وفيه:

يــــــــــدلى ابـــــــــن عشرون في لحده
والتسعـــــون صـــــاحبهـــــاراتــــع

اغتبـط الولـد مـع نضارة الشبـاب المقتبـل، وعمر الـوالـد مع ذبـول المشيب المشتمـل، ليعلم أن الشيـب ليس بمسلـم، وأن الشباب الغـض ليس بمانع، وليكون العبد حذراً مـن بغتات الآجال في كل الأحوال، والله يطيل للمـولى العمر كما أطـال له في القدر، ويسمـع منه، ولا يسمـع فيه ويبقيه سنداً للدين الحنيفي فإن بقاءه يكفيه .

آخر الجزء الأول مـن الأصل المنقـول منه، الـذي هو بخـط المؤلف . ويتلوه في الجزء الثاني — إن شاء الله تعالى: ثم دخلت سنة أربع وسبعين وخمسمائة. والحمد لله وحده، وصلى الله على من لانبي بعده.

على يد العبد الضعيـف، المفتقر إلى رحمة ربه اللطيف، محمـد بن أحمد البودري المغربي الأزهري، لطف الله به وبالمسلمين أجمعين.

وذلك في غـرة ربيع الأول مـن شهور ألـف ومائة وعشرون مـن الهجرة النبوية، على صاحبها أفضل الصـلاة والسلام. وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين.

آخر الجزء الأول مـن الروضتين بـأخبار الـدولتين النوريـة والصلاحيـة لأبي شامة رحمه الله تعالى.

بسم الله الرحمن الرحيم

وبه ثقتي

ثم دخلت
سنة أربع وسبعين وخمسمائة

قال العماد: وكان شمس الدين بن المقدم من أكابر الأمراء وهو السابق إلى مكاتبة السلطان في تصويب رأيه في الوصول إلى الشام، وتدارك أمر الاسلام، وكان السلطان عند تسلم بعلبك أنعم بها عليه، ورد أمورها إليه، فأقام بها مستقرا ولأخلاف أعمالها مستدرا، ولما وصل السلطان في هذه النوبة إلى الشام، لم يحضر كما جرت العادة للخدمة والسلام، فإنه كان ينمي إليه أن الملك المعظم مجد الدين شمس الدولة تورانشاه بن أيوب طلبها من أخيه، وأنه لايمكنه الرد فخاف من الحضور أن تتم الأمور، وروجع في ذلك مرارا سرا وجهارا والتزم له أن يعوض عنها، ماهو أوفى منها، فأبى إلا الاباء وشارف السلطان منه ومن أخيه الحياء وشمس الدولة لايقبل عذرا، ولايرى عما طلبه صبرا، ثم استأذن أخاه في التوجه إليها فأذن له، وتوجه عز الدين فرخشاه إلى حوران لحفظ الثغور، وسار السلطان إلى حمص، ونزل على العاصي عازما على الجهاد.

ووردت من الفاضل كتب من بعض فصولها: وأما سور القاهرة فعلى ماأمر به المولى شرع فيه، وظهر العمل وطلع البناء، وسلكت به الطريق المؤدية إلى الساحل بالمقسم، والله يعمر المولى إلى أن يراه نطاقا مستديرا على البلدين وسورا بل سوارا يكون به الاسلام محلى اليدين، محلاً الضدين، والأمير بهاء الدين قراقوش ملازم الاستحثاث بنفسه ورجاله، لازم لما يعنيه بخلاف أمثاله، قليل التثقيل مع حمله لأعباء التدبير وأثقاله.

ومنها في حق نقل القضاء من شرف الدين بن أبي عصرون لما ذهب بصره إلى ولده: لن يخلو الأمر من قسمين، والله يختار للمولى خيرة الأقسام، ولاينسى له هذا التحرج الذي لايبلغه ملك من ملوك الاسلام إما ابقاء الأمر باسم الوالد بحيث يبقى رأيه ومشاورته وفتياه وبركته، ويتولى ولده النيابة ويشترط عليهما المجازاة لأول زله، وترك الإقالة لأول عثرة، فطالما بعث حب المنافسة الراجحة على إكتساب الأخلاق الصالحة، وأما أن يفوض الأمر إلى الإمام قطب الدين، فهو بقية المشايخ وصدر الأصحاب، ولايجوز أن يتقدم عليه في بلد إلا من هو أرفع طبقة في العلم منه.

ومنها في إقامة عذر التأخر عن الجهاد: وأما تأسف المولى على أوقات تنقضي عاطلة من الفريضة التي خرج من بيته لأجلها، وتجدد العوائق التي لايوصل إلى آخر حبلها، فللمولى نية رشده، وأليس الله العالم بعبده، وهو سبحانه لايسأل الفاعل عن تمام فعله لأنه غير مقدور له، ولكن عن النية لأنها محل تكليف الطاعة، وعن مقدور صاحبها من الفعل بحسب الاستطاعة، وإذا كان المولى آخذا في أسباب الجهاد وتنظيف الطرق إلى المراد، فهو في طاعة قد امتن الله عليه بطول أمدها، وهو منه على أمل في نجح موعدها، والثواب على قدر مشقته وإنما عظم الحج لأجل جهده وبعد شقته، ولو أن المولى فتح الفتوح العظام في أقل

الأيام، وفصل القضية بين أهل الاسلام وأعـداء الاسلام، لكانت تكاليف الجهاد قد قضيت، وصحائف البر المكتسبة بالمرابطة والانتظار طويت.

ومنهـا في ذكر أولاد السلطـان: وقبـل الإجـابة عـن الفصـول فنبشر بما جـرت العادة بـه لاقطـع الله تلـك العـادة مـن سلامـة وصحـة وعافيـة شملت مـوالينا وأولاده السـادة، أطاب اللـه الخبر إليهم عـن المولى، وإلى المولى عنهم، وعجل لقاءه لهم ولقـاءهم له، فإنهم من يلق منهـم، بل كل منهم ملك دسته برجه، وفارس مهده سرجـه، فهـم بحمد الله بهجة الدنيا وزينتها، وريحانة الحياة وزهرتها، وإن فؤادا وسـع فراقهم لواسع، وإن قلبا قنع بـأخبارهم لقـانع، وإن طرفا نـام على البعد عنهم لهاجـع، وإن ملكا ملك تصبره عنهـم لحازم، وإن نعمة اللـه فيهم لنعمـة بها العيش نـاعم، أما يشتـاق جيد المولى أن يتطوق بـدررهم، أما تظمـى عينه إلى أن تتروى بنظرهم، أمـا يحن قلبه على قلبه، أما يلتقـط هذا الطائر بتقبيلهم مـاخرج من حبه، وللمولى أبقاه الله تعالى أن يقول:

ومـــا مثـــل هـــذا الشـــوق تحمـــل مضغـــة
ولكـــــن قلبـــــي في الهوى متقلـــــب

وفي أخرى: والملـوك الأولاد في كفالـة العافية لارفعـت عنهم كفـالتها، وعليهـم جلالـة السلطنـة لافارقتهـم جلالتهـا، وكـل من الموالي السـادة الأمراء الأولاد والقـادة كلهم جـوهر، وكلهـم المقدم، وليـس فيهم بحمـد الله من يـؤخر على ماعود الله من صحـة وسلامه، وكفاية ووقـاية، ولزوم المستقبل منهـم لمشهد الكتـاب، ولموقف الأمـاج(١) ومخائل الخفر فيهـم مـن تحت ليل الصبـا أنور دلالـة مـن ضوء السراج، واللـه تعالى يمـد في عمر المولى إلى أن يرى مـن ظهورهـم مارأى جدهـم رحمه اللـه في أهل بيته مـن البطن الـرابع، فـوارس الحرب الرائعـة، وملوك الاسـلام التي منهـم لـلاسم أكـاسرةوتبابعـة، ومافيهـم عند العـلا صغير، وصغير أبناء الكبـار

كبار، نجوم الأرض،(وذرية بعضها من بعض)(٢) والخلف الصالح المحض،وهم في الدنيا والآخرة فرسان القوة والتقى في يوم الحرب ويوم العرض.

ومنها في ذم ماء دمشق ووخمها: عرف المملوك من الكتب الواصلة التياث جسم المولى الأمير عثمان، والحقير مما ينال ذلك الجسم الكريم توقد في قلوب الأولياء الأثر العظيم، وقليل قذاة العين غير قليل، وماذا يقول في بلد لو صحت الحمية من مائة، لكانت من أكبر أسباب صحة المحتمى، وشفائه، فإنه ماء يؤكل، وبقية المياه تشرب، ويجد وخامته من ينصف ولايتعصب.

ومنها: وأما المأمور به في معنى المنكرات الظاهرة وإزالة أسبابها، وإغلاق أبوابها، وتحصين كل مبتوتة من عصمه، وتطهير كل موسومة بوصمه، فالله يثيب المولى ثواب من غضب ليرضيه بغضبه، وحمل الخلق على منهاج شرعه وأدبه.

ثم أورد العماد فصولا كثيرة، وقال: إنما أوردت الفصول الفاضلية لأن في كل فصل منها ذكر سيرة، وفوائد كثيرة.

- ٨٢٨٠ -

فصل

قال العماد: ومن جملة ما أغفلته ذكر ماأسقطه السلطان من مكس مكة شرفها الله تعالى عن الحاج، وتعويض أميرها بجلاب غلة إليه في كل سنة، وتعيين ضياع موقوفة عليها بالأعمال المصرية.

كان الرسم بمكة أن يؤخذ من حاج المغرب على عدد الرؤوس ماينسب إلى الضرائب والمكوس، فإذا دخل حاج حبس حتى يؤدي مكسه، ويفك بما يطلبونه منه نفسه، وإذا كان فقيرا لايملك، فهو يحبس ولايترك وتفوته الوقفة بعرفة ولايدرك، فقال السلطان: نريد أن نعوض أمير مكة عن هذا المكس بمال، ونغنيه عنه بنوال، وإن أعطيناه ضياعا استوعبها، ارتفاعا وانتفاعا، فلا يكون لأهل مكة فيها نصيب، فقرر معه أن يحمل إليه في كل سنة مبلغ ثمانية آلاف أردب قمح إلى ساحل جده، فإن الأمير بها يحتاج إلى بيعها للإنتفاع بأثمانها، ويثق أهل الحرمين من الدولة بدوام إحسانها، وقرر أيضا حمل الغلات إلى المجاورين بالحرمين والفقراء، ومن هناك من الشرفاء، ووقف لها وقوفا، وخلد بها إلى قيام الساعة معروفا، فسقطت المكوس، واغتبطت النفوس، وزاد البشر وزال العبوس، واستمرت النعمى، وزال البؤس، وذلك في سنة اثنتين وسبعين.

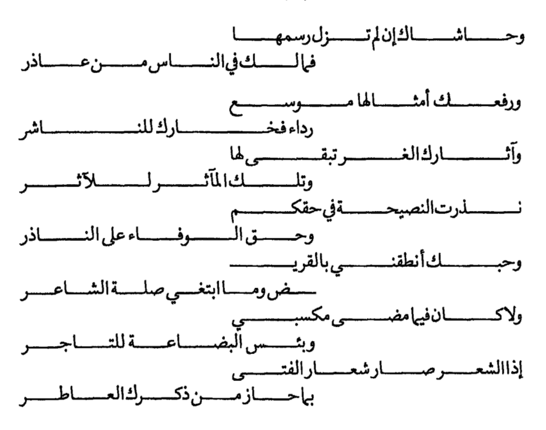
ومن كلام الفاضل في ذلك في بعض كتبه: من البشائر التي لاعهد لحاج ديار مصر بمثلها، ولاعهد لملك من ملوك الديار المصرية بالحصول على فخرها وأجرها، انقطاع المكاسين عن جدة، وعن بقية السواحل، ويكفي أن تمام هذه المثوبة موجب الاستطاعة مقيم بحجة الله في الحج، فقد كانت الفتيا على سقوطه مع وجود الحامل، وما أكثر ماأجرى الله للخلائق على يد المولى من الأرزاق، التي تفضل عن الاستحقاق، وماأولاه بأن يتوخى بالمعروف مكانه من هذين الحرمين الشريفين المهجورين من إسعاف أهل الاقتدار، والمحروم من قدر فيهما على خير

فأضاع فرضيته، بترك البدار، وغير خاف عن مولانا همة الفرنج بالقدس برا وبحرا، ومركبا وظهرا، وسلما وحربا، وبعدا وقربا، وتوافيهم على حماسه، وهو أنف في وجه الاسلام، ومسارعتهم إلى نصرة أهليه بالأرواح والأموال على مر الأيام،ومعاذ الله أن يستبصروا في الضلال، ونصرف نحن عن الحق، ويضيق بنا في التوسعة على أهله سعة المجال، والمملوك في مستهل رجب بمشيئة الله معول على السفر إلى الحجاز لقضاء الفريضة قولا وفعلا، والسائرون في هذه السنة بطمعة وقفة الجمعة، وبفسحة وضع المكس خلق لايحصى، والمولى شريك في أجرهم، فليهنه إن الملوك عمرت بيوتها فخربت، وإن المولى عمر بيت الله، فمن كرمه سبحانه أن يعمر بيت المولى، ومأأشد خجل الملوك من النبي صلى الله عليه وسلم في التقصير في قوت جيرانه في هذه السنة، وماهكذا أوصى ابن اللمطي ولكن للغائب حجته.

قلت: وفي هذه المكرمة التي فعلها صلاح الدين رحمه الله بالحاج يقول الشيخ الفاضل أبو الحسين محمد بن أحمد بن جبير الاندلسي، من قصيدة له يمدح بها صلاح الدين وستأتي فيما بعد، أخبرني بها ثقة نقلها من خطه:

رفعت مغارم مكس الحجا
زبانعامك الشامل الغامر
وأمنت أكناف تلك البلا
دفهان السبيل على العابر
وسحب أياديك فياضة
على وارد وعلى صادر
فكم لك بالشرق من حامد
وكم لك بالغرب من شاكر

وكم بالدعاء لكم كل عا
م بمكة من معلن جاهر
وقد بقيت حسبة في فلا
ن وتلك الذخيرة للذاخر
يعنف حجاج بيت الاله
ويسطو بهم سطوة الجابر
ويكشف عما بأيديهم
وناهيك من موقف صاغر
وقد وقفوا بعدما كشفوا
كأنهم في يد الآسر
ويلزمهم حلفا باطلا
وعقبى اليمين على الفاخر
وإن عرضت بينهم حرمة
فليس لها عنه من ساتر
أليس على حرم المسلمي
ن بتلك المشاهد من غائر
ألا حاضر نافع زجره
فياذلة الشاهد الحاضر
ألا ناصح مبلغ نصحه
إلى الملك الناصر الظافر
ظلوم تضمن مال الزكا
ة لقد تعست صفقة الخاسر
يسر الخيانة في باطن
ويبدي النصيحة في الظاهر
فأوقع به حادثا إنه
يقبح أحدوثة الذاكر
فما للمناكير من زاجر
سواك وبالعرف من آمر


وحاشاك إن لم تزل رسمها
فما لك في الناس من عاذر
ورفعك أمثالها موسع
رداء فخارك للناشر
وآثارك الغر تبقى لها
وتلك المآثر للآثر
نذرت النصيحة في حقكم
وحق الوفاء على الناذر
وحبك أنطقني بالقريض
وما ابتغي صلة الشاعر
ولا كان فيما مضى مكسبي
وبئس البضاعة للتاجر
إذا الشعر صار شعار الفتى
بما حاز من ذكرك العاطر

قال العماد: وفي المحرم من هذه السنة توفي الحكيم مهذب الدين أبو الحسن علي بن عيسى، المعروف بابن النقاش البغدادي بدمشق، وكان كنعته مهذبا، ومن الملوك لتفرده بفضله مقربا، وهو مبرز في فنه، حتى أن من شذا شيئا من الطب تنجح بأنه قرأ عليه، وتردد لاستفادته إليه، وقدراضته العلوم الرياضية، وأحكمت أخلاقه المعارف الحكمية

وفي الثاني عشر من جمادي الأولى توفي الأمير نجم الدين بن مصال بمصر، وجاءنا نعية ونحن بحمص، فجاوز اغتمام السلطان برزئه حده، وجلس في بيت الخشب مستوحشا وحده، وقال: لايخلف الدهر لي صديقا مثله بعده، وأجرى ماكان له جميعه لولده، وحفظ عهده، وكان لجماعة من الأعيان والشعراء والأماثل والأدباء بعنايته ووساطته من السلطان رزق أبقاه عليهم، كأنه عليه مستحق.

وفي العشر الأول من ربيع الآخر أغارت طائفة من الفرنج على بلد حماة، فخرج إليها متولي عسكر حماة الأمير ناصر الدين منكورس بن خمارتكين صاحب حصن بوقبيس فأسر المقدمين، وسفك بسيفه دم الباقين، وجاء إلى الخدمة السلطانية بظاهر حمص، وساق معه الأسارى، فأمر السلطان بضرب أعناقهم، وأن يتولى ذلك أهل التقى والدين من الحاضرين ، فتقدم إمامه الضياء الطبري وضرب عنق بعضهم، وتلاه الشيخ سليمان المغربي ثم الأمير ايطغان بن ياروق، واستدعى العماد وأمر بذلك، فلم يفعل وطلب أن يملكه السلطان منهم صغيرا فعوض عنه.

ثم رحل السلطان على طريق الزراعة إلى بعلبك فنازلها محاصرا من غير قتال، فطال أمرها ولم يسمح بها صاحبها، ودخل فصل الشتاء، فرحل السلطان عنها إلى دمشق، ووكل بها من يحصرها بالمنع من الخروج والدخول من غير قتال، وهم جماعة مع طغرل الجاندار، ودخل إلى دمشق في العشر الأواخر من رجب، وتمادى الأمر إلى أن رضي ابن المقدم بحصن بعرين وأعماله، وببلد كفر طاب وأعيان نواحي وقرى من بلد المعرة، وسلم بتسليم بعلبك من المضرة والمعرة، وكان الذي أخذه أكثر وأنفع مما خلاه، وماخطر له ولاترجاه ولاتمناه.

- ٨٢٨٥ -

فصل

كالذي قبله في حوادث متفرقة

قال العماد: كتب النواب بدمشق إلى السلطان أن الأموال ضائعة، وأن الأطماع فيها رائعة، وأن في أرباب الصدقات أغنياء لايستحقونها، ومالهم رقبة من الله يتقونها، وإن أرباب العنايات استوعبوها وما استوجبوها، وإن المصلحة تقتضي أفراد جهات لما تسنح من مهمات، وكانت الصدقات مبلغ أحد عشر ألف دينار، فقال لي: اكتب عليها جميعها بالإمضاء، ولاتكدر على ذوي الآمال موارد العطاء، فقلت: أما أتلو عليك الأسماء؟ فقال: لابل نزهني عن هذه الأشياء، فبقيت تلك الرسوم دارة، والآمال بها سارة.

قال: وفي شعبان من هذه السنة توفي متولى المقياس بمصر، ففوض السلطان منصبه إلى أخيه، قال :وهذا المقياس موضع مبني من عهد خلفاء بني العباس، ليعرف زيادة الماء ونقصانه بالقياس، وهناك عمود في الماء مقسوم بالأذرع، والأذرع مقسومة بالأصابع في مسجد ينوب في الجزيرة عن الجامع، تصلى فيه الجماعات والجمع ويتولاه من العهد القديم متول من ولد أبي الرداد، ممن هو معروف بالنزاهة والعلم والسداد، وله راتب دار ورسم وقرار.

قلت: بلغني أن أبا الرداد هذا كان معلما من أهل الصدق والصلاح، رتبه جعفر المتوكل على الله في ولاية المقياس، وبقي من بعده على ولده.

وقرأت في تاريخ الغرباء الذين قدموا مصر لأبي سعيد بن يونس، قال: عبد الله بن عبد السلام بن الرداد العمي، بصري قدم مصر

وحدث بها، وكان قد جعل على قياسة النيل، توفي بمصر لسبع بقين من رجب سنة ست وستين ومائتين، وذكره أبو سعيد في أهل مصر أيضا، وقال فيه: ولد هو وأبوه بمصر.

قال ابن الأثير: وفي سنة أربع وسبعين وخمسمائة اشتد الغلاء وعم أكثر البلاد العراق ومصر وديار بكر، وديار الجزيرة، والشام وغير ذلك من البلاد، ودام إلى أن انقضى سنة خمس وسبعين، وخرج الناس في البلاد يستسقون فلم يسقوا، ثم إن الله تعالى رحم عباده، ولطف بهم، وأنزل الغيث، وأرخص الأسعار، ومن عجيب مارأيت تلك السنة أنني كنت في الجزيرة، فأقبل انسان تركماني قد أثر فيه الجوع، وكأنه قد أخرج من قبر، فبكى وشكا الجوع، فأرسلت من اشترى له خبزا فتأخر إحضاره لعدمه، وهو يبكي ويتمرغ على الأرض فتغيمت السماء وجاءت نقط مطر متفرقة، وضج الناس، ثم جاء الخبز فأكل التركماني، وأخذ الباقي معه ومشى، واشتد المطر، ودام من تلك الساعة، فرخصت الأسعار ووجدت الأقوات بعد أن كانت معدومة، ثم تعقب الغلاء وباء شديد كثير، وكان مرض الناس شيئا واحدا وهو برسام فمات فيه من كل بلد أمم لايحصون كثرة، ولقي الناس منه ماأعجزهم حمله، ثم إن الله تعالى رفعه في سنة ست وسبعين وخمسمائة، وقد ضعضع العالم.

-٨٢٨٧-

فصل

في عمالة حصن بيت الأحزان ووقعة الهنفري

قال العماد: وفي مدة مقام السلطان على بعلبك واشتغاله بأمرها، انتهز الفرنج الفرصة فبنوا حصنا على مخاضة بيت الأحزان، وبينه وبين دمشق مسافة يوم، وبينه وبين صفد وطبرية نصف يوم، وقيل للسلطان متى أحكم هذا الحصن، تحكم من الثغر الاسلامي الوهن، وغلق الرهن، فيقول إذا أتموه نزلنا عليه وهدمناه إلى الأساس، وجعلناه من الرسوم الأدراس، فكان الأمر بعد سنة على ماجرى لفظه من عدة حسنه، فلما انقضى أمر بعلبك وصل السلطان دمشق فأقام بها وأمر الحصن من همه، وقصد حصاره من عزمه، وكان العام مجدبا والجدب عاما، وقيل للسلطان ليس هذه سنة جهاد فإن استمنحوك السلامة فامنح، (وإن جنحوا للسلم فاجنح)(٣) فقال السلطان: إن الله أمر بالجهاد، وكفل بالرزق، فأمره واجب الامتثال، ووعده ضامن الصدق، فنأتي بها كلفنا لنفوز بما كفله، ومن أغفل أمره أغفله.

قال: ووصل في هذه السنة رسول دار الخلافة، وهو الخادم فاضل، وكان من أفضل الخدم، ندب بأفضل الخدم، وفرح السلطان به واستصحبه معه إلى الغزاة، ووقف به على الحصن الذي استجده الفرنج بالمشهد اليعقوبي، وتخطف من حوله من الفرنج جماعة، وأقام على أهل المعصية بجهاده الطاعة، وعاد وقد عرف مايعزم عليه من أمر فتحه.

قال: وفي مستهل ذي القعدة، كانت وقعة هنفري ومقتله،وذلك أن الأخبار تواترت بأن الفرنج قد تجمعوا في جمع عظيم، وأنهم عازمون على الخروج على المسلمين على غرة، فقدم السلطان ابن أخيه فرخشاه على عساكر دمشق، وأمره أن يخرج إلى الثغر ففعل، وأمره إن علم بخروجهم

أن ينفذ إلى السلطان يعلمه بـذلك، ولايلقاهم بل يتركهم حتى يتوسطوا البلاد، فلـم تشعر طلائع فـرخشاه إلا وقد خالطـوهم على غرة، فـوقعت الوقعة، فقتل صاحب الناصرة وجماعـة من مقدميهم، وطلب الملك فطرح حصانـه، وجرح فرسـانه، وجاء الهنفـري ليحميه، فـوقعت فيه جـراحات أحدهـا نشابـة وقعت في مـارنه فجـدعته ونفـذت إلى فيه ومـرت بضرسه فقلعتـه، وخرجـت من تحت فكـه، وقتلـت عدة مـن الـرجالـة والخيالـة، ورجعـت الفـرنج بخـزي عظيـم، ليـس فيهـم إلا مجروح، وكل يـوم تـرد البشرى بموت مقدم من جراحة أصابته.

ووردت بطـاقة الطير في ذلـك اليـوم إلى دمشـق فخرج السلطـان فلما وصـل إلى الكسـوة إلا ورؤوسهم وأسراؤهـم قـد جـيء بها، فرجـع مظفـرا منصـورا، وذلـت الفـرنـج بعدهـا، وانكسرت بمـوت الهنفـري،ثـم سـار السلطان إلى الحصن الـذي بنوه فأزعجهم وذعرهم، وعـاد على عزم العود إليه.

قال: ثم وجه السلطان أخاه الأكبر تـورانشاه من الشام إلى مصر بمن ضعـف من الأجنـاد لأجل محل البـلاد، فرتـب في بعلبك نـوابه. وودعه السلطان من مرج الصفر وذلك في أواخر ذي القعدة ، ومر على بصرى ، ومنهـا إلى الأزرق، ومنه إلى الجفـر إلى إيلة إلى صـدر، ووصـل معه خلـق كثير من التجار والرجال والنساء والأطفال.

- ٨٢٨٩ -

فصل

قال العماد: وسافر الفاضل إلى الحج في هذه السنة، وركب البحر، فكتبت إليه كتابا فيه: طوبي للحجر والحجون من ذي الحجر والحجى، منيل الجدا ومنير الدجى، ولندي الكعبة من كعب الندى، وللهدايا المشعرات من مشعر الهدى، وللمقام الكريم من مقام الكريم، ومن حاطم فقار الفقر للحطيم، ومتى رئي هرم في الحرم وحاتم مائح زمزم ومتى ركب البحر البحر، وسلك البر البر لقد عاد قس إلى عكاظة، وعاد قيس بحفاظه، ويا عجبا لكعبة يقصدها كعبة الفضل والأفضال، ولقبلة يستقبلها قبلة القبول والإقبال.

قلت: ومدحه أبو الحسن بن الذروي عند عوده من الحج بقصيدة حسنة منها:

علم البحر أنك الخلق وافا
فأمسى حشاه يخفق رعبا
وغدادره لديه حقيرا
اذ رأى الدر منك ينشأ سحبا
ولو احتاز قطره منك يا بحـ
ـر لأضحى أجاجه الملح عذبا
هائج لم يزل دعاؤك حتى
هون الله منه ما كان صعبا
ولقد نام اذ ركبت وللر
يح هبوب وحيث أرسيت هبا
حبذا ما اصنعته من جياد
عاد جدب الحجاز منهن خصبا
رمت كتمانها فذاعت وهل يقـ
ـدر غيث يخفى عن الارض سكبا
قد رأت منك كعبة الله لما
جئتها حاتما وإن شئت كعبا

بـــــل رأى منـــــك بيتـــــه بيـــت مجد
أحـــــرم الجود حـــــولـــــه ثـــــم لبـــى
وزهـــــت زمـــــزم بشر بـــــك منهـــــا
وعجيـــــب ان يظهـــــر الماء عجبـــــا
وتـــــوجهـــت للمـــــدينـــــة عـــن مكـــــ
ـــــة لما تشـــــاء وكـــــافيـــــك حسبـــــا
وأتيـــــت الشـــــأم تلـــــو فتـــــوح
ســـــار شرقـــــا بـــــه الهنـــــاء وغـــــربـــــا
ان تكـــــن غبـــــت عنـــــه والله يبقيـــــ
ـــــك لامثـــــالـــــه فما غبـــــت قلبـــــا
سرت والـــــرأي فيـــــه منـــــك مقيـــــم
وبعثـــــت الـــــدعـــــاء في الليـــــل كتبـــــا

وقد وقفت على الرقعة التي كتبها القاضي الفاضل رحمه الله بخطه إلى السلطان يلتمس منه الإذن في سفر الحج فأحببت نقلها هنا، وماكتب السلطان رحمه الله عليها، وماكتب بسببها إلى بعض نوابه، نقلت من خط الفاضل رحمه الله:

بسم الله الرحمن الرحيم

كتب المملوك هذه الرقعة بعد أن استخار الله سبحانه من مستهل رجب في أكثر لياليه وإلى آخر هذه الساعة وهو ينهي أنه قد شارف الأربعين ومايدري لعلها عقبة اللقاء، وفرض الله في الحج قد تعين، ووعد المولى به قد سبق عند إيلة، ومدة الغيبة قصيرة والنائب ينفذ مايحتاج إليه في السفر والحضر، والثقة به حاصلة في المرادين من الكاتب وهما: الكتمان والمعرفة، وحظ المولى في حجه ولله أضعاف حظه في مقامه لأنه إن كان ينفع بها في الدنيا فهو ينفع هناك في الآخرة، وإن لم يكن أهلا لأن يستجاب منه فالله أهل لأن يجيب في المولى والمملوك، فما ثقل قط في سؤال، وليس لأن المولى لايقضيها، ولكن لأنه يغنيه عن السؤال

فيها، وهذه حاجة الدنيا والآخرة وبعدها ينشد:

متى يأت هذا الموت لايلف حاجة
لنفسي الا قد قضيت قضاها

وما أراد المملوك أن يستشفع بمن يشارك المولى في الأجر، ومايريد إلا دستورا عن نفس طيبة ورضى ظاهر وباطن ولايريد خلاف الغرض، فما يفي له بقضاء المفترض، والله المعين برحمته.

الحمد لله وحده وصلاته على سيدنا محمد وآله وسلامه

وعلى رأس الرقعة في سطر البسملة بخط السلطان رحمه الله ماصورته: على خيرة الله تعالى، ياليتني كنت معكم فأفوز فوزا عظيما.

نقلته من خطه، ونقلت من خط بعض الكتاب مانقله من خط السلطان رحمه الله إلى بعض النواب:

فصل من كتاب كريم بالخط العالي الناصري أعلاه الله ورد بتاريخ السابع والعشرين من جمادى الأولى سنة أربع وسبعين وخمسمائة.

وصلني كتاب القاضي الفاضل، وهو يذكر أنه مصمم على الحج، الله يجعله مبارك ميمون، ولكن لاأفسح له فيه إلا بعد ثنتين:واحدة أنه لايركب بحرا يسير من العسكر إلى إيلة، ومنها يتوجه ويقيم العسكر على إيلة ليلة وعلى إرم ليلة، ودون إرم ليلة، وقاطع إرم ليلة، فيكون هو قد بعد ومايبقى عليه خوف إن شاء الله تعالى، وثانية تأخذ يده وتحلفه برأسي أنه لايجاور، وثالثة تعطيه من مال الجوالي ثلاثة آلاف دينار، وتقول له لابد أن يخرج هذا عني لاعنك في المجاورين بمكة والمدينة وفي أهلها، هذا أمر لابد منه فإن الناس لابد لهم من الطلب، ولابد لك من العطاء وإن قال إن الشيء قليل فأنت تقرضني مثل هذا المبلغ من

مـالك، وتعطيـه إياه فـلابد وإلا فـلا إذن له في الـرواح إلى الحج إلا على هذه الشروط التي قد شرطتهـا، وأما مجيئه فيجيء إلى الشام فأنـا مابقي لي دار إلا هي حتى يقضي الله بيننا وبين الفرنج(وهو خير الحاكمين)(٤).

وكتب الفاضل إلى بعض مشايخ مكـة بعد رجوعه: سقى الله الحجاز، وحيا كعبته، وياطول ماترشقني سهـام الشوق الذي أصبح الذكر جعبته، آها على تلك المواقـف وتبا لمن رضي أن يكون مع الخوالف، فـرعيا ونعمى وحسنـة وحسنى لمجـاوري ذاك الحرم، ولعامـري ايـامه التـي هي الأيـام لأيام ذي سلـم، فيالهف الصـدور، وطول ظمأهـا إلى ورود ماء زمـزمها، وطوبي لمن استضـاء في مضال الظلم بعلمـه، ومهما نسيت فلا أنسـى برد الكبد بحر صيفها، وموسم الأنس بثلاث مناها وخيفها:

آهـــاعليهـــاليـــال مـــاتـــركـــن لنـــا
إلاالأســـى وعـــلالات مـــن الحلـــم
عســـى الـــريـــاح إذا ســـارت مبلغـــة
تـــوفي فقـــد غـــدر الأحبـــاب بـــالـــذمـــم

ثـم قال: فـأمـا الطريـق المباركـة فقد جـرى فيهـا خطوب وشـؤون، وأحاديـث كلها شجـون، وكانـت العقبى إلى سـلامة، ولما قـاربنا الكـرك نهض العدو ،فلـم يمكن الرجعـة ولا التعريج جانبـا، ثم من اللـه تعالى بانجلاء النوبـة، ووصلنا إلى بلاد السلطان ولقينا ذلك الوجـه، فلا عدمنا بشره، وذلك الفضل فلا فـارقت أعيننا فجره، ووجدناه في الغـزاة جاهدا، وللعدو مجاهدا، وأوقاته مستغرقة وعزماته محققة.

-٨٢٩٣-

فصل

فيما فعل مع الفرنج في باقي هذه السنة وأول الأخرى ووقعة مرج عيون

قال ابن أبي طي: كانت الفرنج قد عمرت بيت الأحزان، وكان على المسلمين منه ضرر عظيم، فراسل السلطان الفرنج في هدمه فأجابوا إنه لاسبيل إلى هدمه إلا ان تعطينا ماغرمنا عليه، فبذل لهم السلطان ستين ألف دينار فامتنعوا فزادهم إلى أن بلغ مائة ألف دينار، وكان هذا الحصن للداوية، وكانوا يقوون من فيه بالأموال والنفقات لقطع الطرقات على قوافل المسلمين، فاشار تقي الدين على السلطان ببذل هذا المال لأجناد المسلمين ويخرج بهم إلى الحصن ويهدمه، ففعل ذلك كما سنذكره.

قال العماد: ولما ودع السلطان أخاه ورجع أغار في طريقه على بلاد الفرنج وقصبد الحصن الذي بنوه ورجع بالأسرى والغنائم وخيم السلطان بمروج الشعراء، ثم انتقل إلى بانياس، وبلغت الخيم إلى حدود بلاد الكفرة، وأضرم عليهم لهب النيران المستعرة، وكان كل يوم يركب بحجة الصيد، وينزل على النهر، ويجرد فرسان الجلاد والقهر، ويسير قبائل العرب إلى بلد صيدا وبيروت حتى يحصدوا غلات العدو، ومايبرح مكانه حتى يعودوا بجمالهم وأحمالها موثقة بأثقالها، حتى جف زرع الكفار.

قال: وفي هذه السنة اقتضى رأي الفرنج أن يرعبوا المسلمين في كل ناحية خوفا من اجتماعهم على جهة واحدة، فغدر ابرنس أنطاكية، وأغار على شيزر، وغدر القمص بطرابلس بجماعة من التركمان بعد الأمان، فرتب السلطان ابن أخيه تقي الدين عمر في ثغر حماة ومعه شمس الدين

ابن المقدم وسيف الدين علي المشطوب، ورتب ابن عمه ناصر الدين في ثغر حمص في مقابلة القمص، وكتب السلطان إلى أخيه العادل وهو نائبه بمصر أن ينتخب له من عسكر مصر ألفا وخمسمائة فارس يتقوى بهم مع عسكر الشام على العدو.

ثم دخلت

سنة خمس وسبعين

والسلطان نازل على تل القاضي ببانياس، فأجمع رأيه مع بقية المسلمين على أن يقتحموا على الكفار ديارهم ويستوعبوا مابقي في أيديهم من الغلات في يوم واحد ثم يرجعوا، فرحلوا صوب البقاع فنهضوا تلك الليلة وهي ليلة الأحد ثاني المحرم، فلما أصبح السلطان جاءه الخبر بأن الفرنج قد خرجت، فالتقاهم وأنزل الله نصره على المسلمين وأسر فرسانهم وشجعانهم، وانهزمت رجالتهم في أول اللقاء، فكان من جملة الأسرى مقدم الداوية، ومقدم الاسبتارية، وصاحب طبرية، وأخو صاحب جبيل، وابن القمصية، وابن بارزان صاحب الرملة، وصاحب جينين، وقسطلان يافا، وابن صاحب مرقية، وعدة كثيرة من خيالة القدس وعكا من البارونية وغيرهم من المقدمين الأكابر، مازاد على مائتين ونيف وسبعين سوى غيرهم، ثم قدمت الأسارى وهم يتهادون كأنهم سكارى.

قال العماد: وأنا جالس بقرب السلطان استعرضهم بقلمي، ومن ألطاف الله تعالى أنا وخواصه الحاضرين لم نزد على عشرين، والأسرى قد أنافوا على سبعين، وقد أنزل الله علينا السكينة، وخصهم بالذلة المستكينة، وطلع الصباح، ورفع المصباح، وقمنا وصلينا بالوضوء الذي صلينا به العشاء، ثم عرض الباقون من الأسرى، ثم نقلوا إلى دمشق فأما ابن بارزان فإنه بعد سنة بذل في نفسه مائة وخمسين ألف دينار صورية وإطلاق ألف أسير من المسلمين، وكان الفقيه ضياء الدين عيسى من نوبة الرملة عندهم من المأسورين، فالتزم ادراكه وأن يؤدي من قطيعة المذكور القطيعة التي قرر بها فكاكه، وأما ابن القميصية فإنه استفكته أمه بخمسة وخمسين ألفا من الدنانير الصورية، وأما أود مقدم الداوية فإنه

انتقل من سجنه إلى سجين، فطلبت جيفته فأخذ باطلاق أسير من مقدمي المؤمنين، وطال أسر الباقين فمنهم من هلك وهو عان ومنهم من خرج بقطيعة وأمان، وهذه هي وقعة مرج عيون، وكان العدو في عشرة آلاف مقاتل وانهزم ملكهم مجروحا، وكان لعز الدين فرخشاه في هذه الوقعة بلاء حسن، حكى حسام الدين تميرك بن يونس وكان مع عز الدين قال: كنا في أقل من ثلاثين فارسا قد تقدمنا العسكر، فشاهدنا خيل الفرنج في ستمائة فارس واقفين على جبل وبيننا وبينهم الماء، فأشار عز الدين بأن نعبر النهر إليهم، ففعلنا ولحقنا عسكر السلطان فهزمناهم، ومن أحسن ما اتفق أن في اليوم الذي كسرت فيه الفرنج بمرج عيون ظفر الأسطول المصري ببطسة كبيرة فاستولى عليها وعلى أخرى وعاد إلى الثغر مستصحبا ألف رأس من السبي، فما أقرب ما بين النصرين في المصرين، وما أعذب عذاب الفئتين وتجريعهما الأمرين، لقد عم النصر، وتساوى فيه البر والبحر.

ومما مدح به السلطان في هذا الفتح مدحة سيرها من مصر إليه فخر الكتاب أبو علي الحسن بن علي العراقي الجويني أولها:

لك رب السماء خير معين ... وكفيل بما تحب ضمين

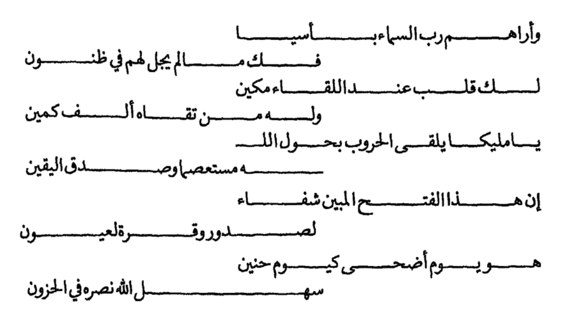
فله الحمد أي نصر عزيز ... قد حباناه وفتح مبين

أدرك الثأر حين نازله المغـ ... ـوار حيف الكفار ليث العرين

الهمام الغضنفر الملك النا ... صر مولى الورى صلاح الدين

يا مليكا أضحى الزمان يناجيـ ... ـه بلفظ المذلل المسكين

قذفت أهلها الحصون إلى بأ ... سك حتى عوضتهم بالسجون



وأراهـــم رب السماء بـــأسيــا
فـــك مـــالم يجل لهم في ظنـــون
لـــك قلـــب عنـــد اللقـــاء مكين
ولـــه مـــن تقـــاه ألـــف كمين
يـــا مليكـــا يلقـــى الحروب بحـــول اللـــ
ـــه مستعصما وصـــدق اليقين
إن هـــذا الفتـــح المبين شفـــاء
لصـــدور وقـــرة لعيـــون
هـــو يـــوم أضحـــى كيـــوم حنين
سهـــل الله نصره في الحزون

قال العماد: وكان تقي الدين غائبا عن هذه الوقعة، واشتغل عنها بغيرها، وذلك أن سلطان الروم قليج أرسلان طلب حصن رعبان، وادعى أنه من بلاده، وإنما أخذه منه نور الدين رحمه الله على خلاف مراده، وأن الملك الصالح ولده قد أنعم به عليه، ورضي بعوده إليه، فلم يفعل السلطان وكان هذا الحصن مع ابن المقدم، فأرسل قليج أرسلان عسكرا مجمعا في عشرين ألفا لحصار الحصن فلقيهم تقي الدين، ومعه سيف الدين علي المشطوب في ألف مقاتل، فهزمهم.

قال: ولم يزل تقي الدين يدل بهذه النصرة، فإنه هزم بآحاد ألوفا، وأرغم بأعداد من الأعداء أنوفا.

وقال ابن أبي طي: واتصل بالسلطان أن قليج أرسلان قد طمع في أخذ رعبان وكيسون، فلما دخل دمشق وصله رسوله يطلبها منه، ويدعي أن نور الدين بن زنكي اغتصبها منه، وأن الملك الصالح قد أنعم عليه بها، فاغتاظ السلطان وزجر الرسول وتوعد صاحبه، فعاد الرسول وأخبر قليج أرسلانه فغضب وسير عسكرا إلى رعبان، فحاصرها وسمع السلطان، فندب تقي الدين عمر في ثمانمائة فارس، فسار فلما قارب

رعبان أخذ معه جماعة من أصحابه مقدار مائتي فارس، وتقدم عسكره وسار حتى أشرف على عسكر قليج أرسلان ليلا فرآهم قد سدوا الفضاء وهم قارون آمنون وادعون، فقال تقي الدين لأصحابه: هؤلاء على ماترون من الطمأنينة والأمن والغفلة، وقد رأيت أن نحمل الساعة فيهم بعد أن نتفرق في جوانب عسكرهم ونصيح فيهم فإنهم لايثبتون لنا، فأجابوه إلى ذلك فأنفذ واحدا من أصحابه إلى باقي عسكره وأمرهم أن يتفرقوا أطلابا، وأن يجعل في كل طلب قطعة من الكوسات والبوقات، فإذا سمعوا الضجة ضربوا بكوساتهم وبوقاتهم، وجدوا في السير حتى يلحقوا به، ففعلوا ما أمرهم، ثم أنه حمل في عسكر قليج أرسلان، وصرخ أصحابه في جوانبه، وكان عدة عسكر قليج أرسلان ثلاثة آلاف فارس، فلما سمعوا الضجة، وحس الكوسات والبوقات وشدة وقع حوافر الخيل وجلبة الرجال واصطكاك أجرام الحديد هالهم ذلك، وظنوا أن قد فوجئوا بعالم عظيم، فلم يكن لهم إلا أن جالوا في كواثب خيولهم عريا وطلبوا النجاة، وأخذتهم السيوف، فتركوا خيامهم وأثقالهم بحالها، وأكثر تقي الدين فيهم القتل والأسر، وحصل على جميع ماتركوه، فلما أصبح جمع المأسورين ومن عليهم بأموالهم وكراعهم وسرحهم إلى بلادهم.

قال: وقيل إن الخبر بهذه الكسرة وصل إلى السلطان في اليوم الذي كسر فيه السلطان الفرنج على مرج عيون، فتوافت البشارتان إلى البلاد.

قال : مدح ابن التعاويذي السلطان الملك الناصر بقصيدة أنفذها إليه من بغداد يذكر فيها وقعة مرج عيون يقول فيها:

كاد الأعادي أن يصيبك كيدها
لو لم تكدك برأيها المأفون
تخفي عدوانها وراء بشاشة
فتشف عن نظر لها مشفون

دفنت حبائل مكرها فرددتها
تدوي بغيظ صدورها المدفون
وعلمت ما أخفوا كأن قلوبهم
أفضت إليك بسرها المخزون
كمنوا وكم لك من كمين سعادة
في الغيب تظهر من وراء كمين
فهوت نجوم سعودهم وقضى لهم
بالنحس طائرهم بمرج عيون

قلت: هكذا أنشده، وهو حسن وقد كشفته في نسخة من ديوان ابن التعاويذي فوجدت آخر هذا البيت« طائر جدك الميمون» وأول القصيدة:

ان كان دينك في الصبابة ديني
فقف المطي برملتي يبرين

ثم قال بعد تمام الغزل:

ليت الضنين على المحب بوصله
لقن السماحة من صلاح الدين
ملك إذا علقت يد بذمامه
علقت بحبل في الحفاظ متين
قاد الجياد معاقلا وان اكتفى
بمعاقل من رأيه وحصون
سهرت جفون عداه خيفة ماجد
خلقت صوارمه بغير جفون
لو أن لليث الهزبر سطاه لم
يلجأ إلى غاب له وعرين
أضحت دمشق وقد حللت بجوها
مأوى الطريد وموئل المسكين

لــــك عفـــــة في قـــدرة وتــــواضـــع
في عــــــــزة وشراســــــــــة في لين

وأريتنـــا بجميـــل صنعـــك مـــا روى الـــ
ـــــراوون عـــن أمــــم خلـــت وقــــرون

قال ابـن أبي طي: نـزل السلطان على تـل القاضي ببـانياس على المرج الذي يعرف بمرج عيـون، وأنفذ في ثاني المحرم قطعة من عسكـره مع عز الدين فـرخشاه لشن الغارة على بـلاد الفرنج، فلما أصبح ركـب يستوكف أخبار فرخشاه فما هـو إلا أن خرج من الخيم حتى رأى أغنام بـانياس قد أقبلت من المراعي هاجة على وجوههـا من الغياض والأودية، فقال: هذه غـارة، فأمـر بلبس السـلاح والاستعداد للحـرب، فـوصل بعـض الرعـاة فـأخبر أن الفرنـج قد عبروا وصـاروا قريبـا منه على هيئـة المتغفلة، فسـار حتـى أشرف على الفرنـج، فـإذا هم في ألـف رمـح، فـأخذتهم السيـوف والـدبابيـس حتى فـرشت الأرض منهـم، وألقـى جماعة منهـم سلاحهـم وسلموا أنفسهم أسارى، ونجاملك الفرنـج هنفري هاربا، ويقال إنه وقع به فـرسه فحمله أحـد خيالته على ظهـره، ثم رجع السلطـان إلى معسكره وسيفه يقطر دما وجلس لاستعراض الأسارى فذكر نحو ماسبق.

وفي كتـاب الفاضـل إلى صـاحب لـه بمكة وقـد سبـق بعضه قـال:« وجـرت نوب منهـا قتل الهنفـري لعنه اللـه وتمام سبعين فارسـا من كبـار الخيالـة، وطرح ملك الفـرنج من على ظهـر دابته وتحامله بآخر رمـق مع بقية من نجـا من خيالته، ومنهـا نوبة وادي الحريق، وقـد جمع الله العدو فارسه وراجله، ومنهـا نصر الله الذي ماكان قبله للـمـك من ملوك الأرض قتـل ابن بـارزان ومقدم الـداوية، وابـن صـاحب طبريـة، وأخو أسقـف صور، وصـاحب جبيـل، وأصحاب الحصون والقـلاع، ومقطعوا الأقـاليم والضيـاع، وحصل تحت اليـد الناصريـة أعلاهـا الله مـائة وستون كلهـم تثنـى عليهم الخنـاصر وتقطر بهم العسـاكـر، ومنها دخـول العساكـر إلى

عمل بيروت وصور وغارتها على غرة من أهلها، وقطع شجرة مثمرة من أصلها.

قال: وكانت الأساطيل المنصورة قد تضاعفت عدتها إلى أن بلغت ستين شينيا وعشرين طريدة، فسارت الشواني خاصة فدخلت البلاد الرومية، ودوخت السواحل الفرنجية، وأسرت ألف علج أحضرتهم أسرى في قيد الأسار، وقتلت الرفاق الكبار، وغنمت من هذه الغزوة أقوام كانت أعينهم لاتعرف عين الدرهم ولاوجه الدينار».

- ٨٣٠٢ -

فصل

في تخريب حصن بيت الأحزان وذلك في شهر ربيع الأول

قال العماد: جمع السلطان جموعا كثيرة من الخيالة والرجالة، فوصل إلى المخاضة يوم السبت تاسع عشر الشهر، والحصن مبني دونها من الغرب، فخيم منها بالقرب وضاق ذلك المرج عن العسكر، واحتاج إلى نصب ستائر لأجل المنجنيقات، فركب السلطان بكرة الأحد إلى ضياع صفد وكانت قلعة صفد يومئذ للداوية، وهو عش البلية، وأمر بقطع كرومها وحمل أخشابها، فأخذ كل مااحتاج إليه، ورجع بعد الظهر وزحفوا إلى الحصن بعد العصر، فما أمسى المساء إلا وهم قد استولوا على الباشورة وانتقلوا بكليتهم إليها، وباتوا طول الليل يحرسون، وخافوا ان يفتح الفرنج الأبواب ويغيروا عليهم على غرة، وإذا بالفرنج قد أوقدوا خلف كل باب نارا ليأمنوا من المسلمين اغترارا، فاطمأن المسلمون وقالوا: مابقي إلا نقب البرج ففرقه السلطان على الأمراء، فأخذ فرخشاه الجانب القبلي، وأخذ السلطان الجانب الشمالي، وقصد ناصر الدين بن شيركوه بقربه نقبا، وكذلك تقي الدين، وكل كبير في الدولة جعل له قسما، وكان البرج محكم البناء فصعب نقبه لكن ماانقضى يوم الأحد إلا وقد تم نقب السلطان، وعلق وحشي بالحطب ليلة الاثنين وحرق، وكان النقب في طول ثلاثين ذراعا في عرض ثلاثة أذرع، وكان عرض السور تسعة أذرع، فما تأثر بذلك، فاحتاج السلطان صبيحة يوم الاثنين إلى إطفاء النيران ليتم نقبه، وقال: من جاء بقربة ماء فله دينار، قال العماد: فرأيت الناس للقرب حاملين،ولأوعية الماء ناقلين، حتى أغرقوا تلك الثقوب، فخمدت فعاد نقابوها وقد بردت فخرقوه وعمقوه وفتحوه وفتقوه، وشقوا حجره وفلقوه، ثم حشوه وعلقوه واستظهروا فيه يوم الثلاثاء والأربعاء، ثم أحرقوه واشتد الحرص عليه لأن الخبر أتاهم بأن الفرنج قد اجتمعوا

بطبرية في جمع كثير ، فلما أصبح يوم الخميس الرابع والعشرين من ربيع الأول وتعالى النهار انقض الجدار، وتباشره الأبرار، وكان الفرنج قد جمعوا وراء ذلك الواقع حطبا، فلما وقع الجدار دخلت الرياح فردت النار عليهم وأحرقت بيوتهم وطائفة منهم، فاجتمعوا إلى الجانب البعيد من النار وطلبوا الأمان، فلما خمدت النيران دخل الناس وقتلوا وأسروا وغنموا مائة ألف قطعة من الحديد من جميع أنواع الأسلحة، وشيئا كثيرا من الأقوات وغيرها، وجيء بالأسارى إلى السلطان فمن كان مرتدا أو راميا ضربت عنقه، وأكثر من أسر قتله في الطريق الغزاة المطوعة، وكان عدة الأسارى نحو سبعمائة، وخلص من الأسر أكثر من مائة مسلم، وسيرنا في الأسارى إلى دمشق، وأقام السلطان في منزلته حتى هدوا الحصن إلى الأساس، وطم جب ماء معين كانوا حفروه في وسطه، ورمى فيه القتلى، وكان عند السلطان رسول القمص معافى وهو يشاهد بلية أهل ملته، وقد كان السلطان بذل لهم في هدمه ستين ألف دينار فلم يفعلوا، فزادهم حتى بلغ مائة ألف فأبوا، وكان مدة المقام على الحصن في أيام فتحه وبعدها أربعة عشر يوما، وبعد ذلك سار السلطان إلى أعمال طبرية وصور وبيروت وغيرها فأغار عليها وأرجف قلوبهم بوصوله إليها، ورجع السلطان إلى دمشق يوم الأربعاء ومرض جماعة من ذلك الوباء لأن الحر كان شديدا، وأنتنت جيف القتلى، وطول السلطان المقام عليه بعد فتحه لأجل تتميم هدمه، فتوفي أكثر من عشرة أمراء، وعاد المشهد اليعقوبي كما كان مزورا وبتكبير المسلمين وصلاتهم معمورا، وهنأ الشعراء السلطان بفتح هذا الحصن فمن ذلك ما أنشده نشو الدولة أحمد بن نقادة الدمشقي من جملة مدائحه:

هلاك الفرنج أتى عاجلا
وقد آن تكسير صلبانها

ولو لم يكن قد دنا حتفها
لما عمرت بيت احزانها

ولأبي الحسن علي بن محمد بن رستم الساعاتي الخراساني ثم الدمشقي من قصيدة أولها:

بجـــدك أعطـــاف القنـــا تتعطـــف
وطـــرف الأعـــادي دون مجدك يطـــرف

شهـاب هـــدى في ظلمـة الشـك ثـاقـب
وسيـــف هـــدى في طـاعـة الله مـرهـف

وقفـــت على حصـــن المخـــاض وانـــه
لموقـــف حـــق لا يـــوازيـــه مـوقـــف

فلـم يبـــدو وجـه الارض بـــل حـال دونـه
رجـال كـآسـاد الشرى وهـــي تـــزحـــف

وجـــرداء سلهـــوب ودرع مضـــاعـــف
وابيـــض هنـــدي ولـــدن مثقـــف

ومـا رجعـت أعـلامـك الصفـر سـاعـة
إلى أن غـدت أكبـادهـا السـود تـرجـف

كبـــا مـــن أعـــاليـــه صليـب وبيعـــة
وشـــاد بـــه ديـــن حنيـــف ومصحـــف

صليبـــة عبـــاد الصليـــب ومنـــزل الـــ
ـــنزال لقـــد غـــادرتـــه وهـــو صفصـــف

أيسكـــن أوطـــان النبيين عصبـــة
تمين لـــدى أيمانها وهـــي تخلـــف

نصحتكـــم والـــديـــن في النصـــح واجـــب
ذروا بيـــت يعقـــوب فقـــد جـاء يـوسـف

ومن قصيدة لسعادة الضرير الحمصي:

حللـــت فكنـــت الألمعـــي المســـددا
وسرت فكنـــت الشمـــري المؤيـــدا

وقمـــت بـــأعبـــاء الممالـــك نـــاهضـــا
فـــأقعـــدت أعـــداء ولم تخش مقعـــدا

تعـــودت ضرب السيـف والطعـن بـالقنـا
وكـل امـرىء مغـرى بها قـد تعـودا
نصرت الهدى لما تخاذل حـزبـه
فنـاداك حـزب الله يـانـاصر الهدى
غضبـت لـديـن أنـت حقـا صـلاحـه
فـأرضيـت لما ان غضبـت محمـدا
فيـا يـوسـف الخير الـذي في يمينـه
مـن الخير مـا قـد غـار فينـا وأنجـدا
وصلـت لـذي سلـم وصلـت لـدى وغـى
ففقـت جميـع النـاس بـالبـأس والنـدى
وقـدت إلى الأعـداء جيش عـرمـرمـا
إذا أبـرقـت فيـه الصـوارم أرعـدا
فلـم تبـق للطغيـان شمـلا مجمعـا
ولـم تبـق لـلايمان شمـلا مبـددا
فنـاهيـك مـن جيـش نهضـت بعبئـه
فـأقعـدت لما ان انهضـت بـه العـدى
حملـت ذبـالا في ذوابـل سمـره
فلما دجـى ليـل العجـاج تـوقـدا
وزرت بـه الحصـن الـذي لـو تحصنـت
فـوارسـه بـالنجـم أوردتـه الـردى
قصمـت بـه صلـب الصليـب ورعتـه
وشهـدتـه لما غفـا فتشهـدا
هببـت إليـه هبـة يـوسفيـة
تعيـد هبـاء كـل مكـان جلمـدا
وفـض بها قـد فضـه مـن سهـامـه
نـواجـذ ثغـر المنفـري وقـدا

قال: ومنهم الأمير نجم الدين محمود بن الحسن بن نبهان العراقي من أهل الحلة المزيدية، وكان حاضرا في نوبة ابن بارزان له من قصيدة

أولها:

هنيئاً صلاح الدين بالفتح والنصر
ونيل الأماني الغر والفتكة البكر
وما حزت فيها من فخار ومن علا
وحسن ثناً يبقى إلى آخر الدهر
سموت لها بالمشرفية والقنا
سمو أبي لا ينام على وتر
وصلت بها حبل المفاخر مثلما
قطعت بها يوم الوغى دابر الكفر
سلكت بياض الصبح وهو صوارم
وخضت بها سواد الليل وهو دم يجري
وقد عرف الافرنج بأسك في الوغى
وجرعتهم منه أمر من الصبر
وظنوا ابناء الحصن صونا لملكهم
فأصبح بالشعراء منتهك الستر
فما قبضت منهم يد الغدر قطعت
أناملها إلا على صفقة الخسر
هي الفتكة الغراء لازلت قائما
بأمثالها في الدين في السر والجهر
وأصبح في أقصى خراسان ذكرها
وفي كل قلب منه جيش من الذعر
فلا ترض منهم بعدها بذل طاعة
فما خلقوا إلا على شيمة الغدر
وسروا ملك الأرض التي لو تركتها
لاغضت عيون المجد منها على أمر
فيا آل أيوب حويتم مناقبا
بأخمصها تعلو على الأنجم الزهر
إذا عد أرباب الفخار فأنتم
ذوو الفعلات الغر والنائل الغمر

وأنت الذي أصبحت بالبأس والتقى
وبذل اللهى عالي السنا عاطر الذكر

ومن كتاب فاضلي إلى بغداد في وصف الحصن:« وقد عرض حائطه إلى أن زاد على عشرة أذرع وقطعت له عظام الحجارة كل فص منها من سبعة أذرع إلى مافوقها ومادونها، وعدتها تزيد على عشرين ألف حجر لايستقر الحجر في مكانه، ولا يستقل في بنيانه إلا بأربعة دنانير فما فوقها، وفيما بين الحائطين حشو من الحجارة الصم المرغم بها أنوف الجبال الشم، وقد جعلت سقيته بالكلس الذي إذا أحاطت قبضته بالحجر مازجه بمثل جسمه، وصاحبه بأوثق وأصلب من جرمه، وأوعز إلى خصمه من الحديد بأن لايتعرض لهدمه».

ومنه في وصف النار قال:« وبات الناس في ليلة الجمعة مطيفين بالحصن والنار به مطيفة، وعليه مشتملة، وعذبات ألسنتها على تاجه مسدلة، ومن خلفه مسبلة، ونارهم قد أطفأها الله بتلك النار الواقدة، ومنعتهم قد أذهبها الله بتلك الأبرجة الساجدة، وبنفسج الظلماء قد استحال جلنارا، والشفق قد عم الليلة فلم يختص آصالا ولاأسحارا، ونفحاتها حميمية(وقودها الناس والحجارة)[٦] والمنادي ينادي بلسان مصابها إياك أعني،فاسمعي ياجارة فولجت النار موالج يضيق منها الفكر ويعجز عنها الأبر، ونقلت النبأ من العين إلى الأثر، وقال الكفر(إنها لإحدى الكبر)[المدثر٣٥] وخولف المثل إن السعادة لتلحظ الحجر،وأغنى ضوءها لسان كل أمعة أن يسأل هذا وهذا ماالخبر، وقذفت بشرر كالجمالات الصفر، وزفرت بغيظ تعفر له خدود الجبال الصعر، وتلحقها بالكثب العفر، وبات الليل والنهار يتلوه، وكلما أغمده الخمود جعل الوقود يسله، إلى أن بدا الصباح كأنه منها إمتار الأنوار، وانشق الشرق ومن عصفرها صبغ الإزار، فحينئذ تقدم الخادم فاقتلع بيده الأحجار من

أسها، ومحا حـروف البنيان من طـرسها، وتبعه الجيش ورفـاقه، وكافـة من اشتمل عليه نطاقة».

وفي كتاب آخـر:« وكان مبنيا على تل، وفيـه صهريج لما فتـح المسلمون الحصن رموا فيه ماينهاهز ألف قتيـل ودابة محرقة بالنار، فما سدت عرضته، ولامـلأت حفرتـه، وكان فيـه نحـو ألف زرديـة، والمقـاتلة ثمانـون فارسـا بغلمانهم، وخمسة عشر مقـدما للرجال، مـع كل مقدم خمسون رجـلا، هذا إلى الصنـاع مابين بنـاء ومعمار وحـداد ونجـار وصيقل وسيـوفي، وصنـاع أنـواع الأسلحة، وكـان به مـن أسرى المسلمين مـايزيـد على مائة رجـل، نزعت القيود مـن أرجلهم، وجعلت في أرجل الفرنج، وكـانت فيه أقوات لعدة سنين، وأنواع اللحـوم الطيبة والخبيثة فيها بـلاغ ومتاع إلى حين، ولما قوتـل أول يوم هجـم حوشـه، وفيه جماعـة من المقـاتلة فضربـت رقابهم، وأخذت دوابهم، وفي الحال علقـت النقوب على خمس جهـات، وحشيت بالنيران، وتأخر وقوع الجدران لفرط عرض البنيـان، ولم تزل النار توقد، ثم تخرج ثم تشعـل ثم تخمـد، إلى أن تمكنت النقـوب وحشيت بـالأحطاب، وأطلقت فيهـا النيران في يوم الخميـس، فيومئـذ وقعت الـواقعة وانشقـت الأبرجـة فهي يـومئذ واهيـة، وملك المسلمـون الحصن بما فيـه ومن فيـه، واشتعلت النيران في أرجائه ونواحيه، وكان الطـاغية مقدم الحصن يشاهد ماحل ببنيانـه، ومانزل من البلاء بأصحابه وأعـوانه، ولما وصلت النار إلى جهته ألقى نفسـه في خندق نار صابـرا على حرها، ففي الحال نقلتـه هذه النار إلى تلك النـار، ولما أخذ أسارى الفرنج وهم عـدة تزيد على سبعمائة بعد المقتـولين، ومايقصر عدتهم عـن مثلها، تـوفرت الهمة على هـدم هذا الحصن وتعفيـة أثره، وإزالة ضرره، فـألحقت أعاليـه بقواعده، وصـار أثرا بعد عين في مشـاهدة عين، هـذا والفرنـج مجتمعون في طبريـة يشاهـدون الأمر عيانا، وينظرون إلى الحصن وقـد ملىء نيرانا، وارتفع دخانا، وسارت العساكـر إلى أعمال صيدا وبيروت وصـور، فانثنـت مغيرة فاستنـارت كل

غامضة، ووصلت إلى كل ذخيرة، وصارت بلاد الفرنج لايسكن فيها إلا قلعة أو مدينة، ولايقيم فيها إلا من نفسه لشدة الخوف معتقلة في نفسه أو مشحونة».

ومن كتاب آخر فاضلي عن السلطان إلى وزير بغداد:« تأخر فلان لضرورات منها أمراض كانت قد عمت بها البلوى، وكثرت بها الشكوى، وكان أكثرها خاصا بالعائدين من العساكر من نوبة فتح الحصن، وكان خادما المجلس السامي ابن أخيه تقي الدين، وابن عمه ناصر الدين قد جهد ا، وأثخنا وبلغا حد اليأس وامتحنا، وكادا يسقطان من ضمير المنى، فمن الله تعالى بالشفاء، وهذه البشرى بفتح الحصن، وإن كانت شريفة مواقعها، عامة منافعها، فقد تجددت بعدها بشارة طلعت بشارة رائقة، وجاءت في مكان الرديف لأخرى لافرق بينهما إلا أن تلك سابقة، وهذه لاحقة، وذلك أن الاسطول المصري غزا غزوة ثانية غير الأولى، وتوجه عن السواحل الاسلامية مرة أخرى من الله فيها منة أخرى، وكانت عدته في هذه السنة قد أضعفت وقويت، واستفرغت فيها عزائم بالجهاد واستقصيت، واحتلت به الرجال الذين يعملون في البحر، ويفتكون في البر، ومن هو معروف من المغاربة بغزو بلاد الكفر، فسارت على سوار هي كنائن إلا أنها تمرق مروق السهام، ورواكد هي مدائن إلا أنها تمر مر السحاب غير الجهام، فلا أعجب منها تسمى غربانا وتنشر من ضلوعها أجنحة الحمام، وتسمى جواري وكم بشر مجريها من النصر بغلام، فطرقت في الأحد حادي عشر جمادى الأولى مينا عكا، وهي قسطنطينية الفرنج، ودار كفرهم أبدلها الله من الكفر اسلاما، وخلع عنها الشرك البالي وخلع عليها من التوحيد أعلاما، وكانت مفروسة فأصبحت مفترسة، وباتت جميع الفرنج محترسة، وغدت مترسة، فما هي إلا أن جذفت والجة على المينا، وفيه المراكب والبضائع فاستولت على عدة من المراكب تحطيما وتكسيرا، ونطاحا يقلقل، ولو كان ثبيرا ، وادخلت ساحل

الفرنـج بقتالها، وبـاشرت مثل الماء بنـزولها ونزالها، وهـذا مما لم يعهـد من الأسطـول الاسـلامـي مثلـه في سـالف الـدهـر، لافي حـالـة قـوة اسـلام ولاضعف كفـر، ومما سبيلـه أن تطرز السير الكريمـة بفخره كما طـرز الله الصحيفة الشريفـة بأجره، وقتـل على قلعة عكا ثلاثـة نفر بأليـم السهام، أبعد ماكانـوا وقفوا عنها، وآمن ماكانوا منهـا، فصرعتهم الأيدي والأفواه، وخروا سجـدا على الجباه، سجودا لايرفعـون منه الرؤوس، ولاينتقلـون منه إلى حالـة الجلوس، ولايرفـع فيما يرفع لهم مـن عمل، ولالهم فيه مـن قبلة ولالهم به من قبل، وأقامت المراكب يومين تقابلها، وتقاتلها وتناضلها.

- ٨٣١١ -

فصل
في باقي حوادث هذه السنة

منها حجة الفاضل الثانية،ووفاة الخليفة المستضيء بالله وغير ذلك، قال العماد: وفي العشر الأخير من شوال سنة خمس وسبعين خرج الفاضل من دمشق إلى الحج، ثم عاد إلى مصر من مكة.

قلت: وقفت على نسخة كتاب الفاضل إلى الصفي بن القابض، يصف له مالقي في طريقه إلى مصر، وركوب البحر، وكانت جماله ذهبت بمكة في خامس عشر ذي الحجة.قال:« خرجنا من مكة شرفها الله يوم الخامس والعشرين من ذي الحجة، وفي هذه الأيام زاد تبسط المفسدين، وإسراف المسرفين، وظهر من هوان أمير الحاج العراقي، ومن ضعف نفسه وانخفاض جناحه، ماأطمع المفسد، وأخاف المصلح، ووصلنا إلى جدة يوم الأحد السابع والعشرين من ذي الحجة، وركبنا البحر في يوم الثلاثاء التاسع والعشرين منه، وبتنا فيه ليلتي الأربعاء والخميس، ورمتنا الريح إلى جزيرة بالقرب من بلاد اليمن تسمى دبادب، وكانت إحدى الليلتين في البحر من ليالي البلاء، وبالله أقسم لقد شاب بعض رؤوس أصحابنا في تلك الليلة، وآيسوا من الأنفس، وتمنوا معاجلة الأمر وتقصير العذاب، وظنوا أنهم أحيط بهم وعاتبوا أنفسهم ثم احتجوا عليها بالأقدار التي لاحيلة فيها، وصبرنا إلى أن فرج الله سبحانه، ونزلنا البرية بحيث لاماء يشرب، ولاجمل يركب، وانفذنا إلى البجاة النازلين على ساحل البحر فأحضروا جمالا ضعيفة أجرتها أكثر من ثمنها وثمن ماتحمله، فركبناها ووصلنا إلى عيذاب بعد عشرة أيام، وقد هلكنا ضعفا وتعبا وجوعا وعطشا، لأن الخلق كانوا كثيرا، والزاد يسيرا، وركبنا البرية من عيذاب إلى أسوان، فكانت الهمة قاصرة في المزاد، فكانت البلوى عظيمة في العطش، فأما الحزون والوعور فهي تزيد على مافي برية الشام

بكونها طريقا بين جبلين، كالدرب المتضايق، والزقاق المتقارب، وحر الشمس شديد، وقريب الوعد بينهما بعيد، ولطف الله إلى أن وصلنا مصر في السابع عشر من صفر».

قلت: وللوجيه بن الذروي في الفاضل:

لك الله إما حجة أو وفادة
فمن مشهد يرضي الإله وموسم
ترى تارة بين الصوارم والقنا
وطورا ترى بين الحطيم وزمزم
وكم لك يا عبد الرحيم مآثر
لها في سماء الفخر إشراق أنجم
كأنك لم تخلق لغير عبادة
وإظهار فضل في الورى وتكرم

قال العماد: وفي هذه السنة طهر الملك العزيز أبو الفتح عثمان عماد الدين ابن السلطان، وكان أحب أولاده إليه وهو الذي قام بتدبير الملك بعده، وولد بمصر ثامن جمادي الأولى سنة سبع وستين وخمسمائة، كما سبق ذكره ، وكان السلطان لما قدم الشام زاد شوقه إليه فاستقدمه، فقدم عليه عاشر رجب سنة إحدى وسبعين وأنشد العماد السلطان عند قدومه قصيدة منها.

يا أسدا يحمي عرين العلى
هنئت جمع الشمل بالشبل
عثمان ذي النورين بين الورى
من سؤدد سام ومن فضل
يحكيك أقداما وبأسا فما
أشبه هذا الفرع بالأصل
مخائل الرشد على بشره
شاهدة بالفضل والنبل

ملـــــك قضــــــى اولــــــه أنـــــه
على ملـــــــــــــــوك الأرض يستعلي
بــــا الملــــك النـــاصر سلطـــــانـنــــا
طـــالـــــت يـــد الاحســـان والعــــدل

ثم لم يفـارقه، واستصحبه إلى مصر في سنـة اثنتين وسبعين، ثم عـاد به معـه إلى الشام في شـوال سنـة ثـلاث وسبعين، واتخذ له معلما مـن مصر، وهو نجـم الدين يـوسف بن الحسين المجـاور، فحصل من صحبتـه رزقا واسعا لاسيما في عـام الطهور فـإنه عـم فيه السرور والحبـور، وكان متـولي الانفاق في الطهـور صفي الـدين بـن القابـض، لأنه كـان متولي الخزانـة والديوان، والأعمال بدمشق.

قال: وحـج— يعني ابـن القابض— سنـة أربع وسبعين، وفيهـا حج الفاضل من مصر يعني حجته الأولى، وعاد إلى الشام ومعه ابن القابض.

قلـت: فلما رجعا معـا في حجـة الفاضـل الأولى إلى الشـام، ثم انفـرد الفاضل بالحج ثـانيا من العام المقبل وهو سنـة خمس وسبعين، وتم له في رجوعه ماتم كاتبه بالكتاب الـذي سبق ذكره يصف له مالقي في رجوعه، وكانت حجـة الفاضل الأولى من مصر، ورجـع إلى الشام، وكانت الثـانية من الشام ورجع إلى مصر.

وفي هذه السنة توفي الملك المنصور حسن ابن السلطان صلاح الدين، وقبره القبر القبلي من القبـور الأربعة بالقبة التـي فيها شاهنشاه بـن أيوب بالمقبرة النجمية بالعوينة ظاهر دمشق.

قال العماد: وفيهـا خرجوا إلى بعلبك لتسليمهـا إلى عز الدين فـرخشاه فسلكوا طـريق الرواديف، وهـي طريق شاقـة، وفيها أغار عز الـدين على

صفد ثامن عشر ذي القعدة، وكان قد جمع لهم من رجال بانياس وماحولها، ورجع غانما سالما.

قال: وفي مستهل ذي القعدة أو ثانيه توفي ببغداد الخليفة الإمام المستضيء بالله أمير المؤمنين ، واستخلف ولده الناصر لدين الله أبو العباس أحمد ، وكان رسول السلطان ضياء الدين بن الشهرزوري حاضرا فحضر وبايع وأخبر بجلية الحال، فبادر السلطان إلى الخطبة له في جميع البلاد ومضى صدر الدين شيخ الشيوخ عبد الرحيم بن اسماعيل من بغداد رسولا إلى بهلوان، وألزمه حتى خطب بهمذان وأصفهان، وعمت الدعوة الهادية في جميع بلاد خراسان، ثم لما رجع شيخ الشيوخ جاء إلينا رسولا في سنة ست وسبعين، وأخذه السلطان معه إلى مصر وحج منها وركب البحر كما سيأتي ذكره.

وللعماد في مدح الإمام الناصر قصائد منها قصيدة بائية مدحه بها سنة فتح القدس وسيأتي منها أبيات عند ذكر فتحه ومنها:

الدهر ينصرني مادام ينسبني
لخدمة الناصر المنصور نساب
بطاعة الناصر بن المستضيء أبي العـ
ـعباس أحمد للأيام أصحاب

وقال محمد بن القادسي في تذييل تاريخ أبي الفرج بن الجوزي: مولد المستضيء ثالث عشري شعبان من سنة ست وثلاثين، وكانت خلافته تسع سنين وستة أشهر وواحدا وعشرين يوما، بويع تاسع ربيع الآخر سنة ست وستين، وكان كريما رحوما بارا بالرعية يعفو عن الجرائم الكبار، عادلا ظهر يوم مبايعته من رد المظالم والأملاك المقبوضة والإفراج عن المسجونين وإسقاط الضرائب والمكوس ماشاع واشتهر.

قـال: وتقـدم إلى شيـخ الشيـوخ عبد الـرحيـم وإلى عبـد الـرحمن بـن الجوزي فصليا عليه، ثم بـايع الناصر أخوه الأمير أبو منصور هـاشم، ثم بنـو أعمامه وخـواصه ثـم الولاة وأربـاب المنـاصب والأعيـان والوافـدون للحج مـن بلاد خراسـان وغيرهـم، وكان والـده المستضيء قد عهـد إليه قبل وفاته بيوم واحد.

قلت: كـذا نقلته من خطـه، ولعله أراد باسبـوع واحد فسبق بـه قلمه، فإن ابن الـدبيثي ذكر أنه خطب للنـاصر بولاية العهد يـوم الجمعة الثاني والعشرين من شوال.

ثم قال ابن القادسي: وفي سابع ذي القعدة قبض على صاحب المخزن ظهير الدين أبي بكر بـن العطار، ووكل به وتتبع أصحابـه ومن يتعلق به، وقتـل النقيب مسعـود الـذي كان بين يـديه، وكـان أحـد الأعوان ببـاب النـوبي قد نـزعـت الـرحمة من قلبـه، فقطـع قطعـا وشد في رجلـه حبـل، وسحبته العامة في الدروب، ثم أحرقوه بعد ذلك.

قال: وفي حـادي عشره حمل ابن العطـار ميتا، وعلم بـه العامـة فرجموا تابـوته بالآجـر، فألقـاه الحمالون وهربـوا، فأخذه العـامة وشـدوا في رجله شريطا وسحب في جميع بغداد ومنافذها ودروبها ومحالها،وقطع لحمه قطعا.

قال: وتـوجه شيـخ الشيوخ أبو القـاسم عبد الـرحيم إلى البهلـوان بن ايلدكـز شحنة همذان لأجل الخطبـة، فتوقف عن ذلـك، فهاجت العـامة عليه، ووثب أهل المذكور وخطبوا، وجـاء كتاب شيخ الشيوخ إلى الديوان سطـرهـا فلان، والحال في الجنـوح كقصـة نـوح، مـن قرأ السـورة عـرف الصورة.

قـال: وفي هذه السنـة اشتد الغـلاء، وكثر الـوباء ببغـداد وغيرها مـن

- ٨٣١٦ -

البلاد، وذكر أن رجلا بواسط ذبح بنتا له وأكلها، وآخر بقر بطن صبي وأخذ كبده وشواها وأكلها.

قال: وفي رابع عشر ربيع الآخر زلزلت الأرض بعد العتمة فوق بلاد إربل، فلما أصبح الناس عادت الزلزلة في الجبال فتصادمت، ووقع منها الحجارة وسقطت قلاع كثيرة، وهلكت قرى بمن فيها، وكان يكون بين الجمل والجمل عشرون ذراعا فتقذفهما الزلزلة فيتصادمان ويعودان إلى مكانهما.

قال ابن أبي طي: وفيها أحرق الاسماعيلية أسواق حلب وافتقر أهلها بذلك، وكانت إحدى الجوائح التي أصابت حلب وأهلها.

قال: وفيها خرج قراقوش التقوي إلى طرابلس المغرب، ففتح بلادا وصلى حروبا مع ابراهيم السلاحدار الذي دخل بلاد المغرب أيضا من أصحاب تقي الدين، لأن نفسه أطمعته أن يفعل فعل قراقوش في تملك البلاد، ثم أصلح بينهما.

فصل
ثم دخلت
سنة ست وسبعين

ففيها توفي الحافظ أبو طاهر السلفي رحمه الله بالاسكندرية،وقد زرت قبره بها داخل الباب الأخضر.

قال العماد: وفيها هادن السلطان صلاح الدين الفرنج، وتوجه إلى بلد الروم فأصلح بين نور الدين محمد بن قرا أرسلان بن داود بن أرتق، صاحب حصن كيفا، وبين زوج ابنته السلطان عز الدين قليج أرسلان ابن مسعود بن قليج أرسلان، واجتمعوا على نهر يقال له كوك سو، وكثرت ثم الهدايا والدعوات والأفراح والهبات، وفيها دخل السلطان بلاد الأرمن لقمع ملكهم ابن لاون لأنه كان استمال قوما من التركمان حتى يرعوا في مراعي بلاده بالأمان ثم صبحهم بغدره، وحصلوا بأسرهم في أسره، فدخل السلطان بلاده وأذل أعوانه وأجناده، ونصر الله المسلمين بالرعب فأحرق من الخوف قلعة شامخة تعرف بالمناقير ، وبادر المسلمون إلى إخراج مافيها من الآلات والغلات فتقووا بها وتمموا هدمها إلى الأساس.

قال ابن أبي طي: ووجد المسلمون في أرضها صهريجا مملوءا آلات نحاس وفضة وذهب لها زمن طويل، قال: وبذل للسلطان جملة من المال وأنه يطلق من عنده من الأسارى، فلم يرض السلطان بها بذله فزاد في المال وأنه يشتري خمسمائة أسير من بلاد الفرنج ويعتقهم، فأجاب السلطان وأخذ منهم رهينة على ذلك.

قال العماد: وأذعن الأرمني وذل، وأطلق مابيده من الأسارى، ورجع السلطان مؤيدا منصورا، ووصل إلى حماة في أواخر جمادى الآخرة، وكان

الجمال الواسطي أبو غالب محمد بن سلطان بن الخطاب المقري شاهدا هذه الغزاة فنظم قصيدة في السلطان منها:

لقـــــد جمل الله منـــــك الـــــورى
بـــــأوفى مليـــــك وفي هجـــــان

تهش إلى نغمات السيـــــــــــو
ف في الهام لا نغمات القيـــــــان

أزرت ابـــــــــن لاون لأواءه
فـــأضحـــى بـــه خبرا عـــن عيـــان

ودان مـــــن الـــــذل لا يـــــر عـــوي
حـــذارا مـــن الـــراعفـــات اللـــدان

فـــلا قـــــدم عنـــده للثبـــــا
ت وليـــس لـــه بسطـــاكـــم يـــدان

وأخلى إليكـــــــم المنـــــاقير
وغـــادر للهـــــدم تلـــك المبـــاني

وأرســـــل بــــــالاسراء العنـــــا
ة يســـأل اطـــلاقـــه فهـــو عـــاني

رتقـــت بعـــزمـــك والمكـــرمـــا
ت فتـــوقـــا مـــن الأرتقـــي الهجـــان

ورعـــت ابـــن سلجـــوق في ملكـــه
فقعقـــع مـــن رعبـــه بـــالشنـــان

قال: ولما وصل السلطان إلى حمص وخيم بالعاصي أتاه الفقيه مهذب الدين عبيد الله بن أسعد الموصلي وأنشده، وله في السلطان مدائح منها قصيدة غراء مطلعها:

أمـــا وجفـــونـــك المرضـــى الصحـــاح
وسكـــرة مقلتيـــك وأنـــت صـــاحـــي

لقـــد اصبحـــت في العشـــاق فـــردا
كما اصبحـــت فـــــردا في الملاح

يهز الغصن فوق نقى ويرنو
بحد ظبي ويبسم عن أقاح
وقد غرس القضيب على كثيب
فأثمر بالظلام وبالصباح
ومال مع الوشاة ولاعجيب
لغصن ان يميل مع الرياح
قطعنا الليل في عتب وشكوى
إلى أن قيل حي على الفلاح
ولاح الصبح يحكي في سناه
صلاح الدين يوسف ذا الصلاح
ولما ضاق حد عن مداه
لقيناه بآمال فساح
فمن هرم وكعب وابن سعدى
رعاء الشاء والنعم المراح
جوادبالبلادوماحوته
إذا جادوا بألبان اللقاح
ليفد حياء وجهك كل وجه
إذا سئل الندى جهم وقاح
ملوك جلهم مغرى بظلم
ومشغول بلهو أو مزاح
إذا ما جالت الابطال ولى
ويقدم نحو جائلة الوشاح
وبون بين مالك بيت مال
ومالك رق املاك النواحي
هم جمعوا وقد فرقت لكن
جمعت به الرجال مع السلاح
وما خضع الفرنج لديك حتى
رأوا ما لا يطاق من الكفاح

وماسألوك عقد الصلح ودا
ولكن خوف معلمة رداح
ملأت بلادهم سهلا وحزنا
اسودا تحت غابات الرماح

وقال ابن شداد: لما عاد السلطان بعد الكسرة— يعني كسرة الرملة— إلى الديار المصرية، وأقام بها ريثما لم الناس شعثهم، وعلم تخبط الشام عزم على العود إليه، وكان عوده للغزاة فوصله رسل قليج أرسلان يلتمسون منه الموافقة ويستغيث إليه من الأرمن، فاحتمل نحو بلاد ابن لاون لنصرة قليج أرسلان عليه ونزل بقرا حصار، وأخذ عسكر حلب في خدمته لأنه كان قدا اشترط في الصلح ذلك، واجتمعوا على نهر الأزرق بين بهسنا وحصن منصور وعبر منه إلى النهر الأسود طرف بلاد ابن لاون، فأخذ منهم حصنا وأخربه، وبذلوا له أسارى والتمسوا منه الصلح، وعاد عنهم، ثم راسله قليج أرسلان في صلح الشرقيين بأسرهم، واستقر الصلح في عاشر جمادى الأولى سنة ست وسبعين، ودخل في الصلح قليج أرسلان والمواصلة وأهل ديار بكر، وكان ذلك على نهر سنجه، وهو نهر يرمي إلى الفرات، وسار السلطان نحو دمشق.

فصل
في وفاة صاحب الموصل

قال العماد: وفي أوائل هذه السنة توفي صاحب الموصل سيف الدين غازي بن مودود بن زنكي،صاحب الموصل، والسلطان مخيم على كوك سو من حدود بلاد الروم، وجلس مكانه أخوه عز الدين مسعود بن مودود، وجاء رسول مجاهد الدين قايماز، وهو الشيخ الفقيه فخر الدين أبو شجاع بن الدهان البغدادي إلى السلطان، وطلب منه أن يكون معه كما كان مع أخيه من إبقاء سروج والرها والرقة وحران والخابور ونصيبين في يده، فلم يفعل السلطان، وقد كانت له بإطلاق الخليفة، وإنما جعلها في يد سيف الدين غازي بالشفاعة على شرط أنه يقوي السلطان بالعساكر، فلما مات سيف الدين كتب السلطان إلى الخليفة الناصر يعلمه بذلك وان هذه البلاد لم تزل تتقوى بها ثغور الشام، ففوضت إليه على ماأراد، وكان الكتاب إلى صدر الدين عبد الرحيم شيخ الشيوخ من إنشاء العماد وفيه:« قد عرف اختصاصنا من الطاعة والعبودية للدار العزيزة النبوية، بما لم يختص به أحد، وامتدت اليد منها في اقامة الدعوة الهادية بمصر واليمن والمغرب بما لم يمتد إليه يد، وأزلنا من الأقاليم الثلاثة أدعيا، وخلفناهم للردا حيث دعوا بلسان الغواية خلفا، ولاخفاء إن مصر إقليم عظيم وبلد كريم بقيت مائتين وخمسين سنة مضيمة، وعانت كل هضيمة، وعاينت كل عظيمة، حتى أنقذها الله عز وجل بنا من عبيد بني عبيد، وأطلقها بمطلقات أعنتنا إليها من عناء كل قيد، وفيها شيعة القوم، وهم غير مأموني الشر إلى اليوم، وطوائف أقاليم الروم والفرنج من البر والبحر بها مطيفة، فمن حقها ان يتوفر عسكرها، فلو حصل والعياذ بالله بها فتق أعضل رتقه، واتسع على الراقع خرقه، واحتجنا في حفظ بلاد الشام، وثغور الاسلام إلى استصحاب العسكر المصري إليها، وله مدة خمس سنين في بيكارها، منتقما من كفارها، محتملا لمشاقها على غلاء اسعارها، وإنما أحوج إلى ذلك أن بلاد هذا الثغر قد

اقتطعت عنه، وعساكرها أخذت منه، وكانت في تولي نور الدين رحمه الله» ثم ذكرها كما سبق ففوضت إليه كما سيأتي.

وقال ابن الأثير: توفي سيف الدين يوم الأحد ثالث صفر سنة ست وسبعين، وكان مرضه السل، وطال به، قال: ومن العجائب أن الناس لما خرجوا يستسقوّن بالموصل سنة خمس وسبعين للغلاء الحادث في البلاد، خرج سيف الدين في موكبه فثار الناس وقصدوه مستغيثين به، وطلبوا منه أن يأمر بالمنع من بيع الخمر، فأجابهم إلى ذلك، فدخلوا البلد، وقصدوا مساكن الخمارين وخربوا أبوابها ونهبوها، وأراقوا الخمور وكسروا الأواني، وعملوا مالا يحل، فاستغاث أصحاب الدور إلى نواب السلطان، وخصوا بالشكوى رجلا من الصالحين يقال له أبو الفرج الدقاق، ولم يكن له في الذي فعله الناس من النهب فعل، إنما هو أراق الخمور، ولما رأى فعل العامة نهاهم فلم يسمعوا منه، فلما شكي أحضر بالقلعة، وضرب على رأسه فسقطت عمامته، فلما أطلق لينزل من القلعة نزل مكشوف الرأس فأرادوا تغطيته بعمامته فلم يفعل، وقال: والله لاغطيته حتى ينتقم الله ممن ظلمني، فلم يمض غير قليل حتى توفي الدزدار المباشر لأذاه، ثم تعقبه مرض سيف الدين، ودام مرضه إلى أن توفي، وكان عمره نحو ثلاثين سنة، وكانت ولايته عشر سنين وشهورا، وكان أحسن الناس صورة، تام القامة مليح الشمائل، أبيض اللون، مستدير اللحية، متوسط البدن بين السمين والدقيق، وكان عاقلا وقورا قليل الالتفات إذا ركب، وإذا جلس، عفيفا لم يذكر عنه شيء من الأسباب التي تنافي العفة، وكان غيورا شديد الغيرة لم يترك أحدا من الخدم يدخل دور نسائه إذا كبر إنما يدخل عليهن الخدم الصغار، وكان لايحب سفك الدماء ولاأخذ الأموال مع شح فيه.

قال: ولما اشتد مرضه أراد أن يعهد بالملك لولده معز الدين سنجرشاه، فخاف من ذلك لأن صلاح الدين يوسف بن أيوب كان قد

تمكن بالشام وقويت شوكته، وامتنع أخـوه عز الدين من الإذعان والإجابة إلى ذلك، فأشار الأمراء الكبار ومجاهد الدين قايماز بأن يجعل الملك بعده في أخيـه، لما هو عليـه من كبر الســن والشجـاعة والعقـل، وقوة النفـس وحسن سياسة الملك، وأن يعطي ابنيـه بعض البلاد، ويكون مرجعهما إلى عمهما عز الديـن ليبقي لهما ذلك، ففعل ذلك وحلـف الناس لأخيه، فلما تـوفي سيف الـدين كـان مجاهد الـديـن هو المدبـر للدولـه والنائب فيهـا والمرجع إلى قـوله ورأيـه، فركـب إلى الخدمة العـزية وعـزاة وركبه إلى دار المملكة ومشـى في ركابه راجـلا، فدخلها وجلس للعـزاء، وكانت الـرعية تخافه قبـل أن يملك لإقدامـه وجراءته وحدة كـانت فيه، وكـان لايلتفت إلى أخيه سيـف الدين إذا أراد أمـرا، فلما ولي تغيرت أخلاقه وصـار رفيقا بالرعية محسنا اليهم، قريبا منهم.

قـال ابـن شـداد: وفي عـاشر المحرم سنـة سـت وسبعين بلـغ الملـك الصالح بن نور الـدين عصيان غرس الدين قليج بتل خـالد فأخرج إليه العسكر، ثم بلغه وفاة ابن عمه صاحب الموصل ثالث صفر.

فصل

في وفاة شمس الدولة بن أيوب أخي السلطان الأكبر

وقدوم رسل الديوان بالتفويض إلى السلطان فيما طلب

قال ابن أبي طي: كان السلطان قد أنفذ أخاه شمس الدولة إلى الاسكندرية، وجعل إليه ولايتها، فلما حصل بها لم توافقه، وكان يعتاده القولنج فهلك به ودفن بقصر الاسكندرية، وكان أحد الأجواد الكرماء الأفراد، شجاعا باسلا عظيم الهيبة، كبير النفس، واسع الصدر ممدحا فيه يقول ابن سعدان الحلبي من قصيدة:

هو الملك ان تسمع بكسرى وقيصر
فإنهما في الجود والبأس عبداه

وما حاتم ممن يقاس بمثله
فخذ ما رأيناه ودع ما رويناه

ولذ بذراه مستجيرا فإنه
يجيرك من جور الزمان وعدواه

فلا تتحمل للسحائب منة
إذا هطلت جودا سحائب جدواه

ويرسل كفيه بما اشتق منهما
فلليمن يمناه ولليسر يسراه

وقال العماد: وفيها في المحرم توفي بثغر الاسكندرية تورانشاه أخو صلاح الدين، ووصل الخبر بذلك إلى السلطان، وهو نازل بظاهر حمص، فحزن عليه حزنا شديدا ، وجعل يكثر إنشاد أبيات المراثي، وكان كتاب الحماسة من حفظه، وكان صلاح الدين لما ملك مصر أرسله إلى اليمن فملكها، ثم استناب فيها وقدم الشام سنة إحدى وسبعين، فلما وصل تيماء جاء منه كتاب وفيه أبيات لشاعره ابن المنجم منها:

فهـل لأخـي بـل مـالكـي علـم إننـي
إليــه وإن طــال التردد راجــع
وأني بيــوم واحــد مــن لقــائه
لملكــي على عظــم المزيــة بــائع
ولم يبــق إلا دون عشريــن ليلــة
وتجنــي المنــى أبصــارنــا والمســامــع
لــدى ملــك تعنــو الملــوك إذ بــدا
وتخشــع إعظــامــالــه وهــو خــاشــع
كتبــت وأشــواقــي إليــك ببعضهــا
تعلمــت النــوح الحمام الســواجــع
ومــا الملــك إلا راحــة أنــت زنــدهــا
تضــم على الــدنيــا ونحــن الأصــابــع

قلت: وقبر تورانشاه الآن بالتربة الحسامية بـالعوينة ظاهر دمشق نقلته إليها أخته ست الشام بنت أيوب،وبنت القبر عليـه، وعلى زوجها ناصر الـدين محمـد بن شيركـوه، وهو ابـن عمها وعلى قبرهـا وقبر ابنها حسـام الدين عمر بـن لاجين، وسيأتي ذكره وإليه تنسب التربة، فهـي ثلاثة قبور القبلي لتورانشـاه، والأوسط لابـن شيركوه، والشـامي لسـت الشام وابنهـا رحمهم الله[٧].

قال العماد: وفيهـا في رجب وصلـت رسل الديـوان العزيـز الناصري، صدر الدين شيـخ الشيوخ أبو القاسم عبد الرحيم، ومعـه شهاب الدين بشير الخاص بالتفويض والتقليد والتشريف الجديـد، فتلقيناهم بالتعظيم والتمجيد وركـب السلطان للتلقـي، وعلى صفحاتـه بشائر الترقـي، فلما ترآى له الرسل الكرام، ووجب لهم الإجـلال والإعظام، نزل وترجل وأبدى الخضوع وتوجـل، ونزل الرسل إليه وسلموا عـن أمير المؤمنين عليه، فتقبل الفرض وقبل الأرض، ثم ركبوا ودخلوا المدينة.

قال ابـن أبي طي: وكانـت هذه أول خلعة قـدمت من الإمـام الناصر، على الملك الناصر، وكانت ثوب أطلس أسود واسع الكم مذهب، وبيقار أسود مـذهب، وطيلسـان أسود مـذهب، ومشـدة سوداء مـذهبة، وطـوق وتخت وسر فسـار وجواد كميـت من مـراكب الخليفـة عليه سرج أسـود، وسـلال أسود، وطـوق بجوهـر، وقصبة ذهـب وعلـم أسـود، وعدة خيـول وبقج، وركب السلطان بالخلعة وزينت له دمشق، وكان يوما عظيما.

قال العماد: وظفـر السلطان من صدر الـدين بصديق صـدوق، وكان قد عـزم على قصد الديـار المصرية، وسلوك طـريق ايلة والبريـة، فحسن لشيخ الشيوخ مصاحبته، ورغبة زيارة قبر الشافعي رضي الله عنه، فقال: قد عزمت في هـذه السنة على الحج فأصل معكم إلى القاهـرة بشرط إقامة يـومين ولاأدخلهـا وإنما أسكن بـالتربـة الشـافعية، وأسير منهـا إلى بحـر عيذاب فلعلي أدرك صوم رمضـان بمكة، فالتزم ابـن الشهروزوري، وأنشأ العماد كتابـا في الجواب إلى الديـوان وفيه:« وقـد توجـه الخادم إلى الديـار المصرية لتجديـد النظر فيها، ثم يستخير اللـه في الحج وأدائه، ويعود إلى مجاهدة أعدائه».

فصل

في رجوع السلطان إلى مصر مرة ثانية

قال العماد: ولما عـزم السلطان على الرحيل استنـاب بالشام ابـن أخيه عز الدين فرخشاه، وكان عزيـز المثل، غزير الفضل، وقال فيه العماد عند توديعه قصيدة منها:

أسـأل الله ذا العلى أن تعيـش
ألـف عـام لنصره مستجيشـا

ومنها:

مـا أكـدي شيئـا سـوى فـروة منـ
ـك وأبغـي لسفـرتي اكـديشـا
كيـف يخلـو مـن دفء ظهـر
سـالـك طـرق إيلـة والعـريشـا

ووقفت على ثلاثة كتـب للفاضل عن الملك العادل إلى الـولاة باليمن، يعلمهـم أن ملوك الشرق قـد دخلوا في طـاعة السلطـان، وأنه عـازم على القـدوم إلى مصر،وصـوم رمضـان بها، والحج إلى بيـت اللـه الحرام منهـا، ويأمرهم بالاستكثار مما يحمل لأجله إلى مكة من المال والأزواد والخلع، مما تشتمل عليه تلـك الأعمال، ووقفت على كتابين آخريـن أحدهما إلى أمير مكة، والآخـر إلى أمير ينبع يعلمهما بـذلك ليتـأهبا لقـدومه،ووقفـت على كتاب سادس للفاضل إلى السلطان في ذلك يقول فيه:« جعل الله الملوك ذمة لسيفه، وشرد منام الأعداء منهم بطيفه، وأمن أهل الاسلام بعدله من جور الـدهر وحيفـه، وأشهده مـوقف الحج الأكبر، وزان بمحضره مشهـد خيفه، وجعل وفده الأكرم وضيف بيتـه في هذه السنة في وفده وضيفه» ثم هناه بما فتح الله عليه من محبة الجهـاد، وما أثره في بلاد الأرمن وغيرها من البلاد، ومـاتبع ذلـك من نية الحج بلغـه الله منه المراد، ودخـول السلطان

بلاد الأرمن كان في هذه السنة، كما سبق، فلعله سنح له الحج مع شيخ الشيوخ، ثم حصل له مامنعه منه.

قال العماد: ورحل السلطان إلى مصر يوم الاثنين ثامن عشر رجب ومعه صدر الدين شيخ الشيوخ، فأقام يومين كما ذكر وتوجه منها إلى مكة على البحر فأدرك الصوم.

قال العماد: ووصلنا إلى القاهرة على طريق إيلة ثالث عشر شعبان، واستقبلنا أهلها، ولقينا الأكابر والأعيان، والملك العادل أخو السلطان حينئذ بها نائبة، وتلقينا مواكبه ومواهبه، وخدمته بقصيدة ذكرت فيها المنازل والمناهل من يوم الرحيل من دمشق إلى الوصول بالقاهرة منها:

قلبي طال ليلي بعدكم
أسى فمتى ألقى بوجهكم الفجرا

فقدت حياتي مذ فقدت لقاءكم
فهل لحياتي منكم نشأة أخرى

أجيران جيرون المجير من جارهم
من الجور حوزوا في مشوقكم الأجر

محبكم قد خانه الصبر فاطلبوا
محبا سواه عنكم يحسن الصبرا

ومذ غبت عن مقرى قد نبا
سقى ورعى ربي مقري في مقرى

أحن إلى عذرا وعذري واضح
لأن الهوى العذري مني في عذرا

إذا القدر المحتوم من جلق بنا
إلى مصر أسرى فالقلوب بها أسرى

رحلنا فما باحت بأسرارنا سوى
عبارة عين خوف يوم النوى عبرى

تركنا دمشقا والجنان وراءنا
وقد أمنا بالكسوة الرفقة السفرا

وجئنـــــا إلى المرج الـــــذي طـــــاب نشره
فـــلا زال مـــن أحبـــا بنـــا طيبـــا نشرا
رحلنـــا بمـــرج الصفـــر العيـــس غـــدوة
فســـارت وحطـــت في محجتهـــا ظهـــرا
وقـــد قطعـــت تبنـــا إلى الـــديـــر بعـــدهـــا
وبعـــدهما غـــدر البشـــاميـــة الغـــزرا
ورأس الحشـــا والقـــريتين وكلهـــا
مـــوارد فيهـــا السحـــب قـــد غـــارت غـــدرا
وردنـــا مـــن الـــزيتـــون حسمـــى وإيلـــة
وجـــزنـــا عقـــابـــا كـــان مسلكهـــا وعـــرا
إلى قلـــة الـــراعـــي إلى نـــابـــع إلى
جـــراول فـــالنخـــل الـــذي لم يـــزل قفـــرا
إلى منـــزل في روضـــة الجمـــل اغتـــدت
بـــه عيسنـــا في صـــدر شـــارحـــه صـــدرا
ودون حشـــا الماحشنـــا ركـــابنـــا
عيـــون لموســـى لم يـــزل مـــاؤهـــا مـــرا
هنـــاك تلقـــانـــا الـــوفـــود ببرهـــم
فسروا بنـــا نفســـا وزادوا بنـــا بشرا
قطعنـــا إلى بحـــر النـــدى بحـــر قلـــزم
ومـــن قصـــده بحـــر النـــدى يقطـــع البحـــرا
عبرنـــا إلى مـــن كـــاثـــر الـــرمـــل جـــوده
وجـــزنـــا إليـــه ذلـــك الـــرمـــل والجسرا
ولم يـــرونـــا مـــاء الثماد بعجـــرد
ولم يقتنـــع بـــالقـــل مـــن يـــأمـــل الكثـــرا
وجبنـــا البـــويـــب والمصـــانـــع قبلـــه
إلى بـــركـــة الجب التـــي قـــربـــت مصرا
إلى عـــزمـــه في المجـــد غير قصيرة
وكـــان قصـــارى أمـــرنـــا أن نـــرى القصرا

ولما نزلنا مصر في شهر طوبة
وردنا بكف العادل النيل في مسرى
غدا قاصراً عن قصره قصر قيصر
وإيوان كسرى عند إيوانه كسرا

قال العماد: وفي هذه السنة بمصر عربت كتاب كيمياء السعادة تصنيف الإمام أبي حامد الغزالي في مجلدين، وفزت من تعريبه وعلم مافيه بسعادتين، وذلك بأمر فاضلي لزمني امتثاله، وشملني في إتمامه إقباله.

قال: وفيها في خامس عشري شوال توفي صاحبي المعتمد ابراهيم بدمشق، وأنا بمصر.

قلت وهذا غير والي دمشق المعروف بالمبارز ابراهيم بن موسى، ويلقب أيضا بالمعتمد، ورثى العماد صاحبه بقصيدة منها:
أرى الحزن لايجدي على من فقدته
ولو كان في حزني مزيد لزدته
تغيرت الأحوال بعدك كلها
فلست أرى الدنيا على ما عهدته
عقدت بك الايمان بالنجح واثقا
فحلت يد الأقدار ما قد عقدته
وكان اعتقادي أنك الدهر مسعدي
فخانتني الأيام فيما اعتقدته
أردت لك العمر الطويل فلم يكن
سوى ما أراد الله لا ما أردته
وداع دعاني باسمه ذاكراً له
فأطربني ذكر اسمه فاسعدته
فقدت أحب الناس عندي وخيرهم
فمن لائمي فيه إذا ما انشدته

قال: ورثيته ببيتين وذكرت العناصر الأربعة في بيت واحد منهما:

لهفي على من كان صبحي وجهه
فعدمت حين عدمته أنواره
سكن التراب وغاض ماء حياته
مذ أطفأت ريح المنية ناره

قال ابن أبي طي: وفي هذه السنة سافر قراقوش إلى قابس، فذكر محاصرته لجملة من القلاع، وقتله جماعة من البربر، ومما ذكره أنه أسر جماعة على حصن وأمر بقتلهم، وفيهم صبي أمرد، فبذل فيه أهل القلعة عشرة آلاف دينار على أن لايقتله فأبى فزاودوه إلى مائة ألف فأبى وقتله، فما استتم قتله حتى نزل شيخ من القلعة ومعه مفاتيحها وقدمها لقراقوش، فسأله عن الخبر فقال: هذا الصبي الذي قتلته ولدي، ولم يكن لي سواه ولأجله كنت أحفظ هذه القلعة، فلما قتلته علمت إن بقيت هذه القلعة في يدي ومت صارت إلى أولاد أخي وأنا أبغضهم فرده إلى القلعة وأخذ منه أموالا.

- ٨٣٣٢ -

ثم دخلت
سنة سبع وسبعين

قال العماد: والسلطان مقيم بالقاهرة وقد عين لسماع الأحاديث النبوية بقراءة الإمام تاج الدين البندهي المسعودي ميقاتا، وجمع به من أهل العلم والعلماء عنده أشتاتا، وورد كتاب عز الدين فرخشاه من الشام يذكر مامن الله به على الأنام من الإنعام بكثرة ولادة التؤام في ذلك العام، وجبر الله به ماكان قبله من الوباء، وتفاءلوا بالخصب بعد الجدب والغلاء.

قال: ودخلت الحمام الذي بناه زين الدين أبو الحسن علي بن نجاء الواعظ في داره، خارج باب زويلة بالقاهرة في ذي القعدة فقلت:

مامنزل من يرى فيه غير عار فعار
به تماط الأذايا وترحض الأوضار
والعيش فيه قرير والطيش فيه وقار
والسبت في كل يوم لمن يرى مختار
نار تطيب ألا أعجب لجنة هي نار

وله فيه:

ومنزل يدخله لشغله كل أحد
يوجد فيه السبت في كل خميس وأحد

فصل

في ذكر وفاة الملك الصالح اسماعيل بن نور الدين رحمهما الله وماتم في بلاده بعده وذلك بحلب

قال ابن شداد:وكان مرضه بالقولنج، وكان أول مرضه في تاسع رجب، وفي الثالث والعشرين منه أغلق باب قلعة حلب لشدة مرضه، واستدعي الأمراء واحدا واحدا واستحلفوا لعز الدين صاحب الموصل، وفي الخامس والعشرين منه توفي رحمه الله، وكان لموته وقع عظيم في قلوب الناس.

وقال ابن أبي طي: كان سبب موته أن علم الدين سليمان بن جندر سقاه سما في عنقود عنب وهو في الصيد، وقيل الذي سقاه ياقوت الأسدي في شراب، وقيل إنه أطعمه خشكنانكة وهو في الصيد، قال: ودفن بالمقام الكبير الذي في القلعة، وحزن الناس له حزنا عظيما، وكان من أحسن الناس صورة وألبقهم أعطافا.

قلت: وبلغني أنه كان يقال إن موت الملك الصالح صغيرا كان من كرامات نور الدين رحمه الله، فإنه سأل الله تعالى أن لايعذب شيئا من أجزائه بالنار، وولده جزؤه فمات قبل أن يطول عمره على أحسن سيرة وحالة رحمهما الله.

قال ابن الأثير: ولم يبلغ عشرين سنة، ولما اشتد مرضه وصف له الأطباء شرب الخمر تداويا بها، فقال: لاأفعل حتى استفتي الفقهاء، وكان عنده علاء الدين الكاساني الفقيه الحنفي بمنزلة كبيرة ويعتقد فيه اعتقادا حسنا ويكرمه، فاستفتاه فأفتاه بجواز شربها، فقال له: ياعلاء

الديـن إن كان الله سبحـانه وتعالى قـد قرب أجلي أيؤخـره شرب الخمر؟ قال: لاوالله ، قال: والله لالقيت الله تعالى وقد استعملت ماحرمه علي.

قلت: يحتمل أنه ذكر له أن من العلماء من ذهب إلى جواز ذلك لا أنه كان يرى ذلك فإن مذهبه بخلافه، والله أعلم.

ثـم قال ابـن الأثير: فلما آيس مـن نفسه أحضر الأمـراء كلهم وسـائر الأجناد ، واستحلفهم لابن عمه أتابك عـز الدين، وأمرهم بتسليم مملكته جميعها إليه، فقال له بعضهم: إن ابن عمـك عز الدين له الموصل وغيرها من البلاد من همذان إلى الفرات، فلو أوصيـت بحلب للمولى عماد الدين ابن عمك لكـان أحسن، ثم هو تـربية والدك، وزوج أختك، وهـو أيضا عديم المثل في الشجاعة والعقل والتدبير وشرف الأعراق وطهارة الأخلاق والخلال التـي تفرد بها، فقـال: إن هذا لم يغـب عني، ولكـن قد علمتـم تغلب صـلاح الديـن على عامـة بلاد الشـام سوى مـابيدي ومعـي، فإن سلمت حلب إلى عماد الـدين يعجز عن حفظهـا من صلاح الديـن فإن ملكهـا صلاح الـدين فـلا يبقى لأهلنـا معه مقـام، وإذا سلمتها إلى عـز الـدين أمكنـه أن يحفظهـا لكثرة عسـاكـره وبلاده وأمـوالـه، فاستحسـن الحاضرون قـوله وعلمـوا صـحته، وعجبوا من جودة رأيه مع شدة مرضه، ومن أشبـه أباه فما ظلـم، فلما توفي أرسـل دزدار حلب، وهـو شاذبخـت وسائر الأمراء إلى أتابك عز الدين يـدعونه إلى حلب ليسلموها إليه، فورد الخبر ومجاهـد الـديـن قـايماز قـد سـار إلى مـارديـن لمهـم عـرض فلقـي القاصديـن عندها فأخبروه الخبر فسار إلى الفرات، وأرسـل إلى أتابك عز الديـن ويشير بتعجيل الحركـة، وأقام على الفـرات ينتظره، فسـار أتابـك مجداً فلما وصـل إلى المنزلـة التي بها مجاهـد الـدين أقـام معه، وأرسـل إلى حلب يستحضر الأمـراء فحضروا كلهم عنـده، وجددوا اليمين لـه، فسار حينئذ إلى حلـب ودخلها وكان يومـه مشهودا، ولما عبر الفرات كـان تقي الديـن عمر ابن أخـي صلاح الديـن بمدينة منبـج فسار عنها هـاربا إلى

مـدينة حماة، وثـار أهل حماة ونـادوا بشعار أتـابـك، وكان صـلاح الديـن بمصر، فأشـار عسكر حلب على عز الـدين بقصد دمشق وأطمعـوه فيها وفي غيرها من البلاد الشـامية، وأعلموه محبة أهلها للبيت الأتـابكي، فلم يفعل وقـال: بيننا يمين فلا نغـدر به، وأقام بحلـب عدة شهور، ثـم سار منها إلى الـرقة فأقـام بها وجاءه رسول أخيـه عماد الدين يطلـب أن يسلم إليه حلـب، ويأخذ منـه عوضها مـدينة سنجـار، فلم يجبه إلى ذلـك ولج عماد الـدين وقـال: إن سلمتـم إلي حلـب، وإلا سلمت أنـا سنجـار إلى صلاح الدين، فأشار حينئذ الجماعـة بتسليمها اليه، وكان أكبرهم في ذلك مجاهد الدين قايماز فإنه لج في تسليمها إلى عماد الدين ، ولم يمكن أتابك عز الديـن مخالفته لتمكنه في الدولة، وكثـرة عساكره وبلاده، فـوافقه وهو كـاره، فسلـم حلب إلى أخيـه وتسلـم سنجـار، وعاد إلى الموصـل، وكـان صلاح الـدين بمصر وقد آيـس من العـود إلى الشام، فلما بلغه ذلـك برز عن القـاهرة إلى الشـام، فلما سمع أتابـك عز الديـن بوصـول صلاح إلى الشـام جمع عساكـره وسـار عـن الموصل خـوفـا على حلـب من صـلاح الـدين، فـاتفـق أن بعض الأمـراء الأكـابر مـال إلى صـلاح الديـن وعبر الفرات إليـه، فلما رأى أتابـك ذلك لم يثـق بعده إلى أحـد من أمـرائه، إذ كان ذلـك الأمير أوثقهم في نفسه، فعـاد إلى الموصل، وعبر صلاح الـدين الفـرات، وملك البـلاد الجزرية، ونـازل الموصـل فلم يتمكـن من النـزول عليها، وعـاد إلى حلب وحصرها فسلمها عماد الـدين إليه وسبـب ذلك أن عز الـدين لما تسلـم حلب لم يترك في خـزائنها مـن السلاح والأمـوال شيئا إلا نقله إلى الموصل، وتسلمها عماد الـدين وهي كما يقال بطن حمار، فهو كان السبب في تسليمها.

قال ابن شـداد: ولما توفي الملك الصالـح سارعوا إلى إعلام عـز الدين مسعود بـن قطب الدين بـذلك وبما جرى لـه من الوصية إليـه، وتحليف الناس لـه، فسارع سائرا إلى حلب مبـادرا خوفا من السلطـان، فكان أول

قادم من أمرائه إلى حلب مظفر الدين بن زين الدين، وصاحب سروج، ووصل معهما، من حلف الأمراء له، وكان وصولهم في ثالث شعبان، وفي العشرين منه وصل عز الدين إلى حلب، وصعد القلعة واستولى على خزائنها وذخائرها، وتزوج أم الملك الصالح في خامس شوال من السنة المذكورة، ثم أقام عز الدين بقلعة حلب إلى سادس عشر شوال، وعلم أنه لايمكنه حفظ الشام مع الموصل لحاجته إلى ملازمة الشام لأجل السلطان، وألح عليه الأمراء في طلب الزيادات ورأوا أنفسهم أنهم قد اختاروه، وضاق عطنه، وكان صاحب أمره مجاهد الدين قايماز، وكان ضيق العطن لم يعتد مقاساة أمر الشام، فرحل من حلب طالب الرقة، وخلفه ولده ومظفر الدين بن زين الدين بها، فأتى الرقة ولقيه أخوه عماد الدين عن قرار بينهما، واستقر مقايضة حلب بسنجار، وحلف عز الدين لأخيه عماد الدين على ذلك في حادي عشري شوال، وسار من جانب عماد الدين من تسلم حلب، ومن جانب عز الدين من تسلم سنجار، وفي ثالث عشر المحرم سنة ثمان وسبعين صعد عماد الدين قلعة حلب.

قلت: ووقفت على كتاب فاضلي عن السلطان إلى عز الدين فرخشاه، وهو نائبه بدمشق:« وقفنا على كتابه، وعلمنا ماتجدد من الخبر مرض الملك الصالح واشتداد حاله، وانقطاع الداخل عليه» ثم أشار بتنفيذ عسكر إلى جهة أخيه تقي الدين على إظهار قاعدة النظر في القضية الحادثة بين ديار بكر وابن قرا أرسلان، والتوجه لفصلها، قال:« فيكون ظاهر حركة العسكر لهذا السبب المتقدم، وباطنها لهذا السبب المتأخر، وقد كوتب الولد تقي الدين ان يتوجه إلى منبج وتل باشر، وهي جمهور الطرق بل كلها وقد أوعزنا إلى تقي الدين بأن يكون حمام حماة في حلب، وحمام دمشق في حماة، وإلى الأجل ناصر الدين بأن يكون حمام دمشق في حمص، وحمام حمص في حلب، وولدنا عز الدين يؤمر بأن يكون حمام بصرى في دمشق، وقد بعثنا نجابين يكونون منيخين ببصرى، فإن تحققت الوفاة فنحن أسبق اليكم من الجواب قولا وفعلا، ووعدا ونجحا، فالعلة

مـزاحـه، والعسـاكـر مستريحه والظهر قـد استعـد والمصلحـة في الحركـة ظاهرة، وحجج انتقاد المنتقدين في هذه القضية ساقطة».

وقال العماد: كـان قصد السلطـان إصلاح حال الملـك الصالـح، وأنه القائم مقام أبيه، فصده عنه مماليكه، فـأخذت بلاده بلجاجهم، ومرضت دولته لسـوء علاجهـم، فاقتنع بحلـب إلى أن توفي، ووصـل ابن عمـه عز الدين مسعـود صاحب الموصل إلى حلـب، فجمع ظاهره وبـاطنه، وأخذ خزائنه، واستخرج دفائنه، وأخلى كنائنـه، ثم عرف أنه لايستقر له بها أمر، فرغب أخـاه عماد الدين زنكي صـاحب سنجار في تعويضهـا له بحلب، فمال إلى بذلـه ورغب، ولما سمع السلطان في مصر بـوفاة الملك الصـالح تحرك عزمـه وندم على النـزوح من الشام مـع قرب هـذا المرام، فكتب إلى ابن أخيـه تقي الـدين، وهـو يتولى لـه المعره وحماة، وكـان نائبـه بدمشـق للنهـوض، وكذلـك شحذ عـزائم نوابـه بالشـام بتجديـد المكاتبـات لهم وبعثهم على الاستعداد وحملهـم، وكان نائبه بـدمشق ابن أخيه عـز الدين فرخشـاه قد نهض في مقابلة الفـرنج بالكرك، فـإن الابرنس الكركـي كان يحدث نفسـه بقصـد تيماء في البريـة، فما زال فرخشـاه في مقـابلتـه حتـى نكـص اللعين على عقبيه ذليـلا، ولم يجد إلى مـاحدثتـه بـه نفسه سبيـلا، فعرف السلطـان اشتغاله بهذا المهـم، فكتب كتابـا يشرح الحال إلى بغداد باللفـظ العمادي يقول فيه:« وشـاع الخبر بغارة فـرنج أنطاكيـة على حارم وأتوا مـن السبي والنهب بـالعظائم، وشـاع أيضا أن عسكر حلـب أغار على الراوندان وهـي في عملنا، ورسولهم عند الفرنج يستنجـدهم ويغريهم بنا، وقد راسلـوا الحشيشية والمراد من الرسـالة غير خاف والعلم بـالمعتاد منه كـاف، وابن أخي غـائب في أقصى بلاد الفـرنج في أول بريـة الحجاز فـإن طاغيـة منهم جمع خيلـه ورجله، وحـدثته نفسـه الخبيثة بقصـد تيماء وهي دهليز المدينة على ساكنها السـلام، واغتنم كون البرية معشبة مخصبة في هـذا العام، والعجـب أن نحامـي عـن قبر النبي صلـوات الله عليـه وسلامه، مشتغلين بهمـه، والمذكور— يعني صاحـب الموصل— ينازع في

ولاية هي لنا ليـأخذ بيد ظلمه، وكم بين من يحارب الكفـر ويحمل إليهم قـواصم الآجـال، وبين من يتخـذهـم بطانـة دون المؤمنين ويحمل إليهـم كرائم الأموال، هذا مـع مانعد في الدولة الحنيفية والدولـة الهادية العباسية من آثار لايعـد مثلها أولا لأبي مسلم لأنه أقدم ثم خـامر، ووالى ثم ولى، ولاآخـرا لطغرلبـك فـإنـه نصر ونصب، ثـم حجـر وحجـب، وقد عـرف مـافضلنا الله بـه عليهما في نصر الـدولة، وقطـع مـن كـان ينازع الخلافـة رداءها وتطهير المنابـر من رجس الأعداء، ولم نفعـل مافعلنا لأجل الـدنيا غير أن التحدث بنعمة الله واجـب، والتبجح بالخدمة الشريفـة والافتخار بالتوفيـق فيها على السجية غالـب، ولاغنى عن بروز الأوامـر الشريفة إلى المذكور بأن يلزم حده، ولايتجاوز حقـه، فإن دخول الأيدي المختلفة عن الأعداء المتفقة شـاغل، ويحتاج إلى مغرم ينفق فيه العمـر بغير طائل، فإن الأعمار تمر مر السحـاب، والفرص تمض ومض السراب، وبقاؤنـا في هذه الـدار القليل اللبـث القصير المكـث يؤثـر أن نغتنمـه في مجاهدة العـدو الكافر الذي صار به البيت المقـدس محلا للارجاس، ومضت عليه دهور وملـوك لم يحصلوا مـن رجاء تطهيره إلا على اليـاس، وإن كـان القوم قـد بذلـوا للدار العـزيزة بـذولا معارة، فقـد أسلف الخادم خـدمات ليسـت بعوار، فـإنهم لو بذلوا بـلادهم كلها مـاوفت بفتح مصر التي رحـل عنها أسامي الأدعياء الـراكبة أعوادها، وأعاد إلى عينها بعـد بياض عمائها، من نـور الشعار العبـاسي سـوادها، فـإن اقتضت الأوامـر الشريفـة أن يوعـز للمذكـور في حلب بتقليد فالأولى أن يقلـد الجميع فلا رغبة فيما لايـؤمن معـه شر الشريك، ولمالـك الأمـر الحكم في ممـالـك المماليك»، وكـان في الكتاب أيضا مامعناه أن حلب من جملـة البلاد التي اشتمل عليها تقليد أمير المؤمنين المستضىء بأمـر الله له، وإنما تركهـا في يد ابن نور الـدين« لأجل أبيه، والآن فليرجع كل إلى حقه وليقنع برزقه».

ومن كتـاب فاضلي:« فقد صرف وجهنـا في هذا الـوقت عن جهـاد لو كنا بصدده، وعن فرض لو وصلنا يومه بغده، لكان الاسلام قد أعفى من

شركـة الشرك، وانفـك أهلـه مـن ربقـة أهـل الأفـك، ولكـانـت الأسماء الشريفة قـد قرعت منابـر طالما عزلت الصلـب خطباءها، ولكان الـدين الخالص قد خلص إلى بلاد صار المشركون متوطنيها والمسلمون غرباءها».

وفي كتاب آخـر له:« وقـد علم الله أنا لهدنتهـم كارهـون، وفي مصلحة أهل الاسلام وفي مصـالحهم راغبون، ولكنا بلينا بقوم كـالفراش أو أخف عقولا، وكـالانعام أو أضل سبيـلا، إن بني معهـم فعلى غير أساس، وإن عدد الغدر منهم فهو أكثر من الأنفاس».

وفي كتاب آخـر:« والخادم والحمد لله يعدد سـوابق في الاسلام والـدولة العباسية لايعدهـا أولية أبي مسلم لأنه والى ثم وارى،ولا آخريـة طغرلبك لأنـه نصر ثـم حجـر، والخادم بحمـد الله خلع مـن كـان ينـازع الخلافـة رداءهـا، وأساغ الغصـة التي ذخـر الله للاسـاغة في سيفه ماءهـا، فرحـل الأسماء الكاذبة الراكبـة على المنابر، وأعز بتأييد ابـراهيمي، فكسر الأصنام الباطنة بسيفه الظـاهر لا الساتر، وفعل ومافعل للدنيـا ولامعنى للاعتداد بما هـو متوقـع الجزاء عنه في اليـوم الآخر» ومـن كتاب آخـر عند دخـول صـاحـب الموصـل حلـب واستيلائه عليهـا، وكـانـت داخلـة في تقليـد السلطان السابق فقال:« دخل حلب مستـوليا، وحصل بها معتديا وعقود الخلفاء لاتحل، والسيـوف في أوجه أوليـائهم لاتسـل، وإنه إن فتـح باب المنازعة، أدنـى من ندامه، وأبعد مـن سلامه، وخرق مايعيـى على الراقع، وجذب الـرداء فلم تغن فيه إلا حيلـة الخالع، وليس الاسيتـلاء بحجة في الولايات لطـالبها، ولا الدخول إلى الـدار بموجب ملك غـاصبها، إلا أن تكون البـلاد كالـديار المصرية حين فتحهـا الخادم وأهله، حيـث الجمعة مستريبـه، والخلافة في غير أهلهـا غريبـة، والعقائد لغير الحق مستجيبـة، فتلك الـولاية أولى من منحهـا من فتحهـا، وكان سلطانها مـن أدخل في كان شيطـانها، وأما حلب فـإن الكلمة فيها عـالية، والمنـابر فيها بـالاسم الشريف حاليـة، فإنها تكون لمن قلدها لالمن توردهـا، ولمن بالحق تسلمها

لا لمن بالباطل تسنمها، ولو كانت حلب كما كانت مصر لدخلها الخادم ولم يشاور و لـوجها، ولم يناظر، ولكنه أتى البيوت من أبـوابها، واستمطر القطار مـن سحابها» ،ثـم ذكر أن المواصلـة راسلوا الملاحـدة الحشيشية، واتخذوهم بطانة من دون المؤمنين، وواسطة بينهـم وبين الفرنج الكافرين، ووعدوهـم بقلاع من يـد الاسلام تقلـع، وضياع من في المسلمين تـوضع، وبدار دعـوة بحلب ينصـب فيها علم الضـلالة فيرفـع، وياللعجـب من الخصم يهدم دولة حـق، وهي تبنيه، ومن العبـد يبني ملكها بنفسه ومـاله وذويه، وهـي تراقـب أعلاه فيـه، ودعواه في رسـائلهم وغـوائلهم ليسـت بدعوى لايقوم شاهدها، ولاهي بشنـاعة لايهتدي قائدها، بل هذا رسولهم عند سنان صاحـب الملاحدة، ورسولهم عند القمص ملك الفـرنج، وهذه الكتب الـواصلة بذلـك قد سيرت ولاستيجاب الـولاية طرق، أمـا السبق إلى التقليد فللخـادم السبق، وأمـا العدالة والعـدل فلو وقـع الفرق لـوقع الحق، وأما بالآثار بالطاعة فله فيهـا مالولا معونة الخالق فيه لقصرت عنه أيـدي الخلـق، ومتـى استمـرت المشاركـة في الشـام أفضـت إلى ضعـف التـوحيـد وقـوة الاشراك، وتـرامـت إلى أخطـار يعجـز عنهـا خـواطـر الاستـدراك، وأحـوجـت قـابض الأعنـة إلى أن يعليهـا الجدد، ويـرسلهـا العراك، وطـريق الصـلاح والمصالحات الإيمان، والمشـار إليهم لايلتـزمون ربقتها، ولايوجبـون صفقتها، وكفى بالتجـريب ناهيا عـن الغره، ولايلدغ المؤمـن إلا مـره، وإذا اجتمعـت في الشـام أيد ثـلاث يـد عـاديـة، ويـد ملحدة، ويد كـافرة نهض الكفر بتثليثه، وقصرت عن الاسـلام يد مغيثه، ولم ينفع الخادم حينئذ تصحيح حسابه، وتصديـق حديثه، ومايريد الخادم إلا من تكون عليه يـد الله وهي الجماعة، ولايؤثر إلا مايتقـرب به إليه وهو الطاعة، ولايتوخى إلا ماتقوم به الحجة اليوم ويوم تقوم الساعة».

ومن كتاب آخـر:« قد أحاط العلم بها طـالع به أولا عند وفـاة ولد نور الدين رحمه الله أن التقليد الشريف المستضيء لما وصلـه بالبلاد، وكان قد فتح أكثرها قـلاعا وأمصارا، وحصـونا وديـارا، ولم يبق إلا قصبـة حلب،

وهو على أخذها عـدل ولد نور الدين عن القتـال إلى النوال، وعن النزال إلى الاستنزال، وقصـد القصد الذي ماأوجبـت المحافظة ان يتلقى بـالرد، فأقره على الـولاية فرعا لاأصلا، ونـائبا لامستقلا، وسلم إليـه البلاد ويده الغالبة لا المغلوبة، وسيوفه السالبة لا المسلوبة، ومشى الأمر معه مستقيما ومائلا، وجـائرا وعادلا، إلى أن قضى نحبه، ولقـي ربه فبدأ مـن المواصلة نقض الإيمان، والإبتـداء بالعدوان، والتعرض للبـلاد، والتصرف فيها بغير حجة يكون عليهـا الإعتماد، فطالع الديوان بالقضيـة، واستشهد بدلالات قـوانينه الجليـة في هذا التقليـد الذي تهادتـه المحـاضر، وأشاعتـه المنابـر، وسيرت إلى الشرق والغـرب نسخه، وغلـت الأيـدي التي تحدث أنفسهـا أنها تفسخه».

فصل

قال العماد: وتوجه السلطان بعد شهر رمضان إلى الاسكندرية على طريق البحيرة، وخيم عند السواري وشاهد الاسوار التي جددها والعمارات التي مهدها، وأمر بالإتمام والإهتمام، وقال السلطان:نغتنم حياة الشيخ الإمام أبي طاهر بن عوف، فحضرنا عنده وسمعنا عليه موطأ مالك رضي الله عنه بروايته عن الطرطوشي في العشر الأخير من شوال، وتم له ولأولاده ولنابه السماع، والوالي يومئذ بها فخر الدين قراجا.

قلت: ووجدت للقاضي الفاضل كتابا كتبه إلى السلطان يهنيه بهذا السماع يقول فيه:« أدام الله دولة المولى الملك الناصر صلاح الدنيا والدين، سلطان الاسلام والمسلمين، محيي دولة أمير المؤمنين، وأسعده برحلته للعلم، وأثابه عليها، وأوصل ذخائر الخير إليه وأوصله إليها، وأوزع الخلق شكرا لنعمته فيه فإنها نعمة لاتوصل إلى شكرها إلا بايزاعه، وأودع قلبه نور اليقين، فإنه مستقر لايودع فيه إلا ماكان مستندا إلى إيداعه، ولله في الله رحلتاه، وفي سبيل الله يوماه، ومامنهما إلا أغر محجل، والحمد لله الذي جعله ذا يومين: يوم يسفك دم المحابر تحت قلمه، ويوم يسفك دم الكافر تحت علمه، ففي الأول يطلب حديث المصطفى صلى الله عليه وسلم فيجعل أثره عينا لاتستر، وفي الثاني يحفل لنصرة شريعة هداه على الضلال فيجعل عينه أثر لايظهر وقد استغرب الناس همم العلماء في رحلتهم لنقل الحديث وسماعه والموالاة في طلب ثقته وانتجاعه، وصنفوا في ذلك تصانيف قصدوا بها التحريض للهمم والتنبيه والرفع من أقدار أهله، والتنويه، فقالوا: رحل فلان لسماع مسند فلان، وسار زيد إلى عمرو على بعد المكان، هذا وصاحب الرحلة قد نصب نفسه للعلم وشغل به دهره، ووقف عليه فكره، فلا يتجاذب عنان همته الكبائر، فما القول في ملك خواطره كأبوابه مطروقة، وأمور خلق الله كأمر دينه به معذوقة، إذ هاجر إلى بقية الخير في أضيق أوقاته، وترك

للعلم أشد ضروراتـه، ووهب له أياما مع أنه في الغزاة يحاسـب لها نفسه على لحظاتـه وساعـاته، وما يحسـب المملوك أن كـاتب اليمين كتـب قط لملـك رحلة في طلـب العلـم إلا للرشيـد هـارون رحمة الله عليه، على أنـه خلط زيـارة نبوته بطلـب، ورحل بولـديه إلى مالـك رحمة الله عليه لسماع هـذا الموطأ الـذي اتفقـت الهمتان الـرشيـدية والنـاصريـة على الرغبـة في سماعه، والرحلة لانتجاعه، وقد كـان الرشيد سام مالكا رحمه الله أن يجعل له ولولديه الأمين والمأمون مجلسا خاصا لاسماع مصنفه، فقال له مامعناه: إنها سنة ابن عمـك صلى الله عليه وسلم، وغيرك من سترهـا، ومثلك من نشرها، فهـذه رحلة ثـانية في الـزمان، وأولى في الإيمان، يكتبهـا الله للمولى بقلم كـاتب اليمين، ويقـوم فيها مقام الـرشيد ويقـوم عليه وعثمانـه مقام ولديه المأمون والأمين، وكان أصل الموطأ بسماع الرشيد على مالك رحمة الله عليه في خـزانة الكتب المصريـة، فإن كان قد حصـل بالخزانة النـاصرية، فهو بركة عظيمة، ومنقبة كريمـة، وذخيرة قديمة، وإلا فليلتمس، وكذلك خط موسـى بن جعفر في فتيا المأمون رحمهما الله كان أيضـا فيها، وكلاهما يتبرك بمثلـه، ويعلم بـه فضـل العلم لاخـلا المولى أبقـاه الله من فضلـه، وقف المملـوك على مابشر به مـن صنع المولى وتـوفيقه، وصحة مـزاجه في طـريقه، وانقطـاع مـاكان مـن دم، واسترواح القلب مـن كـل هم، وقـد استفتحت هذه الطريـق بكل فال مباركة البكر والفال، مـأثورة عن سيد البشر، فمن ذلـك صحة جسمـه فلتهنه الصحة، وفسحـة قلبه دامـت له الفسحـة، وانقطـاع الدم، وطـريقـة إلى الشـام ينقطع بها الـدم، ويتصـل النصر له وينتظـم السلم، وأخـرى أنه رحـل إلى الموطأ رحـم الله مالكـه، ويرحـل فيما يطلب من الشـام إلى الموطأ أسعـد الله به ممالكـه، والله تعالى يحقق الخير، ويصرف الضير، ويبارك لمولانا في المقام والسير إن شاء الله.

قلـت: هكذا يقـع في كتـب الفاضـل رحمه الله كثيرا، وهـو أنه يختمهـا بالأدعية متصلـة بقوله إن شاء الله، والتعليق بالمشيئـة غير لائق بالأدعية،

ففي الحديث عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم« لايقل أحدكم اللهم أغفر لي إن شئت، اللهم ارحمني إن شئت، اللهم ارزقني إن شئت، ليعزم مسألته فإنه يفعل مايشاء لامكره له»[٨].

فصل

في أمور تتعلق بولاة اليمن في هذه السنة

قال العماد: كان الأمير مجد الدين سيف الدولة مبارك بن كامل بن منقذ نائبا لشمس الدولة أخي السلطان بزبيد،وحصل له من أموالها الطريف والتليد، ثم ابتاع من السلطان الناحية المعروفة بالعدوية بمصر لما عاد إليها، وبقي أخوه حطان بزبيد واليا عليها، فصنع دعوة عظيمة بها ،ذكر العماد أنه حضرها هو وغيره من الفضلاء الأعيان، فبينما هم عنده في أسر حال إذ أحدق بهم الأمير بهاء الدين قراقوش فقبض على سيف الدولة، واعتقل بالقصر، وكان سببه أن أقارب السلطان وخواصه أكثروا عليه عنده أنه استوعب مال زبيد وأن له كنوز لاتبيد، وأشاروا عليه بقبضة وهو يدافع عنه إلى أن أكثروا، وقيل فيه إن لم تدركه فات، فأمر به فاعتقل فسمح للسلطان خاصة من النقد المصري بثمانين ألف دينار، ولم يظهر فيها بيع متاع ولااستدانه من تجار، وغرم لأخوي السلطان العادل وتاج الملوك ماحافظ به على نهج الكرم المسلوك، وخرج مشرفا مكرما، مصرفا محترما، وزاد السلطان في تكرمته،، وأنفذ إليه بها قبضه منه خط يده بأن المبلغ دين في ذمته، ثم باعه أملاكا بمصر بتقدير ثلاثين ألف دينار، وبذل له كل ماطلب عن ايثار واختيار، وزاد في إقطاعه، وبارك الله في أشيائه وأشياعه.

قال العماد: وكان هذا الأمير من رجاحة عقله، وحصافة فضله، ماسمعت منه شكوى، ولاحكاية في بلوى، وقتل أخوه حطان بزبيد وأخذ ماله، فلم يظهر منه للسلطان كراهه، وكل شيمته نزاهة ونباهة.

قال: وكان لما توفي الملك المعظم شمس الدولة أشفق السلطان من نوابه باليمن، وذكر مابين ولاتها من الإحن، ووصل الخبر بما يجري بين

الأمير عثمان بن الزنجيلي والي عدن، وبين الأمير حطان والي زبيد من الفتن، فندب إلى زبيد عدة من الأمراء لحفظ البلاد، وإصلاح الأمور التي يخشى عليها من الفساد، ومن جملتهم والي مصر صارم الدين خطلبا، وبقيت الولاية بها في غيبته يقوم بها نوابه ويرجع إلى رأي أهله وأصحابه، فشرعت زوجته في عمارة دار عظيمة سنية، وذكر العماد أنه حصل له ولغيره من الأعيان بها ضيافة جليلة اتفاقية.

وقال ابن أبي طي: كانت نفس سيف الاسلام طغتكين أخي السلطان تشرئب إلى اليمن، من حيث مات أخوه شمس الدولة، ويشتهي أن يصير إليها فأمر ابن سعدان الحلبي أن يعمل قصيدة يعرض فيها بإنفاذ سيف الاسلام إلى اليمن، فعمل القصيدة التي يقول فيها:

جردلها السيف الصقيل فتنة
فالسيف لا يذخر إلا للفتن

شد به أزر العلى فإنه
نعم فتى من شرع الجود وسن

القائل المسمع في مقاله
والصادق الندب الأمين المؤتمن

بادي الفؤاد كيفما سيرته
حن إلى دار الوغى ثمت أن

وفيها يقول:

يابن الكرام النجباء والذي
تلقف العلياء فيها ولقن

لا تعد عيناك عن الملك فما
يخاطب العلياء إلا من ومن

قد فسد الملك وقد طال العدى
واقتسموا بعدك أموال اليمن

قال: فلما سمع السلطان هذه القصيدة أذن لسيف الاسلام في المسير إلى اليمن.

وقال العماد: وفي هذه السنة تقرر مع سيف الاسلام ظهير الدين طغتكين بن أيوب أن يمضي إلى بلاد اليمن وزبيد وعدن، وأن يقطع بها الفتن، ويتولاها ويولي ويعزل، ويحسن ويعدل، فسار بعد مسيرنا إلى الشام، وجرت مملكته فيها على أحسن نظام، وذلك في سنة ثمان، ووصل إلى زبيد وحط حطان عن رتبته وأمنه وطمنه، ثم أذن له في الانفصال إلى الشام، فجمع حطان كل ماله من سبد ولبد، ومطرف ومتلد، ولجين وعسجد، وياقوت وزبرجد، وآلات وعدد، وحصن وحجور عراب، ومال اعتقده من اليمن بغير حساب، ثم أناخ جماله، ورحل عليها أحماله وقدم قدامه أثقاله، وظن أنه نجا وفاز، وركب الأوفاز، فرده إليه ليودعه ثم يشيعه ويركب معه، فلما دخل عليه اعتقله،وسير وراء مالهمن اقفله وإلى خزانته نقله، ثم انفذه إلى بعض معاقله فحبسه ثم قتله، وفيما ذكر للسلطان من خبر ذهبه وماله والذاهب مايعي بحصر تفاصيل جمله أنمل الحاسب، أن نيفا وسبعين غلافا من غلف الزرد كانت مملوءة بالذهب الأحمر المنقد،، وقوم المأخوذ بقيمة ألف ألف دينار، وأما صاحب عدن الأمير عز الدين عثمان بن الزنجيلي، فإنه لما سمع بسيف الاسلام توجه إلى الشام.

قلت: ولهذا الأمير أوقاف وصدقات بمكة واليمن، ودمشق، فإليه تنسب المدرسة والرباط المتقابلان بباب العمرة بمكة، والمدرسة التي خارج باب توما بدمشق رحمه الله.

ومن كتاب فاضلي عن السلطان إليه:« البلاد لك فيها عدة سنين، وأنت فيها مؤتمن على مال الله فأده إلى من يجاهد به أعداء الله، ويقيم به كلمة الله، ويحفظ به البيضة ويذب به عن الملة، ويقاتل به أعداء القبلة،

- ٨٣٤٨ -

ويضرب بـالأســداد بين الكفـر والاسـلام، وينصــب وجهـه بين الهجير والزمهريـر عاما في إثر عام، ومـانطلب منك الباطـل الذي لايجوز لنا أن نطلبـه، ولالك أن تـدفعـه، ولانريـد إلا الحق الـذي لايحل لنا أن نتركـه، ولالك أن تمنعه».

- ٨٣٤٩ -

فصل

في باقي حوادث هذه السنة

قال العماد:وفي هذه السنة وصل إلى السلطان من دمشق العلم خطيب المزة، وكان قد زور على السلطان مثالا يتضمن له منالا، ورفعه إلى عز الدين فرخشاه فما خفي تزويره عليه، وهم بالايقاع به، فقصد السلطان بمصر وأطلعه على حاله فما أكترث به، وقال تحقق مازورت وأمر أن يكتب له توقيع بضعف ذلك الإدرار.

قال: وكان له إمام يصلي به، وهو يكتب مثل خطه، فأطلق به أموالا وأصلح وأنجح بتزويره لأصدقائه أحوالا، ومايشك صاحب ديوان ولامتولي خزانة في أنه صحيح، فلما دام سنين انكشف، وشارف التلف، وجلس أخوة السلطان وأمراؤه عنده يغرونه به، فقلت له بالعجمية سرا تهبه للقرآن، فقال:نعم فنفس من خناقه، وأمر بإطلاقه وأبقى عليه خيره حين استبدل به غيره، وصار بعده للعادل إماما، وبقي شغله معه مستداما.

قال: وفيها غدر الفرنج ونقضوا عهدهم، واستولوا على تجار في البحروغيرهم،وسهل الله تعالى بطسة عظيمة من المراكب الفرنجية مقلعة من بلد لهم يقال له بوليه تحتوي على ألفين وخمسمائة نفس من رجال القوم وأبطالهم، فألقتهم الريح إلى ثغر دمياط فغرق منهم الشطر، وشمل الباقين الأسر، فحصل في الأسر منهم زهاء ألف وستمائة وست وسبعين نفسا، واتفق ذلك أمام الإهتمام بالمسير إلى الشام.

قال ابن أبي طي: وفيها ولد للسلطان الملك المعظم تورانشاه، والملك المحسن أحمد بينهما سبعة أيام، واتصل الفرح بهما أربعة عشر يوما.وفيها

سار قراقوش إلى إفـريقية، فأوغل في بلادها وانتهب مـاقدر عليه وحارب عسكـر ابـن عبد المؤمـن بـالقيروان، ثـم بلغـه أن ابراهيـم السـلاح دار احتوى على أهـل قراقـوش وبلده، فرجـع إليه، فهـرب ابراهيـم وسار إلى خدمة ابن عبد المؤمن، وملك قراقوش ماكان بيد ابراهيم.

قال ابن القادسي: وفيها عشية الخميس ثامن شعبان توفي الإمام كمال الـدين أبـو البركات عبـد الرحمن بـن محمد بـن أبي السعادات الأنبـاري النحـوي، وكان فقيهـا نحـويا زاهـدا عابـدا، خشـن العيش صبـورا على الفقـر، وكان يسرد الصـوم ولايقبل مـن أحـد شيئا، وكـان يحضر في نوبـة الصوفية بدار الخلافـة المعظمة في الوقت، فينفذ إليه بـالتشريف والذهب فيعيده ولايقبله، وكان يجتهـد به الوزير ابن رئيس الرؤسـاء أن يقبل لولده شيئا، فما كان يفعـل، وكان يفطر على الخبز الخشكار، ويبتـاع برغيف أرزا وماشاء، وكـان بابه مفتوحا لطـالبي العلم يعلمهم لوجـه الله تعالى، وكان إذا أحضر أحدهم في الصيف مروحة يتروح بها، فـإذا خرج يقول له: خذ مـروحتك معـك، فيجتهـد به ذلـك أن يجعلهـا عنـده إلى غد فما يفعـل، وصنـف تصانيـف كثيرة، ودفـن في تـربة أبي اسحـاق الشيرازي رضي الله عنه.

قلت: وفيها توفي بمصر الشاعر ابـن الذروي، وهو أبو الحسن علي بن يحيـى المصري، وسنـه حـول الأربعين، وقـد تقـدم مـن شعـره في حـج الفاضل، وفي مدح ابن منقذ وغيرهما ،ومن ظريف شعره قوله في أحدب:

يـا أخـي كيـف غيرتنـا الليـالي
كيـف حـالـت مـابيننـا بـالمحـال
حـاش لله أن أصـافي خـلا
فيراني في وده ذا اختـلال
زعمـوا أنـنـي أتيـت بهجـو
فيـك نمقتـه بسـم حـلال

كـــذبـــوا إنما وصفـــت الـــذي حـــز
ت مـــن النبـــل والسنـــا والكمال

لا تظنـــن حـــدبـــة الظهـــر عيبـــا
فهـــي للحســـن مـــن صفـــات الهلال

وكـــذاك القسي محدودبـــات
وهـــي أنكـــى مـــن الظبـــا والعـــوالي

ودنـــاني القضـــاة وهـــي كما تعلـــ
ـــم كـــانـــت مـــوســـومـــة بـــالجمال

وإذا مـــا عـــلا السنـــام ففيـــه
لقـــروم الجمال أي جمال

وأرى الإنحنـــاء في منسر الـــ
ـــكاسر يلقـــى ومخلـــب الـــريبـــال

وأبـــو الغصـــن أنـــت لا شـــك فيـــه
وهـــو رب القـــوام والاعتـــدال

قـــد تحليـــت بـــانحنـــاء فـــأنـــت الـــ
ـــراكع المستمـــر في كـــل حـــال

وتعجلـــت حمل وزرك في الظهـــ
ـــر فـــأمنـــا في مـــوقـــف الأهـــوال

إن حمل الـــذنـــوب أهـــون في الدنـــ
ـــيا على انـــه مـــن الأثقـــال

كـــون الله حـــدبـــة فيـــك إن شئـــ
ـــت مـــن الفضـــل أو مـــن الأفضـــال

فـــأنـــت ربـــوة على طـــود حلـــم
منـــك أو مـــوجـــة ببحـــر نـــوال

مـــا رأتها النســـاء إلا تمنـــت
لـــو غـــدت حليـــة لكـــل الـــرجـــال

عـــد إلى ودنـــا القـــديـــم ولا تصـــ
ـــغ لقيـــل مـــن الـــوشـــاة وقـــال

فصل

في عود السلطان من الديار المصرية إلى الشام

قال العماد: وعدنا من الاسكندرية إلى القاهرة في ذي القعدة وشرع السلطان في الاستعداد لسفر الشام، فجمع العساكر والسلاح، واستصحب نصف العسكر، وأبقى النصف الآخر يحفظ ثغور مصر، وأمر قراقوش بإتمام الأسوار الدائرة على مصر والقاهرة.

قال: وكان السلطان عشية توديعه لأهل مصر جالسا في سرادقه، وكل ينشده بيتا في الوداع، فأخرج أحد مؤدبي أولاده رأسه وأنشد مظهرا له فضله، ورافعا به محله:

تمتع من شميم عرار نجد
فما بعد العشية من عرار

فلما سمعه خمد نشاطه، وتبدل بالانقباض انبساطه، ونحن مابين مغضب ومغض، ينظر بعضنا إلى بعض، حتى اتصل العجب من مؤدب ترك الأدب، فكأنه نطق بما هو كائن في الغيب، فإنه ماعاد بعدها إلى الديار المصرية حتى اتصل بنجح المنى إلى المنية.

قال: ومن جملة تسمج المعلمين في القول ماحكاه لنا شيخنا أبو محمد ابن الخشاب قال: وصلت إلى تبريز فأحضرني يوما رئيسها في داره، وأجلس ولده ليقرأ بعض ماتلقنه علي، فقلت فرخ البط سابح، فقال معلمه وكان حاضرا: نعم وجرو الكلب نابح، فخجلت من خطأ خطابه، وإذابه على دأبه في سوء آدابه، ومقصوده أن يذكر قرينه ولايبالي بعينه قريرة أم سخينة، ودأب أدباء أولاد الملوك لاجترائهم على أعزة أولادهم الإجتراء على الآباء، ويحتمل مايصدر منهم لعزة الابناء، وإنما يصلح لمجالسة الملوك من يحتفظ في كلامه، ويتيقظ في منامه.

ثم دخلت سنة ثمان وسبعين

قال العماد: ففي المحرم منها دخل السلطان من البركة قاصدا إلى الشام، ولم يعد بعدها إلى مصر حتى أدركه الحمام، وأخذ على طريق صدر وإيلة في المفاوز، فبات بالبويب، ثم كانت منازله على الجسر، ووادي موسى وحثا وصدر، وبعد خمس ليال وصل عقبة إيلة، وهناك سمع باجتماع الكفار بالكرك لقصد قطع الطريق، فاحترز بحفظ الأطراف، وجاز بحسمى، ثم عقبة شتار، ثم القريتين، وأغار في تلك الأيام على أطراف بلاد العدو، ثم تجرد السلطان في كماته وسلك بهم سمت الكرك إلى الحسى وأمر أخاه تاج الملوك بوري على الناس، وأمره بأن يسير بهم يمنة منه، ثم اجتمعوا بالسلطان بالأزرق بعد أسبوع، ووصل الخبر بظفر الملك المنصور عز الدين فرخشاه.

قال العماد: ويلقب أيضا معز الدين،بما غنمه أيضا من بلاد العدو، وذلك أن الفرنج لما سمعوا بمسير السلطان من مصر ومعه خلق من التجار اجتمعوا بالكرك للقرب من الطريق، لعلهم ينتهزون فرصة فيقتطفون من القافلة قطفه، فخرج فرخشاه من دمشق، واغتنم خلو ديارهم فأغار على بلاد طبرية وعكا وفتح دبورية، وجاء إلى حبيس جلدك بالسواد وهو شقيف يشرف على بلاد المسلمين، ففتحه وأسكنه المسلمين، فبقي عينا على الكفار،بعدما كان لهم، ورجع بالأسرى والغنائم مظفرا منصورا، ومعه ألف أسير، وعشرون ألف رأس من الأنعام، ثم وصل السلطان بصرى ودخل دمشق سابع عشر صفر.

قال: وفي العشر الأول من شهر ربيع الأول خرج السلطان وأغار على بلاد طبرية وبيسان، والتحم بينهم القتال تحت حصن كوكب، واستشهد جماعة من المسلمين، ولكن كانت الدائرة على الكافرين، ورجع السلطان بحمد الله ظافرا، وكتب بالمثال الفاضلي إلى الديوان:« وكان الخادم طالع

بخروجه من مصر طالبا للغزاة المفروضة والمسافة بين مصر والشام لمن يرفق في المسير لاتقصر عن ثلاثين يوما، فحشد الفرنج ونزلوا بالكرك على إرجاف بالمصاف، ولم يزل الخادم على مداومة الإعمال إلى أوساط الأعمال , فحل بها وشن الغارة فأبعد، وأذكى النار فأوقد، وطلب الماء المحمي أزرقه بأزرقهم فأورد، وسفك دم الخصب بالنار وأخذ، وفيها عدل السيف الجار بالجار، وعلم أن الفرنج قد تسللوا لواذا وتعللوا بالحصون احتجازا ولياذا، وأنهم لايقاتلون إلا في قرى محصنة، ولايقابلون إلا على نجاة متيقنة، وسرح الخادم إلى تلك الذراري، واستفز لها من كل فرقة منهم طائفة، وساروا في طريق على العدو غير خافية، ومنهم غير خائفة، وركب هو وحمية الاسلام الحامية التي تستنهض أرواح الكفر إلى نار الله الحامية، وسلك البلاد المؤدية أوديتها إلى سيول الشرك الطامية، وسيوف الضلال الدامية، فجثموا جثوم الكسير، وجدعوا أنوف الأنف جدعا قصر فيه رأي قصير،[٩] وجاز الخادم المسافة المقابلة لهم التي كانت تجاز في يوم واحد في أيام ،وأورد عليهم طيف الخوف غير لابس ثياب الأحلام، وييسر الله الوصول ورقاب عصبة الكفر تكاد تتوثب عليها رقاقها، وعيون الأعيان منهم قد قيدها للذل أطواقها، وتوجه يوم الاثنين سابع شهر ربيع الأول، ونزل أمام طبرية ليلة الثلاثاء تاسع عشر ربيع الأول، فجاءه الخبر بأن الفرنج رحلوا في ليل ركبوه جملا ولبسوه سترا، دون اللقاء مسبلا، وأصبحت الأطلاب الاسلامية طالبة الأردن، وأشرف عليهم المملوك فرخشاه، وكان على ميسرة الاسلام فما خرج منهم من أخرج كفا، ولاتطرف منهم من أجال طرفا، ولا ركض طرفا، ولم يزل الخادم مقيما ينادي للخروج الصم الذين لايسمعون الدعاء إلى أن طوى النهار ملاءته، ومد عليهم كلاءته فإنه رعى مابينه وبين مناسبة وجوههم وصحائفهم بسواده ولأن الليل يدعى كافرا فهداهم وخبأهم في فؤاده، وانبرى لهم من المماليك ذوو سهام كل رمية منها طعنة، وكل أنة من قوسها تجاوبها للحين أنة، فاستخرجوا ضمائر كنائنهم وقصدوا بها ضمائر

ضغائنهـم فمرت كأن التوفيـق يقودها إلى حيـث أمت فأماتـت، وطارت جرادا يرعى زرع الحيـاة، فبتت وما أباتت،ولم يروا مضـاجع ذوات حسك كمضاجع حسكهـا المستهام، ولاليلة لهم ذات أحلام كليلـة حلمها يقظة الحمام، وأصابـت خيولهم صوائبها، وتعلقـت نصالهم بدهمهـا، فكأنهم في ظلماتها كـواكبها، فلما انشـق الصبح غيظـا من شقـاق كفرهـم شوهـدوا نازلين من حصنهـم الذي كانوا إليه آوين، وطالبي التباعد عنه إلى حصن الطـور الذي كـانوا إليـه ناويـن، فسـاقت إليهـم أطلاب الميسرة صحبـة المملوك فـرخشاه، وسـاق المملوك عمر مـن الميمنة طـالبا لحومـة القتال، فرأوا الخطة عليهـم متضايقة، وشهادات البلاء إلى فئتهم متنـاسقة، وأنزل الله النصر من سمائه على مطيعـه في أرضه، ومنح نـافلة الموهبة لمن قام في الجهـاد بفرضـه، وتوالـت من الفـرنج حملات ألجأهـم إليها الإضطـرار لا الإختيار، وثبـت من دنا منهـم من المسلمين مـن الأطلاب، ولقوهـم وهم الأعـداء لقاء الأحبـاب، وتعانقـت لغير الوداد، فصـارت أيديها أوشحـة، وطـارت إلى أقرانها فصـارت أرجـل الخيل لها أجنحـة، وصرعـت للفرنـج أبطال وخيالة، وتمت الحملة الاسلامية على مـن كان وراءهم من الرجالة، فأخذ القتل كثيرا وقليلا ترك، وفرت روح الكافر من الجسد وعلمت النار أية سلـك، وألجأهم البـلاء إلى حصن يعـرف بعفربـلا، وسع الخوف منـه مـاهو ضيـق، وتعلق بـالحياة منهـم من هـو متعلق، ولم تتصرف صـدور الخيل دون أن اعتقلتهـم في سجنه، وألـزمتهم به، فصـاروا قرطـا في أذنه، وكان ذلـك اليوم من الأيـام الذي اضطرمـت فيها نيران الجحيم ارتيـاحا لمن قدمهـا من أرواح الكفـار، وكان قـائم الظهيرة في الغور قـد منع مـن استتمام عودة المغار، ومورد الماء بعيـد من غريمه والري ولو أنـه من حميم أحـب إلى المرء مـن حميمـه، فمالـت الجنود إلى المناهـل متفـرقـة عليهـا، ومنصرفة إليها، وحـافة بها من حواليها، وأذعن الكفـار بالحصر والتفادي من الأصحـار، والإعتماد على المطاولة والإضجار، والاستعصـام بما لايطاق مـن أنفـاس الهجير الجرار، وبات الخادم والمسلمـون على الحصر المذكـور

الذي يـأتونـه نازلين، قد حققـوا من أحـوال اللقاء ماكـانوا بـه جاهلين، وفعـل الله سبحانـه وتعـالى في هذه النـوبـة ماعـواقبـه مسفرة عـن المراد، ودلائله محققة لقـوله تعالى: (لايغرنـك تقلب الذين كفـروا في البلاد)[١٠] وإن الكفر مـذ قام قائمـه، والشام مـذ حله ظالمة، لم يعبر أحـد من ولاة الأمر هذا الحد إلا على حين غفلة من أهله، ولم يـواجه الكفر وهو مجتمع في خيله فضلا عـن رجله، ولم يهدد العدو بضرب مصاف إلا واستكـانت العزائم لتهـديده، ولم يجمـع أمره على اللقـاء إلا صرفه عـن الأمر يصرفـه ذهبه لابحديده، فأما الآن فقد أنس المسلمون بحزبه، وتمرنوا بحربه.

فصل

في مسير السلطان إلى بلاد الشرق مرة ثانية

قال العماد: ثم إن السلطان عزم على المسير إلى حلب، وبلغه أن المواصلة كاتبوا الفرنج، ورغبوهم في الخروج إلى الثغور ليشغلوا السلطان عن قصدهم، فتوجه على سمت بعلبك وخيم بالبقاع، وكان قد واعد اسطول مصر أن يتجهز إلى بلاد الساحل، فبلغه الخبر أنه وصل إلى بيروت فبادره السلطان بعسكره جريدة قبل أن يفوت، فلما وصل رأى أن أمر بيروت يطول، وكان قد سبى الأسطول منها وسلب، وظفر من غنيمتها بما طلب، فأغار السلطان على تلك البلاد، ورجع وأعاد فرخشاه إلى دمشق، ورحل إلى بعلبك ومنها إلى حمص، فخرج الفقيه المهذب عبيد الله بن أسعد بن الدهان، وله في السلطان مدائح منها قصيدة أولها:

أعلمت بعدك وقفتي بالأجرع
ورضى طلولك عن دموعي الهمع

مطرت غضا في منزليك فذاويا
في أربع ومؤججا في أضلع

هل يعلم المتحملون لنجعة
إن المنازل أخصبت من أدمعي

دعني وما شاء التلذذ والأسى
واقصد بلومك من يطيعك أو يعي

لا قلب لي فأعي الملام فإنني
أودعته بالأمس عند مودعي

قل للبخيلة بالسلام تورعا
كيف استبحت دمي ولم تتورعي

وبديعة الحسن التي في وجهها
دون الوجود عناية للمبدع

ومـــابـــال معتمـــر بـــــر بعـــك ذائبـــا
يقضي زيـــــارتــــــه بغير تمتــــــع

ومنها:

ووعـــدتنـــي إن عـــدت عـــود وصـــالنـــا
هيهـــات مـــا أبقـــى إلى أن تـــرجعـــي
هـــــل تسمحين ببـــــذل أيسر نـــــائل
إن اشتكـــى وجـــدي إليـــك وتسمعـــي
فتيقنـــــــي أني بحبـــــك مغـــــرم
ثـــم اصنعـــي مـــاشئـــت بي أن تصنعـــي

ومنها

عفـــى الـــربيـــع الجون ربعـــاطـــالما
أبصرت فيـــه البـــــدر ليلـــة أربـــع
ولـــو استطعـــت سقيتـــه سيـــل الغنـــى
مـــن كـــف يـــوســـف بـــالادر الأنفـــع
بيـــدي فتـــى لـــو أن جـــود يمينـــه
للغيـــث لم يـــك ممسكـــا عـــن مـــوضـــع
فـــإذا تبســـم قـــال يـــا جـــود انـــدفـــق
فيضـــا ويـــا سحـــب النـــدى لا تقلعـــي
وإذا تنمـــر قـــال يـــا أرض ارجفـــي
بـــالصـــاهـــلات ويـــا جبـــال تـــزعـــزعـــي
وإذا عـــلا في المجـــد أعلى غـــايـــة
قـــالـــت لـــه الهمـــم الجسـام تـــرفـــع
كـــم وقفـــة لـــك في الـــوغـــى محمـــودة
أبـــدا وكـــم جـــود حميـــدا الموقـــع
والنـــاس بعـــدك في المكـــارم والنـــدى
رجـــلان إمـــا ســـارق أو مـــدعـــي

قـال: ثـم رحل السلطـان إلى حماة واستصحـب معـه ابن أخيـه تقـي الدين، فلما قـرب من حلب أقبل مظفـر الدين كوكبري بـن علي كوجك صـاحب حـران حينئذ فـاجتمع بـالسلطان، وسـار في خدمتـه من جملـة الأعوان، وأشـار عليه أن يعبر الفـرات ويحوز ماوراءهـا، ويترك حلب إلى مـابعد ذلـك لئـلا تشغلـه عن غيرهـا، فـاستصـوب السلطان رأيـه وعبر الفرات.

وقـال القـاضي ابن شـداد: نـزل السلطـان على حلب في ثـامـن عشر جمادى الأولى سنـة ثمان وسبعين، فـأقـام ثـلاثـة أيـام ورحـل في الحادي والعشرين منه يطلـب الفرات، واستقر الحال بينه وبين مظفر الـدين بن زيـن الديـن، وكـان صاحـب حران، وكـان قـد استوحـش مـن جانـب الموصل، وخـاف من مجاهد الـدين فالتجـأ إلى السلطان وعبر إليه قـاطع الفرات وقـوى عزمه على البلاد، وسهـل أمرها عنده، فعبر الفـرات وأخذ الرها والرقة ونصيبين وسروج، ثم شحن على الخابور وأقطعه.

وقال ابـن أبي طي: في أول السنـة أراد مظفر الـدين بـن زين الـدين، وكأن إليـه شحنكية حلـب الاستيلاء على قلعة حلـب بأن يهجمهـا، فلم يتمكن وظهـر أمره، وبعد هـذه الوقعة اجتمـع الأخوان عز الـدين وعماد الدين على الرقة وتحالفا على بساط واحـد، وسلم عماد الدين ماكان بيده من سنجـار وغيرها إلى عـز الديـن، وسلم عـز الديـن إليه حلـب، فسار إليها ودخلها فخـرج مظفر الدين عنها وصار إلى الفـرات، فلما اتصل به قصد السلطـان حلب سـار إلى خدمتـه واجتمع بـه على جباب التركمان، وأشار على السلطـان بعبور الفرات والاستيلاء على بـلاد الشرق، وتأخير أمر حلـب، ففعل ورحل عـن حلب بعد أن أقـام عليها ستة أيـام، وأقام على تل خالد ثلاثة أيام، ثم رحـل إلى البيرة وفيها شهاب الدين محمد بن الياس الأرتقي فنـزل إليه وقبل الأرض بين يديه، وسألـه الصعود إلى قلعة البيرة، فأجـابه وقدم لـه مفاتيح القلعـة، فردهـا إليه ووعده بـاستخلاص

ماكـان صاحب مـاردين رده عليـه، ورحل السلطان إلى سروج فنـزل إليه صاحبها ابن مالك مستأمنا، فـأعاده إلى بلده، وراسل صاحب ماردين في رد ماكان تغلـب عليه من أعمال البيرة ففعل، ثم أخـذ الرها ثم الـرقة ثم سلم الـرها إلى ابن زيـن الدين، والـرقة إلى صاحـب الرها لأنـه سأل أن يكون في خدمة السلطان.

ومن كتاب فاضلي عـن السلطان إلى عز الدين فرخشـاه يعلمه بالحال وفي آخـره:« ولتعجـل بحمل مـاهنـاك مـن الأموال فكلما فتحـت البـلاد أبوابها، قد فتحت المطـامع أفواهها، واستوعبت الخزائن إخـراجا وإنفاقا، واستنفدت الحواصل إعطـاء وإطلاقا، وقدمنا على بحـر لايسده إلا بحر، وعلى أيد إن كان بها الغنى ففي أنفسها الفقر».

ومن كتـاب آخر إلى العادل:« يعلـم مقدار الحاجة إلى الإنفـاق، وكثرة الخرج الـذي اشترك فيـه أهـل الآفاق، وإنـه متـى نضبـت المواد وقفـت الأمور التـي قد شـارفت نهايتها، وتفـرقت الجمـوع التي تنـاذرت الأعداء نكايتها، ومادون تملك البلاد إلا الوصول إليها والنزول عليها».

قال العماد: وقال مظفر الـدين للسلطان: مازلت شوقـا إليك في حران حران، وإلى الـري من ورد خدمتـك ظمآن، وهي لـك مبذولة وبـأوليائك مـن أهل الـدين والـدنيا مـأهولـة، والرهـا لايعسر أمرهـا، والرقـة لرقـك وبعض حقك، والخابـور في انتظار خبرك، ودارا دارك، ونصيبين نصيبك، وملك الموصـل موصلـك إلى الملك، وماهـذا أوان الونـا فادن إلينـا، وكل بعيد قد دنا.

قـال: ووصل البحـر إلى الفـرات وخيم عليهـا مـن غربي البيرة، ومـد الجسر، وكانت البيرة قد طمـع فيها صاحب ماردين واستـولى على مواضع من أعمالها، فلما سمع بـالسلطان تخلى عنها، فأعاد إليها صـاحبها شهاب

الـدين محمـد بن اليـاس الأرتقي، وكتـب السلطان بـالمثال الفـاضلي إلى الديـوان عند عبـور الفرات كتـابا فائقـا طويـلا يقول فيـه:«خدم الخادم متوالية إلى الأبـواب الشريفة خلد الله سلطانها شارحا أحـواله، ومعتدا بها من صـالح أعماله، ومتوقعـا من الأجوبة عنهـا مايهيء له من أمـره رشدا، ويفـرق الأعداء إذ كـادوا يكونـون عليـه لبدا، فـإن الآراء الشريفة لـو لم تفصـح عنها الإنشـاءات، وتتضمنها الإجـابـات والإبتداءات لأفصحـت عنها مـوالاة الخادم التي استفتحت الدولـة بعقائل الفتوح قبـل خطبتها، وردت الأسماء الشريفة إلى أوطـانها من المنـابر، بعد طـول غربتهـا، فتلك الأعمال كالهجرة، ولكل مهـاجر ما هاجر إليه، ونية المرء ثـوبه، فلا يلبس إلا مـاخلعتـه النيـة عليـه، وكتـاب الخادم الآن مـن البيرة بعـدمـا قطـع الفرات، وكان من لاتقرب عليه العزائم مـاهو بعيد، ولايلقى السمع وهو شهيد، يظن أن سـاكن النيل يحول الفرات بينه وبين قصـده، وإنه ينسى عزيمـة رأيه إذ ذكر طول مـدته، وهول مـده، وكيف ماكان هـذا المخرج المخرج فقد أحسنـت إلى الخادم إساءته إليه، وقربـه من محل دار السلام، بل الاسـلام، فما أكثر ماقـال: السلام عليه، واستشرف جنـانه من جنـابه أمنا وذعرا أوجبتهما الموالاة والمهابة، وطالعت عينه أنواء وأنوارا تنسب إلى بركتها كل سحـابة، وكاد ينزل عن السروج والأكوار، ويقبـل الثرى لأجل شرف الجوار، ويستنفد غلتـه ماء الفـرات، لأنه يمر بتلـك الديـار، ويقرأ من صفـائه صفاء تلك الخواطـر العظيمة الأخطار، ومـن عذوبته عـذوبة ذلك الإنعام الذي هو أعم وأغمر لـلأقطار من القطار، وتنور دار السلام من منزلته فأدناه النظر العالي، وأسلفته آمـاله حوز الفوز بها قربه نجيا من قربه، والآمال أمالي، والله تعالى يشرف أرضا هو واطئها ويرعى سروحا هو كالئها، ويسعـد به أمة هو بارهـا بطاعة من هو بـارئها، ولما تحقق الخادم أن المواصلـة قـد واصلـوا الفـرنـج مـواصلـة أخلصـوا فيهـا الضمائر، ولم يستطيعـوا فيهـا كتمان السرائر، وخصمتهـم خطـوط الأيـدي المتمسكـة بعصم الكوافر، وعقـدوا معهم عقدا شهده من هوحـاضره، ونقله إلى من

سمعه من هو ناظره، وكان عقدهم إحدى عشرة سنة، والمستقر لهم في كل سنة عشرة آلاف دينار، على أن تسلم ثغور المسلمين إلى الكفار، ومنها بانياس، وشقيف تيرون، وحبيس جلدك، وأسارى الفرنج في كل بلدة بأيديهم وفي كل بلد يسترجعونه من الخادم بمساعدة الفرنج، ولما تم لهم هذا العقد، وحملوا إلى الفرنج ذلك النقد، ظنوا أن الحق يجادله الباطل فيدحضه، وأن يد الكفر تنبسط إلى الاسلام فتقبضه، وأن الخادم لايمكنه أن يتوجه إليهم إلا أن يكون للفرنج سلما، ولايستطيع أن يقسم العساكر فيجعل بإزاء الفرنج قسما وبإزائهم قسما، وعملوا على هذا الوهم، وبنوا على هذا الحكم، استنهضوا الفرنج على تثاقل الخطوة، واستخرجوهم على مابهم من كلوم الغزوة بعد الغزوة، فتحاملت أرجل الكفار على ظلعها، وخرجت على طمعها إلى فزعها، وانفقت في رجالها مالاً حملوه إليهم جما، وجرت إلى الاسلام جيشا جهزه من يدعي الاسلام لفظا، ويفارقه حكما، وتواعد المواصلة مع الفرنج ليطلبوا ولاية الخادم من جانب، ويطلبها الفرنج من جانب، ونظروا فيما يوصل المساءة إلى الخادم، ولم ينظروا للاسلام في العواقب، فوصل المواصلة إلى نصيبين مجدين محفلين، وحركوا الفرنج للخروج إلى الشام متطرفين ومتوغلين، فلا جرم أن أمراء جانبهم، وخواص صاحبهم لم يسعهم المروق من الدين، ولا الخروج عن إمرة الموحدين، فأرضوا الله بإسخاطهم، واشفقوا على دينهم اشفاقا دل على تحرزهم له واحتياطهم، فاتبعوا الحق وسلكوا سبيله، ورفع لهم الهدى مناره فاقتفوا دليله(لاتجد قوما يؤمنون بالله واليوم الآخر يوادون من حاد الله ورسوله)[١١] فاستعان الخادم عليهم بالله الذي استعانوا على دينه بأعدائه، ولما رأى أنهم قد أملوا النصر من أرضهم أمله من سمائه، فرتب الخادم في رأس الماء بدمشق بإزاء الفرنج المملوك فرخشاه ابن أخيه، وأبقى عسكر الشام وحاميه فيه، واستنهض أخاه من مصر إلى مايليه من بلاد الكفر فنهض، وقام الخادم بما أقامه له ولله عز وجل بها فرض، وسار الخادم بالعسكر المصري إلى هذا الجانب الذي هو

الآن فيه، وكان أيسره يكفيه، وتثاقل في الطريق انتظارا لأن يأتوا البيوت من أبوابها، ويفرجوا عن الولاية أيدي اغتصابها، ويعتذروا إلى السيف بألسنة يشفق على رقابها، فأبوا إلا الإباء، ورأوا الملك إرثا ما ادعوا فيه تقليد الخلفاء بل الآباء، ولما قرب الخادم من الفرات وصل إليه صاحب حران ابن زين الدين علي كوجك، ومقدم عسكرهم، وابن أمير معشرهم، وكذلك صاحب سروج، وصاحب البيرة، وكل بيده مفاتيح بلده، وأمامه أمان الخادم له قد استبدله من مقلده، ووراءه عسكره على كمال عدده وعدده، وتوالت كتب أمرائهم الذين يأخذون اقطاعاتهم خدما ومصانعات، ورعاياهم الذين يأخذون أموالهم جنايات ومقاطعات ومكوسا وعشورا واحتكارات، يرغبون إلى الخادم في الإنفاذ، ويحثونه في المسير على الأغذاذ، ويشكون أنهم مع جوار دار الخلافة المعظمة لايسلك فيهم سننها، ولايقتفى فيهم شرائعها وسننها، ونمى إلى الخادم من تفاصيل المغارم التي تلزم الفريقين، ويعدل بها عن أقصد الطريقين مايروع السامع، ويسمع الرائع، ويسجل عليهم بالخلاف، ويشهد لهم بالانحراف، لأنهم ان ادعوا تقليدا فقد نقضه كونهم ابتدعوا وماتبعوا ونقضوا، ومـاافترضوا ومثلوا بالحق ومـاامتثلوا، وأمروا بكف الأيدي وقد بسطوها، وبأخذ الأموال من حلها وقد خلطوها، وبرعاية أمة النبي صلى الله عليه وسلم وقد اسخطوه فيها واسخطوها، وابن الدعوة العباسية من رعاها لا من ادعاها، والعهود وصايا وما الأولى بها من سمعها بل من وعاها، وأي عهد لمن لاعهد له بالطاعة، وأي ولاية لمأمور بأن يجمع أهل الفرقة ففرق أهل الجماعة، فالجندي توكل الأرض باسمه ولاشيء بيده، والعامي يرفع إلى السماء استغاثة مالا يمهل الله عليه، ولقد تعجب الخادم من إشغاف الأنفس الغنية إلا أنها فقيرة، والارتفاق بتلك الطعم الجليلة، وهي على الحقيقة الحقيرة(يوم يحمى عليها في نار جهنم فتكوى بها جباههم وجنوبهم وظهورهم)[١٢] الآية هذا إلى طامة أخرى لاتقر عليها الجنوب، ولاتدر عليها الحلوب، ولاينام على

سهر بارقها وإن كان الخلوب، وهـو أن الخادم بلغه أنهم كاتبوا جهة من الجهات التي الدولة منحرفة عنها، وبـذلوا الطاعة لها، وقد أمروا بالامتناع منها، وهـذا نص في الخلاف لايدخلـه التأويل وقـول قد أحاط بـه العلم فلا يختلجه التقـويل، وكل صغيرة من هـذه الكبائر، وكل واحد مـن هذا الجمع المتكـاثر ينقض الـولاية، ويجرح العدالـة، ويسلب الرشـد، ويثبت الضلالة، ويمضي نية الولي فيما هو له مـاض، ويبعث عزمه فيقضي ماهو قاض، ويسخطـه وكيف لايسخـط والمولى غير راض، ويغيظه بما لاعـذر له المغتـاظ متغاض، وماأنهى الخادم ممـا اتصل بـه إلا الأوائل والأطراف، وماعول إلا على مـاصححته النفس دون ماخيله الإرجـاف، وإذ قد ساق الله إلى هـذه الولايـة حظها مـن معـدلة كـان الـزمان بها طـويلا مطلـه، وأنشأهـا سحاب احسـان كان بعيـدا عليها هطلـه، فقد كفيـت الخواطر الشريفـة ماكـانت بـه على اهتمامها، كما يجب لـلأمة على إمـامها، وإليـه بتفويض الله يـرجع أمرها، وبيده يجلب نفعهـا، ويجلي ضرها، وقد تجددت للدولـة الشريفة قـوة واستظهار، وبسطة واقتـدار، وسيف بـه يناضـل من يسيء الجوار، ولسان يجادل به مـن يريد الدار، وكان الخادم طالـع بوصول الأسطـول المصري إلى الشام الفـرنجي، ومـا فعلـه في موانيـه وسواحلـه، ومـاغنمه مـن مراكبـه وقوافلـه، وورد كتاب مـن مصر بأنـه كسب بطسـة فرنجيـة، وخرج مـن فيها هـاربا مـن القسطنطينية لفتنـة وقعت فيهـا بين رومها وفـرنجها، فقتـل منهم خمسون ألـف فرنجـي، وأفلتت منهـم بطس منها هـذه البطسة، وفيهـا رجال أكـابر، ومقـدمون لهم ذكـر سائر، وغنـم المجاهدون منهم ماملأ أيديهم مـن سبي وذخائر، (فانقلبوا بنعمة من الله وفضل)[١٣] وحازت القبضـة من الأسارى مـايزيد على أربعمائة بعـد من درج بالقتل.

فصل

قال العماد: ثم كاتب السلطان الملوك بالوفود للاتفاق، فمن جاء مستسلما سلمت بلاده على أن يكون من أجناد السلطان وأتباعه في جهاد الكفار، فجاء رسول صاحب حصن كيفا بالإذعان، وهو نور الدين محمد بن قرا أرسلان، ثم رحل السلطان من البيرة ونزل على الرها وكان فيها فخر الدين مسعود بن الزعفراني، فأذعن وانقاد وتسلمها مظفر الدين مضافة له إلى حران، ثم وصل السلطان إلى حران فرتبها وانفصل منها إلى الرقة وفيها الأمير قطب الدين ينال بن حسان فأذعن أيضا وسلم ولم يوافق مراعاة لصاحبه، فأصلحها السلطان، ورحل منها إلى مشهد الرمان، ثم إلى عرابان فتسلمها وأصلح من شأنها، وتواصلت أخبار وصول السلطان بالخابور ومانشر من العدل في البلاد التي فتحها، فافتتحت رأس عين ودورين وماكسين والشمسانية والغدين، والمجدل والحصين.

قال: وقطعنا نهر الخابور على قنطرة التنينير إلى نصيبين فاستعصت قلعتها أياما ثم فتحت استسلاما، وولاها السلطان حسام الدين أبا الهيجاء السمين، وولى الخابور جمال الدين خوشترين، ثم سرنا إلى الموصل، وقطعنا الأعمال بين النهرين، ثم أعمال البقعة، ثم سرنا إلى بلد، وأشرفنا على دجلة، وكنا أوردنا خيلنا في أشهر من تلك السنة نيل مصر والفرات ودجلة، ثم صممنا على قصد الموصل، فلما قربنا من الوصول كبرنا تكبير من ظفر بالسؤل، وتقدم السلطان في الأمراء ذوي الآراء، ودار حول السور وعين لكل مقدم مقاما، فنزل هو وراء البلد وتقي الدين من شرقيه، وأخوه تاج الملوك بوري عند باب العمادية، فحصلت المحاصرة والمضايقة، وتولى مجاهد الدين قايماز حفظ البلاد بأحسن تدبير، وكاتب الديوان العزيز في أن يشفع لهم إلى السلطان، فقدم في ذلك صدر الدين شيخ الشيوخ وشهاب الدين بشير في الشفاعة، فرحل

السلطان عنها في شعبان وقصد سنجار، وقدم أمامه تقي الدين.

وقال القاضي ابن شداد: كان نزول السلطان على الموصل في هذه الدفعة يوم الخميس حادي عشر رجب سنة ثمان وسبعين، وكنت إذ ذاك بالموصل، فسيرت رسولا إلى بغداد قبيل نزوله بأيام قلائل، مسرعا في دجلة وأتيت بغداد في يومين وساعتين من اليوم الثالث مستنجدا بهم، فلم يحصل منهم سوى الإنفاذ إلى شيخ الشيوخ، وكان في صحبته رسولا من جانبهم يأمرونه بالحديث معه وتلطيف الحال معه، وسير إلى بهلوان رسول من الموصل يستنجده، فلم يحصل من جانبه سوى تشرط كان الدخول تحته أخطر من حرب السلطان، ثم أقام السلطان على الموصل أياما، وعلم أنه بلدعظيم لايتحصل منه شيء بالمحاصرة على هذا الوجه، ورأى أن طريق أخذه أخذ قلاعه وماحوله من البلاد وإضعافه بطول الزمان، فرحل عنه ونزل على سنجار في سادس عشر شعبان، فأقام يحاصرها، وفيها شرف الدين بن قطب الدين، وجماعة واشتد عليه الأمر حتى كان ثاني شهر رمضان، فأخذها عنوة، وخرج شرف الدين وجماعته محترمين محفوظين إلى الموصل، وأعطاها السلطان ابن أخيه تقي الدين ورحل عنها إلى نصيبين.

وقال العماد: لما قصد السلطان سنجار نزل بأزنجان فوجد عسكرا من الموصل سائر إليها فأحاط به، وأخذ خيلهم، وعددهم وردهم إلى الموصل رجالة ووصل إلى سنجار، ومعه رسل دار الخلافة ونور الدين صاحب حصن كيفا، وكان في سنجار شرف الدين أخو صاحب الموصل، فامتنع من تسليمها فحوصر ورميت القلعة بالمنجنيق فانهدم منها ثلمة من السور، فوكل بها من يحفظها، ودخل شهر رمضان فكف السلطان عن القتال، ثم جاءة الخبر ليلة أن الموكلين بحفظ تلك الثلمة نيام، فأرسل إليهم من أوثقهم وحملهم إليه، وكان فيهم جماعة من المقدمين والأعيان فلما أصبح صاحب سنجار أذعن، وسلم ورحل بأهله

وماله، ودخـل السلطان القلعة، ورتبها وأمـر بعمارتها، وولاها الأمير سعد الـدين مسعـود بـن أنر، وكـان السلطان يعتمـد عليـه، وأخته ابنـة معين الدين كانـت في حبالة السلطان، وكان رؤساء سنجـار بني يعقوب، فترك الرياسـة فيهم، وولى القضاء منهـم نظـام الدين نصر بن المظفـر بن محمد ابن يعقـوب، ثم رحـل السلطان إلى نصيبين، فأقـام بها لأن الأيام كـانت باردة، ومنهـا ودع رسل دار الخلافـة، وشكا أهـل نصيبين مـن أميرها أبي الهيجـاء السمين فـاستصحبه السلطـان معـه، وسـار إلى دارا وأميرهـا صمصام الـدين بهرام الأرتقي، فتلقـى السلطان بأحسـن ملقى، فأكـرمه وسـار إلى حران، وأقـام بها للاستراحـة، وعـاد كل إلى بلـده، وسار تقـي الديـن إلى حماة، هذا والمواصلـة في جد مـن جمع الجموع وابتغـاء الغوائل للسلطان.

- ٨٣٦٨ -

فصل

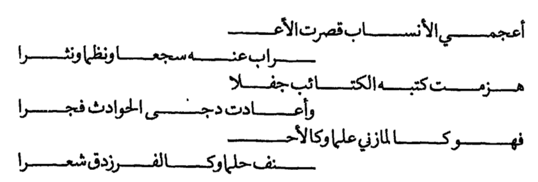
في وفاة فرخشاه بن شاهنشاه بن أيوب

قال العماد:وفي هذه السنة في جمادي الأولى توفي بدمشق الملك المنصور عز الدين فرخشاه، ووصل خبره إلى السلطان عند عبوره الفرات، فأقر السلطان ولده الملك الأمجد بهرامشاه على بعلبك وأعمالها مكان أبيه، وأنفذ شمس الدين بن المقدم واليا مكانه على دمشق وأعمالها.

قال ابن أبي طي: كان فرخشاه من أكرم الناس يدا وأطهرهم أخلاقا، وأسدهم رأيا، وأشجعهم قلبا، ومما يحكى من كرمه أنه دخل الحمام يوما فرأى رجلا قد قعد به الزمان، وكان يعرفه من أهل اليسار، وشاهد عليه ثيابا رثة يبين منها بعض جسده فاستدعى بجميع مايحتاج الرجل إلى لبسه، وأمر له بغلام وبغلة مسرجة، وبألف دينار، وقال لبعض غلمانه اجعل هذا كله في موضع ثياب الرجل وخذ ثيابه، واجعل هذا الغلام والبغلة له، ففعل فلما تغسل الرجل وخرج رأى موضع ثيابه تلك الثياب، وسأل الحمامي عن ثيابه فقال: انبدلت بهذه الثياب، فتقدم اليه الغلام وأخبره بجميع ماصنعه عز الدين، وأخبره بأنه قد أجرى عليه معيشة عشرين دينارا في كل شهر، فلبس الثياب، وخرج من الحمام وهو من أغنى الناس.

قال: وكان فرخشاه ممدحا مدحه ابن سعدان بعدة قصائد من جملتها التي يقول فيها:

تخذ السابري لبدا وعودا الــ
ــزان نابا والهندواني ظفرا

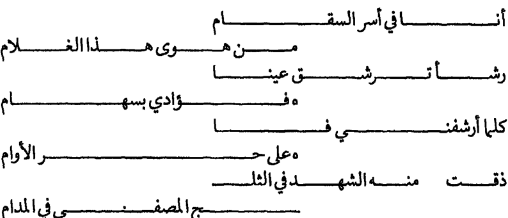


أعجمي الأنساب قصرت الأعـ ... ـراب عنه سجعا ونظما ونثرا

هزمت كتبه الكتائب جفلا ... وأعادت دجى الحوادث فجرا

فهو كالمازني علما وكالأحـ ... ـنف حلما وكالفرزدق شعرا

قال: وكان فرخشاه مضافا إلى شجاعته كونه عالما متفننا، كثير الأدب، مطبوع النظم والنثر فمن شعره قوله:



أنا في أسر السقام ... من هوى هذا الغلام

رشأ تـرشق عينا ... ه فؤادي بسهام

كلما أرشفني فا ... ه على حر الأوام

ذقت منه الشهد في الثلـ ... ـج المصفى في المدام

قلت: ونبغ ابنه الأمجد أيضا شاعرا، وكان السلطان كثير الإعتماد على فرخشاه، وفي بعض الكتب الفاضلية عن السلطان إليه:« وصل كتابه يتضمن خروج الفرنج ومادبره من الأحوال وأعده من مكائد القتال، ، ولسنا نستبعد أن يدني الله به كل بعيد من المراد، وأن يقلل بتدبيره تقلب الذين كفروا في البلاد، وأن يجري على يده أول النحل الذي توعد به آخر صاد ، وأن يصب به على المشركين (سوط عذاب إن ربك لبالمرصاد)(١٤).

وقال العماد: كان عز الدين فرخشاه من أهل الفضل والتفضيل على أهله، يغنى الكرام عن الابتذال بكرم بذله، ومن أخص خواصه، وذوي

اصطفائه واستخلاصه الصدر الكبير العالم تاج الدين أبو اليمن الكندي، أوحد عصره، وشعاع شمسه، وحبيب نفسه (١٥) ، ولي في هذا الملك قصائد منها قصيدة هائية موسومة مدحته بها في أول سنة صحبت فيها السلطان إلى مصر، وهي سنة اثنتين وسبعين، وعارضها تاج الدين أبو اليمن بكلمة بديعة في وزنها ورويها، وحسن ريها، فأما كلمتي فهي:

بين أمر حلاوة العيش الشهي
وهوى أحال غضارة الزمن البهي

وصبابة لا استقل بشرحها
عن حصرها حصر البليغ المدره

أأحبتي إن غبت عنكم فالهوى
دان لقلب بالغرام موله

أنهي إليكم إن صبري منتهاء
بل منته والشوق ليس بمنته

أما عقود مدامعي فقد وهت
وأبت عقود الود مني أن تهي

ولقد ذهبت بينكم فاشتقتكم
يا من لمشتاق بينكم دهي

في شوقكم أبدى الزمان تفكري
وبذكركم عند الكرام تفكهي

لو قيل لي ما تشتهي من هذه الـ
ـدنيا لقلت سواكم لا أشتهي

ما كان أرفه عيشتي وألذها
من ذا الذي يبقى بعيش أرفه

ومن السفاهة أنني فارقتكم
من أين ذو الحلم الذي لم يسفه

ومنها:

وعقاب إيلة ما يفارق جلقا
أحد إليها غير غرابله

مـــــالي ومصر والمطـــــامــــع إنما
ملكـــت قيـــادي حيـــث لم أتنـــزه

لاتنهنـــي يـــاعـــاذلي فـــأنـــا الـــذي
تبـــع الهوى وأتـــى بما عنـــه نهي

قـــد قلـــت للحـــادي وقـــد نـــاديتـــه
في مهمـــه اقصر وصلـــت مـــه مـــه

حتـــام جـــذبـــك للـــزمـــام فـــأرخـــه
فلقـــد أنخـــت إلى ذرى فـــرخشـــه

متكـــرم بـــالطبـــع لامتكـــره
شتـــان بين تكـــرم وتكـــره

إحســـان ذي مجد وهمة مـــاجـــد
مجد وتقـــوى عـــابـــد متـــألـــه

وهي ثلاثة وثمانون بيتا والقصيدة التاجية تسعة وأربعون بيتا أولها:

هـــل أنـــت راحـــم عبرة وتـــولـــه
ومجير صـــب عنـــد مـــأمنـــه دهـــي

هيهـــات يـــرحـــم قـــاتـــل مقتـــولـــه
وسنـــانـــه في القلـــب غير منهنـــه

مـــن بـــل مـــن داء الغـــرام فـــإنـــي
مـــذ حـــل بي مـــرض الهوى لم أنقـــه

إني بليـــت بحـــب أغيـــد ســـاحـــر
بلحـــاظـــه رخـــص البنـــان بـــدهـــره

أبغـــي شفـــاء تـــدلهي مـــن دلـــه
ومتـــى يـــرق مـــدلـــل لمدلـــه

يـــا مفـــرداً بـــالحســـن إنـــك منتـــه
فيـــه كما أنـــا في الصبـــابـــة منتهـــي

قـــد لام فيـــك معـــاشر فـــانتهـــى
بـــاللـــوم عـــن حـــب الحيـــاة وأنـــت هـــي

أبكي لديه فإن أحس بلوعة
وتشهق أوما يطرف مقهقه

أنا من محاسنه وحالي عنده
حيران بين تفكه وتفكه
ضدان قد جمعا بلفظ واحد
لي في هواه بمعنيين موجه

قلت: يقال تفكهت بالشيء أي تمتعت به، وتفكهت تعجبت، ويقال: أيضا تفكهت تندمت، ومنه قوله تعالى(فظلتم تفكهون) [١٦] فهو في تفكه اي تمتع بالمحاسن، وفي تعجب من حاله وتندم عليها ثم قال:

أنا عبد من شهد الزمان بعجزه
عن أن يجيء له بند مشبه
عبد لعز الدين ذي الشرف الذي
ذل الملوك لعز عبد فرخشه
طابت موارده فغص فناؤه
وشدا الحداة بذكره في المهمه
يفديك كل مملك متتايه
أبدا بألسنة الرعاع ممده
لا يفقه النحوي إذا حدثته
وإذا أتى بحديثه لم يفقه

قلت: وذكر العماد في ديوانه أبياتا حسنة في مدح الشيخ تاج الدين أبي اليمن رحمهما الله قال:

تذاكر من وراد مصر عصابة
حديث فتى طاب الندى بذكره
وقالوا رأينا فاضلا ذا نباهة
أديبا يفوق الفاضلين بفخره
يدين حبيب والوليد لنظمه
ويحمده عبد الحميد لنثره

ولـــو عـــاش قـــس في زمـــان بيـــانـــه
لكـــان مشيـــدا في البيـــان بشكـــره

فضـــائلـــه كـــالشمـــس نـــورا ولم تـــزل
منـــاقبـــه في الـــدهـــر أعـــداد زهـــره
بيـــان هـــو السحـــر الحلال وإننـــا
نـــرى معجـــزا مـــن فضلـــه حـــل سحـــره
ذوو الفضـــل هـــم عنـــد الحقيقـــة أبحـــر
ولكنهـــم اضحـــوا جـــداول بحـــره
يضـــوع مهـــب الجمـــد مـــن عـــرف عـــرفـــه
وتـــأرج أرجـــا الـــرجـــا بنشره
فقلـــت لهم هـــذا الـــذي تصفـــونـــه
أبـــو اليمـــن تـــاج الـــديـــن أوحـــد عصره

قلـت:وبلغنـي أن أول معـرفـة فرخشـاه أنـه كـان في مجلـس القـاضي الفاضل بـالقاهرة، فجاء فرخشـاه إلى الفاضل فجرى ذكر بيـت من شعر أبي الطيب المتنبي، فتكلم فيـه تاج الدين بما يليق به، فـأعجب فرخشاه، وسأل القاضي عنه، فقـال: هذا فلان وعرفه بفضله، فلما قـام فرخشاه من مجلس الفـاضل أخذ بيـد الشيخ تاج وخرج بـه ولزمه إلى أن تـوفي رحمهم الله اجمعين.

فصل

في أخذ السالكين البحر لقصد الحجاز

قال العماد: وفي شوال سنة ثمان وسبعين كانت نصرة الاسطول المتوجه إلى بحر القلزم، والمقدم فيه الحاجب حسام الدين لؤلؤ، لطلب الفرنج السالكين بحر الحجاز،وذلك أن الابرنس صاحب الكرك لما صعب عليه ماتوالى عليه من نكاية اصحابنا المقيمين بقلعة ايلة، وهي في وسط البحر لاسبيل عليها لأهل الكفر، أفكر في أسباب احتياله، وفتح أبواب اغتياله، فبنى سفنا ونقل اخشابها على الجمال إلى الساحل، ثم ركب المراكب وشحنها بالرجال، وآلات القتال، ووقف منها مركبين على جزيرة القلعة لمنع أهلها من استقاء الماء، ومضى الباقون في مراكب نحو عيذاب، فقطعوا طريق التجار، وشرعوا في القتل والنهب والأسار، ثم توجهوا إلى أرض الحجاز وتعذر على الناس وجه الاحتراز، فعظم البلاء، وأعضل الداء، وأشرف أهل المدينة النبوية منهم على خطر، ووصل الخبر إلى مصر، وبها العادل أخو السلطان، فأمر الحاجب حسام الدين لؤلؤ فعمر في بحر القلزم مراكب بالرجال البحرية، ذوي التجربة من أهل النخوة للدين والحمية، وسار إلى إيلة فظفر بالمركب الفرنجي عندها فحرق السفينة وأخذ جندها، ثم عدى الى عيذاب، وشاهد بأهلها العذاب، ودل على مراكب العدو فتبعها، فوقع بها بعد أيام فأوقع بها وواقعها، وأطلق المأسورين من التجار، ورد عليهم ماأخذ لهم، ثم صعد الى البر فوجد أعرابا قد نزلوا منه شعابا، فركب خيلهم وراء الهاربين، وكانوا في أرض تلك الطرق ضاربين، فحصرهم في شعب لا ماء فيه، فأسرهم بأسرهم، وكان ذلك في أشهر الحج، فساق منهم أسيرين إلى منى، كما يساق الهدي، وعاد إلى القاهرة ومعه الأسارى، فكتب السلطان إليه بضرب رقابهم، وقطع أسبابهم، بحيث لايبقى منهم عين تطرف،ولاأحد يخبر طريق ذلك البحر أو يعرف.

قلت: و لأبي الحسن ابن الذروي في الحاجب لؤلؤ بسبب هذه الوقعة أشعار منها:

مر يوم من الزمان عجيب
كاد يبدي فيه السرور الجماد

إذ أتى الحاجب الأجل بأسرى
قرنتهم من طيها الأصفاد

بجمال كأنهن جبال
وعلوج كأنهم أطواد

قلت بعد التكبير لما تبدى
هكذا هكذا يكون الجهاد

حبذا لؤلؤ يصيد الأعادي
وسواه من اللآلي يصاد

ومنها:

قلت وقد سافرت يا من غدا
جهاده يعضد من حجه

إذ قيل سار الحاجب المرتجى
في البحر يا رب السما نجه

البحر لا يعدو على لؤلؤ
لأنه كون من لجه

ومنها:

يا حاجب المجد الذي ماله
ليس عليه في الندى حجبه

ومن دعوه لؤلؤا عندما
صحت من البحر له نسبه

لله تعمل من صالح
فيه وما تظهر من حسبه

كفيت أهل الحرمين العدا
وذدت عن أحمد والكعبة

وله:
لئن كنت من ذا البحر يا لؤلؤ العلى
نتجت فإن الجود فيك وفيه
وإن لم تكن منه لأجل مذاقه
فإنك من بحر السماح أخيه

وله:
إنما أنت لؤلؤ للمعالي
جاء من أبحر السماح العذاب

وكتب السلطان إلى العادل من كلام الفاضل:« وصل كتابه المؤرخ بخامس ذي القعدة المسفر عن المسفر من الأخبار المتبسم عن المتبسم من الآثار، وهي نعمة تضمنت نعما، ونصرة جعلت الحرم حرما، وكفاية ماكان الله ليؤخر معجزة نبيه صلى الله عليه وسلم بتأخيرها، وعجيبة من عجائب البحر التي يحدث عن تسييرها وتسخيرها، وماكان الحاجب لؤلؤ فيها إلا سهما أصاب، وحمد مسدده، وسيفا قطع وشكر مجردة، ورسولا عليه البلاغ وإن لم يجهل ماأثرته يده، وقد غبطناه بأجر جهاده، ونجح اجتهاده، وركب السبيلين برا وبحرا، وامتطى السابقين مركبا وظهرا، وخطا فأوسع الخطوة، وغزا بأجر الغزو، وحبذا العنان الذي في هذه الغزوة أطلق ، والمال الذي في هذه الكرة أنفق، وهؤلاء الأسارى فقد ظهروا على عورة الاسلام وكشفوها، وتطرقوا بلاد القبلة وتطوفوها، ولو جرى في ذلك سبب والعياذ بالله لضاقت الاعذار إلى الله، والخلق، وانطلقت الألسن بالمذمة في الغرب والشرق، ولابد من تطهير الأرض من أرجاسهم والهواء من أنفاسهم بحيث لايعود منهم مخبر يدل الكفار على عورات المسلمين، وإن هذا العدد القليل قد نال ذلك المنال الجليل،

وهذا مقـام إن روعي فيه حـراسة الظاهـر والوفـاء للكافر، حـدث الفتق الذي لايمكـن في كل الاوقـات سده ورتقـه، ولدغ المؤمـن مرتين والأولى تكفي لمن له في النظر تفقه.

وفي كتاب آخر الى العادل أيضا:« ونحن نهنـي المجلس السامي بظفره ولم لايكمله وينصره، ولم لايعجلـه ويشكره، وليس في قتل هـؤلاء الكفار مـراجعـة، ولا للشرع في إبقـائهـم فسحـة، ولا في استبقـاء واحـد منهـم مصلحـة، ولافي التغاضي عنهـم عند اللـه عذر مقبـول، ولاحكـم اللـه في أمثـالهم عند أهـل العلـم بمشكل ولامجهـول، فليمـض العزم في قتلهـم، ليتناهى امثـالهم عن فعلهم، وقد كـانت عظيمة ماطـرق الاسلام بمثلها، وقد أتى الله بعدها بلطيفة أجراها على يد من رآه من أهلها».

وفي كتاب آخـر أيضا الى العـادل:« قد تكـرر القول في معنـى أسارى بحر الحجـاز، فلا تذر على الأرض مـن الكافريـن ديارا، ولاتوردهـم بعد ماء البحـر الانارا، فاقلهم اذا بقـي جنى الأمر الأصعب، ومتـى لم تعجل الراحة منهم، وعدت العاقبة بالأشق الأتعب».

ومن كتاب آخر إلى بغـداد: وسارت المراكب الاسلامية طالبـة شوكة المراكب الحربية، المتعرضـة للمراكب الحجازية واليمنية، وكـانت مراكب العدو قد أوغلـت في البحر، ودلها على عورات الساحلين مـن العرب من أشبه ركـابها في الكفر، فوصلت إلى عيـذاب، فلم ينل منهـا مراد، غير أن ماوجدتـه في طريقها أو في فرضـة عيذاب نالت منـه وشعثت، وأفسدت فيه وعتـت، وتمادت في الساحل الحجـازي إلى رابغ إلى سـواحل الحوراء، وهنـاك وقع عليهـا أصحابنـا، وأوقعـوا بها اشد ايقـاع، وأخذوا المراكـب الفرنجيـة على حكم البـدار والإسراع، ففر فـرنجها إلى السـاحل، فـركب أصحـابنا وراءهـم خيـول العربـان التـي وجدوهـا، وأخـذوا الكفار مـن شعـاب وجبال اعتصمـوا بها وقصدوهـا، وكفي المسلمـون اشد فسـاد في

أرضهم، وأقطع قاطع لفرضهـم، وانبسطت آمالهم بقبضهم، وعميت على الكفار هذه الطـريق التي لو كشف لهم غطـاؤها قدما، ولـو أحاطوا بها علما، لاشتطت نكـايتهم، واشتدت جنيتهـم وعز على قدمـاء ملوك مصر ان يصرعوا هـذه الاقران، ويطفئـوا هذه النيران، ويـركبوا غـوارب اللجج ويـرخصوا غـوالي المهج، ويقتنصـوا هذا الطـائر من جـوه الذي لايـدرك لوجـه، ويدركوا هـذا العدو الذي لايـدرك الا ان تستنجد عليه مـلائكة الله وروحه».

وفي كتـاب آخر إلى بغـداد:« كان الفـرنج قـد ركبوا مـن الأمر نكـرا، وافتضـوا من البحـر بكـرا، وعمروا مـراكب حـربيـة شحنوهـا بـالمقاتلـة والأسلحة والأزواد، وضربوا بها سواحل اليمـن والحجاز، وأثخنوا وأغلقوا في البلاد واشتـدت مخافة أهـل تلك الجوانب، بـل أهل القبلـة لما أومض إليهم مـن خلل العـواقب، ومـاظن المسلمـون إلا أنها الساعـة، وقد نشر مطوي أشراطهـا، والدنيا وقـد طوي منشور بسـاطها، وانتظر غضـب الله لفناء بيتـه المحرم، ومقـام خليله الاكرم، وتـراث أنبيائه الأقـدم، وضريح نبيه الأعظـم صلى الله عليه وسلـم، ورجوا أن تشحـذ البصائر آية كـآية هـذا البيـت اذ قصـده اصحـاب الفيل، ووكلـوا إلى اللـه الأمـر ، وكـان حسبهم ونعـم الوكيل، وكـان للفرنج مقصـدان: أحدهما قلعة إيلـة التي هـي على فوهـة بحر الحجـاز ومـداخله، والآخـر الخوض في هذا البحـر الذي تجاوره بلادهم من ساحله، وانقسمـوا فريقين وسلكوا طريقين،فأما الفريق الذي قصد قلعة إيلة فإنه قدر أن يمنع أهلها من مورد الماء الذي بـه قوام الحيـاه، ويقاتلهـم بنار العطـش المشبـوب الشباه، وأمـا الفريـق القاصد سواحـل الحجاز واليمن فقدر ان يمنع طريـق الحاج عن حجه، ويحول بينه وبين فجه، ويـأخذ تجار اليمن، و كارم عدن، ويلـم بسواحل الحجاز فيستبيح والعياذ بالله المحـارم، ويهيج جزيرة العرب بعظيمة دونها العظـائم، وكان الأخ سيـف الديـن بمصر قد عمـر مراكـب وفرقهـا على الفرقتين، وأمـرها بأن تطوي وراءهـم الشقتين، فأما السائرة إلى قلعـة إيلة

فإنها انقضت على مرابطي الماء انقضاض الجوارح على بنات الماء، وقذفتها قذف شهب السماء مسترقي سمع الظلماء، فأخذت مراكب العدو برمتها، وقتلت اكثر مقاتلتها، إلا من تعلق بهضبة وماكاد، وأدخل في شعب وماعاد، فإن العربان اقتصوا آثارهم، والتزموا احضارهم، فلم ينج منهم إلا من ينهي عن المعاودة، ومن قد علم ان أمر الساعة واحدة، وأما السائرة إلى بحر الحجاز فتمادت في الساحل الحجازي إلى رابغ سواحل الحوراء، فأخذت تجارا، وأخافت رفاقا، ودلها على غوارب البلاد من الاعراب من هو أشد كفرا ونفاقا، وهناك وقع عليها أصحابنا، وأخذت المراكب بأسرها وفر فرنجها بعد اسلام المراكب، وسلكوا في الجبال مهاوي المهالك، ومعاطن المعاطب، وركب اصحابنا وراءهم خيل العرب، يشلونهم شلا ويقتنصونهم اسرا وقتلا، ومازالوا يتبعونهم خمسة أيام خيلا ورجلا، نهارا وليلا، حتى لم يتركوا عنهم خبرا، ولم يبقوا لهم اثرا(وسيق الذين كفروا إلى جهنم زمرا)[١٧]وقيد منهم مائة وسبعون اسيرا».

ومن كتاب آخر:« ومن جملة البشائر الواصلة من مصر عود الاسطول مرة ثانية كاسرا كاسبا، غانما غالبا، بعد نكايته في أهل الجزائر، وإخراب ماوجده فيها من الأعمال والعمائر، ومن جملة ماظفر به في طريقه بطسة من مراكب الفرنج تحمل اخشابا منجورة إلى عكا، ومعها نجارون ليبنوا منها شواني فأسر النجارون، ومن معهم وهم نيف وسبعون، وأما الاخشاب فقد انتفع بها المجاهدون، وكفي شرها المؤمنون، وللخادم في المغرب عسكر قد بلغت اقصى إفريقية فتوحه وعاود به شخص الدين في تلك البلاد روحه».

-٨٣٨٠-
فصل
في باقي حوادث هذه السنة

قال العماد: وفي هذه السنة وهي سنة ثمان وسبعين أنعم السلطان على نور الدين محمد بن قرا أرسلان بأعمال الهيثم، وكانت جارية في عمل الموصل، فلما تسلمها جعلها من نصيبه، وقد كان الملك العادل نور الدين محمود بن زنكي رحمه الله حين توجه إلى الموصل في أوائل سنة ست وستين، عند وفاة أخيه مودود وعد ابن قرا أرسلان بقلعة الهيثم، ثم سلمها إليه دون أعمالها ، تحلة ليمينه ووفاء بوعده الكريم ودينه، ولما جاء لمساعدتنا في هذا العام خصه السلطان عاجلا بهذا الانعام، ثم وهب له قلعة الجديدة، وهي قريبة من نصيبين، ووعده بفتح آمد له فوفى بوعده كما سيأتي.

قال: وكان شاه أرمن صاحب خلاط ظهير الدين سكمان، وهو خال صاحب ماردين بن ايلغازي بن ألبي بن تمرتاش، وصاحب ماردين هذا هو ابن خال صاحب الموصل عز الدين بن مسعود بن مودود بن زنكي، فأنفذ شاه ارمن يشفع الى السلطان في الموصل وسنجار، وأرسل اليه سيف الدين وهو من أعز أصحابه عليه فلم يسمع السلطان شفاعته فاجتمع هو وصاحب ماردين، وصاحب الموصل وصاحب ارزن وبدليس وغيرهم من عسكر حلب، وجمعوا جموعا وعزموا على لقاء السلطان، ونزلوا ضيعة من أعمال ماردين يقال لها حرزم، فجمع السلطان عساكره، وجاءه تقي الدين من حماة إلى حران في خمس ليال، فسار اليهم بعد العيد الأكبر، فلما وصل السلطان رأس عين وسمعوا بمجيئه فرقوا وافترقوا، وعاد الخلاطي إلى خلاطه باختلاطه، ورجع الموصلي الى موصله لمواصله احتياطه، واعتصم الماردي بحصنة المارد، وهتكوا حرز حرزم للصادر والوارد، وهاب عسكر حلب العود إليها ونحن على طريقه،

فـأذن جمعه بتفـريقـه، ومضى معظمهـم الى الموصـل، فعبر الفرات عنـد عانة، ولم يجدوا إعانة، ونسفتهم ريحنـا وهم جبال، وذهبوا بقلوب النساء، وقد جاؤوا وهـم رجال، ثم نزل السلطـان منزلة القوم بحـرزم، وفيها قصر لصاحب ماردين كان يتنزه فيه، فأقام فيه تاج الملوك أخو السلطان

قال ابن أبي طـي: وفي هذه السنة، نزل قراقـوش، على بلد زالوت(١٨) وقـاتلـه الى ان انهزم منهـا أهلـه، ودخـل المدينـة ليقضي بها أيـام الشتـاء فأصبـح يومـا فإذا حـول المدينة عسكـر مقداره خمسـة آلاف رجل، فقـام وافتقـد اصحابـه فلم يجد الا جماعـة من البـوابين والركـابدارية، وباقـي الناس سكارى، ورأى احـد البوقية فأمره ان يضرب بالبـوق، وفتح الباب وخرج فظن العسكر أن قراقوش وعسكره قد شعروا بهم فانهزموا.

قال: ثم انه قصد طرابلس فحـاصرها وضيق عليها، وكان شيخها عبد المجيد بن مطروح قـد راسل قراقوش، وطلب منه الأمـان وسأله ان ينفذ اليه قـوما يقـرر معهم أمر التسليـم، فأنفـذ اليه وزيره وثـلاثة مـن وجوه أصحابـه، فأخذهـم عبد المجيد وأنـزلهم في دار أخلاها وأمـر لهم بجميع مـايحتاجـون اليه، فلما خـلا لهم الليل أخـذوا المخاد وتصـافعوا بها حتـى قطعوها وقام بعضهم الى صهريج مملوء ماء للشرب فأحدث فيه، فخبرت الـرقباء عبـد المجيـد بما كان منهـم، فأحضر وجـوه البلـد وقص عليهـم ماكان منهم وقال: اذا كان هؤلاء خيـارهم فما ظنكم بشرارهم، وكان أهل البلد قـد أشاروا على عبـد المجيد بتسليم البلـد، فامتنعـوا حينئذ وحضر ابن مطـروح من الغـد اليهم الى الدار ومعـه وجوه البلـد فقال لصـاحب ضيـافته: لم أحضرت لهؤلاء السـادة مخاد مقطعـة؟ فقال: مـاأحضرت لهم إلا مخاد جددا، ولكن القوم أكلوا طعام الصوفيـة الذي لانعرفه في بلادنا، فاستحـى القوم وعلموا انهم قد فطنـوا بحالهم، ونزل رجل الى الصهـريج فرأى العذرة على وجه الماء، فقـال من فعل؟ فلم يرد واحد منهـم جوابا، فقال ابـن مطروح:يـاقوم ماأدخلنـاكم إلينـا الا عازمين على تسليـم البلد

إليكم وأن نكون لكـم رعايا، وقد شـاهدنا منكم افعـالا مانرضاهـا، فإن قلتم ان هذه الفعلة مـن غلمانـنا وعبيـدنا، فما اقبـح هذه الأحـدوثة عـن خيار اصحاب هذا الرجل، وإن كان عنده من هو خير منكم فلم بعثكم إلينا، هذا طعـن في عقله، ثم أمر بـاخراجهم من المدينـة، فلما صاروا إلى قراقـوش وعلم القصة عظم عليـه الأمر وأراد الفتك بهم، وعلـم انهم قد فتقوا عليه فتقـا لايمكنه رقعه أبدا، وتيقـن انه لايملك البلد أبـدا، وانفذ عبد المجيـد إلى قراقـوش: إنك لسـت بقادر على أخـذ هذا البلـد لأجل مانفر به اصحابك قلوب أهله، فـإن رأيت ان نجعل لك جعالة نحملها إليك في كل سنـة وترحل عنا قطعنـا، فأجاب إلى ذلك ورحـل عنهم بعد أن احتوى عليهـم، قال: وتـوافت إليـه الفرسـان من مصر حتـى سار في ثمانمائة فارس من الأتراك، وسار من جبل نفـوسة إلى قابس في يومين، ثم إلى قصر الـروم وغيره من المواضـع والقلاع فهجـم ونهب، وغنم وغلـب، وخافه أهل تلك النواحي .

-٨٣٨٣-

فصل

في فتح آمد

قال العماد: ثم سار السلطان الى آمد، ونـزل عليها يوم الأربعاء سابع عشر ذي الحجـة بعـد ان استـأذن الخليفـة في ذلـك، فـأذن لـه فنصـب السلطان عليها المجانيق وضايقهم، وطال حصارهم، ثم أخذها في السنة الآتية كما سيأتي.

ثم دخلت

سنة تسع وسبعين

قال ابن ابي طي: والسلطان منازل لآمد، واشتد قتال العامة بها، فأمر السلطان بكتب رقاع فيها ابراق وارعاد، ووعد وايعاد، وان داموا على القتال ليستأصلن شأفتهم، وإن اعتزلوا وسلموا البلد ليحسنن إليهم وليضعن ماعليهم من الكلف والضرائب، وأمر ان تعلق تلك الرقاع على السهام وترمى الى آمد، فرمى من ذلك شيء كثير، فكفوا عن القتال، وأشاروا على ابن نيسان بطلب الأمان، فأومن على أن يخرج بجميع أمواله دون الذخائر والسلاح، وأمهل ثلاثة أيام، فلما عول على نقل أمواله قعد به أصحابه، فأرسل إلى السلطان فأنفذ اليه غلمانا ودواب، وضربت له خيمة بظاهر آمد، وجعل ينقل مايقدر على نقله من المال والقماش، وآلات الذهب والفضة مدة ثلاثة ايام بعالم عظيم كانوا يزيدون على ثلاثمائة انسان، ولم ينقل عشر ماكان له، وسرق من أمواله أكثر مما حصل له، لأنه ماأخرج أحد شيئا إلا وأخذ نصفه أو أكثر، وكان ابن نيسان قد حصل في آمد أشياء كثيرة لايمكن وصفها من الأسلحة والأموال والغلال والكتب، ولما انقضى الأجل أخذ ماحصل وسار قاصدا بلاد الروم وتسلم السلطان مدينة آمد بأموالها وذخائرها، ونصبت أعلامه على أسوارها، وذلك في رابع عشر المحرم، ووجد فيها من الغلال والسلاح وآلات الحصار من المجانيق واللعب والعرادات أشياء كثيرة لايمكن أن يوجد في بلد مثلها، ووجد فيها برج من أبراجها فيه مائة ألف شمعة، وبرج مملوء بنصول النشاب وأشياء يطول شرحها، وكان فيها خزانة كتب كان فيها ألف ألف وأربعون ألف كتاب، فوهب السلطان الكتب للقاضي الفاضل، فانتخب منها حمل سبعين جمازة، ويقال ان ابن قرا ارسلان باع من ذخائر آمد وخزائنها مما لاحاجة له به مدة سبع سنين حتى امتلأت الأرض من ذخائرها، وكان السلطان لما

تسلم آمد وهبها لنور الدين محمد بن قرا ارسلان بها فيها، وكتب له بها وبأعمالها توقيعا، ووفى له بها وعده به، وقيل للسلطان: إنك وعدته بآمد وماوعدته بما فيها من الأموال والذخائر، وفيها من الأموال والذخائر، مايساوي ثلاثة آلاف ألف دينار، فقال: لاأضن عليه بما فيها من الأموال فإنه قد صار من أتباعنا وأصحابنا.

قال: وفي فتح آمد يقول سعيد الحلبي من قصيدة في السلطان:

رمى آمد بالصافنات فأذعنت
له طاعة آكامها ووعورها
فما عز ناديها ولااعتاص ثغرها
ولاجاش طاميها ولارد سورها
وأنزلت بالكره ابن نيسان مخرجا
كما أنزل الزباء كرها قصيرها
نهضت لها حتى إذا انقاد صعبها
وقر على طول الشماس نفورها
سمحت بها جودا لمن ظل برهة
يغاورها طورا وطورا يغيرها
وملكت ماملكت منها تخولا
لأجدر أن يرجو نداك فقيرها

وقال ابن سعدان الحلبي يذكر فتح آمد:

فيا ساكني الرعناء من سفح آمد
أرى عارضا ينهل بالموت هاطله
لئن غضبت يوما عليكم عروشها
فهذا ابن أيوب وهذي معاقله
ولو رامها يوما سواه لقطعت
أباهره من دونها وأباجله

قلت وقال آخر:

لــــو عــــرفــت آمـــــد مــن جـــاءهـــــا
يخطـــــب في الاســـــــلام تسليمهـــــــا

لصيرت أعلى شراريفهـــــــــــــــــــا
لمن على الأرض ســـــــــــلاليمهـــــــا

قـال العماد: وأما آمـد فحصل فتحهـا يـوم الأحد في العشر الأول مـن المحرم، وكـان مدبر آمد ابـن نيسان،، فهو رئيسهـا والقائم بأمرهـا، وكان لآمد أمير قـديم يقال لـه، ايكلدي من أيـام السلاطين القدمـاء ، وولده محمود شيخ كبير عنده يطعمه ويسقيه ويدعي أنه من غلمانه ومصطنعيه، وأنـه يحفظ البلـد له، وأنـه لايغدر بـه ولا يؤثـر بدلـه، وإذا جاء رسـول يحضره عنـد أميره ويسند مـايدبـره إلى تدبيره، ويقـول انه غـلام، ومامعـه كلام، وحافظ على سر هـذه السريرة، وآمن باحتياطه مـن جور الجيرة، بل مامنهم إلا من يخاف مكره، ويحفظ منه وكـره، وينكر عرفه، ويعرف نكره، ولم يزل الحصار عليهـم إلى أن أذعنوا للانقياد،وخرجت نساؤهم سحراً الى المخيم الفاضلي يطلبـن الأمان، فأمنهم السلطـان، على أنهم يخرجون بعد ثلاث، ويحملون مـاقدروا عليه من المال والاثـاث، وأعانهم السلطان على نقـل الأمـوال بالـدواب والـرجـال، فلما انقضـت مدة الأمـان، تسلمهـا السلطان، وسلمها إلى نور الـدين بن قرا أرسلان، بأعمالها ومـافيها، وكان السلطان وعده بها قبل ذلك، فأنجز له الوعـد، وقد كان أبوه عاناها مدة وتمناها فما قدر عليها، ثم وصف العماد مـاكان في قلعة آمد من الذخائر والأمـوال، والحواصـل والأمتعـة وأن أصحـابها لم يقـدروا في تلـك الأيـام الثلاثـة إلا على تحويل مـاخف منها واستغنـى المساعـدون لهم في تحويلها اليهم.

وكتـب الفاضـل عـن السلطـان إلى الديـوان ببغـداد:« ورد إلى الخادم التقليد الشريـف بولاية آمـد، فلما رآه مستقرا عنـده قال: هذا مفتـاحها،

وسمع الـوصايا فـاستضاء بها في ظلمات القصـد، وقال: هذا مصبـاحها، وتناولـه فما ظن الا كتـابا انزل عليـه من السماء في قـرطاس، ومـاتيقنه الا نـورا يمشي به في النـاس، فسـار به، ولـولا العادة مـااستصحـب جنديـا وعـول عليه، ولـولا الرتبـة لما تقلد هنـديـا ، وطرق بـابه بـاقليده، ولـولاه مااستطـاع للأولياء ان يظهـروه، ومااستطاعوا نقبـا، وناشد المقيـم بتقليده ثلاثـة أيام بثـلاث رسائل، فلو كـان ذا سمع اصغـى ، ولو كـان ذا لب لبـى، فلما انقضت ضيـافـة أيـام النذارة، واحتقـر مـن بـآمد نـار الحرب جـاهلا ان «وقـودهـا الناس الحجـارة»، عمـد لها في اليوم الـرابـع فزلـزل عمدها، وقاتلهـا فأنزل جلدها، وزيل جلمدهـا، ثم رأى أن الشوكة ربما اصابت غير ذات الشوكة من جندهـا، وان المسلم قد أمن عذاب الحريق ولايأمن أن تحرقه القسي من السهام بشرار زنـدها، فعدل الى منجنيقه أمل صاحبهـا منه منجانيقـه، ورأى ان سوط سطوتـه يضرب الحجر، ويضرب عن أن يبـاشر البشر، وتلك الأبرجـة قد شمخـت بأنفها، ونـأت بعطفها، وتـاهـت على وامقهـا، وغضت عين رامقهـا، فهـي في عقـاب لـوح الجو كـالطائر الا ان المنجنيـق أغرى بها عقـابيه، وضغمهـا بمخلبيه، وخصـم أمـامهـا يخاصمهـا، وقـام إلى الغير يحاكمهـا، ويضرب بعصـاه الحجـر فتنبجس من النقـوب اعين لاترسل الماء، ولكن تـروي العطاش إلى منهل المدينة، وتنهل الظمأى كذلك أيامـا حتى محي من الشرفات شنب ثغرها، وتناوبها كأس فتك تبين بهز أبـراجها آثار شكرها، وعلت الأيـدي الرامية لها، وغلت الأيدي المحـامية عنها، فلم يبـق على سورها من يفتـح جفنا، وشن المنجنيق عليها غارته الى ان صـارت شنا، وفضت صناديق الحجارة المقفلة، وفصلـت منها اعضـاءُ السور المتصلة، ووجـب القتال لئـلا يظن بالخادم ان لاجنـد به الا جنـدله، فـأوعزنـا التقدم اليهـا ودخول النقـابين فيها، فأثخنت جـراحا بالنقوب، وهتك الحجاب من أضـالع البلد، فكاد يتصل الى ماوراءهـا من القلوب، وخشيت معرة الجيـش في وقت هجمه، وروسـل صاحبهـا بأنـه كشـف له الخذلان حتـى نصر على شكه بعلمـه،

فأعاد الرسـول مستنكفا تحجب النجاة بارسال ذوات الحجـاب وابرازهن، ومستكفا ليد القتل بمن لم يكن جـوابه غير احرازه واحرازهن، ولم يعارض في نفسة ولافي قومه ولافي أمواله، وهي ماهـي ذخائر موفرة، ومكاسب من أرباح مخسره، كـانت الحقوق عنهـا مذودة والآمال دونها مطـرودة، وغض الخادم كل عين عـن عينه وورقه، وصـانه في مخيمـه من الفقر صيـانته في ذات سوره وخندقه، واستـوفى شرط الوفاء بما أعطاه من موثقـه، وهذه آمد فهي مدينة ذكـرها بين العالم متعالم، وطالما صادم جانبها مـن تقادم فرجع مجذوعـا أنفه وإن كـان فحلا، وقـرعها فـريد الهمـة، واستصحب جفـلا، ورأى حجرها فقدر انـه لايفك له حجر، وسوادها فحسـب انه لاينسخه فجر، وحميـة أنف أنفهـا فاعتقـد أنه لايستجيـب لزجـر من ملـوك كلهم طوى صدره على الغليل الى موردها،ووقـف بها وقوف المحب المسائل فلم يفز بها أمل من جواب معهدها».

ثـم ذكر تسليمهـا إلى ابن قـرا أ رسـلان ثم قـال:« ولما رأى صاحـب ميافارقين أن اخت صاحبته قـد ابتني بها خاف ان نجمع له بين الأختين، فراسل ببذل الخدمة التي يكون فيها لنور الدين ثاني اثنين».

ثم ذكر اجتماع المواصلة وشاه أرمن، وصاحب ماردين، وصاحب أرزن وبدليس وغيرهم، على قصد الخادم، ونزلوا تحت الجبل، فلما صح عندهم قصده ظنوا أنه واقـع بهم، فأخذوا عنه الفرار بقوة، وذكـروا مافي لقائه من عوائد كانت عندهم مخوفة وعنده مرجـوة، وسار كل فريق على طريق بنية عدو وفعـل صديـق، والخادم يقول مهما ارادت فيـه الآراء الشريفة أتـاه، ومهما نوت فيـه من إحسـان قرب عليـه مانـواه، فهذه آمـد لما أرسل اليـه مفتاحهـا، وهوالتقليد فتحهـا، وهذه الموصل لما تـأخر عنه المفتـاح منعها وما منحها، ولو أعين بـه لعظمت على الاسلام عـائدته، وظهـرت في رفع منـاره فائدتـه لأن اليـد كانـت تكون بـه على عـدو الحق واحدة، والهمـة لآلات النصر واجدة، فـإن رأى أمير المؤمنين ان يميز بين أوليـائه، وينظر

أيهم أبر بـأوليائه، واشـد على اعدائه وأقوم بحقـه وحق آبـائه وأيهم أترك للفراش الممهـد، وأهتك للطـريق الممـدد، وأهجر في سبيـل الله لـراحة، وأصبر في جهاد عـدو الله على مضض جـراحة، وأسلى عن ريحانـة فؤاد، وأكثر ممارسة لحية واد، فيختار لهذه الأمة التـي جعله الله لها إماما وأما ما أسعد مـن أجرى في طـاعته ضامـرا، وملأ بولايتـه ضميرا فمن عـدله أن يولي عليها العدل الذي يقر عينهـا، ومن فضله أن لاينسى الفضل بينها، وقد ورد ذلـك المنشور بـآمد فـأورد الميسور، فـإن ورد المنشور المشـار اليه بالجزيـرة وماوسعت فـإنه نور على نـور، ومايحسب الخادم ان كيـدا للعدو الكافر أكيـد، ولاجهدا لأهل الضلال أجهد، ولاعائدة بغيـظ رؤساء أهل الالحاد أعود من تفخيم أمـر الخادم بمزيـد الاستخدام، والا فلينظـر هل يشق على الكفار مزيد احد سـواه من ولاة الاسلام، فكل ذي سلطان هو الطاعـم الكاسي المحمـي بالمناضـل لا الحامي، المكفـي لا الكافي يقضي عمره وهو لايشهـد الطعن الا في الميدان، ولايتمثل الهام طـائرا لولا الكرة في الصولجان، ولا يشقى بسهمـه الا قرطاسه، ولايحظى برفـده الا اكياسه، فـأعاد اللـه بأمير المؤمنين هـذا الديـن الى معالم حقـه الأولى، وأطال يـد سلطانه الطولى، الى أن تأخذ الأمور مـأخذها عدلا واعتدالا وسلما وقتالا، فيعود إلى الاسلام عوايد ارتياحه، وأيام منصوره وسفاحه».

ومن كتـاب آخر فـاضلي عن السلطان الى وزيـر بغداد:« اصـدر هذه الـوسيلة الى المجلـس السامـي معولا على كـرمـه فيما حملته مـن اللبانـة، مستغنيا بشهرةالحال المتجـددة عن الإبانة، فإن آمـد قصر الأمد في الظفر بها، وأنقاذها من المظالم التي كانـت تلبس نهارها بقبة غيهبها، وسار اليها ببقية العسـاكر بعد الـذين ساروا إلى الشـام، وأقامـوا قبالة الكفـار، بعدة اقتصر عليها أكثـرها مـن عساكر الـديار المصرية على بعـد تلك الـديار، ليظهر لمن نوى المناواة، ويتبين لمن كان على منـافاة الملاقاة، أن رجالا من مصـر فتحوا آمـد بعد سنـة من البيكـار، وبعد غـزوتين قد طـولع بهما في تواريخهما إلى الكفار، ففي ذلك مايغص الحاسد، ويغض الحاقد، ويعلم

أن في أولياء الدولة مارد كل مارد، فلما حل بعقوتها أراد أن يجري الأمر على صوابه، ويلج الأمر من بابه، وأن ينذر المغتر ويوقظه، ويعظه بالقول الذي رأى من الرفق ان لايغلظه، فبعث اليه ان يهب من كراه، ويعد لضيف التقليد قراه، وينجو بنفسه منجأ الذئاب، ولايتعرض بأن يكون منتجأ للذئاب فإذا عريكته لاتلين إلا بالعراك، وطريدته لاتصاد الا بالاشراك، فهناك رأى عاجلا ماهناك، وقوتل حق القتال في يوم واحد عرف مابعده من الأيام، ووقع الاشفاق من روعة الحريم وسفك الحرام، ونصب المنجنيقات فأرسل عارضها مطره وفطر السور بقدرة الذي فطره، وخطب امامها خطيب خطبه، وأغمد الصارم اكتفا بضربه، وترفه أهل الحرب لحسن المناب منه عن حزبه، فصار في أقرب الاوقات جبلها كثيبا مهيلا، وعفرت الأبرجة وجها تربا، ونظرت القلعة نظرا كليلا حتى إذا أمكنت النقوب ان تؤخذ، وكبدالسور ان تفلذ، رأى الذي لايصبر على بعضه، واعتذر اليه البناء الذي بناه إن لم يقضه، فلا بد من نقضه، وسأل فأجيب إلى الأمان على نفسه، وخرج منها وإنما أخرجه الظلم، وسلم وهو يرى السلامة إما من الحلم وإما من الحكم».

ثم قال:« ولولا تقليد أمير المؤمنين لما فتح له الباب الذي قرعه، ولاأنزل عليه النصر الذي أنزل معه، ولاساعد سيفا ساعد، ولانالت يد مدت من مصر فأخذت آمد، ومن بآمد، ولو قبلت مسألته في تقليد الموصل لكان قد ولجها، ولو بدلجة أدلجها، ولو بحصاة نبذها، وهو يتوقع في جواب هذاالفتح ان يمد بجيش هو الكلام، ورماح هي الاقلام، ونصر هو وافد الامر، وترشيد هو فك الحجر، وليس ذلك لوسائل من دولة اقامها بعد ميل عروشها، ولالدعوة قام فيها بما تصاغرت دونه جيوشها، ولكن لأن هذه الجزيرة الصغيرة منها تنبعث الجزيرة الكبيرة، وهي دار الفرقة، ومدار الشقة، ولو انتظمت في السلك، لانتظم جميع عسكر الاسلام في دار الشرك، ولكان الكفر يلقي بيديه، وينقلب على عقبيه، ويغشاه الاسلام من خلفه ومن بين يديه، ويغزى

من مصر بـرا وبحرا، ومـن الشام سرا وجهـرا، ومن الجزيـرة مدا وجـزرا، ويكون خـادمه قـد وجب أن يتمثـل بقولـه تعالى(ولقـد مننا عليـك مرة أخرى)(١٩).

ومـن كتاب آخـر:« كتابنـا هذا والمدينـة قـد فتحت أبـوابها، وعذقـت بدولتنا اسبابها، وتكلم لسان عملنـا في فـم قلعتها، وبعد ان لبستها دولتنا وفينا بموعد خلعتها، فالحمد للـه الذي تتم النعم بحمده، وينجح الأمل بقصـده، مايفتـح الله للنـاس من رحمه فـلا ممسك لها، ومـايمسك فـلا مرسل له من بعده».

قـال العماد: ثم دخـل السلطـان مدينـة آمـد وجلس في دار الإمـارة، وحلف نور الدين بن قرا أرسلان على أنه يظهر بها العدل، ويقمع الجور، ويكون سامعـا مطيعا للسلطان من معاداة الأعـداء، ومصافاة الخلان، في كل وقـت وزمان، وأنه متـى استمد من آمـد لقتال الفـرنج وجده لـذلك يقظان وإليه عطشان.

قال: وكـان هذا نور الـدين في خدمـة السلطان بنفسه وعسكـره منذ عبر الفـرات، ثم ان رسـل ملوك الاطـراف اجتمعت عنـد السلطان كـل يطلـب لصاحبـه الأمان، وان يتخـذه من جملـة الأعوان منهـم: صاحـب ماردين، وصاحـب ميافارقين، وهما قريبـا ابن قرا أرسلان فرد السلطان كل رسول بسـوله، وأجـاب إقبالـه بقبولـه، ثم رحـل السلطان مـن آمد وعبر الفرات لقصـد حلب، وولايتها فتسلـم في طريقه تل خـالد بالـرعب، ولم تكـن منهم بـالقـرب، فـأقر أهلهـا فيهـا ثـم نزل على عين تـاب، فبـادر صاحبها ناصح الدين محمد بن خمارتكين إلى خدمة السلطان، فأعاده إلى مكانه بالاحسان.

وقال ابـن أبي طي: تسلـم السلطان تـل خالـد في رابع عشر المحـرم،

وسلمها الى بدر الدين دلدرم، ومن كتاب فاضلي:« نزلنا تل خالد يوم الثلاثاء ثاني عشر المحرم، وكان قد تقدمنا الأجل تاج الملوك إليها، وأناخ عليها، وقابلها وقاتلها وعالجها، ولو شاء لعاجلها، ولما أطلت عليها راياتنا القى من فيها بيده، وانجز النصر صادق موعده، وأرسلتها حلب مقدمة لفتحها، وقد أنعم الله علينا بنعم لانحصيها تعدادا ولانستقصيها اعتدادا، ولانستوعبها، ولو كان النهار طرسا والبحر مدادا، ورايتنا المنصورة قد صارت مغناطيس البلاد تجذبها بطبعها، وسيوفنا قد صارت مفاتيح الامصار تفتحها بنصر الله، لابحدها ولابقطعها .

قلت: وما أحسن ماقال التلعفري من قصيدة له في السلطان:

قل للملوك تنحوا عن ممالككم
فقد أتى آخذ الدنيا ومعطيها

فصل

في فتح حلب

قال القاضي ابن شداد: لما عاد السلطان بدأ بتل خالد، فنزل عليها، وقاتلها وأخذها في ثاني عشر المحرم سنة تسع وسبعين، ثم سار الى حلب فنزل عليها في سادس عشري المحرم، وكان اول نزوله بالميدان الأخضر، وسير المقاتلة يقاتلون ويباسطون عسكر حلب ببانقوسا وباب الجنان غدوة وعشية، وفي يوم نزوله جرح أخوه تاج الملوك، وكان عماد الدين زنكي قبل ذلك قد خرج وخرب قلعة عزاز في تاسع جمادى الأولى سنة ثمان وسبعين، وخرب حصن كفر لاثا وأخذها من بكمش فإنه كان قد صار مع السلطان وقاتل تل باشر فلم يقدر عليها، وجرت غارات من الفرنج في البلاد بحكم اختلاف العساكر.

قال: ولما نزل السلطان على حلب استدعى العساكر من الجوانب، فاجتمع خلق كثير، وقاتلها قتالا شديدا، وتحقق عماد الدين زنكي انه ليس له به قبل، وكان قد ضرس من اقتراح الامراء عليه وجبههم اياه، فأشار الى حسام الدين طمان أن يسفر له مع السلطان في إعادة بلاده، وتسليم حلب إليه، واستقرت القاعدة، ولم يشعر احد من الرعية ولامن العسكر حتى تم الامر، ثم اعلمهم وأذن لهم في تدبير أنفسهم، فأنفذوا عنهم وعن الرعية عز الدين جرديك وزين الدين بلك، فبقوا عنده الى الليل واستحلفوه على العسكر، وعلى أهل البلد، وذلك في سابع عشر صفر، وخرجت العساكر إلى خدمته إلى الميدان الأخضر، ومقدموا حلب، وخلع عليهم، وطيب قلوبهم وأقام عماد الدين بالقلعة يقضي اشغاله، وينقل اقمشته وخزائنه إلى يوم الخميس ثالث عشري صفر، وفيه توفي تاج الملوك أخو السلطان من الجرح الذي كان أصابه وشق عليه أمر موته، وجلس للعزاء.

قلت: وكان أصغر أولاد أيوب، ذكر ابن القادسي أن مولده سنة ست وخمسين في ذي الحجة، فيكون عمره اثنتين وعشرين سنة وشيئا، وانشد له شعرا، وقال العماد الكاتب في كتاب الخريدة انه لم يبلغ العشرين سنة[٢٠] وله نظم لطيف، وفهم شريف، ثم قال القاضي أبو المحاسن، وفي ذلك اليوم نزل عماد الدين إلى خدمته وعزاه وسار معه بالميدان الأخضر، وتقررت بينهما قواعد، وأنزله عنده بالخيمة، وقدم له تقدمه سنية وخيلا جميلة، وخلع على جماعة من أصحابه، وسار عماد الدين من يومه الى قراحصار سائرا الى سنجار، وأقام السلطان بالمخيم بعد مسير عماد الدين غير مكترث بأمر حلب ولامستعظم لشأنها إلى يوم الاثنين سابع عشري صفر، ثم صعد في ذلك اليوم قلعة حلب مسرورا منصورا، وعمل له حسام الدين طمان دعوه سنية، وكان قد تخلف لأخذ ما تخلف لعماد الدين من قماش وغيره.

وقال العماد: وصل السلطان إلى حلب ، وفيها عماد الدين زنكي بن مودود الذي كان صاحب سنجار، وقد تحصن بكثرة الأجناد والعدد، وأراد مقابلة السلطان ومقاتلته، وأراد السلطان أن يظفر بها بدون ذلك من القتال، وعداوة الرجال، ولكن الشباب، وجهال الاصحاب راموا القتال، واحبوا النزال وتقدموا واقدموا والسلطان ينهاهم فلا ينتهون، وكان فيهم تاج الملوك بوري أخو السلطان فطعن في فخذه، ثم مات بعد ذلك بأيام بعد فتح البلد، وكان السلطان ذلك اليوم قد صنع وليمة لعماد الدين زنكي، وكان السلطان أول مانزل على حلب نزل في صدر الميدان الأخضر، وذلك في زمن الربيع، ثم رحل ونزل على جبل جوشن، ونهى عن القتال وقال: نحن هاهنا نستغل البلاد،

وماعلينا من الحصن الذي بلغ هذا العناد، وأنفذ رسل الترهيب ففكر عماد الدين زنكي في أمره، ورأى أن الصواب مصالحة السلطان، فأنفذ سرا إليه حسام الدين طمان، وصالحه وحلفه على أن يسلم إليه حلب

ويرد عليه بلده سنجار، ففعل وزاده الخابور ونصيبين والرقة وسروج، واشترط عليه ارسال العسكر في الخدمة للغزاة ومن كتب فاضلية:« تسلمنا مدينة حلب وقلعتها بسلم وضعت بها الحرب أوزارها، وبلغت بها الهمم أوطارها، وعوض صاحبها بها لم يخرج عن اليد لأنه مشترط عليه به الخدمة بنفسه وعسكره، ومختلط بالجملة، فهو واحد الأولياء في مغيبه ومحضره، وعوض عمادالدين عنها من بلاد الجزيرة سنجار ونصيبين والخابور والرقة وسروج، فهو صرف بالحقيقة أخذنا فيه الدينار، واعطينا الدراهم، ونزلنا عن المبيحات وأحرزنا العواصم، وسرنا أنها انجلت والكافر المحارب، والمسلم هو المسالم، واشترطنا على عماد الدين الخدمة والمظاهرة، والحضور في مواقف الغزو والمصابرة، فانتظم الشمل الذي كان نثيرا، واصبح المؤمن بأخيه كثيرا، وزال الشغب، وأخمد اللهب، واتصل السبب، واخذت للغزاة الأهب ووصلت إلى غاية همة الطلب، والألفة واقعة، والمصلحة جامعة، واشعة أنوار الاتفاق شائعة».

ومنها:«فتحنا مدينة حلب بسلم ماكشفت بحرمتها قناعا، وتسلمنا قلعتها التي ضمنت ان تسلم بعدها بمشيئة الله قلاعا، وعوض صاحبها من بلاد الجزيرة مااشترط عليه به الخدمة في الجهاد بالعدة الموفورة، فهي بيدنا بالحقيقة لأن مرادنا من البلاد رجالها، لاأموالها ، وشوكتها لازهرتها ومناظرتها للعدو لانضرتها، وان يعظم في العدو الكافر نكايتها، لاأن تحذق بالولي المسلم ولايتها، والأوامر بحلب نافذة، والرايات بأطراف قلعتها آخذة، وجاء أهل المدينة يستبشرون وقد بلغوا ماكانوا يؤملون، وأمنوا ما كانوا يحذرون، وعوض صاحبها ببلاد من الجزيرة على ان تكون العساكر مجتمعة، على الاعداء مرصدة للاستدعاء، فالبلاد بأيدينا لنا مغنمها، ولغيرنا مغرمها، وفي خدمتنا مالا نسمح به وهو عسكرنا، وفي يده مالا نضن به وهو درهمنا، شرطنا على عماد الدين النجدة في أوقاتها، والمظاهرة على العداة عند ملاقاتها، فلم يخرج منا بلدا الا الينا عاد عسكره، وانما استنبنا فيه من يحمل عنا مؤنته ويدبره، وتكون عساكره إلى

عساكرنا مضافة، ونتمثل قوله سبحانه وتعالى:(وقاتلوا المشركين كافة كما يقاتلونكم كافة)(٢١).

ومنها :« نشعر الامير بما منَّ الله به من فتح مدينة حلب التي هي مفتاح البلاد، وتسلم قلعتها التي هي أحد مارست به الارض من الأوتاد، فلله الحمد وأين يقع الحمد من هذه المنة، ونسأل الله الغاية المطلوبة بعد هذه الغاية وهي الجنة، وصدرت هذه البشرى والموارد قد أمضت الى مصادرها، والأحكام في مدينة حلب نافذة في باديها وحاضرها، وقلعتها قد اناف لواؤنا على انفها، وقبضت على عقبه بكفها واعتذرت من لقائه امس برشفها، ورأينا ان نتشاغل بما بورك لنا فيه من الجهاد، وان نوسع المجال فيما نضيق به تقلب الذين كفروا في البلاد».

قلت: ولأبي الحسن بن الساعاتي في مدح السلطان عند ارادة فتح حلب قصيدة منها:

مابعد لقياك للعافين من أمل
ملك الملوك وهذي دولة الدول

فانهض إلى حلب في كل سابقة
سروجها قلل تغني عن القلل

ما فتحها غير إقليد الممالك وال
داعي إليه جميع الخلق والملل

وما عصت منعة لكنه غضب
علام أهملتها إهمال مبتذل

غارت وحقك من جاراتها فشكت
ما باله بافتضاضي غير محتفل

وللقاضي السعيد بن سناء الملك من قصيدة:

بدولة الترك عزت دولة العرب
وبابن أيوب ذلت بيعة الصلب

إن العـــواصـــم كـــانـــت أي عـــاصـمـــة
لنفسهـــا بتعـــاليهـــا عـــن الـــرتـــب
جليســـة النجـــم في أعلى مـــــراتبـــه
وطـــا المـاغـــاب عنهـــا وهـــي لم تغـــب
ومـــــانعتـــــه كمعشـــــوق تمنعـــــه
أحلى مـــن الشهـــد وأشهـــى مـــن الضرب
فمـــــر عنهـــا بـــــلا غيـــظ ولاحنـــــق
وســـار عنهـــا بـــلا حقـــد ولاغضـــب
تطـــوي البـــــلاد وأهليهـــا كتـــائبـــة
طيـــا كما طـــوت الكتـــاب للكتـــب
أرض الجزيـــرة لم تظفـــر ممـــالكهـــا
بها لـــــك فطـــــن أو ســـــائس درب
ممـــالـــك لم يـــدبـــرهـــا مـــدبـــرهـــا
الا بـــــرأي خصي أو بعقـــــل صبـــــي
حتـــى أتـــاهـــا صـــلاح الـــديـــن فـــانصلحـــت
مـــن الفســـاد كما صحـــت مـــن الـــوصـــب
وقـــد حـــواهـــا وأعطـــى بعضهـــا هبـــة
فهـــو الـــــذي يهب الـــــدنيـــا ولم يهب
ومـــذ رأت صـــده عـــن زبعهـــا حلـــب
ووصلـــه لبـــــلاد الغير بـــالحلـــب
غـــارت عليـــه ومـــدت كـــف مفتقـــر
منهـــا إليـــه وأبـــدت وجـــه مكتئـــب
واستعطفتـــه فـــوافتهـــا عـــواطفـــه
وأكثـــب الصلـــح إذ نـــادتـــه عـــن كثـــب
وحـــل منهـــا بـــأفـــق غير منخفـــض
للصـــاعـــديـــن وبـــرج غير منقلـــب
فتـــح الفتـــوح بـــلا مين وصـــاحبـــه
ملـــك الملـــوك ومـــولاهـــا بـــلا كـــذب

قال أبن أبي طي: وكان كثير من الشعراء يحرضون السلطان على فتح حلب منهم أبو الفضل بن حميد الحلبي له من قصيدة:

يا ابن أيوب لا برحت مدى الـ ... ـدهر رفيع المكان والسلطان

حلب الشام نحو مرآك ولهى ... وله الصب ريع بالهجران

وقال ابن سعدان الحلبي من قصيدة:

دونك والحسناء أم القرى ... ونارها الأشهب والطود الأشم

واركب إلى العلياء كل صعب ... أبيت لعنا وخلاك كل ذم

وارم فكل الصيد في جوف القرى ... لا صارم السهم ولا نابي الحكم

مد إلى أخت السها(٢٢) زورة ... لا فرق يعقبها ولا ندم

فيا لها شهباء مشمخرة ... تطارح البرق وساحات الديم

إيه صلاح الدين شد أزرها ... واعزم عليها فالزمان قد عزم

ودونك المنعة من قبابها ... وبابها المغلق في وجه الأمم

قال: وفي آخر يوم السبت ثامن عشر صفر نشر سنجق السلطان الأصفر على سور قلعة حلب، وضربت له البشائر، وفي ذلك الوقت تخفى عماد الدين وخرج من القلعة ليلا الى المخيم، وأخذ في إخراج ماكان له بالقلعة من مال وسلاح وأثاث، وكان استناب الامير حسام الدين طمان في القلعة حتى توافى رسله بتسليم سنجار ونصيبين والخابور إلى نوابه، وأعطى السلطان طمان الرقة لوساطته في أمر عماد الدين، وكان

السلطان شرط انه مايريد من حلب الا الحجر فقط وأذن لعماد الدين في أخذ جميع مافي القلعة، ومايمكنه حمله، فلم يترك عماد الدين فيها شيئا، وباع في السوق كل مالم يتمكن من حمله، وأطلق له السلطان بغالا وجمالا وخيلا برسم حمل مايحتاج إلى حمله، وعمل له يوم الأحد تاسع عشر صفر دعوة عظيمة في الميدان الأخضر، وأحضرها جميع الأمراء ومقدمي حلب.

قال: وبينما السلطان على لذته بالدعوة والأخذ والإعطاء والانعام والحبا إذ حضر إليه من عرفه وفاة أخيه تاج الملوك بسبب الضربة التي أصابته على حلب، فلم يتغير لذلك، ولا اضطرب ولاانقطع عما كان عليه من البشاشة والفرح، وبذل الاحسان، وأمر بستر ذلك وتوعد عليه، إن ظهر، وكظم حزنه وأخفى رزيته، وصبر على مصيبته، ولم يزل على طلاقته وبشاشته إلى وقت العصر، وفي ذلك الوقت انفضت الدعوة، وتفرق الناس، فحينئذ قام رحمه الله واسترجع وبكى على أخيه، ثم أمر به فغسل وكفن وصلى عليه وأمر به فدفن بمقام ابراهيم صلى الله عليه وسلم بظاهر حلب، ثم حمله بعد ذلك الى دمشق ودفنه بها.

قال: وكان تاج الملوك شابا حسن الشباب مليح الأعطاف، عذب العبارة، حلو الفكاهة، مليح الرمي بالقوس والطعن بالرمح، وكان شجاعا باسلا مقداما على الأهوال وكان قد جمع إلى ذلك الكرم والتفنن في الأدب وله ديوان شعر حسن متوسط فمنه:

يا هذه وأماني النفس قربكم
يا ليتها بلغت منكم أمانيها
إن كانت العين مذ فارقتكم نظرت
إلى سواكم فخانتها أماقيها

قال: ولما انقضت تعزية السلطان بأخيه خلع على الناس في اليوم الرابع، وفرق في وجوه الحلبيين الأموال.

وفي سادس عشري صفر ورد أصحاب عماد الدين، وأحضروا اليه العلائم بتسليم سنجار، ونصيبين والخابور، ففي ذلك اليوم تسلم قلعة حلب وأنزل منها الأمير طمان وأصحابه، ولما سلمها إلى نواب السلطان ركب عماد الدين في وجوه أصحابه وأمرائه، وخرج إلى خدمة السلطان ظاهرا، وركب السلطان إلى لقائه فاجتمعا عند مشهد الدعاء الذي بظاهر حلب من جهة الشمال فتسالما، ولم يترجل أحد منهما لصاحبه، ثم جاء بعد عماد الدين ولده قطب الدين، فترجل للسلطان وترجل السلطان له واعتنقه، وعادا فركبا، وسار هو وابوه في خدمة السلطان إلى المخيم بالميدان الأخضر، فأجلس السلطان عماد الدين معه على طراحته، وقدم له تقدمة حسنة عشرين بقجة صفر فيها مائة ثوب من العتابي والأطلس والمعتق والممرس، وغير ذلك وعشرة جلود قندس، وخمس خلع خاص برسمه ورسم ولده، ومائة قباء ومائة كمة وحجرتين عربيتين بأداتها وبغلتين مسروجتين، وعشرة أكاديش، وخمس قطر بغال، وثلاث قطر جمال عربيات وقطار بخت، ولما فرغ السلطان من عرض الهدية قدم الطعام فلما أصاب منه عماد الدين نهض للركوب، وخرج السلطان معه، وركب لوداعه، وسار معه إلى قريب من بابلى، وودعه وعاد وسار عماد الدين إلى بلاده.

قال: في يوم الاثنين سابع عشري صفر ركب السلطان وصعد الى قلعة حلب، وكان صعوده إليها من باب الجبل، وسمع وهو صاعد إلى قلعة حلب يقرأ:(قل اللهم مالك الملك تؤتي الملك من تشاء)[٢٣]الآية، وقال: والله ماسررت بفتح مدينة كسروري بفتح هذه المدينة، والآن قد تبينت أنني أملك البلاد، وعلمت أن ملكي قد استقر وثبت، وقال: صعدت يوما مع نور الدين رحمه الله تعالى إلى هذه القلعة، فسمعته يقرأ:(قل اللهم مالك الملك) الآية.

قال: ولما بلغ السلطان إلى باب عماد الدين قرأ(وأورثكم أرضهم

وديارهم وأموالهم وأرضا لم تطؤوها)(٢٤) ثم صار إلى المقام فصلى ركعتين، ثم سجد فأطال السجود، ثم خرج ودار في جميع القلعة، ثم عاد إلى المخيم وأطلق المكوس والضرائب، وسامح بأموال عظيمة، وجلس للهناء بفتح حلب، وأنشده جماعة من الشعراء، منهم يوسف البزاعي له من قصيدة:

شرفت بسامي مجدك الشهباء
وتجللتها بهجة وضياء
ألقت إليك قيادتهاوبهاعلى
كل الملوك ترفع وإباء

ومنهم سعيد بن محمد الحريري له من قصيدة تقدم بعضها:

وصبحت شهباء العواصم مصلتا
قواضب عزم لايفل شهيرها
فأمطتك منها غاربا فيك راغبا
وعاد يسيرا في يديك عسيرها
وأوطأت منها أخمصيك تنوفة
يعز على الشعرى العبور عبورها
ورد إليها روح عدلك روحها
وكانت رميما لا يرجى نشورها

قال: وقال والدي أبو طي النجار من قصيدة:

حلب شامة الشام وقد زيد
ت جلالا بيوسف وجمالا
وهي أس الفخار من نال أعلا
ها تعالى فخامة وتغالا
ومحل العلاء من حل فيها
تاه كبرا وعزة وجلالا
من حواها تملكا ملك الأر
ض اقتسارا سهولة وجبالا

فـــــافترعهــــــامهنــــــأبمحـــــل
سمـــق الأنجـــم الـــوضـــاء وطـــالا (٢٥)

قال: وحدثني جماعـة من الحلبيين منهم الركن بن جهبـل العدل،قال: كان الفقيـه مجد الديـن بن جهبل، الشـافعي الحلبـي قد وقـع اليه تفسير القـرآن لأبي الحكـم المغـربي، فـوجـد فيه عنـد قـولـه تعـالى:(الم غلبـت الـروم)(٢٦) الآيـة إن أبا الحكـم قـال: إن الـروم يغلبون في رجـب سنـة ثلاث وثمانين وخمسمائة، ويفتح البيت المقـدس ويصير داراً للاسلام إلى آخر الأبد، واستدل على ذلـك بأشياء ذكرها في كتابـه، فلما فتح السلطان حلب كتـب إليه المجـد بن جهبل ورقـة يبشره بفتح البيـت المقدس على يديه، ويعين فيـه الزمان الذي يفتحـه فيه، وأعطى الورقـة للفقيه عيسى، فلما وقـف الفقيه عيسـى عليهـا لم يتجـاسر على عرضهـا على السلطـان، وحدث بما في الـورقة لمحيـي الدين بـن زكي الديـن القاضي الـدمشقي، وكان ابـن زكي الـدين واثقـا بعقل ابـن جهبل، وأنـه لايقدم على القـول حتى يحققه ويثق به، فعمل قصيدة مدح السلطان بها حين فتح حلب في صفر وقال فيها:

وفتحكـــــم حلبـــــا بـــــالسيـــــف في صفـــــر
قضـــى لكـــم بـــافتتـــاح القـــدس في رجـــب

ولما سمـع السلطان ذلـك تعجـب من مقـالتـه،ثـم حين فتح البيـت المقـدس خرج اليـه المجد بـن جهبل مهنئـا له بفتحـه، وحدثـه حديـث الورقة، فتعجب السلطـان من قوله، وقال: قد سبق إلى ذلـك محيي الدين ابن ز كي الدين، غير اني أجعل لك حظـا لايزاحمك فيه أحد، ثم جمع له من في العسكـر من الفقهاء وأهـل الدين، ثـم أدخله إلى القدس بعـدما خرج الفـرنج منه وأمـره ان يذكر درسا مـن الفقه على الصخرة، فـدخل وذكر درسا هناك وحظي بما لم يحظ به غيره.

قلت: وسيأتي في فتح بيت المقدس في فصل المنبر ذكر ماقاله أبو الحكم في تفسيره، وغيره مما يناسبه، وبالله التوفيق.

وقال العماد: ثم فتح حلب في صفر من هذه السنة ، ومدح القاضي محيي الدين بن الزكي السلطان بأبيات منها:

وفتحكم حلبا بالسيف في صفر
مبشر بفتوح القدس في رجب

فوافق فتح القدس كما ذكره فكأنه من الغيب ابتكره ، قال: ويشبه هذا أنني في سنة اثنتين وسبعين طلبت من السلطان جارية من سبي الاسطول المنصور في أبيات وهي:

يؤمل المملوك مملوكة
تبدل الوحشة بالأنس

تخرجه من ليل وسواسه
بطلعة تشرق كالشمس

فوحدة العزبة قد حركت
سواكن البلبال والمس

فلا تدع يهدم شيطانه
ما أحكم التقوى من الأس

فوقع اليوم بمطلوبه
مما سبى الاسطول بالأمس

لازلت وهابا لما حازه
سيفك من حور ومن لعس

وإنني آمل من بعدها
كرائم السبي من القدس

قال: فجاء الأمر على وفق الأمل، فوهب ماأملت عام القدس

-٨٤٠٤-

فصل

فيما جرى بعد فتح حلب

قال ابن أبي طي: كاتب الوالي بحارم الفرنج واستدعاهم إليه مطمعا لهم في الاستيلاء على حارم، بشرط ان يعصموه من الملك الناصر، وعلم الأجناد بقلعة حارم بما عزم عليه فتآمروا بينهم في القبض عليه، وكان هذا الوالي ينزل من القلعة ويصعد إليها في أموره ولذاته، فاتفق أنه نزل منها لبعض شأنه فوثب أهل القلعة لما خرج وأغلقوا بابها، ونادوا بشعار السلطان، وكان السلطان راسل والي حارم وبذل له في تسليم حارم إليه أشياء كثيرة منها ولاية بصرى وضيعة في دمشق يملكه إياها ودار العقيقي التي كان نجم الدين أيوب والد السلطان يسكنها، وحمام العقيقي بدمشق، وثلاثون ألف دينار عينا، ولأخيه عشرة آلاف دينار، فاشتط في السوم وتغالى في العوض، فأنفذ إليه السلطان وتوعده وتهدده، فكاتب الفرنج يطلب نجدتهم، وقيل إن نقيب القلعة أراد أن تنفق سوقه عند السلطان ويتحصل منه شيئا، فكاتب السلطان بالعمل على الوالي، فكتب إليه السلطان بتتميم ذلك ووعده بأشياء سكن إليها، وجرى الأمر على ماذكرناه من إغلاق الباب في وجه الوالي، وقيل إن النقيب وأهل القلعة لما أغلقوا الباب في وجهه شنعوا عليه بمكاتبة الفرنج، ولم يكن فعل ذلك إقامة لعذرهم، وقذفوه بالحجارة، ونادوا بشعار السلطان، ولما اتصل بالسلطان هذه الأحوال أنفذ تقي الدين إلى حارم ليتسلمها، فامتنع النقيب وأهل القلعة من تسليمها إليه، فرحل السلطان إليها بنفسه جريدة، فلما أشرف عليها نزل إليه النقيب ووجوه القلعيين وسلموها إليه في تاسع عشر صفر، ولما حضروا عند السلطان حدثوه بكيفية الحال، وكان بدر الدين حسن ابن الداية حاضرا، فقال للسلطان ياَمولانا لاتلتفت إلى هؤلاء فإنهم آذوا هذا الوالي وكذبوا عليه حتى فوتوه ماكان السلطان وعده به، وماقلت هذه إلا عن تجربة، فإنني لما كنت

-٨٤٠٥-

متوليا لهذه القلعة جرى علي من كذبهم في حقي وتحزصهم علي أمور كدت بها أهلك مع نور الدين، وهم كانوا سبب خروجي من هذه القلعة، وأنا أرى أن السلطان يقرهم في القلعة على هذه التجربة، فضحك السلطان وأمر لهم بما كان وعدهم به وأفضل عليهم، وولى في القلعة غيرهم، وقال لابن الداية: إن بين أيدينا أمكنة نريد أخذها، ومتى لم نفي بما نعد، ونجزل العطاء لم يثق بنا أحد، وبات السلطان بقلعة حارم ليلتين، وعاد إلى حلب في ثالث ربيع الأول، فرتبها وقرر ولده الظاهر سلطانا بها، وقرر له في كل شهر أربعة آلاف درهم وعشرين كمه وقباء ومايحتاج إليه من الطعام وغيره، وجعل معه واليا سيف الدين ازكش الأسدي، وولى حسام الدين تميرك الخليفتي شحنة حلب، وولى الديوان ناصح الدين اسماعيل بن العميد الدمشقي، ودار الضرب فضرب الدرهم الناصري الذي سكته خاتم سليمان، ونقل الخطابة من بني العديم إلى أبي البركات بن الخطيب هاشم بسفارة القاضي الفاضل، وولى القضاء لمحيي الدين بن زكي الدين الدمشقي، فاستناب فيه ابن عمته أبا البيان نبأ بن البانياسي، وولى الجامع والوقوف أبي علي بن العجمي.

وقال العماد: كان في قلعة حارم مملوك من مماليك نور الدين، فعصى وتأبى عن تسليمها فأخرجه منها أهلها لما أتهموه بمكاتبة الفرنج، وأرسلوا إلى السلطان فتسلمها، ودبر أمرها وأحكمها.

وقال ابن شداد: أنفذ إلى حارم من يتسلمها، ودافعهم الوالي، فأنفذ الأحناد الذين بها يستحلفونه، فوصل خبرهم اليه يوم الثلاثاء ثامن عشري صفر فحلف لهم، وسار من وقته إلى حارم فوصلها تاسع عشري صفر فتسلمها، وبات بها ليلتين وقرر قواعدها وولى فيها ابراهيم بن شروه، وعاد إلى حلب، فدخلها ثالث ربيع الأول، ثم أعطى العساكر دستورا، فسار كل منهم إلى بلده وأقام يقرر قواعد حلب ويدبر أمورها.

قال العماد: ورجفت أنطاكية بعد ذلك رعبا فأرسل صاحبها جماعة من أسارى المسلمين، وانقاد وسارع إلى أمان السلطان، وولى السلطان القضاء بحلب محيي الدين بن الزكي فاستناب فيها زين الدين نبأ بن الفضل بن سليمان المعروف بابن البانياسي، وكشف السلطان عن حلب المظالم، وأزال المكوس، وولى قلعتها سيف الدين يازكوج، وولى الديوان ناصح الدين اسماعيل بن العميد، وجعل حلب باسم ولده الملك الظاهر غازي، وكان استصحبه من مصر عند وصوله الى الشام، وأقر عين تاب على صاحبها وأعطى تل خالد وتل باشر بدر الدين دلدرم بن بهاء الدولة بن ياروق، وأعطى قلعة عزاز علم الدين سليمان بن جندر.

قلت: وفي توقيع اسقاط المكوس بحلب من كلام الفاضل عن السلطان:« وانتهى إلينا أن بمدينة حلب رسوما استمرت الأيدي على تناولها، والألسنة على تداولها، وفيها بالرعاة إرفاق، وبالرعايا إضرار، ولها مقدار إلا عند من كل شيء عنده بمقدار، منها ماهو على الأثواب المجلوبة، ومنها ماهو على الدواب المركوبة، ومنها ماهو في المعايش المطلوبة، وقد رأينا بنعمة الله أن نبطلها، ونضعها ونعطلها، وندعها ونضرب عنها في أيامنا، ونضرب عليها بأقلامنا، ونسلك ماهو أهدى سبيلا، ونقول ماهو أقوم قيلا، ونكره ماكره الله، ونحظر ماحظره الله، ونتأجره سبحانه فإنه من ترك شيئا لله عوضه الله أمثاله، وأربح متجره في الرعية اليوم بما يوضع عنهم من أصرها، ولنا غدا بمشيئة الله مايرفع من أجرها، فعلى كافة أوليائنا وولاتنا وأمرائنا والمتصرفين من قبلنا أن لايهووا إليها يدا، ولايردوا ولو بلغ الظمأ منهم موردا، ولايثقلوا بها ميزان المال، فيخف ميزان الأعمال ولايرغبوا في كثير الحرام فإن الله يغني عنه بقليل الحلال، وليعلم أن ذلك من الأمر المحكم، والقضاء المبرم، والعزم المتمم».

وفي منشور أهل الرقة بمثل ذلك:« إن أشقى الأمراء من سمن كيسه،

وأهـزل الخلق، وأبعـدهـم من الحق مـن أخذ البـاطـل من النـاس وسماه الحق، ومـن ترك لله شيئـا عـوضه، ومـن أقـرض الله قـرضـا حسنا وفـاه ماأقـرضه، ولما انتهى أمرنـا الى فتح الرقـة أشرفنا منها على سحت يـؤكل، وظلم ممـا أمر اللـه به أن يقطع، وأمـر الظالمون أن يـوصل، فـأوجبنا على أنفسنا وعلى كافـة الولاة من قبلنا أن يضعـوا هذه الرسوم بـأسرها، ويلقوا الرعايـا من بشائر أيام ملكنـا بأسرها، ونعتق بلـد الرقة من رقهـا، ونثبت احكام المعدلـة فيها بمحو هذه الرسـوم ومحقها، وقد أمرنا بـأن تسد هذه الأبـواب وتعطـل، وتنسـخ هـذه الأسبـاب وتبطـل، وتستمطـر سحـائب الخصـب بالعـدل وتستنزل، ويعفـى خبر هذه الضرائب مـن الدواويـن، ويسامـح بها جميعها جميـع الأغنياء والمساكين، مسـامحة ماضيـة الأحكام، مستمرة الأيـام، دائمة الخلـود خالـدة الدوام، تـامة البـلاغ بالغـة التمام، موصـولة على الأحقـاب، مسنونـة في الأعقاب، ملعـونا مـن يطمح إليهـا ناظره، وتتناولها يده، أو يمسك عنها اليوم على طمع لايوصله إليه غده».

قال العماد: وورد على السلطان وهو نازل على حلـب بشارتان احداهما أن الاسطول المصري غزا في خـامس عشر المحرم، ورجع بعـد تسعة أيام وقد ظفر ببطسة مقلعة من الشام فيهـا ثلاثمائة وخمسة وسبعون علجا من خيـالة وتجار، والثـانيـة أن فرنـج الـداروم نهضـوا فنذر بهم والي الشرقيـة، فخرج إليهم فـالتقوا على ماء يعرف بـالعسيلة، فاستولى عليهـم المسلمون بعد ان كـادوا يهلكون عطشا، لأن الفـرنج كانـوا قد ملكوا الماء فـأرواهم الله بماءالسماء.

قلت: وكتب الفاضل عـن السلطان الى بغداد بهاتين البشارتين وبفتح حلب وحـارم كتابا شافيـا أوله:« أدام الله أيـام الديوان العزيـز ولازالت منازل مملكتـه منازل التقـديس والتطهير، والـوقوف بـأقصى المطـارح من أبوابـه موجبـا للتقديـم والتصديـر، والأمة مجمـوعة الشمـل بإمـامته جمع السـلامـة لاجمع التكسير، الخادم ينهـي أن الـذي يفتتحـه مـن البـلاد

ويتسلمه إما بسكـون التغمد أو بحركة مافي الأغماد، إنما يعـده طريقا إلى الاستنفار إلى بلاد الكفار، ويحسبـه جناحا يمكنه به المطار إلى مـا يلابسه الكفـار من الأقطـار، وعلى هـذه المقـدمة فهـو يستفتـح بـذكر ظفـريـن للاسلام: بـري وبحري، شامي ومصري، احدهما وهو البحـري عود احد الاسطولين اللذيـن اغزاهما اخو الخادم ابو بكر بمصر، وكانـت مدة غيبته مـن حين خروجـه إلى وقت عـوده إلى دميـاط تسعة أيـام، فظفر ببطسـة مقلعـة من الشـام فيها ثـلاثمائة وخمسة وسبعـون علجا منهـم خيالة ذوو شكـة وازعة، وتجار اولـو ثـروة واسعة، والثـاني وهـو البري نهوض فرنـج الـداروم إلى أطراف بعيدة فنـذر بهم والي الشرقيـة، فـركب اليهـم الليـل فرسا، كما ركبوه جملا، وسروا ثقيلا، وسروا رملا فوافى الفريقان إلى مايعرف بالعسيلـة، سبق الفـرنج إلى مـوردته والسـابق إلى الماء محاصر للمسبـوق، ووردوا أزرقـه فتعصـب أرزقهم فظـن المؤمـن أن الكـافر مـرزوق، واشتـد بالمسلمين العطش، ثم ثـابوا إلى الفرنج بقوة انجاد السماء بـالماء فلم ينج من الفـرنج الا رجـلان احدهما الدليـل، والثاني الـذليل، وعـاد المسلمون برؤوس عـدوهـم في رؤوس القنا وقـد اجتنوا ثمراتها، بـأرواحهـم في رؤوس الظبا وقد أطفأوا بمائها جمراتها».

ثم قـال: « ويثني الخادم بـذكر مـاامتثله مـن الأوامر العليـة في إغماد سيف مجرده مـن استدعى تجرده، ومـورده من عـرض له وريده» ثـم ذكر تسلمه حلب« وأنه لايؤثر إلا أن تكـون كلمة الله هي العليا لاغير، وثغور المسلمين لها الـرعـايـة ولاضير، لانختــار إلا أن تغـدو جيـوش المسلمين متحاشدة على عـدوها، لامتحاشدة بعتوها ولـو أن أمور الحرب تصلحها الشركة لما عـز عليه أن يكون كثير المشـاركين، ولاأساءه أن تكون الـدنيا كثيرة المالكين، وإنما أمـور الحرب لاتحتمل في التـدبير إلا الـوحدة، فـإذا صح التـدبير لم يحتمل في اللقاء إلا العدة، فعـوض عماد الدين مـن بلاد الجزيرة سنجار وخابورها ونصيبين والرقة وسروج، على أن المظالم تموت فلا ينشر مقبورها، والعسـاكر تنشر راية غزوهـا فلا يطوى منشورهـا، وأجاب

الخادم عماد الدين إلى ماسأل فيه من ان يصالح المواصلة مهما استقاموا لعماد الدين لأنه لم يثق بهم وإن كان لهم أخا، ولم يطمئن إلى مجاورتهم إلى أن يضرب بينه وبينهم من عنايته برزخا، فليلح الآن عذرا لأجنبي إذا لم يثق، ولتكن هذه نصيحة من عوتب في شكره بحسن الظن فلم يفق، ومن شرطه على المواصلة المعونة بعسكرهم في غزواته، والخروج من المظالم فما زاد على ان قال: سالموا مسلما، وحاربوا كافرا، واسكنوا لتكون الرعية ساكنة، وأظهروا ليكون حزب الله ظاهرا، وهذه المقاصد الثلاثة: الجهاد في سبيل الله والكف عن مظالم عباد الله، والطاعة لخليفة الله هي مراد الخادم من البلاد اذا فتحها، ومغنمه من الدنيا إذا منحها، والله العالم أنه لايقاتل لعيش ألين من عيش، ولالغضب يملأ العيان من نزق ولاطيش، ولايريد إلا هذه الأمور التي قد توسم أنها تلزم، ولاينوي إلا هذه النية التي هي خير مايسطر في الصحيفة ويرقم ، وكتب الخادم هذه الخدمة بعد أن بات بحلب ليلة، وخرج منها الى حارم، وكانت استحفظت مملوكا لايملكه دين ولاعقل غرّاً ما هذبته نفس ولاأهل، فاعتقد ان يسلمها إلى صاحب أنطاكية، يسر الله فتحها،اعتقادا صرح بفعله، وشهره بكتبه ورسله، وواطأ على ذلك نفرا من رجال يعرفون بالشمسية، لايعرفون خالقا إلا من عرفوه رازقا، ولايسجدون إلا لمن يرونه في نهر النهار سابحا، وفي بحر الظلام غارقا، فشعر به من فيها من الأجناد المسلمين فشردوه ومن تابعه على فعله، وظفر به المملوك عمر بن أخيه في ضواحي البلد فأخذه وأرسله إلى قلعة حلب، وسار الخادم إليها فتسلمها ورتب بها حامية ورابطة، ولم يعمل على أنها للعمل طرف، بل إنها للعقد واسطة، والخادم كما طالع بماضيه الذي حازه الأمس المذكور، يطالع بمستقبله الذي ينجزه بمشيئة الله الغد المشكور، فهو متأهب للخروج نحو الكفار لاتسأم رايته النصب، ولاجهة سيره الرفع ولاجيشه الجر، ولايصغي إلى قول خاطر الراحة المفند: لاتنفروا في الحر، ولايجيب دعوة الفراش الممهد، ولايعرج على الظل الممدد، ولادمية القصر المشيد،

ولايعطف على ريحانـه فؤاد يفارقـه حولا ويلقـاه يوما، ولايقيـم على زهرة ولـد استهـل فمتـى ذكـره الفطـر على راحتـه قـال:(إني نـذرت للـرحمن صوما)(٢٧).

ومـن كتـاب آخـر انفذه مـن نصيبين سنـة ثمان وسبعين إلى بغـداد:« سبيل الخادم أن يبني ولايهدم، ويـوفر جانبه ولايثلـم، وان يفرق بينه وبين من يمسكـون أعنة الجياد المسومـة ولايطلقونها،ويكنزون الذهـب والفضة ولاينفقونها،فقد علـم ان الخادم بيوت أمواله في بيوت رجالـه، وأن مواطن نزولـه في مواقف نـزاله، ومضارب خيامـه أكنة ظلالـه، وأنه لايذخـر من الدنيـا الا شكته، ولاينال مـن العيش الا مسكتـه، وعدو الاسلام شـديد على الاسلام كلبه، مضطرم على أهله لهبـه، زجل اذا أصغت اسماع التأمل لجبه، ولو أن أحـد من يدعي الملك ميراثـا، ويعد البلاد له تـراثا دفع إلى مدافعـه هذا العدو الكـافر، وإلى منافرة هـذا الفريق النـافر لعرفتـه الأيام ماهـو جاهله، ولقلدتـه الحرب ماهوقـاتله، ولحملته الأحوال مـاتجوز تحته محابله».

وفي كتـاب آخـر :« واذا أولاه أمير المؤمنين ثغـرا لم يبـت في وسطـه وأصبح في طـرفه، واذا سـوغه بلـدا هجر في ظـل خيمه، ولم يقـم في ظل غـرفه، واذا بـات بـات بسيف لـه ضجيعـا، وإذا أصبح أصبـح ومعترك القتـال له ربيعـا، لاكـالـذين يغبـون أبـواب الخلافـة أغباب الاستبـداد، ولايـؤامـرونها في تصرفـاتهم مـؤامرة الاستعبـاد، وكـأن الـدنيـا لهم اقطـاع لاايـداع وكأن الامـارة لهم تخليـد لاتقليد، وكـأن السـلاح عنـدهم زينـة لحامله ولابسـه، وكأن مال الخلـق عندهم وديعة فـلا عذر عندهـم لمانعه ولاحابسـه، وكـأنهم في البيـوت دمـى مصـورة في لـزوم جـدرهـا، لافي مستحسنات صورها، راضين من الديـن بالعروة اللقبية، ومن أعلى كلمته بها يسمعـونه على الـدرجات الخشبيـة، ومن جهـاد الخارجين على الدولـة باستحسان الأخبـار المهلبية، ومن قتال الكفار بـأنه فرض كفايـة تقوم به

طائفـة فيسقط عن الأخـرى في أخراها، ومـن طاعـةالخلافة بذكـر اسمها والخروج عـن سيماها، فـلا يقنعون بـأنهم لايجاهـدون، إلى أن يمنعوا مـن يجاهد عنهم ويثاغر، وبأنهم لايسـاعدون المسلمين إلى ان يساعدوا عليهم عدوهم الكافـر، فقد توالوا الشيطان تليدا وطريفـا، ووطئوا الاسلام وأهله وطئا عنيفا، فإذا جاء وعد الآخـرة جاء الله بهم في زمرة الشيطان لفيفا».

وقـال في الكتاب:« إن المواصلـة مافـزعـوا إلى دار الخلافة إلا بعـد أن فـرعوا والا فطـالما طمـع أولهم كما طمعوا، وقـديما دعـوا إلى طاعتهـا فما سمعوا، وسمعـوا فما اتبعوا، حتـى أن الأولين منهم علمـوا أولياء الـدولة من الأتراك ضـد ماجبلت أخلاقهم عليـه من عقوقها، وسنوا لهم اضاعة حقوق اللـه باضـاعة حقـوقها، فـأين كـان التعلق بـالدار العـزيزة وهـم يحاصرون دار الاسـلام بـأحـزابهم، ويـرامـون التـاج الشريـف بنشـابهم ويمدون محاصرتها بالأسلحـة والمنجنيقات،والازواد والإقامات، ويصـافون الخلفاء مصافة المواقف، ويكاشفـونهم مكاشفة المخالف، ويعززون دزدار تكريـت وهي من أهون بـلاد الله بجور الجوار، ويجعلونها سجنـا لمماليك الخلافة ذوي الاقـدار، ولو تحرك اليوم متحـرك لكانوا لـه كنانة، ولكـانت بلادهم لـه خزانة، ويرجـو الخادم بالموصل ان يكون الموصـل الى القدس وسـواحله، ومستقـر الكفـر من القسطنطينيـة على بعـد مـراحله، وبـلاد الكـرج، فلو أن لهم مـن الاسلام جـارا لاستباح الـدار، وبلاد أولاد عبـد المؤمن، فلـو أن لها ماء سيف لاطفاء مـافيها من النار إلى أن تعلـو كلمة اللـه العليا، وتملأ الـولايـة العباسيـة الـدنيا، وتعـود الكنـائس مساجـد، والمذابح المتعبـدة معابـد، والصليب المرفـوع حطبا في المواقـد، والناقـوس الصاهـل اخرس اللهجة في المشـاهد، ويضيـف الى الديوان بمشيئـة الله تعـالى مايجاور اكنـافه، ويمـد أطرافـه مثـل: تكريـت ودقوقـا والبوازيـج وخـوزستان وكيـش وعمان، والذي وقـع اعظم مـن الذي يتـوقع، والـذي طلع اكثر من الذي يتطلع، والذي رؤي أمس أكثر من الذي يسمع».

قلت: يعني أن مافتحه من البلاد أعظم مـن هذه التي يرجوها، وأشار بفعل المواصلـة إلى ماسبق مـن فعل زنكي في حصـار بغداد، ومساعـدته للسلجوقية على العداة في ذلك الزمان، والله أعلم.

وفي آخر كتاب فاضلي إلى حطان بن منقذ باليمن عن السلطان:« فتح الله علينـا ممالـك وأضافهـا، وبلاد آمنها بنـا مما أخـافها، وبلغنـا غرائب صنـع لايبلغ أحـد أوصـافها، منهـا بـلاد الشام بـأسرهـا، ومملكة حلـب بجملتها، والمدينة بقلعتها، وبلاد الجزيرة بدجلتها، فمنها ماأعيد على من اشترط عليه استخدام عسكـره في بيكارنا، ومنها ما استمـر في اليد وولاته من أوليـائنا وأنصـارنا، ولما لم يبق في البـلاد الاسلامية إلا مـاهو في يـدنا أويـد مطيـع لنا، كـان مـن شكـر هـذه النعمة أن نصرف القـوة، ونثنـي العـزمـة، ونحـد الشـوكـة، ونلبـس الشكـة للفـرنـج الملاعين، فننـازلهم ونقارعهـم، ونخاصمهـم إلى الله وننـازعهم، فنطهـر الارض المقدسـة من رجسهم بـدمائهـم إلى أن ترق السيـوف للصخرة الشريفـة لما مر بها مـن قسوة كفـرهم واعتـدائهم، فنحن نـرجو أن نكون عين الطـائفة مـن الأمة التي أخبر نبينا صلـوات الله عليه أنها لاتزال على الحق ظـاهرة، وبثواب الله وعـدوه ظافـره، والله تعالى يعيننـا على مايعنينـا، ويلهمنا الاستجـابة لدعوته إلى مايحيينا.»

-٨٤١٣-

فصل

في رجوع السلطان إلى دمشق وخروجه منها للغزاة بمخاضة الأردن

رحل السلطان من حلب فمر على حماة، ثم حمص، ثم بعلبك، ثم دمشق.

قال القاضي ابن شداد: لم يقم السلطان في حلب إلا إلى يوم السبت الثاني والعشرين من ربيع الآخر، وأنشأ عزما على الغزاة، فخرج في ذلك اليوم إلى الوضيحي مبرزا نحو دمشق، واستنهض العساكر فخرجوا يتبعونه، ثم رحل في الرابع والعشرين منه إلى حماة، فوصلها، ثم رحل في بقية يومه، ولم يزل يواصل بين المنازل حتى دخل دمشق في ثالث جمادى الأولى فأقام بها متأهبا إلى السابع والعشرين منه، ثم برز في ذلك اليوم ونزل على جسر الخشب وتبعته العساكر مبرزة وأقام به تسعة أيام، ثم رحل في ثامن جمادى الآخرة حتى أتى الفوار وتعبى فيه للحرب، وسار حتى نزل القصير، فبات به وأصبح على المخاض، وعبر وسار حتى أتى بيسان فوجد أهلها قد نزحوا عنها وتركوا ماكان من ثقيل الاقمشة والغلال والامتعة بها، فنهبها العسكر، وغنموا واحرقوا مالم يمكن اخذه، وسار حتى أتى الجالوت وهي قرية عامرة وعندها عين جارية،فخيم بها وكان قد قدَّم عز الدين جرديك، وجماعة من المماليك النورية، وجاولي مملوك أسد الدين حتى تكشفوا خبر الفرنج، فاتفق أنهم صادفوا عسكر الكرك والشوبك سائرين نجدة للفرنج، فوقع أصحابنا عليهم، وقتلوا

منهـم مقتلة عظيمـة، وأسروا منهم زهـاء مـائة نفر، وعـادوا ولم يفقد مـن المسلمين سوى شخص واحد يدعى بهرام الشـاووش، فوصل إليه في بقية يوم الكسرة الـواقعة، وهـو العاشر مـن جمادى الآخرة، وفي جـادي عشره وصل الخبر إلى السلطان أن الفـرنج قد اجتمعوا في صفـورية، ورحلوا الى الفولـة وهي قرية معـروفة، وكان غـرضه المصاف، فلما سمع ذلـك تعبى للقتال، وسـار للقاء العـدو فالتقوا وجـرى قتال عظيـم وقتل مـن العدو جماعـة، وجـرح جماعـة وهـم ينضم بعضهـم الى بعـض يحمـي راجلهـم فارسهم، ولم يخرجوا للمصـاف، ولم يزالوا سائرين حتى أتـوا العين فنزلوا عليهـا، ونزل السلطـان حولهم والقتـال والجرخ يعمل فيهـم ليخرجـوا الى المصـاف، وهـم لايخرجـون لخوفهـم من المسلمين فـإنهم كـانـوا في كثـرة عظيمـة، فرأى السلطـان الانتزاح عنهـم لعلهم يـرحلون فيضرب معهـم مصاف، فـرحل نحو الطور سـابع عشر جمادى الآخرة، فنـزل تحت الجبل مترقبا رحيلهم ليأخـذ منهم فرصة فأصبح الفـرنج راجعين، وعلى أعقابهم ناكصين، فرحل رحمه اللـه نحوهم وجرى من رمي النشـاب واستنهاضهم للمصاف أمـور عظيمة، فلم يخرجـوا ولم يزل السلطـان حولهم حتى نـزلوا الفولـة راجعين الى بلادهم، وعـاد السلطان منصـورا وقد نال منهـم قتلا وأسرا، وخرب عفر بلا وبيسان وزرعين وقرى عـديدة فنزل الفوار وأعطى الناس دستورا، فسار مـن آثر المسير، وأتى هو دمشق يوم الخميـس الرابع والعشرين من جمادى الآخرة.

قال: فانظـر إلى هذه الهمة التي لم يشغلها عن الغـزاة أخذ حلب، ولا الظفر بها بـل كان غرضـه رحمه الله عليه الاستعـانة بالبـلاد على الجهاد، والله يحسن جزاءه في الآخرة، كما وفقه للأعمال المرضية في الدنيا.

وقـال العماد: خرج السلطـان إلى الغزو، ورابـط العدو بعين الجالـوت، وعبر المخـاضة الحسينيـة تـاسع جمادى الآخـرة، فـوصـل إلى بيسان وقـد أخلاهـا أهلها، فـأطلق الناس فيهـا النيران ونهبوا مافيهـا، وكذلـك فعلوا

بأبـراج وقلاع غيرهـا، وصادفـت مقدمـة العساكـر خيلا ورجـلا للفرنـج عابرين من نابلس ومقدمه ابن هنفري فقتل منهم وأسر، وتوقل الباقون في الجبال، ووصـل الخبر بأن الفرنج قـد أقبلوا في ألف وخمسائة رمـح، ومثله تـركبلي وخمسـة عشر ألـف راجـل، فأتـاهـم المسلمـون وذلـك على عين الجالوت، فـأخذهم الرعـب وخاموا عـن الإقدام عليهم فخندقـوا حولهم وأسنـدوا ظهـورهـم إلى الجبـل، وأقـامـوا كـذلـك خمسـة أيـام، فلما رأى المسلمـون منهـم ذلـك رجعـوا عنهـم، فتنفـس خنـاقهـم، ونكصـوا على أعقابهم إلى الناصرة، وعـاد المسلمون بالغنائم والأسـارى لم يخلص العدو منها شيئا وذلك يوم الخميس سـادس عشر جمادى الآخرة، وقد كانوا مدة مقامهم يتخطفهم المسلمـون من كل جانب، ويرمـونهم بالنبل، وينتظرون أن يحملوا أولا كما هو عادتهم فما فعلوا.

ومن كتـاب فاضلي عن السلطـان إلى بغداد :« لما كـان بتاريخ الثـامن من جمادى الأولى سار الخادم مـن أدنى المنازل من بـلاد الاسلام إلى بلاد الكفـر وقد تكـاملت جنـود الاسلام، وتعبـت ميامنـه ومياسره، وأخـذت أهبه، وشحذت قضبـه وباعوا الله مـا اشتراه، ومثل لأعينهم ثوابـه فكأنها تـراه، وسـاروا تحت ليـل عجاج ستر السـائر تحتـه سراه، وأصبـح الخادم وايـاهـم بعين الله في سبيلـه على مـاء الأردن، وهـو النهر الفـاصـل بين الإسلام والكفر، والمخاضة المضروب منهـا بسور على ذلك القطر، فخاض ذلك البحـر، وذلك النهر، وأمـدته نطف الحديـد فإذا الماء يرمـي بالشرر، ويقذف بـالجمر، وذلك يـوم الخميس ثاني يـوم المسير، وهو تاسـع الشهر، ولما جـاز المخاضـة أخـذ البلاد ضرب المخـاض، وزلـزلـت أرضها فهـي بالقوم تـرض وللغنيمة تراض، وأخذت رجال الاسـلام تنقص الأرض من أطرافهـا، وتقلع قلاع الجبـال وتطير رؤوسها من أكنـافها، فإذا البـلاد قد انهزم أهلهـا فألحقهـا المسلمـون مساكنهـا في الهزيمـة، وعـولوا فيهـا على سيوف المعـاول فإذا هـي راحلة وكأنها مقيمـة، وهذه البـلاد مدن مـاكان عزم قبل منهـا مدنيا، وعمارات ماكان أمـل اليها مفضيا، بل طـال ماكان

عنها مغضبا مثل بيسان وعفر بلا وزرعين وجينين، فكلها بلاد مشاهير لها قرى مغلة، وبساتين مظلة، وأنهار مقله، وقلاع مطلة، وأسوار قد ضربت على جهاتها، وأحاطت بجنباتها، واتخذتها المدن سياجا على قصباتها فغنم المسلمون مافيها من أقوات مختزنة، وشفوا منها حزازات القلوب المضطغنة، وأحرقوا أوعية كفرها بالنار، وعذبوها عذاب أهلها من الكفار، وقتلوها وكأن الضرام كان لها دما، وكتبوا عليها الخراب، وكأن السيف كان فيها قلما، فأجلوا عن حماها حمما، وتساقطت جدرها فكأنما أسارت فيها النوى لمما، ولما كان يوم السبت الحادي عشر ورد الخبر بأن عسكر الكافرين قد ركبَ من مكان مجتمعه، وزحف بلابسه ومدرعه، فركب الخادم وسوى المؤمنين في مواقف القتال، ومنازل النزال، فمن متسرع يطوف عليهم بصفاح ليطاف عليه بصحاف، ومن متثبت يمشي إلى الموت مشي العروس ساعة الزفاف، وهنالك منظر ود المؤمنون لو أن أميرهم له ناظر كما هو به آمر، ولاغرو أن يصفه الخادم ليسر المخدوم، لاليوصف الخادم، ومن وصف ضربة السيف فإنما وصف الضارب، ولم يصف الصارم، ونزل العدو إلى الأرض منحطا عن سرجه، ومنحازا عن فجه وسالكا نهجا غير نهجه، وأحدق به راجله وهوزهاء عشرين ألف راجل، وركز صليب صلبوته فاستوى في العجز المحمول والحامل، ونزل محصورا، وخندق فكأنما أصبح الكافر في حفر ذلك الخندق مقبورا، وأقام بإزائه خمسة أيام تماسيه الوقائع وتصابحه، وتماشيه الروائع وتصافحه، ويفزع فيه إلى الحفير ويتكرر إليه في اليوم الواحد النفير، ويبعث اليه السهم وهو في الحرب السفير، فيقبل تحية الضرب مترددة ولايردها، وتتبسم إليه صفحة النصل متوددة فلا يودها، ويجتهد في استخراجه وقد رأى العزائم، ولم يخرج لدعوتها، والمكارم ولم يرحل لبغيتها».

ومن كتاب آخر إلى وزير بغداد: « أثاروا على يوم الكفر ليلة عجاج وجعلت ليل من وراءهم من الاسلام سكنا، وصبروا وصابروا فكأنما

كان السيف لهم أليفا، وكان المعترك لهم وطنا، وأخذت في البلاد النار مأخذها، ونفذت فيها الغير منافذها، وثلت عروشها، وتلت غروسها، وجليت في مصبغات النيران عروسها، وأصبحت تناجي العيون ثواكلها، وتصف النوازل منازلها دمنا على الأطلال مطلولةوصرعى بسيوف البلاء مقتولة، وجاء العدو فأحدقت به الأبطال، واستمدوا مغاني الشكوى لتبوح ألسنتهم إذا خلوا إلى شياطينهم، فأخلدوا إلى الأرض نازلين، وقعدوا عن الحملة ناكلين، واتقى فارسهم براجله، وراجهم بنابله، ولاذ سيفهم بجفنه، ولاخير في حامله، ولاذ جفنه بأطرافه خوفا من كحله بسهم قاتله، وأقاموا محصورين لايستطيعون وردا ولاصدرا، ولايجدون متقدما ولامتأخرا، فما كان للكفر فئة ينصرونه من دون الله، وماكان منتصرا وعرف النصل في لحن السيف، أن الشجاعة والنكول أمران يقذفهما الله في القلوب، فلايقل الناس كيف.

-٨٤١٨-

فصل

في ولاية الملك العادل حلب وولاية تقي الدين مصر وغير ذلك

قال العماد: وقد كان العادل نائبا بمصر، فلما فتح السلطان حلب كتب العادل اليه يطلبها منه مع أعمالها، ويدع الديار المصرية، فكتب السلطان إليه أن يوافيه الى الكرك، فإنه سائر إلى فتحه، فأشار القاضي الفاضل على السلطان أن يستنيب في الديار المصرية موضع أخيه العادل ابن أخيه تقي الدين فاستصحبه السلطان معه في رجب، إلى الكرك هذه السنة، وحاز في طريقه قبل وصوله اليها غنائم وخيم على الربة، ثم حصر الكرك ورماه بالمجانيق صباحا ومساء، وتناوب عليه الأمراء، حتى خرج شهر رجب وماحصل منه الطلب، لكن عظمت النكاية في الكفار بأخذ أموالهم وتخريب الديار، ووصل الخبر أن الفرنج قد استجمعوا وتجمعوا بالموضع المعروف بالواله على قصد المسلمين وخلاص الكرك من أيديهم ورأى السلطان أن أمر حصره يطول فعول على الرحيل إلى دمشق، ووصل العادل إلى السلطان وهو بعد على الكرك، فجهز تقي الدين إلى الديار المصرية والياً عليها، وقوى عضده بصحبة القاضي الفاضل له، وتولى العادل حلب وأعمالها، ومنبج وجميع قلاعها، فسار إليها في رمضان، ورجع منها إلى دمشق الملك الظاهر ونواب السلطان.

قلت: وكتب العادل إلى الفاضل يستشيره في التعوض عن مصر بحلب، فكتب اليه الفاضل كتابا فيه:

إنما أنـــــت كغيـــــث مـــــاطـــــر
حيثما صرفـــــــــــــــه الله انصرف

والمولى أعلم، وبسياسة الدنيا أقـوم،وقد تكرر الكتاب الناصري إليه بما نص عليـه، وكشف لـه الغطاء وسنـى له العطـاء، وقالـت له المخطـوبة «هيت لك»، وأدى إليه مـالك الأمر ماقد ملك، فلا زالـت سعادته أنور مـن شمس، وأدور مـن فلك، ولا زال رابحـا على الـدهر إن امـرء خسر، وباقيا إن امرء هلك».

ومـن كتابـآخر إليـه:« أدام اللـه دولة حـامـي الحمى، وثبـت الدولـة الناصريـة التي يقـوم بها ملكان همامان هما: صـلاح يمنع فسـادا، وهذا سيف يحقن دما».

قال ابن ابي طي: كان السلطان يعظـم الملك العادل، ويعمل برأيه في جميع آمـوره، ويتيمن بمشـورته، ولايعلـم بأنـه أشار على السلطـان بأمـر فخالفـه، حدثنـي قاضي اليمـن جمال الديـن قال: كـان السلطان يجمـع الأمـراء للمشورة فـإن كان العـادل حـاضراً سمع مـن رأيه وإن لم يكـن حاضرا لم يقطـع أمرا في المهمات حتـى يكاتبـه بجلية الأحـوال ثم يسمـع رأيـه فيها، وقـال: وحـدثني أبي قـال: حدثنـي جماعـة قـالوا : كـان السلطـان ليس لـه غناء عـن العـادل ولا عن رأيـه، فلما حصل العـادل بمصر وبعـد عـن السلطان هنـاك صـار السلطـان يتكلف في مكـاتبتـه بالأخبـار، ويؤخر الأمـور، إلى أن يرد عليه جـوابه فيفـوته بذلـك كثير من المنافـع الحاصلة للدولة وللجهـاد، فلما حصر الكرك في هذه السنة كـاتبه بالحضور إليه بعيـاله وأمواله وجميع أصحابـه، وولى مصر تقي الدين، ولما حصل العادل عند السلطان وقع في نفسـه أن يعوضه عن ولاية مصر، ثم حار في ولاية يوليه إياها.

قال: وحـدثني علم الديـن قيصر الصلاحي قال: إنما أقـدم السلطان

العادل من مصر لأجل ولاية حلب، وبذلك كاتبه، ولهذا خرج العادل بأمواله وعياله وأثقاله، قال: وحدثني غيره قال: لما حصل العادل عند السلطان بأمواله وأثقاله كانت الأموال قد قلت على السلطان، وقد حصلت عنده عساكر عظيمة، فأحضر العادل ليلا وقال أريد أن تقرضني مائة وخمسين ألف دينار إلى الميسور، فقال السمع والطاعة، ثم قام وخرج من عنده وكتب اليه يقول أموالي جميعها بين يديك، وأنا مملوكك وأشتهي أن أحمل هذا المال الى خدمة السلطان ويكون عوضا عنه مدينة حلب وقلعتها، فأجابه السلطان: إنني والله ما أقدمتك إلا لأوليك حلب، وإذ قد اقترحت ذلك فقد وافق ماعندي، فلما أصبح العادل أنفذ وسأل السلطان أن يكتب له بمدينة حلب كتابا ويجعله ككتاب البيع والشراء، فامتنع السلطان وقال: انما تكون حلب إقطاعا، والمال علي له، فاعتذر العادل إلى السلطان، ولما اجتمعا قال له السلطان: أظننت أن البلاد تباع أو ماعلمت أن البلاد لأهلها المرابطين بها، ونحن خزنة للمسلمين ورعاة للدين وحراس لأموالهم.أو ماعلمت أن السلطان ملك شاه السلجوقي لما وقف طبرية على جامع خراسان لم يحكم به أحد من القضاة ولا من الفقهاء، ثم قرر السلطان ولاية العادل لحلب وأعمالها إلى رعبان إلى الفرات إلى حماة، واستدعى ولده الظاهر من حلب، فلما حضر أمره بالعود إلى حلب وتسليمها إلى عمه العادل، ففعل وعاد الى دمشق، وسار العادل إلى حلب فالتقيا بالرستن وباتافيه، فكانت ولاية الظاهر بحلب في هذه النوبة نحو ستة أشهر، ولما وصل الظاهر إلى دمشق أقبل على خدمة والده، والتقرب إليه إلا أن الانكسار لخروج حلب عنه ظاهر عليه، وهو مع ذلك لايظهر شيئا إلا الطاعة لوالده، والانقياد إلى مرضاته.

حدثني أبي عن مجد الدين بن الخشاب قال: حدثني الملك الظاهر قال: لما بلغني أن السلطان أعطى حلب للملك العادل جرى علي ماقدم وماحدث وأصابني من الهم مالم أقدر على النهوض به، ووددت أني لم

أكن رأيتهـا، ولادخلت إليهـا لأن قلبي أحبها وقبلهـا وطاب لي هـواؤها، ولما فارقتها كنت أحن اليها واشتاقها.

قال: ودخـل العادل حلـب في رمضان وخلـع على المقدمين والأعيان، وكان قـد قدم بين يديـه كاتبه المعروف بـالصنيعة لتسلم حلـب وقلعتها، مـن الملك الظـاهـر، وولى القلعة صـارم الـدين بـزغـش، وولى الديـوان والاقطـاعات شجـاع الـدين بـن البيضـاوي صبـاغ ذقنه، وولى الانشـاء ومايتعلـق بأمور السر للصنيعة ابـن النحال، وكان نصرانيا ثـم اسلم على يد العـادل، فولى ابن النحـال الوظـائف لجماعة من النصـارى، وفي ذلك يقول الشاعر:

فـــاق ديـــن المسيـــح في دولـــة العـــا
دل حتـــى عـــلا على الأديـــان
ذا أمير وذا وزيـــــــــــر وذا وا
ل وذا مشرف على الـــــديـــــوان

قال: ولم يـزل الملك العادل يهذب أمور حلـب إلى سادس عشري ذي القعدة، ثم خـرج متوجها إلى دمشق بسبب أن السلطـان اجتمع عنده في ذي القعدة عـدة رسل، منهـم رسل الخليفـة، ورسل طغـرل بن البهلـوان ورسل قـزل أخي البهلـوان، ورسل شـاه أرمن صـاحب خـلاط، ورسل المواصلـة، ورسـل عماد الديـن صـاحـب سنجـار، ورسل قليـج ارسـلان صاحب الشمال، فأراد السلطان احضار العادل لسماع الرسائل، ولحضور الأجوبة عنها، ولتقرير أمور الفرنج، ويوم وصل العادل الى دمشق احضره السلطان لسماع الـرسائل وسمـع ماعنـده في الأجوبـة، ولما قضى أجـوبة الرسل ودع السلطان وعاد الى حلب.

قـال: ولما بلغ سيـف الاسلام أن السلطـان كتـب لتقي الـدين عهـدا بـولاية مصر عتـب لأجل ذلـك، فكتب السلطـان له عهـدا ببلاد اليمـن

جميعها ،قـال :وأقطع السلطان تقـي الديـن الاسكندرية ودميـاط، وجعل لخاصتـه البحيرة والفيوم وبـوش، ثـم عوضـه عـن بـوش سمنود وحـوف دمسيس وذكر غير ذلك.

قال العماد: أنعـم السلطان على تقي الديـن بالأعمال الفيوميـة، وسائر نواحيهـا بجميع جهـاتها وحواليها، وزاده القبيبـات وبوش، وأبقـى عليه بالبلاد الشـامية مدينة حماة وقلعتهـا وجميع أعمالها، ولما وصل تقي الـدين إلى مصر اقتدى بـالتدبير الفاضلي، وكان السلطـان لايؤثر مفـارقته فلما لم يجد من تـوجيه تقـي الديـن إلى مصر بداً، وكـانت فيـه حدة لم تكـن في العادل احتاج في تقويمه إلى ندبة الأجل الفاضل.

قال القـاضي ابن شداد: وقتل على الكـرك في هذه الكرة شرف الـدين بزغش النـوري شهيدا رحمه الله، ثم رحل السلطان عنهـا مستصحبا أخاه العادل إلى دمشق، فدخل دمشـق في رابع عشري شعبان، وأعطى العادل حلب في ثاني شهـر رمضان، فسار في ذلك اليـوم نحوها فوصلهـا وصعد القلعـة في يـوم الجمعـة الثـاني والعشريـن مـن رمضـان، وكـان بها ولـد السلطـان الملك الظـاهر ومعـه سيف الـديـن يازكـوج يدبـر أمره، وابـن العميد في البلـد، وكان الظاهر أحـب أولاده إلى قلبه لما قد خصه اللـه به من الشهـامة والفطنة والعقـل وحسن السمـت والشغف بالملـك وظهور ذلك عليـه، وكان مـن أبر النـاس بوالده وأطـوعهم لـه، ولكن أخـذ منه حلب لمصلحـة رآها، فخرج مـن حلب لما دخلهـا عمه العادل ويـازكوج سـائرين إلى خـدمة السلطـان، فدخـل دمشق يـوم الاثنين ثامـن عشري شوال، فأقام في خـدمة والده لايظهر له الا الطاعـة والانقياد مع انكسار في باطنه لايخفى عن نظر والـده.قال وفي ذلك الشهر وردنا على السلطان رسلا من جانب الموصل،وكنا قد تـرسلنا إلى الخليفة الناصر لدين الله في انفاذ شيخ الشيـوخ صدر الدين رسولا وشفيعـا إلى السلطان، فسيره معنا من بغـداد، وكان عـزيز المروءة عظيـم الحرمة في دولـة الخليفة وفي سـائر

البلاد، وكـانت مكانته عنـد السلطان بحيث يتردد إليه إذا كـان عنده في معظم الأيام قـال: وكان الشيخ قد وصل إلى الموصل وسـار منها بعد أن سار في صحبته القـاضي محيي الدين بن كمال الديـن، وكان بينهما صحبة من الصبا، وكنت مع القوم، وسرنـا حتى أتينا دمشق، وخرج السلطان إلى لقاء الشيـخ، ونحن في خـدمته وأقمنـا أيامـا نراجـع في فصل حـال فلم يتفـق صلـح في تلـك الـدفعــة، وخـرجنـا راجعين إلى الموصـل، وخـرج السلطان إلى وداع الشيـخ إلى القصير، واجتهدوا في ذلـك اليوم أن ينقضي شغل، فلـم يتفق وكـان الوقـوف من جانـب محيي الـدين فـإن السلطان اشترط أن يكون صاحب إربـل والجزيرة على خيرتهما في الانتماء إليه أو إلى صاحب الموصل، فقـال محيي الدين: لابد من ذكـرهما في النسخة، فوقف الحال، وكان مسيرنا يوم الخميس سابع ذي الحجة.

قال: وفي تلك الـدفعة عرض علي السلطان مـواضع البهاء بمصر على لسـان الشيخ فـاعتذرت ولم أفعـل خـوفا مـن أن يحال توقـف الحال علي ومـن تلك الـدفعـة ثبـت في نفسه الشريفـة منـي أمـر لم أعرفـه إلا بعـد خدمتي له، وأقام السلطان بدمشق تـرد عليه الرسل من الجوانب، فوصله رسول سنجرشاه صـاحب الجزيرة فاستحلفه لنفسه، وانتمـى إليه، ورسل إربل وحلـف لهم وساروا، ووصل اليـه أخوه العادل يـوم الاثنين رابع ذي الحجة فأقام عنده وعيد، وعاد إلى حلب.

قال العماد: وصلت رسل صـاحب الجزيرة معز الدين سنجـر شاه بن سيـف الديـن غازي بـن مودود بـن زنكي، ورسـل صاحـب إربل زيـن الـدين يـوسف بـن علي كوجـك بـن بكتكين، ورسل صـاحب الحديثـة وتكريـت يشكون مـن صاحب الموصـل، ويطلبون أن يكـونوا مـن أولياء السلطان المنتمين إليه، ففعـل السلطان ذلك، وكان أبو سنجـرشاه سيف الدين غازي هو صاحب الموصـل بعد والده مودود كما تقدم ذكره، فعهد إلى ابنه سنجـر شاه بها فغلبـه عليها عمه عـز الديـن مسعود بـن مودود،

فبقيت الجزيرة بيد سنجر شاه وهو من تحت يد عمه، وفي قلبه منه مافيه، وكانت إربل وأعمالها ومايليها كلها، مضافة إلى الموصل، وصاحب الموصل هو الحاكم على جميعها، فمن ثم طلب هو الانحياز إلى خدمة السلطان فأجابه، وسمع بذلك صاحب الموصل،فاستشفع بدار الخلافة إلى أن أرسل منها شيخ الشيوخ وشهاب الدين بشير إلى السلطان أن يجدد لصاحب الموصل الأيمان، ويكون له من جملة الأعوان، حربا لمن حاربه، سلما لمن سالمه، وجاء رسول صاحب الموصل قاضي القضاة محيي الدين أبو حامد محمد بن قاضي القضاة كمال الدين محمد بن عبد الله بن القاسم الشهرزوري وترفع في أداء الرسالة وأغلظ في الكلام، فألان له السلطان، وقال أنا أقضي حاجته عليَ ماأورد ولكن قد سبق مني يمين لأولئك السلاطين فأنا استثنيهم وأردهم إلى اختيارهم لي أو له فأبى ذلك، وأراد أن تكون الصداقة له دون سائر ذوي الممالك، وأشار إلى أن لهم من ينصرهم من جهة البهلوان ملك العجم، فعظم ذلك على السلطان، وكان ذلك محركا له إلى أن يعود إلى الموصل، ورجعت الرسل على ذلك غير ظافرين بطائل، وكان منزل شيخ الشيوخ بالرباط على المنيبع، ومنزل القاضي محيي الدين في جوسق بستان الخلخال، وشهاب الدين بشير بجوسق الميدان، وتوفي ولد شيخ الشيوخ بدمشق، وكان في صحبته فدفنه في المقبرة المحاذية للرباط، وحضر عنده السلطان وجماعة الأمراء للعزاء.

فصل

في باقي حوادث هذه السنة

قال العماد: وكانت شتوة هذه السنة كثيرة الأمطار، وكثرت مكاتبات العماد للفاضل، وأورد في بعضها أبياتا منها:

عذر الزمان بأي وجه يقبل
ومحبكم بالصد فيه يقتل
مالي سوى انسان عيني مسعدا
بالدمع انسان عليه أعول
الدهر ليل كله في ناظري
لا صبح إلا وجهك المتهلل
خيرتم بين المنية والمنى
لا تهجروا فالموت عندي أسهل
يا غائبين وهم بفكري حضر
يا راحلين وهم بقلبي نزل
ما للسلو إلى فؤادي منهج
ما للصبابة غير قلبي منهل
لا تعدلوا عني فمالي معدل
عنكم وليس سواكم لي موئل
كل الخطوب دفعتها بتجلدي
إلا التفرق فهو خطب معضل
ان لم يجدني طيفكم في زورة
فلأنني منه أدق وأنحل
لا صبر لي لا قلب لي لا غمض لي
لا علم لي بالبين ماذا أفعل

قال ابن الأثير: وفي جمادى الأولى من سنة تسع وسبعين قبض عز الدين أتابك على مجاهد الدين قايماز، وهو حينئذ نائبه في بلاده، واتبع في

ذلك هـوى من أراد المصلحـة لنفسه، ولم ينظـر في مضرة صاحبـه، وكان الذي أشار بـه عز الدين محمود زلفندار، وشرف الـدين أحمد بن أبي الخير الذي كـان أبوه صاحـب بلد الغراف وهما مـن أكابر الأمـراء، فلما قبضه كان بيده إربل، وشهـرزور ودقوقا، وجزيرة ابن عمر، وكـان بها معز الدين سنجرشـاه بن سيف الديـن صغيرا، والحكم فيها إلى مجاهد الـدين، ولهم أيضا قلعة العقـر، فحين قبض امتنع زين الديـن يوسف بن زيـن الدين علي بإربـل، وكان فيها لاحكـم له مع مجاهـد الديـن، وامتنع معز الـدين بالجزيرة، وأرسل الخليفـة الناصر لدين الله عسكراً حصر دقـوقا فملكها، ولم يحصل لعز الـدين إلا شهرزور، وصارت هـذه البلاد التي كانـت بيده أضر شيء على الموصل، وبقـي مقبوضـا، فأخرجـه وأعاده إلى ولايـة قلعة الموصل إلا أن الذي أخذ مـن البلاد لم يعد إلى طاعته، وقبض عـز الدين على من كان أشار عليه بقبض مجاهد الدين.

قـال ابن الأثير: وعلى الحقيقـة ليـس على الـدول شيء أضر من إزالـة مدبـر لها وإقامة غيره، فإن الأول يكـون كالطبيب الحاذق العـارف بمزاج الانسان ومـرضه وعلاجه ومـايوافقه ويؤذيـه، فإلى ان يعرف حالـه ينفسد أكثر مما ينصلح.

قال ابن القادسي: وفي هذه السنة في جمادى الآخـرة توفي الأبله الشاعر وهو مـن أسماء الأضداد، واسمه أبـو عبد الله محمـد بن بختيار بـن عبد الله، وكان فصيحا هجاء وله أشعار رقيقة منها:

زار مـــن أحيـــابـــزورتــــه
والـــدجـــى في لـــون طـــرتـــه

يـــالهـــامـــن زورة قصـــرت
فـــأمـــاتـــت طـــول جفـــوتـــه

-٨٤٢٧-

ثم دخلت

سنة ثمانين

قال العماد: وقد تقرص البرد، فلما طاب الزمان تجهز السلطان بالعساكر المنصورة إلى الكرك مرة أخرى وأرسل إلى تقي الدين فجاء بالعساكر المصرية، والأجل الفاضل، وتتابعت العساكر المشرقية والملك العادل وجاء نور الدين بن قرا أرسلان صاحب الحصن وآمد وصاحب دارا وأخو صاحب سنجار وعسكر ماردين، فاجتمعت العساكر برأس الماء وأشفق السلطان على ابن قرا أرسلان من اقتحام المشاق، فأقامه برأس الماء بحوران إلى حين العود، وأمر العادل بالاقامة معه.

وقال القاضي ابن شداد: سير السلطان إلى العساكر يطلبها فوصل ابن قرا أرسلان نور الدين إلى حلب ثامن عشر صفر، فأكرمه الملك العادل إكراما عظيما، وأصعده القلعة وباسطه، ورحل معه طالبا دمشق، وكان السلطان قد مرض أياما ثم شفاه الله تعالى، ولما بلغه وصول ابن قرا أرسلان خرج إلى لقائه وكان رحمه الله يكارم الناس مكارمة عظيمة، فالتقاه على عين الجر بالبقاع في تاسع ربيع الأول، ثم عاد إلى دمشق وخلف نور الدين واصلا مع العادل، فتأهب للغزاة وخرج مبرزا إلى جسر الخشب، ووصل العادل وابن قرا أرسلان دمشق فأقاما بها أياما، ثم رحلوا يلتحقون بالسلطان، ورحل السلطان من رأس الماء ثاني ربيع الآخر طالبا للكرك، فأقام قريبا منها أياما ينتظر وصول الملك المظفر من مصر إلى تاسع عشر الشهر، فوصل تقي الدين، واجتمع به ومعه بيت العادل وخزائنه فسيرهم إليه، وتقدم إليه وإلى بقية العساكر بالوصول إليه إلى الكرك فتتابعت العساكر إلى خدمته حتى أحدقوا بالكرك في رابع عشر جمادى الأولى، وركب المجانيق عليه، وقد التقت العساكر المصرية والشامية والجزرية، ولما بلغ الفرنج ذلك خرجوا براجلهم وفارسهم إلى

الذب عـن الكرك، وكان على المسلمين فيه ضرر عظيـم، فإنه كـان يقطع عن قصد مصر، بحيـث كانت القوافل لايمكنها الخروج إلا مـع العساكر الجمة، فاهتـم السلطان بأمره لتكون الطـريق سابله، ويسر اللـه ذلك وله الحمد والمنـة، ولكن كان فتحه بعـد ذلك، ولما بلغ السلطـان خبر خروج الفرنج تعبـأ للقتال، وأمر العساكر ان تخرج إلى ظهـر الكرك، وسير الثقل نحو البلاد وبقي العسكر جريدة، ثـم سار السلطان يقصد العدو، وكان الفرنج قد نزلوا بموضع يقال له الـواله، وسار حتى نزل بالبلقاء على قرية يقال لها حسبان قبالة الفرنج في طريقهـم، ورحل منها إلى موضع يقال له مـاء عين والفرنـج مقيمـون بالـوالـه إلى السـادس والعشرين مـن جمادى الآخـرة، ثـم رحلـوا قـاصـدين الكـرك، فسـار بعـض العسكـر وراءهـم فقاتلـوهـم إلى آخـر النهار، ولما رأى رحمه الله تصميـم الفرنـج على الكرك أمر العسكر أن يدخـل الساحل لخلوه عن العساكر، فهجموا على نابلس ونهبوها وغنموا مافيها، ولم يبـق فيها إلا حصاها، وأخذوا جينين، والتحقوا بالسلطان برأس الماء.

قلـت: وقد وصـف القـاضي الفاضـل حصـن الكـرك في بعض كتبـه فقـال: « هو شجـا في الحنـاجر وقـذا في المحـاجر، قـد أخـذ من الآمـال بمخنقهـا، وقعد بـارصاد العـزائم وطرقهـا، وصـار ذئبا للـدهر في ذلـك الفج، وعـذرا لتارك فريضـة الله مـن الحج، وهو وحصن الشـوبك يسر الله الآخر كبيت الواصف للأسدين:

مـــــامـــــر يـــــوم إلا وعنـــــدهما
لحم رجـــــال أو يـــــولغـــــان دمـــــا

وفي كتـاب آخـر: « وأما الكـرك فكفـات المنجنيقـات عليه متظـافـرة، وحجارتها على من فيه حاجره، وقد جدعت أنوف الأبرجة، وأسبلت قناع الستائر وجـوهها المتبرجة، وكـل جوانبهـا وعرة المرتقى، صعبـة المختطاه،

والسلطان يستعذب المشقات التي تتفادى منها الهمم، وَيباشر جمرات الشتاء الكالح بوجهه المبتسم».

ومن كتاب آخر:« وقد جمعت الحجارة في الإسقاط بين رؤوس الأعلاج، فرمت الشراريف والواقفين عليها لحمايتها، وأرت الفرنج باهتدائها إلى أردائها غاية غوايتها، فما أخرج أحد منهم رأسا إلا دخل في عينه نصل، وماهجر قراب الاسلام سيف إلا وله مع رقاب الكفر غمد قطعها وصل، وماعلى الحجر في الاسراف والتبذير حجر، ولكل ليلة من نقع الحوافر ومن سنا الأسنة فجر، ولقد أخذنا من العدو بالمخنق، وشرعنا في طم الخندق، والحائط واقع، والواقعة بهم محيطة، والدروع بالسيوف مفصلة وبالجروخ مخيطة».

ومن كتاب آخر.« عذاب الله بالحصن وأهله واقع، ماله من دافع، وإن دليل النصر قد ظهر، ومادونه من مانع، وأما المنجنيقات فقد نكأت في الأبراج بالهدم، وفي الأعلاج بالهتك، فلم تبق لها الحجارة الطائرة إليها حجارة قائمة، وإن لها من إمطارها عليها ليلا ونهار ديمة دائمة، وأطفنا عليها بالزرجون حتى وقعت الأسوار من سكرها، وضربنا دونها الستائر حتى ترنمت لصخرها، وعاطتها كفة المنجنيق عقار عقرها، فالسوار المقابل للمنجنيقات قد انهدمت أبراجه وأبدانه، وانهدت قواعده وأركانه، ولولا الخندق الذي هو واد من الأودية واسع عميق لما تعذر إلى الزحف إليهم والهجم عليهم طريق».

ومن كتاب آخر:« الحصن الذي نحن حاضروه وحاصروه في حصانة الحصانة،قد هدت الحجارة منه ماأحكموه بالحجارة، وعدا عليه بالتخريب ماأعدوه للعمارة، بقسي المنجنيقات ترمى ولا تريم سهامها، وتستديم من أعداء الله ومعقلهم بالقتل والهدم انتقامها،فما قابل المنجنيقات من الأبراج والأبدان قد أتى التخريب على مافيه من

العمران،فلم يبق إلا طـم الخندق، والأخذ بعد ذلك من العـدو بالمخنق، والقلوب واثقة بحصول الفتـح، وقد علم كل واحد منا ان متجـره قد فاز بالـربح، فما يسمع منـا بحمد الله من أحـد ملل ولاضجر ولاتسفـر هذه النوبة إن شاء الله تعالى إلا عن نصر وظفر».

وقال العماد: رحل السلطـان من رأس الماء على طريق الظليـل والزرقا وعمان والبلقا، ثم الرقيم وزيزا والنقوب واللجـون، ثم أدر ثم الربة وذلك في بلد مآب؛ فلما تلاحقت العساكـر نزل على وادي الكرك، ونصب عليها تسعة مجانيق صفا قـدام الباب، فهدمت السور المقابـل لها، ولم يبق مانع إلا الخندق الـواسع العميـق، وهو مـن الأودية الهائلـة، والمهاوي الحائلـة والمهالـك الغائرة الغائلـة، ولم يكن في الـرأي إلا طمه، وملؤه بكـل ممكن وردمه،،فعـد ذلك مـن الأمور الصعـاب وتعذر لحزونـة الأرض وتحجرهـا حفـر الأسراب، فـأمـر السلطــان بضرب اللبـن وجمع الاخشـاب وبنـاء الحيطـان المقـابلة مـن الـربـض إلى الخنـدق وتسقيفهـا وتلفيق ستـائرهـا وتأليفهـا، فتمت دروبـا واسعة لايزحـم فيها الجائي الـذاهب، وتـوافدت رجال العسكـر واتباعـه وغلمانه وأشياعـه على نقل مـايرمـى في الخندق، وهـان طـم الخنـدق بـالـدبـابـات التـي قـدمـت والأسراب التـي بنيـت وأحكمت، فوجد الناس إلى الخندق طـريقا مهيعا فهم يزدحمون آمنين من الجراح عــاملين بــالشراح والنــاس تحت القلعــة على شفير الخنــدق لايستشعرون حذرا ولايخشـون سهما ولاحجرا، وقد امتلأ الخنـدق حتى أن أسيرا مقيـدا رمى بنفسـه إليه، ونجـا بعدمـا توالى مـن رمي الفـرنج رمـي الحجارة عليه».

وفي بعض الكتب العمادية:« لولا الخنـدق المانع من الارادة، وانه ليس من الخنادق المعتـادة، بل هو واد من الأودية، واسـع الأفنية لسهل المشرع وهجم الموضـع، فلم يبـق إلا تدبير طـم الخندق، والأخـذ بعد ذلـك من العـدو بـالمخنـق، فعملنـا دبـابات قـدمنـاهـا، وبنينـا إلى شفير الخنـدق

ثلاثةأسراب باللبن سقفناها وأحكمناها، فصارت منها إلى طرف الخندق طرق آمنه، وشرع الناس في طم الخندق منها ونفوسهم مطمئنة وقلوبهم ساكنة، وكان الشروع فيه يوم الخميس سابع جمادى الأولى، وقد تسنى طمه وتهيأ ردمه، وتسارع الناس إليه، وازدحموا عليه ولم يبق صغير ولاكبير إلا وهو مستبشر بالعمل، منتظر لبشرى نجح الأمل، وقد تجاسروا حتى ازدحموا تحت القلعة نهارا كازدحامهم في المصلى يوم العيد، وليلا كحضورهم في جامع دمشق ليلة النصف السعيد، وهم بحمد الله من الجراح سالمون، وبالنصر موقنون عالمون، وإن أبطأ العدو عن النجدة فالنصر سريع، والحصن ومن فيه صريع، قد خرقت الحجارة حجابه، وقطعت بهم اسبابه، وناولته من الأجل كتابه وحسرت لثام سوره وحلت نقابه، فأناف الأبرجة مجدوعة، وثنايا الشرفات مقلوعة، ورؤوس الأبدان محزوزة ، وحروف العوامل مهموزة، وبطون السقوف مقبورة، وأعضاء الاساقف معقورة، ووجوه الجدر مسلوخة، وجلود البواشير مبشورة، والنصر أشهر من نار على علم، والحرب أقوم من ساق على قدم.

قال: وأشرف السلطان على أخذها ، فوصل الخبر أن الفرنج قد تجمعوا وجاؤوا منجدين لأهل الكرك ليزحزحوه عن حصارها، فثنى السلطان عنان العزم إليهم، وكانوا في منزلة الواله وتلك المواضع ضيقة صعبة المسلك، فانتظر السلطان أن يخرجوا إلى البلقاء، وتقدم عنهم بأميال فرجعوا وتفرقوا ولم يقدموا، وعلى قصد الكرك عزموا، ولما رأى السلطان أن الفرصة من الفئتين فاتت، مر على نابلس فأغار وغنم وفي طريق عوده نزل على سبسطية، وفيها مشهد زكريا عليه السلام وقد اتخذه الفرنج كنيسة، وأودعوها أمتعة نفيسة، وبها من الفرنج أسقف وقسس ورهبان ففدوها بأسارى مسلمين، ولاذوا بالأمان معتصمين، ثم أناخ على جينين فأهبط اوجها، وهدم برجها، وآب بالنهاب والسبايا والمرباع والصفايا، واجتمع بأصحابه على الفوار، وتحدث بالايجاد لحوادث الغور في الغوار.

فصل

ثم رحل السلطان إلى دمشق للاجتماع برسل الخلافة شيخ الشيوخ وبشير، وكانوا وصلوا والسلطان محاصر الكرك، فاجتمع بهم وأكرمهم، وكانوا قد مرضوا ومات جماعة من أصحابهم، وعاد السلطان شيخ الشيوخ كل يوم وليلة في الرباط بالمنيبع، واستأذنوا في العود قبل الشفاء فضاقت الصدور بصدر ذلك الصدر على تلك الحالة، وعجزت تلك العشرة كما شاء الله عن الإقالة، ثم استقل مودعا وداع الأبد، وكان حسام الدين طمان مقدم عسكر سنجار مع السلطان حاضرا في الجهاد، فأذن له في العود وأمره بمرافقة صدر الدين والرسل معه والرفق بهم في مسيرهم، فساروا على سمت الرحبة، فاغتنم الأمير طمان بركة تلك الصحبة، فأدركت المنية شهاب الدين بشير بالسخنة، ووصلوا بشيخ الشيوخ إلى الرحبة، وهناك لقي ربه.

قال: ولقد توفاه الله على الوفاء بعهده، والوفاق لعقده، مشيم الكرم، كريم الشيم، صالح العمل، ناجح الأمل، مفارقا للدنيا في حياته، مقبلا على الآخرة قبل وفاته، فهو ممن رفعت سريره الملائك ووضعت له في عليين الأرائك، وكانت وفاته في شعبان بوأه الله الجنان.

قلت: كان صدر الدين هذا أحد السادة، وأبوه وجده من أكابر الأعيان، وشيوخ مشايخ الزمان، وهو عبد الرحيم بن اسماعيل بن أبي سعد أحمد بن محمد النيسابوري، وقد ذكرت ترجمة والده في تاريخ دمشق وألحقتها من أخبار جده بما ذكره أبو سعد السمعاني في تاريخه.

وقال ابن القادسي: توفي صدر الدين في رجب برحبة مالك بن طوق، ودفن في قبة الى جنب قبر الشيخ موفق الدين محمد بن المتقنة الرحبي، وكان

مـولده في ذي الحجـة سنـة ثمان وخمسمائة، وكـان شيخا طـائلافي العلـم والـدين والسـداد ثـابت الجنـان في الحوادث المزعجة، والـوقـائع الباغتـة الملجلجة، سديد البديهة صافي الفكـرة جمع بين نظم الشعر ونثر الترسل، وكان يـرسل إلى الأطـراف، ورتب في مشيخة الشيـوخ منذ تـوفي والده في جمادى الأولى سنـة إحـدى وأربعين وخمسمائة، ولم يـزل على ذلـك إلى أن توفي، وتولى بعده مشيخة الرباط صفـي الدين اسماعيل، ومن شعره يعني صدر الدين:

ولم أخضـب مشيبـي وهـو زيـن
لا يثـاري جهـالات التصـابي
ولكـن كـي يـراني مـن أعـادي
فـأرهبـه بـوثبـات الشبـاب

قلـت: ووقفـت على كتـاب فـاضلي إليـه جـوابـا عـن كتـاب عتـب فيه:«وقف على التحية الطيبة والكـرامة الصيبة، والالفاظ العذاب إلا انها الغضـاب، والنعيـم إلا أنـه العـذاب، والمسـامحة إلا أنها الحسـاب، والمتشـابهات اللـواتي أولها أحسـن تـأويلهـا، والمحكمات الـلاتي هـن أم الكتـاب، ويكفي أنـه مـزج الصاب بعسلـه، وأرعـف قلمـه بما لايرعفـه الشجـاع من أنـوف أسلـه، وهذا بـاب قد آن سـده، وسبيـل قد وجـب صـده، وعين دهر أصـابت هـذه المودة، وقد آن لها أن تنطـرف وتنصرف، وبادرة هـم قد حان أن تنكشـف وتنكسف، فـلا نظر بعدهـا للعين التي أصابت ولاخطرت في أثـرها للخطرة التي آبت، ولا كان لـلايام في فضل سيدنا على عبده نصيب، ولاعد أبـدا على شباب الرضى عنه مشيب، ولا تمكـن مـن حبيـب وده إلى القلـب رقيب، ولاملـك رقـه غير تلـك اليـد الكريمة، ولاسمعت حديث الحوادث تلك المودة القديمة».

قال العماد: وخرجنـا من دمشق في شعبان، وخيمنـا على سعسع، ودعا تقي الديـن فأمره أن يرجـع بالعسكر إلى مصر، فسار في منتصـف الشهر،

ثم رجعنا من فرض الجهاد إلى فرض الصيام بدمشق، ورجع كل عسكر إلى مركزه، ومدح العماد تقي الدين في هذه الكرة بقصيدة ثائية نحو خمسة وثمانين بيتا أولها:

إذا شئتما عن غير قلبي تحدثا
فما حل فيه الهم إلا ليلبثا

خذا شاهدي صدقي على صحة الهوى
ضنا ساكتا مني ووجدا محدثا

مريضكما أشفى على الناس سقمه
فلا تعجلا في أمره وتريثا

رثى لي عدوي من جفاء أحبتي
ناهيك من حال عدوي لها رثى

عهودكم بعد النوى ما تشعثت
وحاشى لذاك العهد أن يتشعثا

ومنها:

وأملك بالملك المظفر ظافرا
من الجد والجدوى قديما ومحدثا

مخوف السطا صعب الابا حسن الثنا
مرجى الندى سهل الرضى طيب النثا

صفا آخر العمرين من عمر الذي
به العمران اليوم بالعدل ثلثا

هم أحدثوا قمع الضلالة بالهدى
فمذ ملكوا لم تلق في الدين محدثا

غشائي وغثي أنت حامل نقصه
بفضلك إن البحر يحتمل الغثا

ومنها في وصف القصيدة:

وقد سهلت والثاء أوعر مرتقى
فلا فرق عندي بين تاء وبين ثا

فصل

يحتوي على ذكر المفاضلة بين مصر والشام والتعريف بحال زين الدين الواعظ

الذي كـان صلاح الـدين يكـاتبه بـوقائعـه، وهو الـذي نم على عمارة وأصحابـه بما كانـوا عزمـوا من قلب الـدولة النـاصرية مصريـة كما سبق. وسبـب ذكره هنـا انـه هو الـذي شرع في تفضيـل مصر بكتاب كتبـه الى السلطان في هذا العام،و قد تقدم للقاضي الفاضل كلام في تفضيل مصر، وذم الشام في أوائل أخبار سنـة أربع وسبعين، وله من كتاب آخـر:«دعونا من بعلبـك البلد الأعسر، ومن رأس عينهـا الضيقة المحجر، ومـن ثلجها الـذي تنفش الجبـال بعهنه، ومـن بردهـا الذي لايشفـع الجمر عنـده إلا باذنه، وعودوا الى مااترفتم فيه ومسـاكنكم فإنها قد علتها وحشة لقطينها، فسألت مطالـع دسوتها عن أقمار سلاطينها واذكروا النيـل الذي وفى لكم في هـذه السنة بنقصـه، وأبـى أن يكون مـاؤه ذخيرة لغير جـودكم الـذي أحصـاه الله ولم نحصـه، واذكـروا فيضها ومـاء طوبتهـا فقـد كان يقيـم الحجـة على ثلج الشـام ووخمه، ويتغلغـل بـرده فيسري الى قلب العليـل، وكان جاريا على غير طريق فمه، واذكـروا صحة هوائها وتعصبه لأيامكم حتى أنعم الله عليكم قبل صحة أجسامنا بصحة أجسامكم».

ومن كتاب آخر:« وأمـا أحوالي فإنني لم أزل ملتاثا منـذ دخلت دمشق لتغير مائهـا وهوائها وأبنيتهـا وأبنائها وأوديتها وأدواتها، وقـراها وقرنـائها، ومـن لي بمصر فـإني أقنـع بما تنبتـه أرضهـا مـن بقلهـا وقثـائهـا واتيـع بـردى(٢٨) وماعسـاه بشربة مـن مائهـا، وامتطي متـن السيف في هجـر سوادهـا وسودائهـا، فالطلـل هائل ولاطائل، ومـاكنا نسمـع به مـن تلك

الفضائل متضائل، حتى إذا جاءه لم يجده شيئا فهي بلاد تستجدي ولاتجدي، وفعل المال بها لازم التعدي».

وقال العماد:« هذا زين الدين علي بن نجا الواعظ، من أهل دمشق ومن ساكني مصر، وهو ذو لهجة في الوعظ فصيحة، وبهجة للفضل صبيحة، وقبول من القلوب، وفصول في فصل الخطاب للخطوب، وقد تأثث وتأثل، وقبل وأقبل، وأحسن السلطان إليه بالأعطيات، والاقطاعات وأجمل وأعطاه وأجزل، وأتم له مراده وأكمل، وكان السلطان يستشيره، ويروقه تدبيره، ويميل إليه لقديم معرفته وكريم سجيته، ووصل في هذه السنة منه كتاب إلى السلطان يشوقه إلى مصر ونيلها ونعيمها، وسلسبيلها ودار ملكها ودارة فلكها، وبحرها وخليجها، ونشرها وأريجها ومقسمها ومقياسها وإيناس ناسها، وقصور معزها، ومنازل عزها، وجيزتها وجزيرتها، وخيرتها وجيرتها، وبركتها وبركتها، وعدوتها وعدويتها وتعلق القلوب بقليوبها، واستلاب النفوس بأسلوبها، وملتقى البحرين، ومرتقى الهرمين، وروضة جنانها، وجنة رضوانها، ومساجدها وجوامعها ومشاهدها، ومرابعها ونواظر بساتينها، ومناظر ميادينها وساحات سواحلها، وآيات فضائلها، ورحاب شوارعها، وحلاب مشارعها، وشروق عربيتها، وغروب شرقيتها، وطيب طويتها، ومسار مسراها، ومجرى فلكها ومرساها وعجائب بناها، وغرائب مناها، وبيان عيانها بلسان بلسانها، وكياسة أخلاقها ونفاسة أعلاقها، وشتاؤها في الفضل ربيع نضير، وغبارها عبير، وماؤها كوثري وترابها عنبري».

ثم وصف العماد غير ذلك، ثم قال: وذكر زين الدين الواعظ في كتابه مادل به على فضيلة تلك الديار من الآيات والأخبار، والآداب والآثار، ولو ظفرت به لأوردته بلفظه وجلوته بوعظه، لكنني فقدته فعربت معانيه وأحكمت مبانيه.

قال: فكتبت الى زين الدين الواعظ في جوابه عن السلطان:« عرفنا

طيب الـديار المصريـة، ورقة هـوائها، ونحـن نسلم لـه المسألـة في طيبها وتـوفير نصيبهـا، ورقـة نسيمها، ورائق نسيبهـا، لكـن لاريـب أن الشـام أفضل وإن أجـر ساكنه أجـزل، وإن القلوب إلى قلبه أميـل، وإن الزلال البـارد به أعـل وأنهل، وإن الهواء في صيفه وشتـائه أعدل وإن الـزهر بـه أشب، والنبـت به أكهل، وإن الجمال فيه أكمـل، والكمال فيه أجمل، وأن القلـوب به أروح، والـروح بـه أقبل ودمشـق عقيلتـه المشـوطة، وعقلتـه المنشوطـة، وحديقتـه الناضرة، وحـديقته النـاظرة، وهـي عين انسانـه، بل انسان عينـه، وصير في نقوده في عين نضـاره ولجينه، فمستـامها مستهـام، وماعلى محبها ملام، ومافي ربوتها ريبـة، وفي كل حبوة حبيبة، ولكل شائب من نورها شبيبة، وعلى كل ورقة ورقا، وعلى كـل معانقة من قدود البانات عنقا، وشـادياتها على الأعواد تطري وتطـرب، وساجعاتها بـالأوراد تعجم وتعرب، وجميـع مافي سورة الـرحمن، ونحن نتلـو عليه آلاءها إلى أن يـرجع إلينا فنتلو على منكرهـا(فبأي آلاء ربكما تكذبان)[٢٩] وقد تمسكنا بـالآية والسنة والإجماع، وغنينا بهذه الأدلة عن الإختراع والإبتـداع، أما أقسم الله تعالى بـدمشق في قـوله:(والتين والـزيتون)[٣٠] والقسم مـن الله لها أدل دليـل على فضلهـا المصـون، أمـا قـال رسـول اللـه صلى اللـه عليـه وسلم:«الشام خيرة الله من أرضه يسوق إليها خيرته من عباده»[٣١] هذا أوضح برهان قـاطع على أنه خير بلاده، أما الصحابـة رضوان الله عليهم أجمعـوا على اختيـار السكنـى بـالشام، أمـا فتـح دمشـق بكـر الاسـلام، ومـانكر أن اللـه تعالى ذكـر مصر وسماهـا أرضا فما الـذكر والتسميـة في جنب فضيلـة القسم، ولا الإخبار عنهـا دليلا على الكـرم، وإنما اكتسبت الفضيلة من الشام بنقل يوسف الصـديق إليها عليه الصلاة والسلام، ثم المقام بالشام أقـرب للرباط وأوجب للنشاط، وأجمع للعساكـر السائرة من سائر الجهـات للجهاد، وأين قطـوب المقطب من سنـاء سنير، وأين ذرى منـف المشرف مـن ذروة الشرف المنيـف المنير، وأيـن الهرم الهرم مـن الحرم المحترم، وبينهما فـرق مابين الفـرق والقـدم، وهل للنيـل مـع طول نيلـه،

وطـول ذيله، واستطـالـة سيله، بـرد بردى في نقـع الغليـل ونفع العليـل، ومالـذاك الكثير طلاوة هذا القليـل، وسيل هـذا السلسبيل، واذا فاخـرنا بالجامـع وقبة النسر ظهر عنـد ذلك قصر القصر، على أن باب الفـراديس في الحقيقة بـاب النصر، ومارأس الطابيـة كباب الجابيـة، ولو كان لنـاسها بانـاس لم يحتاجـوا إلى قياس المقيـاس، ونحن لانجفـو الوطـن كُما جفاه، ولانأبى فضلـه كما أباه، وحب الوطـن من الإيمان، ومع هذا فـلا ننكر أن مصر إقليم عظيم الشان، وإن مغلها كثير، وماءهـا غزير، وأن عدها نمير، وإن ساكنهـا ملك أو أمير، ولكن نقـول كما قال المجلس السـامي الاجلي الفاضلي اسماه الله: إن دمشـق تصلح أن تكون بستانـا لمصر، ولاشك أن أحسن مافي البلاد البستان،، وزين الديـن وفقه الله قد تعرض للشام فلم يـرض أن يكون المسـاوي، حتى شرع في عـد المساوي، ولعلـه يرجـع إلى الحق ويعيد سعة اسعاده ووفاقه إلى الأوفق إن شاء الله».

قلت: وقد قيـل في وصف دمشق ومدحها شيء كثير، مـن النظم والنثر واشتمل ماجمعته في أول تاريخ دمشـق على قطعة كبيرة حسنة، من ذلك ماوصـف شيخنا أبو الحسن علي بـن محمد السخاوي رحمه الله في مقـامة تشتمل على المفاخرة بين دمشق ومصر، ووصف كـلا من البلدين بما يليق به، وكـان أول ماقدم دمشـق يذمها في مكـاتباته إلى مصر نظما ونثـرا حبا للوطـن، ثم لما استقـر فيها قرت عينـه وفضلها في بعض مكـاتباتـه، وقد ذكرت كل ذلك في جـزء مستقل به، وأما القاضي الفاضـل رحمه الله فقد قال في بعض مكاتبـاته إلى مصر:« ومما أسر به قلبه الكريـم أنني وصلت إلى دمشق المحروسة حين شرد بردهـا، وورد وردها، واخضر نبتها، وحسن نعتها، وصفـا ماؤهـا وصفا دواؤها، وتغنـت أطيارهـا، وتبسمت أزهـارها، وافتر زهر اقحـوانها، فحكى ثغور غـزلانها، ومالـت قضب بانها، فـانثنت تثني ولـدانها، فلما قربت مـن بساتينها ولاح لي فيـح ميادينها، وتـوسطت جنة واديها، ورأيـت ماأبـدعه الله فيهـا، سمعت عنـد ذلك حمامـا يغرد، وهزارا يشـدو ويردد، وقمريـا ينوح وبلبلا بـأشجانـه يبوح، فوقفـت أثني

على باريها، وأكاد بالدمع أباريها، أسفا على أيام خلت بعدما حلت منها وفيها، فعند ذلك عاينت روحي وزال أنيني ونوحي:

وكانت النفس قد ماتت بغصتها

فعند ذلك عادت روحها فيها

قلت: ووصف أيضا دمشق من أهل مصر من يرجع إلى قوله ويرضى بحكمه، لفضله وفصله، وهو الوزير العادلي صفي الدين أبو محمد عبد الله بن علي المعروف بابن شكر في كتاب البصائر له فقال:« دمشق نزهة الأبصار، وعروس الأمصار، ومجرى الأنهار، ومغرس الأشجار، ومعرس السفار، ومعبد الأبرار المستغفرين بالأسحار، ظلها الممدود، ومقامها المحمود، وماؤها المسكوب وعيبها المسلوب، ومحاسنها المجموعة، وفضائلها المروية المسموعة، ودرجتها المرفوعة، وفاكهتها الكثيرة لامقطوعة ولاممنوعة، ونسيمها العليل، وهجيرها الأصيل، وماؤها السلسبيل، وقد شرفها الله تعالى بالذكر في كتابه، وآوى إليها من اختار من أنبيائه وأحبائه، فقال تعالى في كتابه المبين:(وآويناهما إلى ربوة ذات قرار ومعين)[٣٢]ولم تزل مقر البركات ومعدن النبوات، ومنزل الرسالات، ومسكن أرباب الكرامات، وورد في تفضيل بقعتها من الأخبار مالايشك في صحة اسناده، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم:« الشام صفوة الله من بلاده، فيها خيرة الله من عباده»، ونبه في خبر آخر على عظم فضله، فقال:« ان الله تكفل لي بالشام وأهله»[٣٢] وبارك في سكناها ورغب في سكناها أهل الاسلام بقوله عليه السلام:« البركة في الشام» وذهب بعض المفسرين من أهل الاجتهاد إلى أنها(ارم ذات العماد التي لم يخلق مثلها في البلاد)[٣٣].

قال العماد: ولما أنعم الله تعالى علي بإسكاني في فنائها، وتخيري لبنائها ونزهتي في أفنائها، وأنسي بانسانها، مضيت إلى جامعها الجامع، وشفعت

بـادراك البصر منـه ادراك المسامـع فلما وصلـت، وحللـت الحبى لـديـه، رأيت مـرأى صغر الروايـة، ورونقا حصل مـن الحسن على النهايـة، ونورا يجلـو الأبصار، وجمعـا يفضـل على جموع الأمصار، وعبـادة مـوصولـة على الاستمرار، وقرآنا في آناء الليل وأطراف النهار، ومنقطعين إليه قد انفقوا في الاعتكـاف به نفـائس الاعمار، والبركات تحف بجـوانبه، والعلـوم تنشر في زواياه ومحاربـه، والأحاديث عـن رسول اللـه صلى الله عليه وسلـم تسند وتروى، والمصـاحف بين أيدي التـالين تنشر فلا تطوى، واعـلام البر فيه ظـاهرة فـلا تخفى ولاتـزوى، والخلق منقسمـون إلى حلق، قـد نبذ أهلهـا ماوراءهـم من العلق، والاسلام فيه فاش، والجهل به متلاش، وهو مما بناه الاولون لعبادتهم، وجعلوه ذخرا لآخرتهم، ومـابرح معبدا لكل ملة، اتخذته المجوس واليهود والنصارى قبل الاسـلام هيكلا وقبلة، وهو بيت المتقين، وسوق المتصدقين، ليله للمتهجدين، ونهاره للعلماء المجتهدين».

قال:« وعاشرت أهلها وباشرتهم، ثم كاثـرتهم وكاشفتهم، فرأيت سادة أدباء، وعلما نجبـاء، ورأيتهم يتناظـرون في الفقه مناظـرة الوالد مـع ولده، ويقفون عنـد كتاب الله، فـلا يعدلون عـن واضح جدده، ويفسرونـه عن علم واستبصار، ويحتـاطون في علمهم بصحيح الأخبـار، ويتبعون ماوردت به ثقاة الآثار، وعـامتهم مشغولون بالمعاش، آخذون مـن زينتهم عند كل مسجـد أفضل الـرياش، لايخوضـون في لغـط ولا إكثار، ولايجتمعـون على فساد نية في مقيم ولابعيد الدار».

قـال:« فـأقمت منهـا في أشرف البلـدان، التـي هي انمـوذج الجنـان، وعنوان الـدار التي خازنها رضوان، والقلـوب فيها عند ذكر اللـه حاضرة، والنفوس بالخير دون الشر آمرة».

فصل

في باقي حوادث هذه السنة

قال العماد: كانت إربل ومايجري معهـا من البلاد والقلاع من ولايات الموصل غير معدودة في ولاية السلطـان، فأرادصـاحب إربـل أن ينفرد عنـه ويستبد بـالبلاد فـاعتزى الى السلطان وكـاتبه وطلـب منه منشـورا ببلاده فكتبـه له وفيـه:« إن الله لما مكـن لنـا في الأرض، ووفقنا في اعـزاز الحق، واظهاره لاداء الفرض، رأينـا أن نقدم فرض الجهاد في سبيل اللـه فنوضح سبيله، ونقبل على إعلاء كلمـة الدين وننصر قبيله وندعو أوليـاء الله من بـلاد الاسلام إلى غـزو أعدائه، ونجمـع كلمتهم في رفـع كلمته العليـا في أرضه على استنزال نصر من سمائه، فمن ساعدنا على أداء هذه الفريضة، واقتناء هـذه الفضيلة، يحظى من عـوارفنا الجزيلة بحسن الصنيعـة ونجح الـوسيلـة، ومن أخلـد إلى الارض واتبـع هـواه، وأعـرض عن حـق دينـه بالاقبال على باطل دنياه، فإن أنـاب قبلناه وإن أصر على غوايته أزلنا يده وعزلناه» وتفصيل ماكتب في منشـوره: إربل وقلعتها وأعمالها جميع ماقطعه الـزابي الكبير: شهـرزور وأعمالها معـايـش بيت قفجـاق، معـايـش بيـت القرابلي، الدشت والزرزارية.

قال: وفي هـذه السنة مستهـل جمادى الآخرة تـوفي صاحـب ماردين، وهو قطـب الدين ايلغـازي بن البى بن تمرتـاش بن ايلغازي بـن أرتق، والأمراء الأرتقية هـم الذين رتقوا فتـوق الاسلام أولا، وكانوا يتـولون بيت المقدس وحموه من الافـرنج قبل المصريين، وإنما أخذه الفـرنج سنة اثنتين وتسعين وأربعمائة مـن المصريين، فبقـي السـاحل كلـه مـع أهـل الشرك فحمت الأرتقية ديـار بكر وما والاها، وحلب وأعمالها، وتوارثـوا ديار بكر كـابرا عـن كـابـر إلى أن انتهى إلى هـذا قطـب الـدين أعمال ميـافـارقين وماردين، فلما مـات بقيت على ولده وله عشر سنين، وانتهـى إلى ابن عمه

نور الدين محمد بن قرا أرسلان بن داود بن سليمان بن أرتق حصن كيفا وخرتبرت، والبلاد التي تناسبها، وأضاف السلطان إليه آمد، وقد كان قطب الدين أولا على مصافاة صاحب الموصل لما بينهما من القرابة، ثم أذعن للسلطان ودخل تحت طاعته.

قلت: وفي هذه السنة أيضا توفي خليفة المغرب يوسف بن عبد المؤمن ابن علي، وولي ابنه يعقوب.

قال القاضي ابن شداد: وبعد عود السلطان من حصار الكرك وصل رسل الخليفة ومعهم الخلع فلبسها السلطان وألبس أخاه العادل وابن أسد الدين خلعا جاءت لهما، ثم خلع السلطان خلعة على نور الدين بن قرا أرسلان، وأعطاه دستورا فسار إلى بلاده ووصلت رسل زين الدين مستصرخا إلى السلطان يخبر أن عسكر الموصل وعسكر قزل نزلوا على إربل مع مجاهد الدين قايماز، وانهم نهبوا وحرقوا، وانه نصر عليهم وكسرهم، فلما سمع ذلك سار من دمشق يطلب البلاد، وتقدم إلى العساكر فتبعته وسار على طريق المغار ويبوس البقاع إلى بعلبك، ومرض العماد فانقطع بها، وسار السلطان إلى حمص، ثم حماة فأقام بها إلى أن شفي العماد، ولحقه بها، وكان الأجل الفاضل بدمشق، فأرسل الحكيم ابن المطران واسمه أسعد بن الياس إلى العماد ببعلبك لما سمع بمرضه، فسار من دمشق إلى بعلبك في يوم وليلة، وعمل معه عمل من طب لمن حب، فبرئ بعون الله تعالى، فرجع إلى دمشق، فلما استقام مزاجه، رحل إلى السلطان فوافقه بحماة.

ودخلت

سنة احدى وثمانين

قال العماد: والسلطان مخيم بظاهر حماة ،فسار إلى حلب وتلقاه أخوه العادل واجتمعت له بها العساكر فخرج منها في صفر لقصد الموصل، فسار وقطع الفرات، وأقام العسكر ثلاثة أيام للعبور بها، وكان السلطان قد سير إلى معاقل الفرات وقلاعه، ونواحيه وضياعه، وأمر أهلها بعمارة كل سفينة في الفرات وزورق ومركب، وجمعها من كل مشرق ومغرب، ثم وصل إلى حران، وفيها مظفر الدين بن زين الدين، وهو أخو زين الدين يوسف صاحب إربل، وقد كان أول من دخل في خدمة السلطان، أول ماقصد تلك البلاد في المرة الأولى، واقتدى به أخوه وغيره من أصحاب الأطراف في الانتهاء إلى السلطان، وحضر معه حصار عدة بلاد كالموصل وسنجار وآمد وحلب، وأظهر من المودة فوق ماكان في الحساب، وكان كثير الحث للسلطان على المسير إلى الموصل، هذه المرة برسوله وكتابه وقال رسوله للسلطان إن مظفر الدين إذا عبرتم الفرات يستدرك كل مافات، ويقوم بكل مايحتاج إليه في تلك البلاد من النفقات والغرامات والأزواد، وتقدم يوم الوصول إلى حران خمسين ألف دينار، وكتب خطه بذلك، فلما وصل السلطان إلى حران لم ير منه ما التزمه الرسول، فارتاب به وظن أنه مال مع المواصلة، ووشت الأعداء فيه بذلك وأن نيته قد تغيرت، فحلف للسلطان أنه لم يتغير وأن ماالتزمه الرسول لم يكن بأمره وهو ابن ماهان، فانعزل عنده عن مرتبته وهان، فقبض السلطان على مظفر الدين ليتبين امره، وشاور فيه أصحابه فأشار بعضهم باتلافه، وبعضهم باستبقائه واستئلافه فعفا السلطان عنه على أن يسلم إليه قلعتي الرها وحران، ففعل ذلك وهو مسرور ببقاء نفسه، ثم أعيدت إليه القلعتان في آخر السنة لما رأى السلطان من حركاته المستحسنة.

قال القـاضي ابن شداد: وسـار السلطان حتـى أتى حران على طـريق البيرة والتقاه مظفر الدين بالبيرة في ثاني عشر المحرم، وكان قد وصل إليه عز الدين بـن عبد السلام، يعني، الموصلي رسولا واسمه ابـراهيم بن علي ابن عبد السلام، ويكنى بأبي الخليل، فلقيه بحماه يعتذر مما جرى، فأعطاه دستورا بعد أن أكرمه، وسار من غير غرض.

قلت: وصحـب ابن عبد السلام في هـذه السفرة من الموصل عمـر بن محمد المعروف بابن الشحنة، فمدح السلطان بقصيدة أولها:

علىالحي مـــن وادي الغضـــا إذ تفـــرقـــوا

ســـلام مشـــوق قـــد بـــراه التشـــوق

فلما بلغ مديحها إلى قوله:

وقـــالـــت لـــي الآمـــال إن كنـــت لاحقـــا

بـــأبنـــاء أيـــوب فـــأنـــت الموفـــق

قال له السلطان: لقد وقفت وأجازه جائزة سنية.

ثم قال القـاضي: وتقدم السلطان إلى سيف الـدين المشطوب أن يسير في مقـدمـة العسكـر إلى رأس عين، ووصـــل السلطـان حـران في الثـاني والعشرين من صفر، وفي السادس والعشرين منـه قبض على مظفر الدين لشيء كـان جرى منـه، وحديـث كان بلغـه عنـه رسولـه، ولم يقف عليـه وأنكره وأخذ منه حـران والرها، ثم أقام في الاعتقال تـأديبا له إلى مستهل ربيع الأول، ثـم خلع عليـه وطيب قلبـه وأعاد عليـه قلعة حـران وبلاده التي كـانت بيده، وأعاده إلى قـانونه في الاحترام والاكرام، ولم يتخلـف له سوى قلعة الرها ووعده بها، ثم رحـل السلطان ثاني ربيع الأول من حران إلى رأس عين، ووصله في ذلـك اليوم رسول قليج أرسـلان يخبره ان ملوك

الشرق بأسرهم قد اتفقت كلمتهم على قصد السلطان إن لم يعد عن الموصل، وماردين، وأنهم على عزم ضرب المصاف معه إن أصر على ذلك، فرحل السلطان يطلب دنيسر فوصله ثامن ربيع الأول عماد الدين ابن قرا أرسلان ومعه عسكر نور الدين، فالتقاهم السلطان واحترمهم ثم رحل من دنيسر نحو الموصل، حتى نزل بموضع يعرف بالاسماعيليات، فرتب الموصل بحيث يصل من العسكر كل يوم نوبة جريدة تحاصر الموصل، فبلغ عماد الدين بن قرا أرسلان موت أخيه نور الدين، فطلب من السلطان دستورا طمعا في ملك أخيه، فأعطاه دستورا.

وقال العماد: خرج السلطان من حران في ربيع الأول فمر على رأس عين ودارا، فخرج اميرها بأصحابه في الخدمة، وقدم عماد الدين أبو بكر ابن قرا أرسلان بعساكر ديار بكر وآمد نيابه عن أخيه نور الدين فإنه كان مريضا، ثم رحل إلى نصيبين، وتنكب طريق الدولعية فنزل على بلد آخر ربيع الأول، ثم توجه إلى الموصل وخيم على الاسماعيليات، وقدم على السلطان زين الدين صاحب إربل، وأول مابدأ به السلطان يوم نزوله على بلد قبل الاسماعيليات ارسال ضياء الدين أبي الفضائل القاسم بن يحيي بن عبد الله الشهرزوري إلى الخليفة بما عزم عليه من حصر الموصل، فإن أهلها مواصلون الأعاجم، وخاطبون لسلطانهم القائم، وناقشوا اسمه في الدنانير والدراهم، وانهم يتعززون بالبهلوان، ويعجزون إلا عن الطاعة والإذعان، وانهم يرسلون الى الفرنج ويقوون نفوسهم على قصد الثغور، وتفريق الجمهور، وأنه ماجاء طمعا في استضافة ملك، ولااستزادة سلك، ولاقلع بيت قديم، ولاقطع اصل كريم، وإنما مقصوده الاصلي ومطلوبه الكلي ردهم إلى طاعة الإمام، ونصرة الاسلام، وكشف مااعتادو ه واعتودوه من الظلم والظلام، وكظمهم عن استحلال الحرام، وقطعهم عن مواصلة الاعجام، وإلزامهم بما يجب عليهم من حفظ الجار، وصلة الأرحام ،فهذا صاحب الجزيرة، وهو ابن أخي صاحب الموصل ولي عهد أبيه، لم يرع فيه ذمة أخيه، وأبعده عما استحقه بالارث

والتولية، وحرمه مايستوجبه من التربية والتلبية، وأخاف حرمه وقطع رحمه، ولو تمكن منه لأطاح دمه، ولولا خوفه من جانبه وتوقيه من دبيب عقاربه لما التجأ إلى هذا الجانب، ولما اختار الأجانب على الأقارب، وهذا صاحب إربل جار الموصل أبوه زين الدين علي هو الذي حفظ بيتهم، وخلف في إحيائهم ميتهم، وهذا ولده في جوارهم مسكوه بجورهم، وحديث صاحب الحديثة في حادثه لاتخفى، وعين من بتكريت من مخافتهم وآفتهم لاتكرى.

قلت: وفي بعض الكتب الفاضلية عن السلطان إلى الديوان:« وكان قد تحيز إلى الخادم في وقت حركته صاحب تكريت والحديثة وهو يستأذن في استتباعهما بحكم التقليد الذي تناول هذا وغيره، ولم يستأذن في ذلك استئذانا مخصصا إلا لمحلهم من جوار دار الخلافة، ولأنهما مما يرى الخادم إضافته الى مايجري في خاص الديوان العزيز مع غيرهما مما يجري مجراهما في القرب من الجوار، والدخول في زمام شرف تلك الدار، فإن أذن له استثناهما في صلح إن تم معهم أوحماهما مع مباينيه إن اختار المشار اليهم البقاء عليها، وهذا برد شرف قد أعوزه علمه، وتاج إذا أسلمه الحظ الشريف نظم الفخار ومنتظمه».

وفي كتاب آخر:« وماكنا بشهادة الله في قتال المذكورين إلا كقاطع كفه ليسلم سائر جسمه، وكراكب حد السنان مضطرا في حكمه».

وأصحب العماد الرسول قصيدة مدح بها الصاحب مجد الدين أبا الفضل أولها:

قضى الوجد لي أن لا أفيق من الوجد

فيا ضلة اللاحي إذا ظن أن يهدي

- ٨٤٤٧ -

محبكم جلد على كل حادث
ولكن على هجرانكم ليس بنا الجلد
ببغداد حط وار حلكم ليخصكم
أبو الفضل مجد الدين بالفضل والمجد
رآه الإمام الناصر الدين ناصرا
فحاول تعويلا على نجده المجدى

ومنها:
إليك صلاح الدين ألجأ أمره
فحط ركنه والعقد بالشد والشد
مليك على حرب العدو مصمم
ومازال فيه غالب الجد والجند
تساور أفواه الجراح رماحه
مساورة الأميال للأعين الرمد
يحل المنايا الحمر بالكفر مجريا
دم الأصفر الرومي بالأبيض الهندي
ومن لأمير المؤمنين كيوسف
فتى في مراضيه بمهجته يفدي

قال: وشرع السلطان في إقطاع البلاد والتوقيع بها على الأجناد، وسير الأمير سيف الدين علي بن أحمد المعروف بالمشطوب الهكاري، ومعه الأمراء من قبيلته والأكراد من شيعته إلى بلد الهكارية، وجماعة من الأمراء الحميدية إلى العقر وأعمالها لاستفتاح قلاعها، واستغلال ضياعها، ونصب الجسر، وملك الأمر وعبره مظفر الدين صاحب حران وغيره من الأمراء، وخيموا بالجانب الغربي وكان الحر إذ ذاك شديدا، فأمر السلطان بالصبر عن القتال إلى أن يطيب الزمان، وأهل الموصل في الحصار، وأشير عليه بتحويل دجلة وكان ماؤها قد قل بطريق ذكره خبير بها زعيم أنه يمكن سد دجلة وسكرها وبثق فرضة اخرى وكسرها،

ونقلها وتحويلها إلى دجلـة نينوي، وتعطش الموصل إذا الماء عنهـا انزوى، وعرض ذلـك على رأي الفقيه العالم فخـر الديـن أبي شجاع ابن الـدهان البغدادي، وكان مهندس زمانه، وإنسان عين الفضل وعين انسانه، وكان منذ عهد قديم سكن الموصل في ظل كبير من أصحاب زين الدين علي، ولما سمـع بكرم السلطـان تفيأ بظلـه، وتعـرف إلى فضله، فصـدق المشير بذلـك وقال: هذا ممكـن ولايتعذر، ويتيسر ولايتعسر، ومـن كتاب عمادي إلى بغداد:« وذكر المهنـدسون أهل الخبرة انه يسهل تحويـل دجلة الموصل عنها بحيـث يبعد مستقـى الماء منها، وحينئـذ يضطر أهلهـا إلى تسليمها بغير قتال، ولاحصول ضرر في تضييق ولانزال».

فصل

فيما فعل السلطان في أمر خلاط وميافارقين وغيرهما من البلاد

قال العماد: ثم وصل خبر وفاة شاه أرمن صاحب خلاط، فتحول اليها العزم، وترجح بها الحزم، وكان ورود خبر موته في العشرين من ربيع الآخر، وكان موته في التاسع منه، ولم يخلف ولدا ولا ذا قرابة يكون خلفا له فيها، ووردت كتب الأولياء من أهل بدليس وغيرها إلى السلطان يخطبونه لها، وهم خائفون من العجم أن يتولوها، فاختلف الناس على السلطان فمن مشير بالإقامة إلى انفصال أمر الموصل، ومن مشير بالمسير إلى بلاد الأرمن فإن الموصل غير فائتة، من قائل بانقسام العسكر في الجهتين فترجح رأي السلطان على المسير إليها، فكتب إلى الخليفة يطلب منه كتاب تقليد ببلاد الأرمن وديار بكر والموصل، فجاءه بعد فتح ميافارقين مثال شريف بتقليده النظر في أمر ديار بكر والنظر في مصالح أيتام ملوكها، ثم رحل السلطان عن الموصل في أواخر شهر ربيع الآخر، وقدم في مقدمته ناصر الدين محمد بن شيركوه ابن عمه، ومظفر الدين صاحب حران وأمرهما أن يسيرا إلى خلاط من أقرب الطرق، فلما وصلا وجدا سيف الدين بكتمر أحد مماليك شاه أرمن قد دخلها وحماها، وتغلب عليها، وجاء بهلوان في عساكر الشرق وهو شمس الدين أبو جعفر محمد بن ايلدكز متولي تلك البلاد، فنزل من الجانب الآخر، وكان وزير خلاط مجد الدين بن الموفق بن رشيق يظهر للسلطان المودة والمناصحة، وهو على خلاف ذلك، وكتب إلى ناصر الدين أن يقيم على القرب، فهو اشد للارهاب والرعب، ففعل ولو خلاه لسبق إليها، وقيل إن هذا الوزير ايضا أنفذ الى بهلوان، وأمره بالاتيان، وأظهر له المودة والاحسان، ولما تمادى الزمان، وقرب منها البهلوان راسله بكتمر وحمل

إليـه مع ابنتـه زوجـة شـاه أرمن الأمـوال التـي أودعـت المخزن، ونـدب السلطان إليها الفقية ضياء الدين عيسى، فدخلها وتخللها وتأملها وتكلم مع الوزيـر وشاوره فأحال الحال على البهلوان، وأنه جـاء ليتملك المكان، ولـو استعجلتـم لسهـل مـاصعب الآن وهـان، ثـم جـرت مـراسلـة بين السلطان والبهلوان، وانفصل الأمر كأنه ماكان.

وقال القاضي ابـن شداد: وفي ربيع الآخر توفي صـاحب خلاط، وولي بعـده غـلام يدعـى بكتمر، وهـو الـذي كـان وصل رسـولا إلى خـدمـة السلطـان بسنجـار، فعدل وأحسـن إلى أهـل خـلاط، وكان متصـونـا في طـريقته، فـأطاعـه الناس ومـالوا إليـه، ولما ملك خـلاط امتدت نحـوه الأطماع، فسار نحـوه البهلوان بن ايلدكـز، فلما بلغه ذلك سير إلى خـدمة السلطان مـن يقرر معـه تسليم خـلاط إليه، وانـدراجه في جملتـه، فطمع السلطان بخـلاط، وارتحل عن الموصـل متوجها نحـوها وسير إليـه الفقيه عيسى وغـرس الدين قليـج لتقرير القـاعدة وتحريرهـا، فوصلت الـرسل، وبهلوان قد قارب البلاد جدا، فخـوف بهلوان من السلطان وأشعره أنه إن قصده سلم البلاد إلى السلطان، فطلب بهلـوان اصلاحه وزوجه ببنت لهم وولاه، وأعاد البلاد إليـه واعتذر إلى رسل السلطان وعـادوا من غير زبدة، وكان السلطـان قد نـزل على ميافـارقين فحاصرهـا، وقاتلهـا قتالا عظيما، ونصب عليها مجانيق وملكها في آخر جمادى الأولى.

قال العماد: واستشعـر ملوك ديار بكـر من حـركة السلطان، وكـان قد مات صـاحب ماردين كما تقدم، وبقيت الـولاية لولـده الكبير وله عشر سنين، وكان القـائم بتدبير ملكـه نظام الـدين بـن البقش، ومـات أيضا صاحب آمد نـور الدين محمد بن قر ا أرسـلان رابع عشر ربيع الأول من هـذه السنة، وتـولى ابنـه قطب الـديـن سكمان، فـاحترزوا من السلطـان، وخافوا أن يسترد بـلاد آمد منهم، فنفذ السلطـان إليهم شمس الديـن بن الفـراش ليختبر حـالهم في المحاربـة والمسـالمة، فـوجـدهم على الطـاعـة

مقيمين، وإليـه راغبين، ومنه راهبين، ووصـل السلطـان في جمادى الأولى إلى ميـافارقين، وكـان دخلهـا من أمـراء صـاحـب مارديـن أسـد الديـن يـرنقـش، واستعصى فيهـا على السلطـان، فحـاصره وقاتلـه، ثـم رأى أن القتـال يطـول، فـراسـل أميرهـا الأسـد، ورغبـه في الموادعـة، ونهاه عـن المقاطعـة، وكان في المدينـة خاتـون ابنة قـرا أرسلان، وهـي زوجة قطـب الديـن صاحـب مارديـن الذي تـوفي، فأحـال الأسد الأمـر على الخاتون، فـراسلها السلطـان، ورغبهـا وضمن لها كـل ماتطلبـه منـه، ووعدهـا أن يصاهر إليها، فما زال بهاوبا لأسدحتى لانـا، فقرر السلطان لها كل ماكان باسمهـا واسم خدامهـا، وطلبت حصن الهتـاخ ليكون لها عشا لـلافراخ، وزوج السلطان ابنـه معز الديـن اسحاق بإحـدى كرائمها، وأبـرم العهد، وأحكـم العقـد، وسـارع السلطـان إلى نـداء كـل مـا اقترحـوه وفتحـت ميافـارقين، وأقبل صاحـب آمد قطب الديـن سكمان بن نور الـدين على صغر سنه إلى خدمـة السلطان فأكرمه وأعاده إلى منصبـه وكان معه وزيره قوام الدين أبـو عبد الله محمد بن سماقة، وقتل غيلـة في رمضان من هذه السنة كما سيـأتي، ثم سـار السلطان لقصـد الموصل، وولى تلـك الديـار مملوكه حسام الدين سنقر الخلاطـي، فنزل السلطان على دجلة بكفر زمار بقرب الموصل في شعبـان، وعزم على أنه يشتى في ذلك المكـان، فخرجت مـن الموصل نسـاء باكيـات متعـرضات للشفـاعـة فأكـرمهن السلطـان، ووعدهن بالاحسـان، وقال: قد قبلت شفاعتكن، لكـن لابد من مصلحة تتم ومصـالحة نفعها يعم، واستقر الأمـر على ان يكون عماد الديـن زنكي صـاحب سنجـار أخو صـاحب الموصـل وسيطا في اصـلاح ذات البين، وحكما فيما يعود لمصلحة الجانبين، فـإنه كانت شفاعتـه سابقة ورأى بهذا الرأي قضـاء الحقين، وتعطف وتلطف أجلهن واجـلالهن، وأتى بالكـرامة بما يليـق بأمثـالهن، وكـن ظنـن أنه لايقيـم لحرمـة قصـدهن، ولايصـدق ظنونهن، وأنه لايعرف حقوقهن، ويقضي بمكـارمه ديونهن، ولايشتغل بأمر لايـؤذن بمرادهـن، فـدخلـن البلد متلـومـات متـذممات، وبلطـف اللـه لاانذات معتصمات.

فصل

في انتظام الصلح مع أهل الموصل ومرض السلطان المرضة المشهورة بحران

قال العماد: وكـان السلطان لما دخل شهـر رمضان داوم قـراءة القرآن، وحفظه واشتغـل بالصيام، والتقليـل من الطعـام، فظهر انزعـاجه، وتغير مزاجه وتعذر علاجه، وطـال مرضه، وندم على رد السفراء، وسير إلى عماد الدين صاحب سنجـار في انفاذ رسله ليوعز بكل مايعود بسـؤله، فوصل رسوله شمس الـدين بن الكافي، وكان من قبل قـد سبق القول في تسليم بلاد شهـرزور وقلاعهـا وحصونها وضياعهـا، وكذلـك ماوراء الـزابين من البوازيج والرستاق وبلد القرابلية وبنـي قفجاق، فدخل شمس الدين بن الكافي وشمس الديـن قاضي العسكر من جانبنا إلى الموصـل لأخذ العهد على هذا الملتزم، ورحل السلطان قبل عيد الفطر بيوم وهومن بحر بحرانه في عـوم، وخيمنا على نصيبين في شـوال، ولم نترقب عـود الـرسول بنجـاز الأشغال بل كـان الارتحال على الارتحال، ثم استمر الصلح وصلـح الأمر، وخطب في جميع بـلاد الموصل للسلطان بعد قطع خطبـة السلجوقية، وفي ديار بكـر أيضا والـولايات الأرتقيـة، وضرب باسمـه الدينـار والدرهـم، وانحل الاشكال وكشف المبهم.

وكتب العماد عن السلطان كتابا الى أخيـه سيف الاسلام باليمن بشرح الحال وفيه:« ونـزل صاحب الموصـل عن جميـع ماوراء الزاب مـن البلاد والقـلاع والحصـون والضيـاع وشهـرزور ومعـاقلهـا وأعمالها، وولايـة بنـي قفجاق وولاية القرابلي والبوازيج وعـانة، وقررنا عليه الموصل وأعمالها على أنـه يكون بحكمنـا، وينفذ عسكـره إلى خـدمتنا وتكـون الخطبة والسكـة باسمنا، وان يطلق المظـالم، ولايرتكب المآثم، وقد حصل لنـا من صاحب

الموصل ومن جميع من بالجزيرة وديار بكر الطاعة والسكة والخطبة، وعمت الهيبة والرهبة والعزائم إلى الجهاد في سبيل الله نوازع، وقد زالت العوائق وارتفعت الموانع».

قال: ونفذ السلطان إلى شهرزور مملوكه مجاهد الدين أياز سربك فتملأ بها وتملك، ونال المقاصد وأدرك، وكان التركهان الايوانية مستولية بها فشتت شملها وندب للنظر في تلك الأعمال القاضي شمس الدين بن الفراش، وأقطع البوازيج لبعض خواصه المماليك وسير إلى البلاد نوابه، ورتب فيها لإقامة سنن العدل والاحسان أصحابه، ووقف ضيعة في البوازيج تعرف بنا فيلا على ورثة شيخ الشيوخ ببغداد.

وقال القاضي ابن شداد: لما أيس السلطان من أمر خلاط عاد إلى الموصل، فنزل بعيدا عنها وهي الدفعة الثالثة بموضع يقال له كفر زمار، وكان الحر شديدا فأقام مدة، وفي هذه المنزلة أتاه سنجرشاه من الجزيرة واجتمع به وأعاده إلى بلده، ومرض السلطان بكفر زمار مرضا شديدا خاف من غائلته فرحل طالب حران وهو مريض، وكان يتجلد ولم يركب في محفه، ووصل حران شديد المرض، وبلغ إلى غاية الضعف وأيس منه، وأرجف بموته، ووصل اليه أخوه العادل من حلب، ومعه الأطباء.

قال: وكان سبب صلحه مع المواصلة أن عز الدين صاحب الموصل سيرني إلى الخليفة يستنجد به، فلم يحصل منه زبدة، وسير إلى العجم فلم يحصل منهم زبده، فلما وصلت من بغداد وأديت جواب الرسالة أيس من نجده، فلما بلغهم مرض السلطان رأوا ذلك فرصة وعلموا رقة قلبه وسرعة انقياده في ذلك الوقت، فندبوني لذلك الأمر وبهاء الدين الربيب وفوض الي أمر النسخة، وقالوا: أمض مايعمل جهدكم وطاقتكم إليه، فسرنا حتى أتينا العسكر، والناس كلهم أيسون من السلطان، وكان وصولنا في أوائل ذي الحجة، فاحترمنا احتراما عظيما، وجلس لنا، وكان

أول جلوسه من مرضه وحلف في يوم عرفة، وأخذنا منه بين النهرين أخذها من سنجرشاه وأعطاها المواصلة، وحلفته يمينا تامة، وحلفت أخاه العادل، ومات قدس الله روحه وهو على ذلك الصلح لم يتغير عنه، وسرنا عنه، وهو بحران وقد تماثل، ووصله خبر موت ابن أسد الدين صاحب حمص، وكانت وفاته يوم عرفة، ونحن في العسكر، وجلس العادل في العزاء، وفي تلك الأيام كانت وقعة التركمان والأكراد، وقتل بينهم خلق عظيم، وفي هذا الشهر وصل خبر وفاة بهلوان بن ايلدكز وكانت وفاته في سلخ ذي الحجة.

قال العماد: وأقام السلطان على نصيبين أياما قلائل، ثم رحل إلى حران فألقينا بها عصا النوى، والقلوب بمرض السلطان متخاذلة القوى، متواصلة الجوى، والفضل خائف من كساده، آسف على عتاده، مشفق من انخفاض قدره، وانقراض عصره، والسماح يقول هذا أوان كسوف سمائي، ونضوب مائي، والدين يندب، والملك يصخب، والايدي إلى الله تعالى مرفوعة، والنيات بالاخلاص مشفوعة، والكفر في أراجيف، والقدر في تصاريف والسلطان كلما زاد ألمه زاد في لطف الله أمله، وكلما بان ضعفه، قوي على الله توكله، وأنا ملازمه ليلا ونهارا سرا وجهارا، وهو يملي علي في كل وقت وصاياه، ويفرق بقلمي على عفاته عطاياه، ومن جملة ذلك أنه اشتدت به الحال ليلة أيس بها منه الأطباء، وغلب القنوط وعدم الرجاء، فلما أصبح اجتمع المعتفون والوافدون إلى بابه والقاصدون المرتجون جني جنابه وضجوا ضجة ارتجت منها الدهماء، ولانت لسماعها الصخرة الصماء، فسأل عن ذلك، فقيل هؤلاء وفدك قد اجتمعوا على بابك، متأسفين على مانابك، فدعاني وأمرني بكتب أسمائهم، وتفريق مااجتمع في خزانته من المال عليهم، وأمسينا وما على الباب سائل، وكنا نظن أن مابه من الألم شغل شاغل، فوجد بتلك السماحة راحه، واستمر مدة استمرار مرضه على بذل جوهر ماله وعرضه، وكان خلقه أحسن ماكان في حال الصحة، يخاطبنا بسجاياه

السهلة السمحة، ولايخلو مجلسه من ذوي فضل، وأولي نباهة ونبل يتجاذبون بحضرته أطراف الفوائد، ويهزون لمكارمه أعطاف المحامد، فتارة في أحكام شرعية ومسائل فقيهة، وآونة في صناعات شعرية، وألفاظ عربية، ومعان أدبية، ومرة في أحاديث الأجواد وشيم الأمجاد، ودفعة في ذكر فضائل الجهاد، وفرائض التأهب والاستعداد، وينذر أنه إن خلصه الله من نبوة هذه النبوة، وأعفاه من كدر هذه المرضة ومرارتها بالعافية الصافية الحلوة، اشتغل بفتح البيت المقدس، ولو ببذل نفائس الأموال والأنفس، وأنه لايترك شيمة الجود والسماحة بالموجود، والوفاء بالعفود، والمحافظة على العهود، وانجاز الموعود، قال: وربما استروح في بعض ساعات الليل أو النهار إلى السماع لاشارة الأطباء لأجل التفريج والامتاع، ولقد كان ذلك المرض محيصا من الله للذنوب وتنزيها، وتذكرة موقظة من سنة الغفلة وتنبيها.

قال: ولما سمع العادل في حلب بمرض أخيه السلطان،ووصوله إلى حران، بادر بالوصول، وصادف وقت القبول، وقام بضبط الأمور وسياسة الجمهور، والجلوس في كل يوم في النوبتية السلطانية لتولي مصالح الرعية، وإقامة وظيفة السماط، والعمل في كل يوم بالاحتياط، والتصدي لكشف المظالم، وبث المكارم، وتنفيذ مايخرج من المراسم، ورقع كل خرق، ورتق كل فتق، وحفظ المهابة، والقيام عن السلطان في كل مهم يحسن النيابة، ولقد نفعنا حضوره ورفعنا تدبيره فقد كنا على خوف من إرجاف يقوى، وانتشار خبر سوء لايطوى، لاسيما إذا خرج الاطباء وقالوا: مافيه أمل، ولكل عمر أجل، فهناك ترى الناس يستشعرون، وبإبعاد ما يعز عليهم من أعلاقهم ودوابهم يستظهرون، فزال بحضور العادل كل مخافة، وسلم الله برأفته من كل آفة، وكان الملك العزيز عثمان ولد السلطان مع أبيه مقتديا بمعاليه، مقتفيا لمراضيه، وكان من جملة وصاياه عند إشفائه، وإرجاء ترجي شفائه، إن أدركني الأجل المحتوم، ودنا اليوم المعلوم، فقد خلفت أبا بكر وعمر وعثمان وعليا،

وكلهم أراه بمرادي في إقامة الجهاد مليا، فعنى بأبي بكر سيف الدين أخاه، وبعمر تقي الدين ابن أخيه، وبعثمان وعلي ولديه الملكين العزيز والأفضل، ورأى عليهما بكفالة سيف الدين وتقي الدين في الشام ومصر المعول، وأقام العادل إلى أن وضح المزاج، وصح المنهاج، وطابت القلوب، وغابت الكروب، ثم وصل مع أخيه الى حلب وتم معه الى حمص ودمشق، وهب له نسيم مصر فاستجد إلى نشره النشق، وسيأتي ذكر مضيه الى مصر مع الملك العزيز في سنة اثنتين وثمانين، ووصل الملك الأفضل من مصر بعده الملك المظفر تقي الدين.

قال العماد: وكانت صدقاته الراتبه دارة، وبالأبرار بارة، على أن جوده مستوعب للموجود، ولايترك فضلا للوفود ، ولما مرض وعرض له من الالم ماعرض قال لي: أكتب إلى الولاة والنواب بالديار المصرية والشامية ان يتصدقوا على الفقراء والمساكين من المال المعد للحمل بها نص على قدره في التعيين، فلم يبق في الممالك إلا من وصل إليه نصيب، ودعا بالصالحات من الله لدعائه مجيب، فدفع بالصدقة البلاء، ورفع بأصدق الولاء، ونظر الله إلى النيات، وأسنى سنا مننه السنيات، ومن جملة تلك الصدقات أنه أمرني أن أكتب إلى نائبه بدمشق الصفي بن القابض أن يتصدق بخمسة آلاف دينار صورية، فقلت ماعنده غير دنانير مصرية، فقال يتصدق بها مصرية، خمسة آلاف لنفوز من الثواب بأضعاف.

قال: ولما امتد زمان مرضه أمر ببناء دار عند سرادقه وحمام، فبنيت في أربعة أو خمسة أيام، وكان قد استحضر من دمشق ولديه الصغيرين تورانشاه وملكشاه وأمهما، فأسكنهم فيها مدة مقامه، وسماها دار العافية للبرء فيها من سقامه، ثم أخلاها لمن ينزل بها ضيفا، وجعلها للآوين إليها وقفا، وبعدها اتصلت المواصلة بين السلطان والمواصلة، وأهدى السلطان لهم هدايا عظيمة لصاحب الموصل ولوالدته ولصاحبته ولابنه نور الدين رحمه الله، وقوم ماسبره إليهم مايربي على عشرة آلاف دينار

سوى الخيل والطيب والشيء البديع والغريب، وجرى أمر المواصلة على السداد وتجهزوا في النصرة الناصرية على ماسيأتي شرحه إلى الجهاد، وأول بركات الاتفاق فتح البيت المقدس وسائر البلاد، وتجددت الفتوح، وانجدت الملائكة والروح وامتحت باليسر العسرة، وصحت بحطين الكسرة ، وخص الله السلطان، بفضيلة فتح القدس، وقضى حاجاته التي كانت في النفس، وسيأتي إن شاء الله شرح كل فتح في موضعه وكيف أشرق سناء النصر من مطلعه.

وكتب الفاضل من دمشق إلى تقي الدين بمصر:« ان العافية الناصرية قد استفاضت أخبارها، وفاضت أنوارها وآثارها، وولت العلة والحمد لله واطفئت نارها، وانجلى غبارها، وخمد شرارها، وماكانت إلا فلتة وقى الله شرها، وعظيمة كفى الاسلام أمرها، ونوبة امتحن الله بها نفوسنا فرأى أقل ماعندها صبرها، وماكان الله ليضيع الدعاء، وقد أخلصته القلوب، ولاليوقف الإجابة وإن سدت طريقها الذنوب، ولاليخلف وعد فرج وقد أيس الصاحب والمصحوب.

نعي زادفيه الدهر ميما
فأصبح بعد بؤساه نعيما
وماصدق النذير به لأني
رأيت الشمس تطلع والنجوما

وقد استقبل مولانا السلطان الملك الناصر العافية غضة جديدة، والعزمة ماضية حديدة،والنشاط إلى الجهاد والجنة مبسوط البساط، وقد انقضى الحساب وجزنا الصراط، وعرضنا نحن على الأهوال التي من خوفها كاد الجمل يلج في سم الخياط».

ومن كتاب آخر:« الأحوال بالحضرة مستقيمة، والنعمة بالعافية عظيمة، والبقية الموهوبة من العمر الناصري كريمة القيمة، عرف وعرف

الناس شكرها، ولزم ولـزمـوا قدرهـا، فسيـوف الجهاد قـد كادت تهتـز في أغمادهـا، وخيـل الله قـد كـادت تنـادي أهلهـا اركبـي لميعاد طـرادهـا، والمسجد الاقصـى مبشر تأنيسه بها استوحـش منه من القـرآن وتطهيره مما استولى عليه من رجس الصلبان».

- ٨٤٥٩ -

فصل

في باقي حوادث هذه السنة ومن توفي بها من الأعيان

قال العماد: في هذه السنة توفيت الخاتون العصمية بدمشق في ذي القعدة، وهي عصمة الدين ابنة معين الدين أنر، وكانت في عصمة الملك العادل نور الدين محمود بن زنكي رحمه الله، فلما توفي وخلفه السلطان بالشام في حفظ البلاد، ونصرة الاسلام، تزوج بها في سنة اثنتين وسبعين، وهي من أعف النساء وأعصمهن وأجلهن في الصيانة، وأحرمهن، متمسكة من الدين بالعروة الوثقى، ولها أمر نافذ، ومعروف وصدقات، ورواتب للفقراء وادرارات، بنت للفقهاء والصوفية بدمشق مدرسة ورباطا.

قلت: وكلاهما ينسب إليها، فالمدرسة داخل دمشق بمحلة حجر الذهب قرب الحمام السركسي، والرباط خارج باب النصر راكب على نهر بانياس في أول الشرف القبلي، وأما مسجد خاتون في آخر الشرف القبلي من الغرب، فهو منسوب إلى خاتون أخرى قديمة تقدم ذكرها، وهي زمرد بنت جاولي أخت الملك دقاق لأمه، وزوج زنكي والد نور الدين رحمهم الله.

قال العماد: وذلك سوى وقوفها على معتقيها وعوارفها وأياديها، وكان السلطان حينئذ بحران في بحر المرض وبحرانه، وعنف الألم وعنفوانه، فما أخبرناه بوفاتها خوفا على تزايد علته، وتوقد غلته، وهو يستدعي في كل يوم درجا ويكتب إليها كتابا طويلا، ويلقى على ضعفه من تعب الكتابة والفكرحملا ثقيلا، حتى سمع نعي ناصر الدين محمد بن شيركوه ابن عمه فنعيت اليه الخاتون، وقد تعدت عنه اليهما المنون، وكانت وفاة ناصر الدين بحمص في تاسع ذي الحجة فجأة من غير مرض، وأجرى

السلطان أسد الدين شيركوه ولده على ماكان لوالده، ومقابلته بأحسن عوائده.

قلت: وقبر الخاتون المذكور في التربة المنسوبة إليها بسفح جبل قاسيون قبلي المقبرة السركسية، وأما ناصر الدين فنقلته زوجته ابنة عمه ست الشام بنت أيوب فدفنته في مقبرتها بمدرستها بالعوينة، فهو القبر الاوسط بين قبرها وقبر أخيها رحمهم الله، وكانت ست الشام كثيرة المعروف والبر والصدقات.

وكتب الفاضل إلى تقي الدين:« ورد الخبر عشية يوم الأربعاء الحادي عشر من ذي الحجة من حمص بأنه لما كان عشية يوم الأحد وقت الوقفة، انتقل الى رحمة الله ورضوانه المولى الأجل ناصر الدين محمد بن المولى أسد الدين رحمهما الله، بمرض حاد أعجل من لمح البصر، ومرد النظر، فإنا لله وإنا اليه راجعون، وشاهد المملوك كتابا من ولده أسد الدين شيركوه أحياه الله إلى كاتب أبيه رحمه الله يقول فيه: وكتبته وقد صار في حفرته، واستقر في قبره، فنسأل الله حسن المرجع والخلاص من هول المطلع، والمعونة على ساعة هذا المصرع، ونشكر الله ثم نشكره ونذكره بأحسن مايذكره به من يذكره، إذ وقى النفس الكريمة العالية الشريفة الناصرية، وقدم قبلها من لايسره التقدم بين يديه، وجعل الله انفسنا فداها فإن تلك نعمة علينا، كما هي نعمة عليه، ولافرق الله لهذا البيت شملا، ولاقضب له حبلا، وأعظم الله أجر الملك المظفر في ابن عمه، وامتعه ببقاء عمه، وأعانه من مقابلة مقدور الله بهمه ودهمه، فليس إلا التسليم لما لايستطيع الخلق له دفعا، وتفويض أمر هذه الأنفس إليه تعالى، فإنا لانملك لها ضرا ولانفعا، ولخوف المملوك ان يلتبس الخبر في مطالعه، ويحرف الكلم عن مواضعه عجل بالإنهاء والإشعار، وسبق بها لايسره السبق به من هذه الأخبار».

قال العماد: وفيها في جمادى الآخرة توفي أخو الخاتون المذكور سعد الدين مسعود بن أنر، ونحن قد فتحنا ميافارقين بها، ولقد كان من الأكارم الأكابر ومن ذوي المآثر والمفاخر، ومارأيت أحسن منه خلقا، وأزكى عرقا، ولم يزل في الدولتين النورية والصلاحية أميرا مقدما وعظيما مكرما، ولسفور فضائله ووفور فواضله، وجد شهامته، وحد صرامته، رغب السلطان وهو زوج أخته ان يكون هو أيضا زوج اخته فزوجه بالتي تزوجها مظفر الدين كوكبري بعده.

قلت: وهي ربيعة خاتون بنت أيوب عمرت إلى أن توفيت بدمشق بدار أبيها، وهي دار العقيقي في شهر رمضان سنة ثلاث وأربعين وستمائة، وهي آخر أولاد أيوب لصلبه موتا، وكان يحترمها الملوك من أولاد أخوتها وأولادهم ويزورونها، في دارها.

قال: وفيها توفي الأمير عز الدين جاولي، وهو من أكابر الأمراء، وله مواقف حميدة في الهيجاء يحسن بلاؤه ويصدق غناؤه، ولما عدنا بعد فتح ميافارقين إلى الموصل طرقه البلاء في طريقه، قفز بحصانه على بعض السواقي فعثر به وانكسرت رجله، ثم عملت عليه قدمه، واشتد ألمه، وطال به سقمه، وانتقل إلى دمشق وتوفي بها في آخر هذه السنة، أو في سنة اثنتين وثمانين، ولقد فجع الاسلام منه بذمر مشيح لذمار الكفر متيح.

قال: وفيها يوم الأربعاء ثامن رمضان قتل بآمد وزير ابن قرا أرسلان، وهو قوام الدين أبو محمد عبد الله بن سماقة، قتلته مماليك مخدومه غيلة، وتمحلوا له في مباغتته بالقتل حيلة، وذلك أنه كان جالسا في ديوانه وايوانه متصدرا بمكانته في مكانه، وعنده الأكابر والأماثل، فدخل عليه واحد منهم، وقال له: الملك يدعوك وحدك فقام فدخل الدهليز وقد أغلق الباب الذي يصل منه إلى الأمير، وأغلق وراءه الباب الآخر وقتلوه

ثم أخرجوا الصلاح من حبسه، وهو أحد الأمراء الأكابر، فقتل أولئك القاتلين، وكانوا به واثقين.

قال: وفيها توفي الفقيه مهذب الدين عبد الله بن أسعد الموصلي، وكان المدرس بها، وكان علامة زمانه في علمه، ونسيج وحده في نظمه، وقد أوردت من شعره في صدر الكتاب مايستدل به على فضله، وإنه ممن عقم الدهر بمثله، واشتريت كتبه بأغلى الأثمان، ولكم أخرج بحره قلائد اللؤلؤ والمرجان.

قال:وفي هذه السنة رد السلطان قلعتي: الرها وحران إلى مظفر الدين كوكبري بن زين الدين لتوفره في الخدمة على حفظ القوانين، وظهر منه كل ماحقق به الاستظهار، وأوجب لأمره الإمرار، ورغب في مصاهرة السلطان، وقلده طوق الامتنان.

قال: وكان السلطان قد سكنت نفسه للمقام وأراد ان تكون حركته بعد استكمال السكون، وعنده أولاده الأصاغر، والملك العزيز، والملك الظاهر بدمشق، والأفضل بمصر، فلما ورد نعي الخاتون وناصر الدين وخلا شبله أسد الدين بعده في العرين، وخيف على بلاده لصغر أولاده، واحتيج أيضا إلى الاحتياط على مافي خزائنه واستخراج دفائنه، وكذلك الخاتون خلفت أملاكا وتراثا، وأوقافا وأمتعة وأثاثا، لم يكن من الحركة بد، وقدم الكتب إلى البلاد بما صمم عليه عزمه، وأجرى به حكمه، وأمر بالاستعداد لترقب الاستدعاء ووصاهم في سائر المقاصد والأنحاء وكتب إلى ولد ناصر الدين:« قد عرفنا المصاب بوالده رحمه الله وعظم أجرنا وأجره فيه، وإن مضى لسبيله فولدنا أسد الدين أحياه الله نعم الخلف الصالح، وإن انتقل والده إلى دار البقاء فهو في مكانه المستقر من المجد والعلاء، والولايات والبلاد والمعاقل باقية عليه، مسلمة إليه، مقررة في يديه، ومامضى من والده رحمه الله إلا عينه وولدنا قرة العيون، وبه

استقرار السكون، والحمد لله الذي جبر به كسر المصاب وألبسنا وإياه أثواب الثواب، فليشرح ولدنا صدره، ولايشغل سره، ويعرف خواصة وأصحابه، وولاته ونوابه بحمص والرحبة وغيرهما أنهم باقون على عادتهم»، وكان المندوب اليه القاضي نجم الدين أبو البركات بن الشيخ شرف الدين ابن أبي عصرون، ولم يفارق الخدمة السلطانية في هذه السنة.قال: وفي هذه السنة لما كنا على ميافارقين، وقد فتحناها ورد للسلطان مثال شريف إمامي ناصري بتفويض ولاية ماردين والحصن، وهو حصن كيفا والعلامة الشريفة الناصرية في ثاني سطره بالقلم الشريف« الناصر لدين الله».

قلت: وفيها في جمادى الأولى توفي الحافظ أبو موسى محمد بن عمر ابن أحمد المديني الأصبهاني محدث مشهور له تصانيف كثيرة، وفي هذه السنة توفي بمصر في شعبان الشيخ جمال الدين أبو الفتح أبو الثناء أبو محمد، محمود بن أحمد بن علي بن أحمد بن علي بن أحمد بن المحمودي، المعروف بابن الصابوني، ودفن بسارية من القرافة ومولده ببغداد سنة خمسمائة، وجد أبيه لأمه شيخ الاسلام أبو عثمان اسماعيل بن عبد الرحمن الصابوني، فبه عرف بابن الصابوني، وكان جده صحب السلطان محمود ابن محمد بن ملكشاه، ونسبته بالمحمودي اليه، ودخل ابن الصابوني هذا دمشق زمن الملك العادل نور الدين محمود بن زنكي رحمه الله، واجتمع به ونزل الى زيارته وسأله الاقامة بدمشق، فذكر له ان قصده زيارة الإمام الشافعي رضي الله عنه بمصر، فجهزه وسيره صحبة الأمير نجم الدين أيوب والد صلاح الدين سنة سار إلى ولده بمصر، وصار بينه وبينه صحبة أكيدة، ومحبة عظيمة، بحيث أنه ماكان يصبر عنه ساعة واحدة، وأقبل عليه، ولما ملك ولده الملك الناصر صلاح الدين رحمه الله مصر لم يمكنه من العود إلى الشام، ووقف عليه وقفا بالديار المصرية، وعلى عقبه وهو باق بأيديهم إلى الآن.

وقرأت بخط صلاح الدين رحمه الله ماكتبه في حقه إلى الملك العادل لما كان نائبه بمصر: « الأخ الأجل الملك العادل أدام الله دولته، غير خاف عنه قضية الوقف الذي أوقفه الوالد نجم الدين تغمده الله برحمته ورضوانه على الشيخ الفقيه ابن الصابوني، وأنه لما جرى له من المخاصمة مع الشيخ الفقيه نجم الدين - يعني الخبوشاني - ماجرى اقتضت المصلحة لتسكين الفتنة وقطع الكلام انتقاله إلى موضع غيره، لتنقطع الفتنة والخصومة بينهم بأمرنا إليه مع بقاء الوقف في تصرفه وتصرف من عنده من الفقهاء، والأخ الأجل الملك العادل يتقدم بمراعاته وحفظ جانبه وتمكينه من التصرف في الوقف المشار إليه، ومنع من يعترضه فيه بوجه من وجوه التأويلات، وحسم مادة الشكوى منه ممن يتعدى عليه إن شاء الله تعالى».

وقرأت بخط الشيخ عمر الملا الموصلي رحمه الله كتابا كتبه إلى ابن الصابوني هذا بشيراز يطلب منه فيه الدعاء، ويصف حاله أوله أخوه عمر بن محمد الملا يقول فيه: « وبعد فالذي يتطلع إليه من معرفة أحوالي فجملتها خير وسلامة، غارق في بحار النعماء، ومغمور في هواطل الآلاء غير أن أيدي البلوى بالنقم ترفعني تارة إلى مقام الصديقين، وتضعني تارة أخرى إلى مقامات المتخلفين ومع هذا فطلب النجاة لايفتر، والحركة في طلب الفوز لاتسكن، والعمر ينقضي بالعنا والمنى، وما أشبه حالي بحال القائل:

آمل في يومي إدراك المنى ... حتى إذا ولى تمنيت غدا

لاوطرا أقضي من الدنيا ولا ... أفعل للأخرى فعال السعدا

والعمر يمضي بين هاتين فلا ... ضلالة خالصة ولاهدى

يا أخي ما أخبرتك بأحوالي هذه إلاّ رجاء أن تتحرك همتك لي بالشفقة والرأفـة، فتدعو اللـه لي بقلب حاضر منور بنـور الشفقة والرحمة، ويـؤمن على دعـائك مـن خضر مـن السـادة الأخـوان، وتقـول اللهـم عبـدك الضعيف عمر بن محمد الملاء يدعوك ويقول:

لاتهـنـي بعـد إكـرامـك لي
فشـديـد عـادة منقطعـة

وقد توسـل بنا إليك نسألـك أن تبلغه آماله، وإن تميتـه موت الشهدا، وتحشره في زمـرة السعـدا، وأن تجعـل خير عمـره آخـره ، وخير أعمالـه خواتمها، وخير أيامه يوما يلقاك فيه».

ثم دخلت

سنة اثنتين وثمانين

قال العماد: فرحل السلطان إلى الشام، وودع مظفر الدين صاحب حران من الفرات، ورحل صوب حلب والعادل صاحبها على المقدمة، وقد هيأ أسباب التكرمة، فوصل حلب في العشر الأوسط من المحرم، ثم رتب العادل في حلب نوابه، وصحب السلطان فوصلوا حماة، وفيها نائب تقي الدين ناصر الدين منكورس بن ناصح الدين خمارتكين، وهو صاحب بوقبيس، وقد جمع النهضة والأمانة، وصل السلطان إلى حمص وقرر أمر المجاهد أسد الدين أبا الحارث شيركوه بن ناصر الدين، وكان عمره إذ ذاك ثلاث عشرة سنة سماه أبوه باسم جده ولقبه بلقبه، وكتب له منشورا بما قرر عليه من البلاد، وذلك بحمص وسلمية وتدمر ووادي بني حصين والرحبة وزلبيا، وكتب منشورا آخر بإسقاط المكوس بالرحبة وفيه:« وهذا دأب السلطان في جميع البلاد اقتصر منها على الرسوم التي يبيحها الشرع، وهي الخراج والأجور والزرع» واعتمد على الأمير الحاجب بدر الدين ابراهيم بن شروة الهكاري في ولاية قلعة حمص، ثم نقله إلى قلعة حلب واليا بها ست سنين ورتبه العزيز في آخر عهد السلطان بقوص.

قال: ورتب السلطان مع أسد الدين بحمص أميرا من الأسدية يعرف بأرسلان بوغا، فقدم على أصحابه بتولي مصالح بابه، حتى تفرد الأسد بالأمر لسداده، وبلغ مدى رشاده، ونعت بالملك المجاهد، ونهض بمحامل المجاهد.

قال: وأقمنا بحمص أياما حتى استعرضنا خزائن ناصر الدين ، وقسمنا ميراثه، وكانت أخت السلطان الحسامية زوجة ناصر الدين وهي

مستحقة للثمن، والباقي بين البنت والابن، وخلف عينا وورقا مجتمعا ومفترقا، وبلغ التراث في الملك والعين والأثاث ماعظم عن أن يقدر بمقدار، وأناف عن ألف ألف دينار، فما اعاره السلطان طرفه، بل تركه على أهل التركة.

قال: ولما شاع بدمشق خبر دنونا احتفل أهلها، واجتمع بالمسار شملها، وطلعت أعيانها، ونبعت عيونها، ووافت أبكارها وعونها، وظهر مكنونها ومخزونها، وترامت إلينا بثمراتها ومكرماتها سهولها وحزونها، ودخلنا المدينة وزينة الدنيا خارجة، وسكينة النعمى فارجه، ودمشق كالهدي مزفوفة، وبالهدى محفوفة، وبالحسن موصوفة، وكان الناس قد ساءهم خبر المرض، فسرهم عيان السلامة، وأسهرهم الهم للاشفاق فراجعوا للشفاء كرى الكرامة، وماألذ الرجاء بعد الابلاس، والثرى غب الافلاس، والأمل عقيب الياس، وإنهم ظفروا في حالة الايحاش بالايناس، وأمنوا بمشاهدة الأنوار السلطانية حنادس الوسواس، واجتمع السلطان في القلعة بأهله، وأقلع المرجف عن جهله، وحسنت الأحوال، وأمنت الأهوال، وشاهدنا الفضل والكرم بالمشاهدة الفاضلية الكريمة، وعدنا إلى عادة السعادة القديمة، واجتمع السلطان به فبثه أسراره، واستزال بصفو رأيه أكداره، ودخل جنته وجنى ثماره، وزاره مرة واستنزاره، وراجعه في مصالح دولته واستشاره، وجلس السلطان في دار العدل لكشف المظالم، وبث المكارم،وإحياء المعالم، وإقامة مواسم المراسم.

وقال القاضي ابن شداد: ولما وجد السلطان نشاطا من مرضه رحل يطلب جهة حلب، وكان وصوله إليها يوم الأحد رابع عشر المحرم، وكان يوما مشهودا لشدة فرح الناس بعافيته ولقائه، فأقام بها أربعة أيام، ثم رحل في ثامن عشرة نحو دمشق، فلقيه أسد الدين شيركوه بن محمد بن شيركوه بتل السلطان، ومعه أخته وقد صحبه خدمة عظيمة، وقرب

-٨٤٦٨-

زائدة، ومن عليه بحمص، وأقام أياما يعتبر تركة أبيه، ثم سار يطلب جهة دمشق، وكان دخوله إليها في ثاني ربيع الأول، وكان يوما لم ير مثله فرحا وسرورا.

المحتوى